

ألف ليلة وليلة

(الجزء الرابع)



ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلي يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٠٨ ١

صدر هذا الكتاب في تاريخ غير معروف.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١٥	فلما كانت الليلة ٥٣٧
١٧	فلما كانت الليلة ٥٣٨
٢١	فلما كانت الليلة ٥٣٩
٢٥	فلما كانت الليلة ٥٤٠
٢٧	فلما كانت الليلة ٥٤١
٢٩	فلما كانت الليلة ٥٤٢
٣١	فلما كانت الليلة ٥٤٣
٣٣	فلما كانت الليلة ٥٤٤
٣٧	فلما كانت الليلة ٥٤٥
٣٩	فلما كانت الليلة ٥٤٦
٤٣	فلما كانت الليلة ٥٤٧
٤٧	فلما كانت الليلة ٥٤٨
٥١	فلما كانت الليلة ٥٤٩
٥٣	فلما كانت الليلة ٥٥٠
٥٥	فلما كانت الليلة ٥٥١
٥٩	فلما كانت الليلة ٥٥٢
٦١	فلما كانت الليلة ٥٥٣
٦٣	فلما كانت الليلة ٥٥٤
٦٧	فلما كانت الليلة ٥٥٥
٦٩	فلما كانت الليلة ٥٥٦

ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)

٧١	فلما كانت الليلة ٥٥٧
٧٣	فلما كانت الليلة ٥٥٨
٧٧	فلما كانت الليلة ٥٥٩
٧٩	فلما كانت الليلة ٥٦٠
٨١	فلما كانت الليلة ٥٦١
٨٥	فلما كانت الليلة ٥٦٢
٨٧	فلما كانت الليلة ٥٦٣
٨٩	فلما كانت الليلة ٥٦٤
٩٣	فلما كانت الليلة ٥٦٥
٩٥	فلما كانت الليلة ٥٦٦
٩٧	فلما كانت الليلة ٥٦٧
٩٩	فلما كانت الليلة ٥٦٨
١٠٣	فلما كانت الليلة ٥٦٩
١٠٧	فلما كانت الليلة ٥٧٠
١١١	فلما كانت الليلة ٥٧١
١١٣	فلما كانت الليلة ٥٧٢
١١٧	فلما كانت الليلة ٥٧٣
١٢١	فلما كانت الليلة ٥٧٤
١٢٥	فلما كانت الليلة ٥٧٥
١٢٧	فلما كانت الليلة ٥٧٦
١٣١	فلما كانت الليلة ٥٧٧
١٣٥	فلما كانت الليلة ٥٧٨
١٣٩	فلما كانت الليلة ٥٧٩
١٤٣	فلما كانت الليلة ٥٨٠
١٤٥	فلما كانت الليلة ٥٨١
١٤٩	فلما كانت الليلة ٥٨٢
١٥٥	فلما كانت الليلة ٥٨٣
١٥٧	فلما كانت الليلة ٥٨٤
١٦١	فلما كانت الليلة ٥٨٥

المحتويات

١٦٣	فلما كانت الليلة ٥٨٦
١٦٥	فلما كانت الليلة ٥٨٧
١٦٧	فلما كانت الليلة ٥٨٨
١٦٩	فلما كانت الليلة ٥٨٩
١٧١	فلما كانت الليلة ٥٩٠
١٧٣	فلما كانت الليلة ٥٩١
١٧٥	فلما كانت الليلة ٥٩٢
١٧٧	فلما كانت الليلة ٥٩٣
١٧٩	فلما كانت الليلة ٥٩٤
١٨١	فلما كانت الليلة ٥٩٥
١٨٥	فلما كانت الليلة ٥٩٦
١٨٧	فلما كانت الليلة ٥٩٧
١٩١	فلما كانت الليلة ٥٩٨
١٩٥	فلما كانت الليلة ٥٩٩
١٩٩	فلما كانت الليلة ٦٠٠
٢٠١	فلما كانت الليلة ٦٠١
٢٠٣	فلما كانت الليلة ٦٠٢
٢٠٧	فلما كانت الليلة ٦٠٣
٢١١	فلما كانت الليلة ٦٠٤
٢١٣	فلما كانت الليلة ٦٠٥
٢١٥	فلما كانت الليلة ٦٠٦
٢١٧	فلما كانت الليلة ٦٠٧
٢١٩	فلما كانت الليلة ٦٠٨
٢٢٣	فلما كانت الليلة ٦٠٩
٢٢٥	فلما كانت الليلة ٦١٠
٢٢٧	فلما كانت الليلة ٦١١
٢٢٩	فلما كانت الليلة ٦١٢
٢٣٣	فلما كانت الليلة ٦١٣
٢٣٥	فلما كانت الليلة ٦١٤

ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)

٢٣٧	فلما كانت الليلة ٦١٥
٢٤١	فلما كانت الليلة ٦١٦
٢٤٥	فلما كانت الليلة ٦١٧
٢٤٧	فلما كانت الليلة ٦١٨
٢٤٩	فلما كانت الليلة ٦١٩
٢٥١	فلما كانت الليلة ٦٢٠
٢٥٥	فلما كانت الليلة ٦٢١
٢٥٧	فلما كانت الليلة ٦٢٢
٢٥٩	فلما كانت الليلة ٦٢٣
٢٦١	فلما كانت الليلة ٦٢٤
٢٦٥	فلما كانت الليلة ٦٢٥
٢٦٩	فلما كانت الليلة ٦٢٦
٢٧٣	فلما كانت الليلة ٦٢٧
٢٧٧	فلما كانت الليلة ٦٢٨
٢٧٩	فلما كانت الليلة ٦٢٩
٢٨٣	فلما كانت الليلة ٦٣٠
٢٨٥	فلما كانت الليلة ٦٣١
٢٨٧	فلما كانت الليلة ٦٣٢
٢٨٩	فلما كانت الليلة ٦٣٣
٢٩١	فلما كانت الليلة ٦٣٤
٢٩٥	فلما كانت الليلة ٦٣٥
٢٩٧	فلما كانت الليلة ٦٣٦
٢٩٩	فلما كانت الليلة ٦٣٧
٣٠١	فلما كانت الليلة ٦٣٨
٣٠٣	فلما كانت الليلة ٦٣٩
٣٠٥	فلما كانت الليلة ٦٤٠
٣٠٧	فلما كانت الليلة ٦٤١
٣٠٩	فلما كانت الليلة ٦٤٢
٣١١	فلما كانت الليلة ٦٤٣

المحتويات

٣١٣	فلما كانت الليلة ٦٤٤
٣١٥	فلما كانت الليلة ٦٤٥
٣١٧	فلما كانت الليلة ٦٤٦
٣٢١	فلما كانت الليلة ٦٤٧
٣٢٣	فلما كانت الليلة ٦٤٨
٣٢٥	فلما كانت الليلة ٦٤٩
٣٢٧	فلما كانت الليلة ٦٥٠
٣٢٩	فلما كانت الليلة ٦٥١
٣٣١	فلما كانت الليلة ٦٥٢
٣٣٣	فلما كانت الليلة ٦٥٣
٣٣٥	فلما كانت الليلة ٦٥٤
٣٣٧	فلما كانت الليلة ٦٥٥
٣٣٩	فلما كانت الليلة ٦٥٦
٣٤١	فلما كانت الليلة ٦٥٧
٣٤٣	فلما كانت الليلة ٦٥٨
٣٤٧	فلما كانت الليلة ٦٥٩
٣٤٩	فلما كانت الليلة ٦٦٠
٣٥١	فلما كانت الليلة ٦٦١
٣٥٣	فلما كانت الليلة ٦٦٢
٣٥٥	فلما كانت الليلة ٦٦٣
٣٥٧	فلما كانت الليلة ٦٦٤
٣٥٩	فلما كانت الليلة ٦٦٥
٣٦١	فلما كانت الليلة ٦٦٦
٣٦٣	فلما كانت الليلة ٦٦٧
٣٦٥	فلما كانت الليلة ٦٦٨
٣٦٧	فلما كانت الليلة ٦٦٩
٣٦٩	فلما كانت الليلة ٦٧٠
٣٧١	فلما كانت الليلة ٦٧١
٣٧٣	فلما كانت الليلة ٦٧٢

ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)

٣٧٥	فلما كانت الليلة ٦٧٣
٣٧٧	فلما كانت الليلة ٦٧٤
٣٧٩	فلما كانت الليلة ٦٧٥
٣٨١	فلما كانت الليلة ٦٧٦
٣٨٣	فلما كانت الليلة ٦٧٧
٣٨٧	فلما كانت الليلة ٦٧٨
٣٨٩	فلما كانت الليلة ٦٧٩
٣٩١	فلما كانت الليلة ٦٨٠
٣٩٥	فلما كانت الليلة ٦٨١
٣٩٩	فلما كانت الليلة ٦٨٢
٤٠١	فلما كانت الليلة ٦٨٣
٤٠٣	فلما كانت الليلة ٦٨٤
٤٠٧	فلما كانت الليلة ٦٨٥
٤٠٩	فلما كانت الليلة ٦٨٦
٤١١	فلما كانت الليلة ٦٨٧
٤١٥	فلما كانت الليلة ٦٨٨
٤١٩	فلما كانت الليلة ٦٨٩
٤٢١	فلما كانت الليلة ٦٩٠
٤٢٣	فلما كانت الليلة ٦٩١
٤٢٧	فلما كانت الليلة ٦٩٢
٤٢٩	فلما كانت الليلة ٦٩٣
٤٣٣	فلما كانت الليلة ٦٩٤
٤٣٥	فلما كانت الليلة ٦٩٥
٤٣٩	فلما كانت الليلة ٦٩٦
٤٤٣	فلما كانت الليلة ٦٩٧
٤٤٧	فلما كانت الليلة ٦٩٨
٤٤٩	فلما كانت الليلة ٦٩٩
٤٥٣	فلما كانت الليلة ٧٠٠
٤٥٧	فلما كانت الليلة ٧٠١

المحتويات

٤٥٩	فلما كانت الليلة ٧٠٢
٤٦١	فلما كانت الليلة ٧٠٣
٤٦٥	فلما كانت الليلة ٧٠٤
٤٦٩	فلما كانت الليلة ٧٠٥
٤٧١	فلما كانت الليلة ٧٠٦
٤٧٣	فلما كانت الليلة ٧٠٧
٤٧٧	فلما كانت الليلة ٧٠٨
٤٧٩	فلما كانت الليلة ٧٠٩
٤٨١	فلما كانت الليلة ٧١٠
٤٨٥	فلما كانت الليلة ٧١١
٤٨٩	فلما كانت الليلة ٧١٢
٤٩١	فلما كانت الليلة ٧١٣
٤٩٣	فلما كانت الليلة ٧١٤
٤٩٧	فلما كانت الليلة ٧١٥
٥٠١	فلما كانت الليلة ٧١٦
٥٠٥	فلما كانت الليلة ٧١٧
٥٠٩	فلما كانت الليلة ٧١٨
٥١٣	فلما كانت الليلة ٧١٩
٥١٧	فلما كانت الليلة ٧٢٠
٥١٩	فلما كانت الليلة ٧٢١
٥٢٣	فلما كانت الليلة ٧٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الباقي وكلُّ من عليها فان، العظيم الذي حارت لإدراك كُنْهِ صفاته العقول والأذهان، خالق الخلق ومُسَبِّب الأسباب ومُكَوِّن الأكوان، وصلى الله على سيدنا محمدٍ سيِّد ولد عدنان، وعلى آله وأصحابه في كلِّ وقتٍ وأوان. وبعد، فإن الله تعالى من عظيم قدرته، ولطيف صنعه وحكمته، دبَّر الأشياء والأمور، وحكم بتغيُّر الأزمان والدهور، وجعل حديث الأولين، عبرةً للأمم الآخرين، ليعتبروا بما مضى، ولينظروا إلى الفضا؛ فمن الأحاديث اللطيفة، والحكايات الظريفة، الكتاب المسمَّى بألف ليلة وليلة، وما فيه من الحكايات الغريبة، والنكات والنبذ العجيبة، التي تشتااق لسماعها النفوس، ولا يُجالسها عبوس، وهو في الحقيقة جدير بأن يكتب ولو بالذهب، وليس في ذلك من عجب، وهو هذا الكتاب النفيس الذي نحن بصددده، حتى وصلنا إلى العقد الثالث من نظم درره، بعدما تَمَّت شهرزاد بنت الوزير من الليالي بعد الخمسمائة ستًّا وثلاثين، وكَمَلت حكايات حاسب كريم الدين. قالت: وليس هذا بأعجب من حكاية السندباد. قال: وكيف ذلك؟

فلما كانت الليلة ٥٣٧

حكاية سندباد البحري

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الحمّال لما حطَّ حملته على تلك المصطبة ليستريح ويشم الهواء، خرج عليه من ذلك الباب نسيم رائق، ورائحة زكية، فاستلذَّ الحمّال لذلك، وجلس على جانب المصطبة، فسمع في ذلك المكان نغمَ أوتارٍ وعودٍ، وأصواتاً مطربة، وأنواعٍ إنشادٍ معربة، وسمع أيضاً أصواتَ طيور تناعي وتسبحُ الله تعالى باختلاف الأصوات وسائر اللغات؛ من قماري وهزار وشحارير وبلبل وفاخت وكيروان، فعند ذلك تعجَّب في نفسه، وطرب طرباً شديداً، فتقدَّم إلى ذلك الباب فوجد داخل البيت بستاناً عظيماً، ونظر فيه غلماناً وعبيداً، وخدمًا وحشماً، وشيئاً لا يوجد إلا عند الملوك والسلطين، وبعد ذلك هبت عليه رائحة أطعمة طيبة زكية من جميع الألوان المختلفة والشراب الطيب، فرفع طرفه إلى السماء، وقال: سبحانك يا رب يا خالق يا رازق، ترزق مَنْ تشاء بغير حساب، اللهم إني أستغفرك من جميع الذنوب، وأتوب إليك من العيوب، يا رب لا اعتراض عليك في حكمك وقدرتك، فإنك لا تُسأل عمّا تفعل، وأنت على كل شيء قدير، سبحانك تُغني مَنْ تشاء، وتُفقّر مَنْ تشاء، وتُعزّز مَنْ تشاء، وتذلّ مَنْ تشاء، لا إله إلا أنت، ما أعظم وما أقوى سلطانك! وما أحسن تدبيرك! قد أنعمتَ على مَنْ تشاء من عبادك، فهذا المكان صاحبه في غاية النعمة، وهو متلذذ بالروائح اللطيفة، والمأكّل اللذيذة، والمشارب الفاخرة في سائر الصفات، وقد حكمتَ في خَلْقِكَ بما تريد، وما قدّرتَه عليهم؛ فمنهم تعبان، ومنهم مستريح، ومنهم سعيد، ومنهم مَنْ هو مثلي في غاية التعب والذل. وأنشد يقول:

الظِّلُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَخْصُهُ فَظِلُّ الشَّقِيِّ كَمَا هُوَ ظِلِّي
وَأَصْبَحْتُ فِي تَعَبٍ زَائِدٍ وَأَمْرِي عَجِيبٌ وَقَدْ زَادَ حِمْلِي

وَمَا حَمَلَ الدَّهْرُ يَوْمًا كَحِمْلِي	وَعَيَّرِي سَعِيدٌ بِلَا شَقْوَةٍ
بِبَسْطٍ وَعِزٍّ وَشَرْبٍ وَأَكْلِ	يَنْعَمُ فِي عَيْشِهِ دَائِمًا
أَنَا مِثْلُ هَذَا وَهَذَا كَمِثْلِي	وَكُلُّ الْخَلَائِقِ مِنْ نُطْفَةٍ
وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ خَمَرٍ وَخَلٍّ	وَلَكِنَّ شَتَّانَ مَا بَيْنَنَا
فَأَنْتَ حَكِيمٌ حَكَمْتَ بِعَدْلٍ	وَلَسْتُ أَقُولُ عَلَيْكَ فِرًى

فلما فرغ السندباد الحَمَّال من شعره ونظمه، أراد أن يحمل حملته ويسير؛ إذ قد طلع عليه من ذلك الباب غلام صغير السن، حسن الوجه، مليح القد، فاخر الملابس، فقبض على يد الحمال، وقال له: ادخل كلم سيدي، فإنه يدعوك. فأراد الحَمَّال الامتناع من الدخول مع الغلام، فلم يقدر على ذلك؛ فحطَّ حملته عند البواب في دهليز المكان ودخل مع الغلام داخل الدار؛ فوجد دارًا مليحة، وعليها أنس ووقار، ونظر إلى مجلس عظيم، فنظر فيه من السادات الكرام، والموالي العظام، وفيه من جميع أصناف الزهر، وجميع أصناف المشموم، ومن أنواع النقل والفواكه، وشيئًا كثيرًا من أصناف الأطعمة النفيسة، وفيه مشروب من خواص دوالي الكروم، وفيه آلات السماع والطرب من أصناف الجواري الحسان، كلُّ منهم في مقامه على حسب الترتيب، وفي صدر ذلك المجلس رجل عظيم محترم، قد لكزه الشيب في عوارضه، وهو مليح الصورة، حسن المنظر، وعليه هيبة ووقار، وعزٌّ وافتخار؛ فعند ذلك بُهت السندباد الحَمَّال، وقال في نفسه: والله إنَّ هذا المكان من بقع الجنان، أو أنه يكون قصرَ ملكٍ أو سلطان. ثم إنه تأدَّب وسلَّم عليهم، ودعا لهم، وقبَّل الأرض بين أيديهم، ووقف وهو منكس رأسه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٣٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد الحَمَّال لما قَبَّل الأرض بين أيديهم، وقف وهو منكس الرأس متخشَّع، فأذِن له صاحب المكان بالجلوس، فجلس وقد قَرَّبَه إليه، وصار يُؤانسُه بالكلام، ويرحُب به، ثم إنه قَدَّمَ له شيئاً من أنواع الطعام المفتخر الطيب النفيس، فتقدَّمَ السندباد الحمال، وسمَّى وأكَل حتى اكتفى وشبع، وقال: الحمد لله على كل حال. ثم إنه غسل يَدَيْه، وشكرهم على ذلك، فقال صاحب المكان: مرحباً بك، ونهارك مبارك، فما يكون اسمك؟ وما تعاني من الصنائع؟ فقال له: يا سيدي، اسمي السندباد الحَمَّال، وأنا أحمل على رأسي أسباب الناس بالأجرة. فتبسَّمتُ صاحبُ المكان، وقال له: اعلم يا حَمَّال أن اسمك مثل اسمي، فأنا السندباد البحري، ولكن يا حَمَّال قصدي أن تُسمِعني الأبيات التي كنتَ تُنشدها وأنت على الباب. فاستحى الحَمَّال، وقال له: بالله عليك لا تؤاخذني، فإن التعب والمشقة، وقَلَّة ما في اليد تُعلِّم الإنسان قَلَّة الأدب والسفه. فقال له: لا تستح؛ فأنت صرتَ أخي، فأُنشِد الأبيات، فإنها أعجبتني لما سمعتها منك، وأنت تنشدها على الباب. فعند ذلك أنشده الحَمَّال تلك الأبيات فأعجبتَه، وطرب لسماعها، وقال له: يا حَمَّال، اعلم أنَّ لي قصة عجيبة، وسوف أخبرك بجميع ما صار لي، وما جرى لي من قبل أن أصير في هذه السعادة، وأجلس في هذا المكان الذي تراني فيه، فإني ما وصلتُ إلى هذه السعادة وهذا المكان إلا بعد تعب شديد، ومشقة عظيمة، وأهوال كثيرة، وكم قاسيتُ في الزمن الأول من التعب والنصب! وقد سافرت سبع سفرات، وكل سفرة لها حكاية عجيبة تُحَيِّر الفكر، وكل ذلك بالقضاء والقدر، وليس من المكتوب مفر ولا مهرب.

الحكاية الأولى وهي أول السفرات؛ اعلّموا يا سادة يا كرام أنه كان لي أب تاجر، وكان من أكابر الناس والتجار، وكان عنده مال كثير، ونوال جزيل، وقد مات وأنا ولد

صغير، وخلف لي مالاً وعقاراً وضياعاً، فلما كبرت وضعت يدي على الجميع، وقد أكلت أكلاً مليحاً، وشربت شرباً مليحاً، وعاشت الشباب، وتجملت بلبس الثياب، ومشيت مع الخلان والأصحاب، واعتقدت أن ذلك يدوم لي وينفعني، ولم أزل على هذه الحالة مدة من الزمان، ثم إنني رجعت إلى عقلي، وأفقت من غفلتي، فوجدت مالي قد مال، وحالي قد حال، وقد ذهب جميع ما كان معي، ولم أستفق لنفسي إلا وأنا مرعوب مدهوش، وقد تفكرتُ حكاية كنتُ أسمعها سابقاً؛ وهي حكاية سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام في قوله: «ثلاثة خير من ثلاثة: يوم الممات خير من يوم الولادة، وكلب حي خير من سبع ميت، والقبر خير من القصر.» ثم إنني قمت وجمعت ما كان عندي من آثار وملبوس وبعته، ثم باعت عقاري وجميع ما تملك يدي، فجمعت ثلاثة آلاف درهم، وقد خطر ببالي السفر إلى بلاد الناس، وتذكرتُ كلام بعض الشعراء حيث قال:

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَا سَهَرَ اللَّيَالِي
يَغُوصُ الْبُحْرُ مَنْ طَلَبَ اللَّالِي وَيَحْظَى بِالسَّيَادَةِ وَالنَّوَالِ
وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ أَضَاعَ الْعُمْرَ فِي طَلَبِ الْمُحَالِ

فعند ذلك هممت فقممت واشترت لي بضاعة ومتاعاً وأسباباً وشيئاً من أغراض السفر، وقد سمحت لي نفسي بالسفر في البحر، فنزلت المركب، وانحدرت إلى مدينة البصرة مع جماعة من التجار، وسرنا في البحر مدة أيام وليالٍ، وقد مررنا بجزيرة بعد جزيرة، ومن بحر إلى بحر، ومن بر إلى بر، وفي كل مكان مررنا به نبيع ونشتري ونقايط بالبضائع فيه، وقد انطلقنا في سِرِّ البحر إلى أن وصلنا إلى جزيرة كأنها روضة من رياض الجنة، فأرسل بنا صاحب المركب على تلك الجزيرة، ورمى مراسيها، ومدَّ السقالة، فنزل جميع من كان في المركب في تلك الجزيرة، وقد عملوا لهم كوانين، وأوقدوا فيها النار، واختلفت أشغالهم، فمَن صار يطبخ، ومَنهم مَن صار يغسل، ومَنهم مَن صار يتفرج، وكنت أنا من جملة المتفرجين في جوانب الجزيرة، وقد اجتمعت الركاب على أكل وشرب، ولهو ولعب؛ فبينما نحن على تلك الحالة، وإذا بصاحب المركب واقف على جانبها، وصاح بأعلى صوته: يا رُكَّاب السلامة، أسرعوا واطلعوا إلى المركب، وبادروا إلى الطلوع، واتركوا أسبابكم، واهربوا بأرواحكم، وفوزوا بسلامة أنفسكم من الهلاك، فإن هذه الجزيرة التي أنتم عليها ما هي جزيرة، وإنما هي سمكة كبيرة رست في وسط البحر، فبنى عليها الرمل فصارت مثل الجزيرة، وقد نبتت عليها الأشجار من قديم الزمان،

فلما كانت الليلة ٥٣٨

فلما أوقدتم عليها النار أَحَسَّتْ بالسخونة فَتَحَرَّكْتُ، وفي هذا الوقت تنزل بكم في البحر فتغرقون جميعاً، فاطلبوا النجاة لأنفسكم قبل الهلاك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٣٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن ريس المركب لما صاح على الركاب وقال لهم: اطلبوا النجاة لأنفسكم قبل الهلاك، وتركوا الأسباب. وسمع الركاب كلام ذلك الرئيس، فأسرعوا وبادروا بالطلوع إلى المركب، وتركوا الأسباب، وحوادثهم، ودسوتهم، وكوانينهم، فمنهم من لحق المركب، ومنهم من لم يلحقها، وقد تحرّكت تلك الجزيرة، ونزلت إلى قرار البحر بجميع ما كان عليها، وانطبق عليها البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، وكنت أنا من جملة من تخلف في الجزيرة، فغرقت في البحر مع جملة من غرق، ولكن الله تعالى أنقذني ونجّاني من الغرق، ورزقني بقصعة خشب كبيرة من التي كانوا يغسلون فيها، فمسكتها بيدي، وركبتها من حلاوة الروح، ورفصت في الماء برجليّ مثل المجاديف، والأمواج تلعب بي يميناً وشمالاً، وقد نشر الرئيس قلاع المركب، وسافر بالذين طلع بهم في المركب، ولم يلتفت لمن غرق منهم. وما زلت أنظر إلى ذلك المركب حتى خفي عن عيني، وأيقنت بالهلاك، ودخل عليّ الليل وأنا على هذه الحالة، فمكثت على ما أنا فيه يوماً وليلة، وقد ساعدني الريح والأمواج إلى أن رست بي تحت جزيرة عالية، وفيها أشجار مطلة على البحر، فمسكت فرعاً من شجرة عالية، وتعلّقتُ به بعدما أشرفت على الهلاك، وتمسّكتُ به إلى أن طلعت إلى الجزيرة، فوجدتُ في رجليّ خدلاً، وأثر أكل السمك في بطونهما، ولم أدِرِ بذلك من شدة ما كنتُ فيه من الكرب والتعب، وقد ارتميت في الجزيرة وأنا مثل الميت، وغبت عن وجودي، وغرقت في دهشتي، ولم أزل على هذه الحالة إلى ثاني يوم، وقد طلعت الشمس عليّ، وانتبهتُ في الجزيرة، فوجدتُ رجليّ قد ورمتا، فصرتُ حزيناً على ما أنا فيه؛ فتارة أرحف، وتارة أحبو على ركبتيّ. وكان في الجزيرة فواكه كثيرة، وعيون من الماء العذب، فصرت أكل من تلك الفواكه، ولم أزل على هذه الحالة مدة أيام وليالٍ، ولقد انتعشت نفسي، ورَدَّتْ لي روحي، وقويت حركتي، وصرت أتفكّر وأمشي في جانب الجزيرة، وأتفرّج بين الأشجار على ما خلق الله تعالى، وقد عملتُ لي عكازاً من تلك الأشجار أتوكأ عليه.



ليست جزيرة، وإنما هي سمكة كبيرة رست في وسط البحر، والآن تحرّكت.

ولم أزل على هذه الحالة إلى أن تمشيت يوماً من الأيام في جانب الجزيرة، فلاح لي شبح من بعيد، فظننت أنه وحش، أو أنه دابة من دواب البحر، فتمشيتُ إلى نحوه، ولم أزل أتفرج عليه، وإذا هو فرس عظيم المنظر، مربوط في جانب الجزيرة على شاطئ البحر، فدنوتُ منه فصرخ عليّ صرخة عظيمة، فارتعبتُ منه، وأردتُ أن أرجع، وإذا برجل خرج من تحت الأرض، وصاح عليّ وتبعني، وقال لي: مَنْ أنت؟ ومن أين جئت؟ وما سبب

وصولك إلى هذا المكان؟ فقلت له: يا سيدي، اعلم أنني رجل غريب، وكنت في مركب فغرقتُ أنا وبعض من كان فيها، فرزقني الله بقصعة خشب، فركبتها وعامت بي إلى أن رمتني الأمواج في هذه الجزيرة. فلما سمع كلامي أمسكني من يدي، وقال لي: امش معي. فسررتُ معه فنزل بي في سرداب تحت الأرض، ودخل بي إلى قاعة كبيرة تحت الأرض، وأجلسني في صدر تلك القاعة، وجاء لي بشيء من الطعام، وأنا كنتُ جائعًا، فأكلتُ حتى شبعت واكتفيت، وارتاحت نفسي، ثم إنه سألني عن حالي، وما جرى لي، فأخبرته بجميع ما كان من أمري من المبتدأ إلى المنتهى، فتعجب من قصتي، فلما فرغت من حكايتي قلت: بالله عليك يا سيدي لا تؤاخذني، فأنا قد أخبرتك بحقيقة حالي، وما جرى لي، وأنا أشتهي منك أن تخبرني من أنت؟ وما سبب جلوسك في هذه القاعة التي تحت الأرض؟ وما سبب ربط هذه الفرس على جانب البحر؟ فقال لي: اعلم أننا جماعة متفرقون في هذه الجزيرة على جوانبها، ونحن سياس الملك المهرجان، وتحت أيدينا جميع خيوله، وفي كل شهر عند القمر نأتي بالخيول الجياد، ونربطها في هذه الجزيرة من كل بكر، ونختفي في هذه القاعة تحت الأرض حتى لا يرانا أحد، فيجيء حصان من خيول البحر على رائحة تلك الخيل، ويطلع على البر، فيلتفت فلا يرى أحدًا، فيثب عليها ويقضي منها حاجته وينزل عنها، ويريد أخذها معه فلا تقدر أن تسير معه من الرباط، فيصيح عليها، ويضربها برأسه ورجليه ويصيح، فنسمع صوته، فنعلم أنه نزل عنها، فنطلع صارخين عليه، فيخاف منّا وينزل البحر والفرس تحمل منه وتلد مهرًا أو مهرة تساوي خزنة مال، ولا يوجد لها نظير على وجه الأرض، وهذا وقت طلوع الحصان، وإن شاء الله تعالى آخذك معي إلى الملك المهرجان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٤٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السائس قال للسندباد البحري: آخذك معي إلى الملك المهرجان، وأفرجك على بلادنا، واعلم أنه لولا اجتماعك علينا ما كنت ترى أحدًا في هذا المكان غيرنا، وكنت تموت كمدًا، ولا يدري بك أحد، ولكن أنا أكون سبب حياتك ورجوعك إلى بلادك. فدعوت له وشكرته على فضله وإحسانه، فبينما نحن في هذا الكلام، وإذا بالحصان قد طلع من البحر، وصرخ صرخة عظيمة، ثم وثب على الفرس، فلما فرغ غرضه منها نزل عنها، وأراد أخذها معه فلم يقدر، ورفضت وصاحت عليه، فأخذ الرجل السائس سيفًا بيده ودرقة، وطلع من باب تلك القاعة وهو يصيح على رففته ويقول: اطلعوا إلى الحصان. ويضرب بالسيف على الدرقة، فجاء جماعة بالرماح صارخين، فجفل منهم الحصان، وراح إلى حال سبيله، ونزل في البحر مثل الجاموس، وغاب تحت الماء، فعند ذلك جلس الرجل قليلًا، وإذا هو بأصحابه قد جاءوه، ومع كل واحد فرس يقودها، فنظروني عنده، فسألوني عن أمري، فأخبرتهم بما حكيته له، وقربوا مني، ومدوا السماط، وأكلوا وعزموا عليّ، فأكلت معهم.

ثم إنهم قاموا وركبوا الخيول، وأخذوني معهم، وركبوني على ظهر فرس وسافرنا، ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى مدينة الملك المهرجان، وقد دخلوا عليه وأعلموه بقصتي، فطلبني فأدخلوني عليه، وأوقفوني بين يديه، فسلمت عليه، فردّ عليّ السلام، ورحب بي وحياني بإكرام، وسألني عن حالي، فأخبرته بجميع ما حصل لي، وبكل ما رأيته من المبتدأ إلى المنتهى، فعند ذلك تعجّب مما وقع لي، وما جرى لي، وقال لي: يا ولدي، والله لقد حصل لك مزيد السلامة، ولولا طول عمرك ما نجوت من هذه الشدائد، ولكن الحمد لله على السلامة. ثم إنه أحسن إليّ، وأكرمني وقربني إليه، وصار يؤانسني بالكلام والملاطفة، وجعلني عنده عاملًا في ميناء البحر، وكاتبًا على كل مركب عبرت إلى البر، وصرت واقفًا

عنده لأقضي له مصالحه، وهو يحسن إليَّ وينفعني من كل جانب، وقد كساني كسوة مليحة فاخرة، وصرت مقدِّماً عنده في الشفاعات، وقضاء مصالح الناس، ولم أزل عنده مدة طويلة، وأنا كلما أشق على جانب البحر أسأل التجار المسافرين والبحريين عن ناحية مدينة بغداد؛ لعل أحداً يخبرني عنها، فأروح معه إليها، وأعود إلى بلادي، فلا يعرفها أحد، ولا يعرف مَنْ يروح إليها، وقد تحيّرتُ من ذلك، وسئمت من طول الغربة، ولم أزل على هذه الحالة مدةً من الزمان إلى أن جئت يوماً من الأيام، ودخلت على الملك المهرجان، فوجدت عنده جماعة من الهنود، فسلمتُ عليهم، فردُّوا عليَّ السلام ورحَّبوا بي، وقد سألوني عن بلادي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٤١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري قال: لما سألتهم عن بلادهم ذكروا لي أنهم أجناس مختلفة، فمنهم الشاكرية، وهم أشرف أجناسهم، لا يظلمون أحدًا ولا يقهرونه، ومنهم جماعة تُسمَّى البراهمة، وهم قوم لا يشربون الخمر أبدًا، وإنما هم أصحابُ حظٍّ وصفاء، ولهو وطرب وجمال، وخيول ومواشٍ، وأعلموني أن صنف اليهود يفترق على اثنتين وسبعين فرقة، فتعجَّبْتُ من ذلك غاية العجب، ورأيت في مملكة المهرجان جزيرة من جملة الجزائر يقال لها كابل، يُسمَع فيها ضرب الدفوف والطبول طول الليل، وقد أخبرنا أصحاب الجزائر والمسافرون بأنهم أصحاب الجد والرأي، ورأيت في ذلك البحر سمكةً طولها مائتا ذراع، ورأيت أيضًا سمكةً وجهه مثل وجه البوم، ورأيت في تلك السفرة كثيرًا من العجائب والغرائب ممَّا لو حكيتُ لكم لطال شرحه.

ولم أزل أتفرَّج على تلك الجزائر وما فيها إلى أن وقفت يومًا من الأيام على جانب البحر، وفي يدي عكاز على جري عاداتي، وإذا بمركب كبيرة قد أقبلت وفيها تجار كثير، فلما وصلتُ إلى ميناء المدينة وفرضتها، طوى الرئيس قلووعها، وأرسوها على البر، ومد السقالة، وأطلع البحرية جميع ما كان في تلك المركب إلى البر، وأبطئوا في تطليعه، وأنا واقف أكتب عليهم، فقلت لصاحب المركب: هل بقي في مركبك شيء؟ فقال: نعم يا سيدي، معي بضائع في بطن المركب، ولكن صاحبها غرق منَّا في البحر، في بعض الجزائر، ونحن قادمون في البحر، وصارت بضائعه معنا وديعة، فغرضنا أننا نبيعها، ونأخذ علمًا بثمانها لأجل أن نوصله إلى أهله في مدينة بغداد دار السلام. فقلت للرئيس: ما يكون اسم ذلك الرجل صاحب البضائع؟ فقال: اسمه السندباد البحري، وقد غرق منَّا في البحر. فلما سمعت كلامه حقَّقْتُ النظر فيه، فعرفته وصرخت عليه صرخة عظيمة، وقلت: يا رئيس، اعلم أنني أنا صاحب البضائع التي ذكرتها، وأنا السندباد البحري الذي نزلتُ من المركب

في الجزيرة مع جملةٍ مَنْ نزل من التجار، ولما تحرَّكَتِ السمكة التي كنَّا عليها وصحتَ أنت علينا طلع مَنْ طلع، وغرق الباقي، وكنت أنا من جملة مَنْ غرق، ولكن الله تعالى سلَّمَنِي ونجَّاني من الغرق بقصعة كبيرة من التي كان الركاب يغسلون فيها، فركبتها وصرت أرفص برجلي، وساعدني الريح والموج إلى أن وصلت إلى هذه الجزيرة، فطلعتُ فيها وأعانني الله تعالى، واجتمعت بسيَّاس الملك المهرجان، فحملوني معهم إلى أن أتوا بي إلى هذه المدينة، وأدخلوني عند الملك المهرجان، فأخبرته بقصتي فأنعم عليَّ، وجعلني كاتبًا على ميناء هذه المدينة، فصرتُ أنتفع بخدمته، وصار لي عنده قبول، وهذه البضائع التي معك بضائعي ورزقي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٤٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري حين قال للرئيس: هذه البضائع التي معك بضائعي ورزقي. قال الرئيس: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ما بقي لأحد أمانة ولا ذمة. قال: فقلت له: يا ريس، ما سبب ذلك؟ وأنت سمعتني أخبرتك بقصتي. فقال الرئيس: لأنك سمعتني أقول: إن معي بضائع صاحبها غرق، فتريد أن تأخذها بلا حق، وهذا حرام عليك، فإننا رأيناه لما غرق، وكان معه جماعة من الركاب كثيرون، وما نجا منهم أحد، فكيف تدّعي أنت أنك صاحب البضائع؟ فقلت له: يا ريس، اسمع قصتي، وافهم كلامي يظهر لك صدقي، فإن الكذب سيمة المنافقين.

ثم إنني حكيت للرئيس جميع ما كان مني من حين خرجت معه من مدينة بغداد إلى أن وصلنا تلك الجزيرة التي غرقنا فيها، وأخبرته ببعض أحوال جرّت بيني وبينه، فعند ذلك تحقّق الرئيس والتجار صدقي، فعرفوني وهنوني بالسلامة، وقالوا جميعاً: والله ما كنّا نصدق بأنك نجوت من الغرق، ولكن رزقك الله عُمرًا جديدًا. ثم إنهم أعطوني البضائع، فوجدنا اسمي مكتوبًا عليها، ولم ينقص منها شيء، ففتحتها وأخرجت منها شيئًا نفيسًا غالي الثمن، وحملته معي بحرية المركب، وطلعت به إلى الملك على سبيل الهدية، وأعلمتُ الملك بأن هذه المركب التي كنتُ فيها، وأخبرته أن بضائعي وصلت إليّ بالتمام والكمال، وأن هذه الهدية منها، فتعجّب الملك من ذلك الأمر غاية العجب، وظهر له صدقي في جميع ما قلته، وقد أحبّني محبةً شديدة، وأكرمني إكرامًا زائدًا، وقد وهب لي شيئًا كثيرًا في نظير هديتي، ثم بعث حمولي وما كان معي من البضائع، وكسبت فيها شيئًا كثيرًا، واشترت بضاعة وأسبابًا ومتاعًا من تلك المدينة، ولما أراد تجار المركب السفر، شحنت جميع ما كان معي في المركب، ودخلت عند الملك وشكرته على فضله وإحسانه، ثم إنني استأذنت في السفر إلى بلادي وأهلي، فودّعني وقد أعطاني شيئًا كثيرًا عند سفري من متاع تلك المدينة،

وقد ودَّعْتُهُ ونزلت المركب، وسافرنا بإذن الله تعالى، وخدمنا السعد، وساعدتنا المقادير. ولم نزل مسافرين ليلاً ونهاراً إلى أن وصلنا بالسلامة إلى مدينة البصرة، وطلعنا فيها، فأقمنا بها زمناً قليلاً، وقد فرحت بسلامتي وعودي إلى بلادي، وبعد ذلك توجَّهْتُ إلى مدينة بغداد دار السلام، ومعي من الحمول والمتاع والأسباب شيءٌ كثيرٌ له قيمة عظيمة، ثم جئتُ إلى حارتي، ودخلت بيتي، وقد جاء جميع أهلي وأصحابي، ثم إني اشتريتُ لي خدماً وحشماً، وممالك وسراري وعبيداً، حتى صار عندي شيءٌ كثير، وقد اشتريتُ لي دوراً وأماكنً وعقاراً أكثر من الأول. ثم إني عاشرتُ الأصحاب، ورافقتُ الخَلان، وصرتُ أكثر ما كنت عليه في الزمن الأول، وقد نسيت جميع ما كنتُ قاسيتُ من التعب والغربة والمشقة وأهوال السفر، واشتغلت باللذات والمسرات، والمأكَل الطيبة والمشارب النفيسة، ولم أزل على هذه الحالة. وهذا ما كان في أول سفراتي، وفي غدٍ إن شاء الله تعالى أحكي لكم الحكاية الثانية من السبع سفرات.

ثم إن السندباد البحري عثى السندباد البري عنده، وأمر له بمائة مثقالٍ ذهباً، وقال له: آنستنا في هذا النهار. فشكره الحمال، وأخذ منه ما وهبه له، وانصرف إلى حال سبيله وهو متفكّر فيما يقع وما يجري للناس، ويتعجَّب غاية العجب، ونام تلك الليلة في منزله، ولما أصبح الصباح جاء إلى بيت السندباد البحري ودخل عنده، فرحَّب به وأكرمه وأجلسه عنده، ولما حضر بقية أصحابه قدَّمَ لهم الطعام والشراب، وقد صفا لهم الوقت، وحصل لهم الطرب، فبدأ السندباد البحري بالكلام وقال: اعلموا يا إخواني أنني كنت في ألد عيش وأصفى سرور على ما تقدم ذكره لكم بالأمس. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٤٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد البحري لما اجتمع عنده أصحابه قال لهم: إني كنت في ألد عيش إلى أن خطر ببالي يوماً من الأيام السفرُ إلى بلاد الناس، واشتأقت نفسي إلى التجارة، والتفرج في البلدان والجزائر، واكتساب المعاش، فهممت في ذلك الأمر، وقد أخرجت من مالي شيئاً كثيراً اشتريتُ به بضائعَ وأسباباً تصلح للسفر، وحزمتُها، وجئتُ إلى الساحل فوجدت مركباً مليحة جديدة، وله قلع قماش مريح، وهي كثيرة الرجال، زائدة العدة، ونزلت حمولي فيها أنا وجماعة من التجار، وقد سافرنا في ذلك النهار، وطاب لنا السفر، ولم نزل من بحر إلى بحر، ومن جزيرة إلى جزيرة، وكل محل رسينا عليه نقابل التجار، وأرباب الدولة، والبائعين والمشتريين، ونبيع ونشتري ونقايش بالبضائع فيه. ولم نزل على هذه الحالة إلى أن ألقننا المقادير على جزيرة مليحة كثيرة الأشجار، يانعة الأثمار، فائحة الأزهار، مترنمة الأطيار، صافية الأنهار، ولكن ليس بها ديار، ولا نافخ نار، فأرسي بنا الرئيس على تلك الجزيرة، وقد طلع التجار والركاب إلى تلك الجزيرة يتفرجون على ما بها من الأشجار والأطيار، ويسبحون الله الواحد القهار، ويتعجبون من قدرة الملك الجبار، فعند ذلك طلعت إلى الجزيرة مع جملة من طلع، وجلست على عين ماء صافٍ بين الأشجار، وكان معي شيء من المأكّل، فجلستُ في هذا المكان أكل ما قسم الله تعالى لي، وقد طاب لنا النسيم بذلك المكان، وصفا لي الوقت، فأخذتني سنة من النوم، فارتحتُ في ذلك المكان، وقد استغرقتُ في النوم، واستلذتُ بذلك النسيم الطيب والروائح الزكية.

ثم إني قمتُ فلم أجد في ذلك المكان إنسياً ولا جنياً، وقد سارت المركب بالركاب، ولم يتذكّرني منهم أحدٌ لا من التجار، ولا من البحرية، فتركوني في الجزيرة، وقد التفتُ فيها يميناً وشمالاً، فلم أجد بها أحداً غيри، فحصل عندي قهر شديد ما عليه من مزيد، وقد كادت مرارتي تنفقع من شدة ما أنا فيه من الغم والحزن والتعب، ولم يكن معي شيء

من الدنيا، ولا من المأكل، ولا من المشرب، وصرتُ وحيداً، وقد تعبْتُ في نفسي، وآيسْتُ من الحياة، وقلت: ما كل مرة تسلم الجرة، وإن كنتُ سلمت في المرة الأولى ولقيت مَنْ أخذني معه من الجزيرة إلى العمارة، ففي هذه المرة هيهات! هيهات! إن كنتُ أجد مَنْ يوصلني إلى بلاد العمار.

ثم إنني صرت أبكي وأنوح على نفسي حتى تملَّكني القهر، ولت نفسي على ما فعلته وعلى ما شرعتُ فيه من أمر السفر والتعب، من بعد ما كنتُ جالساً مرتاحاً في ديارِي وبلادِي وأنا مبسوطٌ ومتهنٌّ بمأكل طيبٍ ومشروب طيبٍ وملبوس طيبٍ، وما كنت محتاجاً شيئاً من المال ولا من البضائع. وصرت أتندم على خروجي من مدينة بغداد، وسفري في البحر من بعد ما قاسيتُ التعبَ في السفرة الأولى وأشرفت على الهلاك، وقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. وقد صرتُ في حيِّز المجانين، وبعد ذلك قمتُ على حيلي، وتمشيت في الجزيرة يميناً وشمالاً، وصرت لا أستطيع الجلوس في محل واحد، ثم إنني صعدت على شجرة عالية، وصرت أنظر من فوقها يميناً وشمالاً، فلم أرَ غير سماء وماء، وأشجار وأطيار، وجزائر ورمال، وقد حَقَّقْتُ النظر فلاح لي في الجزيرة شبح أبيض عظيم الخلقة، فنزلت من فوق الشجرة وقصدته، وصرتُ أمشي إلى ناحيته، ولم أزل سائراً إلى أن وصلتُ إليه، وإذا به قبة كبيرة بيضاء شاهقة في العلوِّ كبيرة الدائرة، فدنوت منها، ودرت حولها، فلم أجد لها باباً، ولم أجد لي قوة ولا حركة إلى الصعود عليها من شدة النعومة، فعَلَّمْتُ مكان وقوفي، ودرتُ حول القبة أقيس دائرتها، فإذا هو خمسون خطوة وافية، فصرتُ متفكِّراً في الحيلة الموصلة إلى دخولها، وقد قرب زوال النهار، وغروب الشمس، وإذا بالشمس قد خفيت، والجو قد أظلم، واحتجبت الشمس عني، ظننت أنه جاء على الشمس غمامة، وكان ذلك في زمن الصيف، فتعجبت ورفعت رأسي، وتأمّلت في ذلك فرأيت طيراً عظيم الخلقة، كبير الجثة، عريض الأجنحة، طائراً في الجو، وهو الذي غطّى عين الشمس وحجبها عن الجزيرة؛ فازددتُ من ذلك عجباً، ثم إنني تذكرت حكاية ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٤٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد البحري لما زاد تعجُّبه من الطائر الذي رآه في الجزيرة، تذكَّر حكايةً أخبره بها قديمًا أهلُ السياحة والمسافرون؛ وهي أن في بعض الجزائر طيرًا عظيمَ الخلقة يقال له الرخ، يزُقُّ أولاده بالأفيال، فتحقَّقتُ أن القبة التي رأيتهَا إنما هي بيضة من بيض الرخ، ثم إنني تعجَّبتُ من خلق الله تعالى. فبينما أنا على هذه الحالة، وإذا بذلك الطير نزل على تلك القبة، وحضنها بجناحيه، ومدَّ رجليه من خلفه على الأرض، ونام عليها، فسيحان من لا ينام، فعند ذلك قمْتُ فككْتُ عمامتي من فوق رأسي، وثنيتهَا وفلتهَا حتى صارت مثل الحبل، وتحزَّمتُ بها، وشددتُ وسطي، وربطت نفسي في رجليَّ ذلك الطائر، وشددتها شدًّا وثيقًا، وقلت في نفسي: لعل هذا يوصلني إلى بلاد المدن والعمار، ويكون ذلك أحسن من جلوسي في هذه الجزيرة، وقد بُتُّ تلك الليلة ساهرًا؛ خوفًا من أن أنام، فيطير بي على حين غفلة. فلما طلع الفجر وبان الصباح، قام الطائر من على بيضته، وصاح صيحة، واقتلع بي إلى الجو وهو يعلو ويرتفع حتى ظننتُ أنه وصل إلى عنان السماء، وبعد ذلك تنازل بي حتى نزل بي إلى الأرض، وخطَّ على مكانٍ مرتفع عالٍ، فلما وصلتُ إلى الأرض أسرعْتُ وفككْتُ الرباط من رجليه، وأنا خائف منه، ولم يدِر بي، ولم يحس بي، وبعدها فككْتُ عمامتي منه، وخلصتها من رجليه، وأنا أنتفض، ومشيت في ذلك المكان، ثم إنه أخذ شيئًا من على وجه الأرض في مخالبه، وطار إلى عنان السماء، فتأملته فإذا هو حية عظيمة الخلقة، كبيرة الجسم، قد أخذها وذهب بها إلى البحر، فتعجَّبتُ من ذلك. ثم إنني تمشَّيتُ في ذلك المكان، فوجدتُ نفسي في مكان عالٍ، وتحتَه وادٍ كبير واسع عميق، وبجانبه جبل عظيم شاهق في العلو لا يقدر أحد أن يرى أعلاه من فرط علوه، وليس لأحدٍ قدرة على الطلوع فوقه، فلمتُ نفسي على ما فعلته

وقلت: يا ليتني مكثتُ في الجزيرة، فإنها أحسن من هذا المكان القفر؛ لأن الجزيرة كان يوجد فيها شيء آكله من أصناف الفواكه، وأشرب من أنهارها، وهذا المكان ليس فيه أشجار ولا أثمار ولا أنهار، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أنا كل ما أخلص من مصيبة أقع فيما هو أعظم منها وأشد.

ثم إنني قمت وقويت نفسي، ومشيت في ذلك الوادي، فرأيت أرضه من حجر الماس الذي يثقبون به المعادن والجواهر، ويثقبون به الصيني والجزع، وهو حجر صلب يابس لا يعمل فيه الحديد ولا الصخر، ولا أحد يقدر أن يقطع منه شيئاً، ولا أن يكسره إلا بحجر الرصاص، وكل ذلك الوادي حيات وأفاع، كل واحدة مثل النخلة، ومن عظم خلقتها لو جاءها فيل لابتلعت، وتلك الحيات يظهرن في الليل، ويختفين في النهار؛ خوفاً من طير الرخ والنسر أن يخطفها، وبعد ذلك يقطعها، ولا أدري ما سبب ذلك؛ فأقمتُ بذلك الوادي، وأنا متندِّم على ما فعلته، وقلت في نفسي: والله إنني قد عجلتُ بالهلاك على نفسي، وقد ولى النهار عليّ فصرتُ أمشي في ذلك الوادي، وأتلفتُ على محل أبيت فيه، وأنا خائف من تلك الحيات، ونسيت أكلي وشربي ومعاشي، واشتغلت بنفسي، فَلَاخ لي مغارة بالقرب مني، فمشيت فوجدت بابها ضيقاً، فدخلتها ونظرت إلى حجر كبير عند بابها، فدفعته وسددت به باب تلك المغارة وأنا داخلها، وقلت في نفسي: إنني أمنت لما دخلت في هذا المكان، وإن طلع عليّ النهار أطلع وأنظر ما تفعل القدرة. ثم التفتُ في داخل المغارة، فنظرت حية عظيمة نائمة في صدر المغارة على بيضها، فاقشعرَّ بدني، وأقمتُ رأسي، وسلَّمتُ أمرِّي للقضاء والقدر، وبت ساهراً طول الليل إلى أن طلع الفجر ولاح، فأزحتُ الحجر الذي سدَّتُ به باب المغارة، وخرجتُ منها وأنا مثل السكران دائخ من شدة السهر والجوع والخوف، وتمشيت في الوادي. فبينما أنا على هذه الحالة وإذا بذبيحة عظيمة قد سقطت قدامي، ولم أجد أحداً؛ فتعجَّبتُ من ذلك غاية العجب، وتفكرتُ حكايةً كنتُ أسمعها من قديم الزمان من بعض التجار والمسافرين وأهل السياحة أن في جبال حجر الماس الأهوال العظيمة، ولا يقدر أحد أن يسلك إليه، ولكن التجار الذين يجلبونه يعملون حيلةً في الوصول إليه، ويأخذون الشاة من الغنم ويذبحونها ويسلخونها، ويشرحون لحمها، ويرمونه على ذلك الجبل إلى أرض الوادي، فتنزّل وهي طرية، فيلتصق بها شيء من هذه الحجارة، ثم تتركها التجار إلى نصف النهار، فتنزّل الطيور من النسور والرخ إلى ذلك اللحم، وتأخذه في مخالبتها، وتصعد إلى أعلى الجبل فتأتيها التجار، وتصيح عليها، فتطير من عند ذلك اللحم، ثم تتقدَّم التجار إلى ذلك اللحم وتخلص منه الحجارة اللاصقة

فلما كانت الليلة ٥٤٤

به، ويتركون اللحم للطيور والوحوش، ويحملون الحجارة إلى بلادهم، ولا أحد يقدر أن يتوصّل إلى مجيء حجر الماس إلا بهذه الحيلة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٤٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد البحري صار يحكي لأصحابه جميع ما حصل له في جبل الماس، ويخبرهم أن التجار لا يقدرّون على مجيء شيء منه إلا بحيلة مثل التي ذكرها، ثم قال: فلما نظرتُ على تلك الذبيحة وتذكّرتُ هذه الحكاية، قمتُ وجئتُ عند الذبيحة، فنقّيتُ من هذه الحجارة شيئاً كثيراً، وأدخلتهُ في جيبِي وبين ثيابِي، وصرتُ أنقي وأُدخلُ في جيوبِي وحزامِي وعمامتي وبين حوائجي، فبينما أنا على هذه الحالة وإذا بذبيحة كبيرة، فربطتُ نفسي عليها بعمامتي، ونمتُ على ظهري، وجعلتها على صدري، وأنا قابض عليها، فصارت عالية على الأرض، وإذا بنسرٍ نزل على تلك الذبيحة وقبض عليها بمخالبه، واقتلع بها إلى الجو، وأنا معلقُ بها، ولم يزل طائرًا إلى أن صعد بها إلى أعلى الجبل، وحط بها، وأراد أن ينهش منها، وإذا بصيحة عظيمة عالية من خلف ذلك النسر، وشيء يخبط بالخشب على ذلك الجبل، فجفل النسر وخاف وطار إلى الجو، ففككتُ نفسي من الذبيحة، وقد تلوّثتُ ثيابي من دمها، ووقفت بجانبها، وإذا بذلك التاجر الذي صاح على النسر تقدّم إلى الذبيحة فرآني واقفًا، فلم يكلمني، وقد فزع مني وارتعب، وأتى الذبيحة وقلّبها فلم يجد فيها شيئًا، فصاح صيحة عظيمة وقال: واخيبتاه! لا حول ولا قوة إلا بالله، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهو يتندم ويخبط كفًا على كف، ويقول: وا حسرتاه! أي شيء هذا الحال؟ فتقدّمتُ إليه، فقال لي: مَنْ أنت؟ وما سبب مجيئك إلى هذا المكان؟ فقلت له: لا تخف ولا تخش؛ فإنني إنسي من خيار الإنس، وكنت تاجرًا ولي حكاية عظيمة، وقصة غريبة، وسبب وصولي إلى هذا الجبل وهذا الوادي له حكاية عجيبة، فلا تخفْ فلك ما يسرك مني، وأنا معي شيء كثير من حجر الماس، فأعطيك منه شيئًا يكفيك، وكل قطعة معي أحسن من كل شيء يأتيك؛ فلا تجزع ولا تخف. فعند ذلك

شكرني الرجل، ودعا لي، وتحدثَ معي، وإذا بالتَّجَّار سمعوا كلامي مع رفيقهم، فجاءوا إليَّ، وكان كل تاجر رمى ذبيحته، فلما قدموا علينا سلَّموا عليَّ وهنوني بالسلامة، وأخذوني معهم، وأعلمتهم بجميع قصتي، وما قاسيته في سفرتي، وأخبرتهم بسبب وصولي إلى هذه الوادي.

ثم إنني أعطيت لصاحب الذبيحة التي تعلَّقتُ فيها شيئاً كثيراً مما كان معي؛ ففرح بي، ودعا لي، وشكرني على ذلك، وقال لي التَّجار: والله إنه قد كُتِبَ لك عُمر جديد، فما أحد وصل إلى هذا المكان قبلك ونجا منه، ولكن الحمد لله على سلامتك. وباتوا في مكان مليح أمان، وبثَّ عنده وأنا فرحان غاية الفرح بسلامتي ونجاتي من وادي الحيات، ووصولي إلى بلاد العمار. ولما طلع النهار قمنا وسرنا على ذلك الجبل العظيم، وصرنا ننظر في ذلك الوادي حيات كثيرة، ولم نزل سائرين إلى أن أتينا بستاناً في جزيرة عظيمة مليحة، وفيها شجر الكافور، كل شجرة منها يستظلُّ تحتها مائة إنسان، وإذا أراد أحد أن يأخذ منه شيئاً، يثقب من أعلى الشجرة بشيء طويل، ويتلقى ما ينزل منه؛ فيسيل منه ماء الكافور، ويقعد مثل الصمغ، وهو عسل ذلك الشجر، وبعد ذلك تيبس الشجرة، وتصير حطباً. وفي تلك الجزيرة صنف من الوحوش يقال له الكركزان، يرعى فيها رعيّاً مثل ما يرعى البقر والجاموس في بلادنا، ولكن جسم ذلك الوحش أكبر من جسم الجمل، ويأكل العلق؛ وهو دابة عظيمة لها قرن واحد غليظ في وسط رأسها، طوله قدر عشرة أذرع، وفيه صورة إنسان، وفي تلك الجزيرة شيء من صنف البقر، وقد قال لنا البحريون المسافرون وأهل السياحة في الجبال والأراضي إن هذا الوحش المسمَّى بالكركزان يحمل الفيل الكبير على قرنه، ويرعى به في الجزيرة والسواحل، ولا يشعر به، ويموت الفيل على قرنه، ويسيح دهنه من حر الشمس على رأسه، ويدخل في عينيه فيعمى فيرقد في جانب السواحل، فيجيء له طير الرخ فيحمله في مخالبه، ويروح به عند أولاده، ويزقهم به، وبما على قرنه، وقد رأيت في تلك الجزيرة شيئاً كثيراً من صنف الجاموس ليس له عندنا نظير، وفي ذلك الوادي شيء كثير من حجر الماس الذي حملته معي، وخبَّأته في جيبِي، وقايضوني عليه ببيضائع ومتاع من عندهم، وحملوها لي معهم، وأعطوني دراهم ودنانير، ولم أزل سائراً معهم وأنا أتفرج على بلاد الناس وعلى ما خلق الله، من وادٍ إلى وادٍ، ومن مدينة إلى مدينة، ونحن نبيع ونشتري إلى أن وصلنا إلى مدينة البصرة، وأقمنا بها أياماً قلائل، ثم جئْتُ إلى مدينة بغداد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتتُ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٤٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد البحري لما رجع من غيبته، ودخل مدينة بغداد دار السلام، وجاء إلى حارته، ودخل داره، ومعه من صنف حجر الماس شيء كثير، ومعه مال ومتاع، وبضائع لها صورة، وقد اجتمع بأهله وأقاربه، ثم تصدق ووهب وأعطى، وهادى جميع أهله وأصحابه، وصار يأكل طيباً، ويشرب طيباً، ويلبس لباساً مليحاً، ويعاشر ويرافق، ونسي جميع ما كان قاساه، ولم يزل في هني عيش، وصفاء خاطر، وانشرح صدر، وهو في لعب وطرب، وصار كل من سمع بقدمه يجيء إليه، ويسأله عن حال السفر، وأحوال البلاد، فيخبره ويحكي له ما لقيه وما قاساه، فيتعجب من شدة ما قاساه، ويهنيئ بالسلامة، وهذا آخر ما جرى له، وما اتفق له في السفرة الثانية.

ثم قال لهم: وفي غد إن شاء الله تعالى أحكي لكم حال السفرة الثالثة. فلما فرغ السندباد البحري من حكايته للسندباد البري، تعجبوا من ذلك، وتعشوا عنده، وأمر للسندباد بمائة مثقال ذهباً، فأخذها وتوجّه إلى حال سبيله، وهو يتعجب مما قاساه السندباد البحري، وشكره ودعا له في بيته. ولما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، قام السندباد الحمال، وصلى الصبح وجاء إلى بيت السندباد البحري كما أمره، ودخل إليه فصبّح عليه، فرحّب به وجلس معه حتى أتاها باقي أصحابه وجماعته، وقد أكلوا وشربوا، واستلذوا وطربوا وانشرحوا، فابتدأ السندباد البحري بالكلام وقال: السفرة الثالثة؛ اعلّموا يا إخواني، واسمعوا مني حكايتها، فإنها أعجب من الحكايات المتقدّمة قبل تاريخه، والله أعلم بغيبه وأحكم، إني فيما مضى وتقدّم لما جئتُ من السفرة الثانية، وإني في غاية البسط والانشراح فرحان بالسلامة، وقد كسبت مالا كثيراً، كما حكيتُ لكم أمس تاريخه، وقد عوّض الله عليّ جميع ما راح مني، أقمتُ بمدينة بغداد مدة من الزمان، وأنا في غاية الحظ والصفاء، والبسط والانشراح، فاشتاقت نفسي إلى السفر والفرجة، وتشوقت إلى

المتجر والكسب والفوائد، والنفوس أمارة بالسوء، فهممت واشترت شيئاً كثيراً من البضائع المناسبة لسفر البحر، وقد حزمتهما إلى السفر، وسافرت بها من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، وجئتُ إلى ساحل البحر، فرأيتُ مركباً عظيمة، وفيه تجار ورُكَّاب كثيرة، أهل خير وناس ملاح طيبون، أهل دين ومعروف وصلاح، فنزلت معهم في تلك المركب، وسافرنا على بركة الله تعالى بعونه وتوفيقه، وقد استبشرنا بالخير والسلامة، ولم نزل سائرين من بحر إلى بحر، ومن جزيرة إلى جزيرة، ومن مدينة إلى مدينة، وفي كل مكان مررنا عليه نتفرج ونبيع ونشتري ونحن في غاية الفرح والسرور، إلى أن كنَّا يوماً من الأيام سائرين في وسط البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، فإذا بالريس وهو على جانب المركب ينظر على نواحي البحر، ثم إنه لطم وجهه وطوى قلوب المركب، ورمى مراسيه، وندف لحيته، ومزَّق ثيابه، وصاح صياحاً عظيماً، فقلنا له: يا ريس، ما الخبر؟ فقال: اعلموا يا رُكَّاب السلامة أن الريح غلب علينا، وقد عسف بنا في وسط البحر، ورمتنا المقادير لسوء بختنا إلى جبل القرود، وما وصل إلى هذا المكان أحد وسلم منه قطُّ، وقد أحسَّ قلبي بهلاكنا أجمعين.

فما استتم قول الريس حتى جاءنا القرود، وقد احتاطوا بالمركب من كل جانب، وهم شيء كثير مثل الجراد المنتشر في المركب، وعلى البر؛ فحفنا إن قتلنا منها أحداً وضربناه، أو طردناه، أن يقتلونا لفرط كثرتهم، والكثرة تغلب الشجاعة، وبقينا خائفين منهم أن يذهبوا رزقنا ومتاعنا، وهم أقبح الوحوش، وعليهم شعور مثل اللبد الأسود، ورؤيتهم تفرزع، ولا يفهم أحد لهم كلاماً ولا خبراً، وهم مستوحشون من الناس، صفر العيون، سود الوجوه، صغار الخلقة، طول كل واحد منهم أربعة أشبار، وقد طلوعوا على حبال المرساة، وقطعوها بأسنانهم، وقطعوا جميع حبال المركب من كل جانب، فمالت المركب من الريح، ورست على جبلهم، وصارت المركب في برهم، وقد قبضوا على جميع التجار والركاب، وطلعوا إلى الجزيرة، وأخذوا المركب بجميع ما كان فيها، وراحوا بها إلى حال سبيلهم، وقد تركونا في الجزيرة، وخفيت عنا المركب ولا نعلم أين راحوا بها؟

فبينما نحن في تلك الجزيرة نأكل من أثمارها وبقولها وفواكهها، ونشرب من الأنهار التي فيها، إذ لاح لنا بيت عامر في وسط تلك الجزيرة، فقصدناه ومشينا إليه، فإذا هو قصر مشيد الأركان، عالي الأسوار، له باب بدرفتين مفتوح، وهو من خشب الأبنوس، فدخلنا باب ذلك القصر فوجدنا له حضيراً واسعاً مثل الحوش الواسع الكبير، وفي دائره أبواب كثيرة عالية في صدره ومصطبة عالية كبيرة، وفيها أواني طيبخ معلقة على الكوانين، وحواليها عظام كثيرة، ولم نَرَ فيها أحداً، فتعجبنا من ذلك غاية العجب، وقد جلسنا في

حضير ذلك القصر قليلاً، ثم بعد ذلك نمنا، ولم نزل نائمين من ضحوة النهار إلى غروب الشمس، وإذا بالأرض قد ارتجت من تحتنا، وسمعنا دويّاً من الجو، وقد نزل علينا من أعلى القصر شخص عظيم الخلقة في صفة إنسان، وهو أسود اللون طويل القامة كأنه نخلة عظيمة، وله عيانان كأنهما شعلتان من نار، وله أنياب مثل أنياب الخنازير، وله فم عظيم الخلقة مثل فم البئر، وله مشافر مثل الجمل مرخية على صدره، وله أذنان مثل الجرسين مرخيتان على أكتافه، وأظافر يديه مثل مخالب السبع؛ فلما نظرناه على هذه الحالة غبنا عن وجودنا، وقوي خوفنا، واشتدّ فزعنا، وصرنا مثل الموتى من شدة الخوف والجزع والفرع. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٤٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد البحري ورفقته لما رأوا هذا الشخص الهائل الصورة، حصل لهم غاية الخوف والفرع، فلما نزل على الأرض جلس قليلاً على المصطبة، ثم إنه قام وجاء عندنا، ثم إنه قبض على يدي من بين أصحابي التجار، ورفعني بيده عن الأرض، وجسني وقلبني، فصرت في يده مثل اللقمة الصغيرة، وصار يجسني مثل ما يجس الجزار ذبيحة الغنم، فوجدني ضعيفاً من كثرة القهر، هزياً من كثرة التعب والسفر، وليس في شيء من اللحم، فأطلقني من يده، وأخذ واحداً غيري من رفقتي وقلبه كما قلّبتني، وجسه كما جسني وأطلقه، ولم يزل يجسنا ويقلّبنا واحداً بعد واحد إلى أن وصل إلى ريس المركب الذي كنا فيه، وكان رجلاً سميناً غليظاً، عريض الأكتاف، صاحب قوة وشدة، فأعجبه وقبض عليه مثل ما يقبض الجزار على ذبيحته، ورماه على الأرض، ووضع رجله على رقبته، فقصف رقبته، وجاء بسيخ طويل فأدخله في حلقه حتى أخرجه من دبره، وأوقد ناراً شديدة، وركب عليها ذلك السيخ الذي مشكوك فيه الرئيس، ولم يزل يقلبه على الجمر حتى استوى لحمه، وأطلعه من النار وحطّه قدامه، وفسخه كما يفسخ الفرخة الرجل، وصار يقطع لحمه بأظافره، ويأكل منه، ولم يزل على هذه الحالة حتى أكل لحمه، ونهش عظمه، ولم يُبقِ منه شيئاً، ورمى باقي العظام في جنب القصر. ثم إنه جلس قليلاً وانطرح ونام على تلك المصطبة، وصار يشخر مثل شخير الخروف أو البهيمة المذبوحة، ولم يزل نائماً إلى الصباح، ثم قام وخرج إلى حال سبيله. فلما تحقّقنا بَعْدَهُ، تحدّثنا مع بعضنا، وبكينا على أرواحنا، وقلنا: يا ليتنا غرقنا في البحر، أو أكلتنا القروذ خير من شيء الإنسان على الجمر، والله إن هذا الموت موت رديء، ولكن ما شاء الله كان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لقد متنا كمداً، ولم يدر بنا أحد، وما بقي لنا نجاة من هذا المكان.

ثم إننا قمنا وخرجنا إلى الجزيرة لننظر لنا مكاناً نختفي فيه أو نهرب، وقد هان علينا أن نموت ولا يُشَوَّى لحمنا بالنار، فلم نجد مكاناً نختفي فيه، وقد أدركنا المساء، فعدنا إلى القصر من شدة خوفنا، وجلسنا قليلاً، وإذا بالأرض قد ارتجّت من تحتنا، وأقبل علينا ذلك الشخص الأسود، وجاء عندنا، وصار يقلّبنا واحداً بعد واحد مثل المرة الأولى، ويجسنا حتى أعجبه واحد، فقبض عليه، وفعل به مثل ما فعل بالريس في أول يوم، فشواه وأكله على تلك المصطبة، ولم يزل نائماً في تلك الليلة وهو يشخر مثل الذبيحة، فلما طلع النهار قام وراح إلى حال سبيله، وتركنا على جري عاداته، فاجتمعنا ببعضنا وتحدّثنا، وقلنا لبعضنا: والله أن نُلقِي أنفسنا في البحر ونموت غرقاً خيرٌ من أن نموت حرقاً؛ لأن هذه قتلة شنيعة. فقال واحد منا: اسمعوا كلامي، إننا نحتال عليه، ونرتاح من همه، ونريح المسلمين من عدوانه وظلمه. فقلت لهم: اسمعوا يا إخواني، إن كان ولا بد من قتله، فإننا نحول هذا الخشب، وننقل شيئاً من هذا الحطب، ونعمل لنا فلجاً مثل المركب، وبعد ذلك نحتال في قتله، وننزل في الفلك، ونروح في البحر إلى أي محل يريده الله، وإننا نقعد في هذا المكان حتى يمر علينا مركب فننزل فيه، وإن لم نقدر على قتله ننزل ونروح في البحر، ولو كنا نغرق فنرتاح من شيننا على النار، ومن الذبح، وإن سلمنا سلمنا، وإن غرقنا متنا شهداء. فقالوا جميعاً: والله هذا رأي سديد، وفعل رشيد. واتفقنا على هذا الأمر، وشرعنا في فعله، فنقلنا الأخشاب إلى خارج القصر، وصنعنا فلجاً، وربطناه على جانب البحر، ونزلنا فيه شيئاً من الزاد، وعدنا إلى القصر.

فلما كان وقت المساء، وإذا بالأرض قد ارتجّت بنا، ودخل علينا الأسود وهو كأنه الكلب العقور، ثم قلّبنا، وجسنا واحداً بعد واحد، فأخذ واحداً منا وفعل به مثل ما فعل بسابقه، وأكله ونام على المصطبة، وصار شخيره مثل الرعد، فنهضنا وقمنا، وأخذنا سيخين من حديد من الأسياخ المنصوبة، ووضعناهما في النار القوية حتى احمرّا وصارا مثل الجمر، وقبضنا عليهما قبضاً شديداً، وجئنا بهما إلى ذلك الأسود وهو نائم يشخر، ووضعناهما في عينيه، واتكأنا عليهما جميعاً بقوتنا وعزمنا، فأدخلناهما في عينيه وهو نائم، فانطمستا، وصاح صيحة عظيمة، فارتعبت قلوبنا، ثم قام من فوق تلك المصطبة بعزمه، وصار يفتش علينا، ونحن نهرب منه يميناً وشمالاً، ولم ينظرنا وقد عمي بصره؛ فخفنا منه مخافة شديدة، وأيقنّا في تلك الساعة بالهلاك، وآيسنا من النجاة، فعند ذلك قصد الباب وهو يحسس، وخرج منه وهو يصيح، ونحن في غاية الرعب منه، وإذا بالأرض ترتج من تحتنا من شدة صوته، فلما خرج من القصر تبعناه، وراح إلى حال سبيله، وهو

يدور علينا، ثم إنه رجع ومعه أنثى أكبر وأوحش خلقاً، فلما رأيناه والتي معه أفضع حالةً منه، خفنا غاية الخوف، فلما رأونا أسرعنا ونهضنا فككنا الفلك الذي صنعناه، ونزلنا فيه ودفعناه في البحر، وكان مع كل واحد منهما صخرة عظيمة، وصارا يرجماننا بها إلى أن مات أكثرنا من الرجم، وبقي منّا ثلاثة أشخاص؛ أنا واثنان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٤٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد البحري لما نزل في الفلك هو وأصحابه، وصار يرجمهم الأسود ورفيقته، فمات أكثرهم، ولم يَبْقَ منهم إلا ثلاثة أشخاص، فطلع بهم الفلك إلى جزيرة. قال: فمشينا إلى آخر النهار، فدخل علينا الليل ونحن على هذه الحالة، فنمنا قليلاً، واستيقظنا من منامنا، وإذا بثعبان عظيم الخلقة، كبير الجثة، واسع الجوف، قد أحاط بنا، وقصد واحدًا منّا فبلعه إلى أكتافه، ثم بلع باقيه، فسمعنا أضلاعه تتكسّر في بطنه، وراح إلى حال سبيله، فتعجّبنا من ذلك غاية العجب، وحزنا على رفيقنا، وصرنا في غاية الخوف على أنفسنا، وقلنا: والله هذا أمر عجيب، كل موت أشنع من سابقه، وكنا فرحنا بسلامتنا من الأسود، فما تَمَّتِ الفرحة! لا حول ولا قوة إلا بالله، والله قد نجونا من الأسود ومن الغرق، فكيف تكون نجاتنا من هذه الآفة المشؤمة؟ ثم إننا قمنا فمشينا في الجزيرة، وأكلنا من ثمرها، وشربنا من أنهارها، ولم نزل فيها إلى وقت المساء، فوجدنا شجرة عظيمة عالية فطلعناها، ونمنا فوقها، وقد طلعت أنا أعلى فروعها، فلما دخل الليل وأظلم الوقت، جاء الثعبان وتلفّت يميناً وشمالاً، ثم إنه قصد تلك الشجرة التي نحن عليها، ومشى حتى وصل إلى رفيقي، وبلعه حتى أكتافه، والتفّ به على الشجرة، فسمعت عظمه يتكسّر في بطنه، ثم بلعه بتمامه وأنا أنظر بعيني. ثم إن الثعبان نزل من فوق تلك الشجرة، وراح إلى حال سبيله، ولم أزل على تلك الشجرة باقي تلك الليلة، فلما طلع النهار وبان النور، نزلت من فوق الشجرة، وأنا مثل الميت من كثرة الخوف والفرع، وأردت أن ألقي بنفسي في البحر، وأستريح من الدنيا، فلم تهنّ عليّ روحي؛ لأن الروح عزيزة، فربطتُ خشبةً عريضة على أقدامي بالعرض، وربطت واحدة مثلها على جنبي الشمال، ومثلها على جنبي اليمين، ومثلها على بطني، وربطت واحدة طويلة عريضة من فوق رأسي بالعرض، مثل التي تحت أقدامي، وصرت أنا في وسط هذا الخشب، وهو محتاط بي من كل جانب،

ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)

وقد شددتُ ذلك شدًّا وثيقًا، وألقيت نفسي بالجميع على الأرض، فصرت نائمًا بين تلك الأخشاب، وهي محيطة بي كالمقصورة.



وإذا بثعبانٍ عظيم الخِلقة، كبير الجثة، واسع الجوف، قصد واحدًا منّا.

فلما أمسى الليل أقبل ذلك الثعبان على جري عاداته، ونظر إليَّ وقصدني، فلم يقدر أن يبلغني وأنا على تلك الحالة، والأخشاب حولي من كل جانب، فدار الثعبان حولي، ولم

يستطع الوصول إليّ، وأنا أنظر بعيني، وقد صرت كالملت من شدة الخوف والفرع، وصار الثعبان يبعد عني ويعود إليّ، ولم يزل على هذه الحالة، وكلما أراد الوصول إليّ ليلتلعني تمنعه تلك الأخشاب المشدودة عليّ من كل جانب، ولم يزل كذلك من غروب الشمس إلى أن طلع الفجر، وبان النور وأشرقت الشمس، فمضى الثعبان إلى حال سبيله، وهو في غاية ما يكون من القهر والغيط؛ فعند ذلك مددت يدي، وفككت نفسي من تلك الأخشاب، وأنا في حكم الأموات من شدة ما قاسيت من ذلك الثعبان، ثم إني قمت ومشيت في الجزيرة حتى انتهيت إلى آخرها، فلاحت مني التفاتة إلى ناحية البحر، فرأيت مركباً على بُعد في وسط اللجة، فأخذت فرعاً كبيراً من شجرة، ولوخت به إلى ناحيتهم، وأنا أصيح عليهم، فلما رأوني قالوا: لا بد أننا ننظر ما يكون هذا، لعله إنسان. ثم إنهم قربوا مني، وسمعوا صياحي عليهم، فجاءوا إليّ، وأخذوني معهم في المركب، وسألوني عن حالي، فأخبرتهم بجميع ما جرى لي من أوله إلى آخره، وما قاسيته من الشدائد؛ فتعجبوا من ذلك غاية العجب، ثم إنهم ألبسوني من عندهم ثياباً، وستروا عورتني، وبعد ذلك قدّموا لي شيئاً من الزاد، فأكلت حتى اكتفيت، وسقوني ماءً بارداً عذباً، فانتعش قلبي، وارتاحت نفسي، وحصل لي راحة عظيمة، وأحيانى الله تعالى بعد موتي، فحمدت الله تعالى على نعمه الوافرة، وشكرته، وقد قويت همتي بعدما كنت أيقنت بالهلاك، حتى تخيل لي أن جميع ما أنا فيه منام. ولم نزل سائرين، وقد طاب لنا الريح بإذن الله تعالى إلى أن أشرقنا على جزيرة يقال لها جزيرة السلاطة، فأوقف الرئيس المركب عليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٤٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن المركب الذي نزل فيه السندباد البحري رسا على جزيرة، فنزل منه جميع التجار والركاب، وأطلعوا بضائعهم لبييعوا ويشترؤا. قال السندباد البحري: فالتفت إليَّ صاحبُ المركب وقال لي: اسمع كلامي أنت رجل غريب فقير، وقد أخبرتنا أنك قاسيتُ أهوالاً كثيرة، ومرادي أنفك بشيء يُعينك على الوصول إلى بلادك، وتبقى تدعو لي. فقلت له: نعم، ولك مني الدعاء. فقال: اعلم أنه كان معنا رجل مسافر فقدناه، ولم نعلم هل هو بالحياة أم مات؟ ولم نسمع عنه خبراً، ومرادي أن أدفع لك حموله لتبيعه في هذه الجزيرة وتحفظها، ونعطيك شيئاً في نظير تعبك وخدمتك، وما بقي منها نأخذه إلى أن نعود إلى مدينة بغداد، فنسأل عن أهله، وندفع إليهم بقيتها، وثنم ما بيع منها، فهل لك أن تتسلمها، وتنزل بها هذه الجزيرة، فتبيعه مثل التجار؟ فقلت: سمعاً وطاعةً لك يا سيدي، ولك الفضل والجميل. ودعوت له وشكرته على ذلك، فعند ذلك أمر الحمّالين والبحرية بإخراج تلك البضائع إلى الجزيرة، وأن يسلموها إليَّ، فقال كاتب المركب: يا ريس، ما هذه الحمول التي أطلعها البحرية والحمّالون؟ واكتبها باسم من من التجار؟ فقال: اكتب عليها اسم السندباد البحري الذي كان معنا، وغرق في الجزيرة، ولم يأتنا عنه خبر، فنريد أن هذا الغريب يبيعه، ويحمل ثمنها، ونعطيه شيئاً منه نظير تعبهِ وبيعه، والباقي نحمله معنا حتى نرجع إلى مدينة بغداد، فإن وجدناه أعطيناه إياه، وإن لم نجده ندفعه إلى أهله في مدينة بغداد. فقال الكاتب: كلامك مليح، ورأيك رجيح.

فلما سمعت كلام الريس وهو يذكر أن الحمول باسمي، قلت في نفسي: والله أنا السندباد البحري، وأنا غرقت في الجزيرة مع جملة من غرق. ثم إنني تجلّدتُ وصبرت إلى أن طلع التجار من المركب، واجتمعوا يتحدّثون ويتذكرون في أمور البيع والشراء، فتقدّمتُ إلى صاحب المركب، وقلت له: يا سيدي، هل تعرف كيف كان صاحب الحمول

التي سَلَّمَتَهَا إِلَيَّ لأبيعتها؟ فقال لي: لا أعلم له حالاً، ولكنه كان رجلاً من مدينة بغداد يقال له السندباد البحري، وقد أرسينا على جزيرة من الجزائر، فغرق منّا فيها خلق كثير، وفُقد بجمالهم، ولم نعلم له خبراً إلى هذا الوقت. فعند ذلك صرختُ صرخةً عظيمة، وقلت له: يا ريس السلامة، اعلم أنني أنا السندباد البحري لم أغرق، ولكن لما أرسيت على الجزيرة، وطلع التجار والركاب طلعتُ أنا مع جملة الناس، ومعني شيء آكله بجانب الجزيرة، ثم إنني تلذت بالجلوس في ذلك المكان، فأخذتني سِنَّة من النوم فَنَمْتُ وغرقتُ في النوم، ثم إنني قمت فلم أجد المركب، ولم أجد أحدًا عندي، وهذا المال مالي، وهذه البضائع بضائعي، وجميع التجار الذين يجلبون حجر الماس رأوني وأنا في جبل الماس، ويشهدون لي بأنني أنا السندباد البحري كما أخبرتهم بقصتي، وما جرى لي معكم في المركب، وأخبرتكم بأنكم نسيتموني في الجزيرة نائمًا، وقمتُ فلم أجد أحدًا، وجرى لي ما جرى. فلما سمع التجار والركاب كلامي اجتمعوا عليّ، فمَنهم مَن صدَّقني، ومَنهم مَن كَذَبني.

فبينما نحن كذلك، وإذا بتاجر من التجار حين سمعني أذكر وادي الماس نهض وتقدَّمَ عندي، وقال لهم: اسمعوا يا جماعة كلامي، إنني لما كنتُ ذكرتُ لكم أعجب ما رأيْتُ في أسفاري، لما ألقينا الذبائح في وادي الماس، وألقيت ذبيحتي معهم على جري عادي، طلع في ذبيحتي رجل متعلِّق بها، ولم تصدَّقوني بل كذبتُموني. فقالوا: نعم، حكيتُ لنا على هذا الأمر، ولم نصدقك. فقال لهم التاجر: هذا الرجل الذي تعلَّق في ذبيحتي، وقد أعطاني شيئاً من حجر الماس الغالي الثمن الذي لا يوجد نظيره، وعوَّضني أكثر ما كان يطلع لي في ذبيحتي، وقد استصحبته معي إلى أن وصلنا إلى مدينة البصرة، وبعد ذلك توجهَ إلى بلاده، وودَّعنا، ورجعنا إلى بلادنا، وهو هذا، وأعلمنا أن اسمه السندباد البحري، وقد أخبرنا بذهاب المركب وجلوسه في هذه الجزيرة، واعلموا أن هذا الرجل ما جاءنا هنا إلا لتصدَّقوا كلامي مما قلته لكم، وهذه البضائع كلها رزقه، فإنه أخبرنا بها في وقت اجتماعه علينا، وقد ظهر صدقه في قوله. فلما سمع الريس كلام ذلك التاجر قام على حيله، وجاء عندي، وحقق فيَّ النظر ساعةً، وقال: ما علامة بضائعك؟ فقلت له: اعلم أن علامة بضائعي ما هو كذا وكذا. وقد أخبرته بأمرٍ كان بيني وبينه لما نزلتُ معه المركب من البصرة، فتحقَّق أنني أنا السندباد البحري فعانقني، وسلَّم عليّ، وهنَّأني بالسلامة، وقال لي: والله يا سيدي، إن قصتك عجيبة، وأمرٌ غريب، ولكن الحمد لله الذي جمع بيننا وبينك، وردَّ بضائعك ومالك عليك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٥٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد البحري لما تبَيَّنَ للريس والتجار أنه هو بعينه، وقال له الريس: الحمد لله الذي ردَّ بضائعك ومالك عليك. قال: فعند ذلك تصرَّفْتُ في بضائعي بمعرفتي، وربحت بضائعي في تلك السفرة شيئاً كثيراً، وفرحت بذلك فرحاً عظيماً، وهنأت نفسي بالسلامة وعود مالي إليّ، ولم نزل نبيع ونشتري في الجزائر إلى أن وصلنا إلى بلاد السند، وقد بعنا فيها واشترينا، ورأيت في ذلك البحر شيئاً من العجائب والغرائب لا يُعَدُّ ولا يُحصى، ومن جملة ما رأيتُ في ذلك البحر سمكة على صفة البقرة، وشيئاً على صفة الحمير، ورأيت طيراً يخرج من صدف البحر ويبيض، ويفرخ على وجه الماء، ولا يطلع من البحر على وجه الأرض أبداً. وبعد ذلك لم نزل مسافرين بإذن الله تعالى، وقد طاب لنا الريح والسفر إلى أن وصلنا إلى البصرة، وقد أقمت بها أياماً قلائل، وبعد ذلك جئت إلى مدينة بغداد فتوجهت إلى حارتي، ودخلت بيتي، وسلَّمْتُ على أهلي وأصحابي وأصدقائي، وقد فرحت بسلامتي وعودتي إلى بلادي وأهلي ومدينتي ودياري، وتصدقت ووهبت، وكسوت الأرامل والأيتام، وجمعت أصحابي وأحبابي، ولم أزل على هذه الحالة في أكل وشرب ولهو وضرب، وأنا أكل طيباً، وأشرب طيباً، وأعاشر وأخالط، وقد نسيت جميع ما كان جرى لي، وما قاسيت من الشدائد والأهوال، وكسبت شيئاً في هذه السفرة لا يُعَدُّ ولا يُحصى، وهذا أعجب ما رأيته في هذه السفرة، وفي غدٍ إن شاء الله تعالى تجيء إليّ وأحكى لك حكاية السفرة الرابعة؛ فإنها أعجب من هذه السفرات.

ثم إن السندباد البحري أمرَ بأن يدفعوا إليه مائة مثقال من الذهب على جري عادته، وأمر بمد السماط فمدوه، وتعيش الجماعة، وهم يتعجبون من تلك الحكاية، وما جرى فيها، ثم إنهم بعد العشاء انصرفوا إلى حال سبيلهم، وقد أخذ السندباد الحُمَال ما أمر له به من الذهب، وانصرف إلى حال سبيله، وهو متعجب مما سمعه من السندباد

البحري، وبات في بيته، ولما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، قام السندباد الحمال، وصلى الصبح، وتمشَّى إلى السندباد البحري، وقد دخل إليه وسلَّم عليه، وتلقَّاه بالفرح والانشراح، وأجلسه عنده إلى أن حضر بقية أصحابه، وقد قدَّموا الطعام فأكلوا وشربوا وانبسطوا، فبدأهم بالكلام، وحكى لهم الحكاية الرابعة.

قال السندباد البحري: اعلِّموا يا إخواني أني لما عدت إلى مدينة بغداد، واجتمعت على أصحابي وأهلي، وصرت في أعظم ما يكون من الهناء والسرور والراحة، وقد نسيت ما كنت فيه لكثرة الفوائد، وغرقت في اللهو والطرب، ومجالسة الأحباب والأصحاب، وأنا في ألد ما يكون من العيش، فحدَّثتني نفسي الخبيثة بالسفر إلى بلاد الناس، وقد اشتقت إلى مصاحبة الأجناس والبيع والمكسب، فهممتُ في ذلك الأمر، واشتريتُ بضاعةً نفيسة تناسب البحر، وحزمت حمولة كثيرة زيادة عن العادة، وسافرتُ من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، ونزلت حمولتي في المركب، واصطحبت بجماعة من أكابر البصرة، وقد توجَّهنا إلى السفر وسارت بنا المركب على بركة الله تعالى في البحر العجاج، المتلاطم بالأمواج، وطاب لنا السفر، ولم نزل على هذه الحالة مدة ليالٍ وأيام من جزيرة إلى جزيرة، ومن بحر إلى بحر إلى أن خرجت علينا ريح مختلفة يومًا من الأيام، فرمى الريس مراسي المركب، وأوقفها في وسط البحر؛ خوفًا عليها من الغرق في وسط الإباحة، فبينما نحن على هذه الحالة ندعو ونتضرع إلى الله تعالى، إذ خرج علينا عاصف ريح شديد، مزَّق القلع، وقطَّعه قطعًا، وغرق الناس، وجميع حمولهم، وما معهم من المتاع والأموال، وغرقت أنا بجملة مَنْ غرق، وعمت في البحر نصف نهار، وقد تخلَّيتُ عن نفسي، فيسَّر الله تعالى لي قطعة لوح خشب من ألواح المركب، فركبتها أنا وجماعة من التجار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٥١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري بعد أن غرقت المركب، وطلع على لوح خشب هو وجماعة من التجار، قال: اجتمعنا على بعضنا، ولم نزل راكبين على ذلك اللوح، ونرفص بأرجلنا في البحر والأمواج والريح تساعدنا، فمكثنا على هذه الحالة يوماً وليلة، فلما كان ثاني يوم ضحوة نهار، ثار علينا ريح وهاج البحر، وقوي الموج والريح، فرمنا الماء على جزيرة، ونحن مثل الموتى من شدة السهر والتعب والبرد، والجوع والخوف والعطش، وقد مشينا في جوانب تلك الجزيرة، فوجدنا فيها نباتاً كثيراً، فأكلنا منه شيئاً يسدُّ رمقنا ويقيننا، وبتنا تلك الليلة على جانب الجزيرة.

فلما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، قمنا ومشينا في الجزيرة يميناً وشمالاً، فَلَاحَ لنا عمارة على بُعدٍ، فسرنا في تلك الجزيرة قاصدين تلك العمارة التي رأيناها من بُعدٍ، ولم نزل سائرين إلى أن وقفنا على بابها، فبينما نحن واقفون هناك إذ خرج علينا من ذلك الباب جماعة عراة ولم يكلمونا، وقد قبضوا علينا، وأخذونا عند ملكهم، فأمرنا بالجلوس فجلسنا، وقد أحضروا لنا طعاماً لم نعرفه ولا في عمرنا رأينا مثله، فلم تقبله نفسي ولم أكل منه شيئاً دون رفقتي، وكان قلة أكلي منه لطفاً من الله تعالى حتى عشت إلى الآن. فلما أكل أصحابي من ذلك الطعام، ذهلت عقولهم وصاروا يأكلون مثل المجانين وتغيَّرت أحوالهم، وبعد ذلك أحضروا لهم دهن النارجيل فسقوهم منه، ودهنوهم منه، فلما شرب أصحابي من ذلك الدهن زاغت أعينهم في وجوههم، وصاروا يأكلون من ذلك الطعام بخلاف أكلهم المعتاد، فعند ذلك احترت في أمرهم، وصرتُ أتأسف عليهم، وقد صار عندي همٌّ عظيمٌ من شدة الخوف على نفسي من هؤلاء العرايا. وقد تأملتهم فإذا هم قوم مجوس، وملك مدينتهم غول، وكلُّ مَنْ وصل إلى بلادهم أو رآوه أو صادفوه في الوادي والطرقات

يجيئون به إلى ملكهم، ويُطعمونه من ذلك الطعام، ويدهنونه بذلك الدهن؛ فيتسع جوفه لأجل أن يأكل كثيراً، ويذهل عقله، وتنطمس فكرته، ويصير مثل الأبله، فيزيدون له الأكل والشرب من ذلك الطعام والدهن حتى يسمن ويغلظ، فيذبحونه ويشوونه، ويطعمونه لملكهم. وأما أصحاب الملك، فيأكلون من لحم الإنسان بلا شيء ولا طبخ.

فلما نظرت منهم ذلك الأمر، صرت في غاية الكرب على نفسي وعلى أصحابي، وقد صار أصحابي من فرط ما دهشت عقولهم لا يعلمون ما يفعل بهم، وقد سلموهم إلى شخص فصار يأخذهم كل يوم، ويخرج يرعاهم في تلك الجزيرة مثل البهائم، وأما أنا فقد صرت من شدة الخوف والجوع ضعيفاً سقيم الجسم، وصار لحمي يابساً على عظمي، فلما رأوني على هذه الحالة تركوني ونسوني، ولم يتذكرني منهم أحد، ولا خطرُ لهم على بال، إلى أن تحيَّلت يوماً من الأيام، وخرجت من ذلك المكان، ومشيت في تلك الجزيرة، وبعدت عن ذلك المكان، فرأيت رجلاً راعياً جالساً على شيء مرتفع في وسط البحر، فتحققته فإذا هو الرجل الذي سلّموا إليه أصحابي ليرعاهم، ومعه شيء كثير من مثلهم؛ فلما نظر ذلك الرجل إليّ، علم أنني مالك عقلي ولم يصبني شيء مما أصاب أصحابي؛ فأشار إليّ من بعيد وقال لي: ارجع إلى خلفك وامش في الطريق الذي على يمينك تسلك إلى الطريق السلطانية. فرجعت إلى خلفي كما أشار لي هذا الرجل، فنظرت إلى طريق على يميني فسرتُ فيها، ولم أزل سائراً ساعة أجري من الخوف، وساعة أمشي على مهلي حتى أخذت راحتني، ولم أزل على هذه الحالة حتى خفيت عن عيون الرجل الذي دلّني على الطريق وصرت لا أنظره ولا ينظرني، وغابت الشمس عني وأقبلَ الظلام؛ فجلست لأستريح وأردتُ النوم، فلم يأتني في تلك الليلة نومٌ من شدة الخوف والجوع والتعب.

فلما أنصف الليل، قمت ومشيت في الجزيرة، ولم أزل سائراً حتى طلع النهار، وأصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، وطلعت الشمس على رءوس الروابي والبطاح، وقد تعبْتُ وجعتُ وعطشتُ، فصرت أكل من الحشيش والنبات الذي في الجزيرة، ولم أزل أكل من ذلك النبات حتى شبعت، وانسدَّ رمقي، وبعد ذلك قمتُ ومشيتُ في الجزيرة ولم أزل على هذه الحالة طول النهار والليل، وكلما أجوع أكل من النبات، ولم أزل على هذه الحالة مدة سبعة أيام بلياليها، فلما كانت صبيحة اليوم الثامن لاحت مني نظرة، فرأيت شبحاً من بعيد، فسرتُ إليه، ولم أزل سائراً إلى أن حصلت بعد غروب الشمس، فحققتُ النظر فيه وأنا بعيد عنه، وقلبي خائف من الذي قاسيته أولاً وثانياً، وإذا هم جماعة يجمعون حبَّ الفلفل، فلما قربت منهم ونظروني تسارعوا إليّ، وجاءوا عندي، وقد أحاطوا بي من

كل جانب، وقالوا لي: مَنْ أنت؟ ومن أين أقبلت؟ فقلت لهم: اعلموا يا جماعة أنني رجل غريب مسكين. وأخبرتهم بجميع ما كان من أمري، وما جرى لي من الأهوال والشدائد، وما قاسيته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٥٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد البحري لما رأى الجماعة الذين يجمعون الفلفل في الجزيرة وسأله عن حاله، حكى لهم جميع ما جرى له، وما قاساه من الشدائد، فقالوا: والله هذا أمر عجيب، ولكن كيف خلاصك من السودان؟ وكيف مرورك عليهم في هذه الجزيرة وهم خلق كثيرون، ويأكلون الناس، ولا يسلم منهم أحد، ولا يقدر أن يجوز عليهم أحد؟ فأخبرتهم بما جرى لي معهم، وكيف أخذوا أصحابي، وأطعموهم الطعام ولم أكل منه؛ فهنوني بالسلامة، وصاروا يتعجبون مما جرى لي، ثم أجلسوني عندهم حتى فرغوا من شغلهم، وأتوني بشيء من الطعام المالح، فأكلت منه وكنت جائعًا، وارتحت عندهم ساعة من الزمان، وبعد ذلك أخذوني، ونزلوا بي في مركب، وجاءوا إلى جزيرتهم ومساكنهم، وقد عرضوني على ملكهم، فسلمت عليهم ورحب بي وأكرموني، وسألني عن حالي، فأخبرته بما كان من أمري، وما جرى لي، وما اتفق لي من يوم خروجي من مدينة بغداد إلى حين وصلت إليه، فتعجب ملكهم من قصتي وما اتفق لي غاية العجب، هو ومن كان حاضرًا في مجلسه، ثم إنه أمرني بالجلوس عنده فجلست، وأمر بإحضار الطعام فأحضروه، فأكلت منه على قدر كفايتي، وغسلت يدي، وشكرت فضل الله تعالى وحمدته، وأثنيت عليه.

ثم إنني قمت من عند ملكهم، وتفرجت في مدينته؛ فإذا هي مدينة عامرة كثيرة الأهل والمال، كثيرة الطعام والأسواق والبضائع والبائعين والمشتريين؛ ففرحت بوصولي إلى تلك المدينة، وارتاح خاطري، واستأنست بأهلها، وصرت عندهم وعند ملكهم معززًا مكرمًا، زيادة على أهل مملكته من عظماء مدينته، ورأيت جميع أكابرها وأصاغرها يركبون الخيول الجياد الملاح من غير سروج، فتعجبْتُ من ذلك، ثم إنني قلت للملك: لأي شيء يا مولاي لم تركب على سرج؟ فإن فيه راحةً للراكب، وزيادة قوة. فقال لي: كيف يكون السرج؟ هذا شيء عمرنا ما رأيناه، ولا ركبنا عليه. فقلت له: هل لك أن تأذن لي أن أصنع

لك سرجاً تركب عليه، وتنظر حظه؟ فقال لي: افعل. فقلت له: أحضر لي شيئاً من الخشب. فأمر لي بإحضار جميع ما طلبته؛ فعند ذلك طلبت نجاراً شاطرًا، وجلست عنده، وعلمته صنعة السرج، وكيف يعمل، ثم إنني أخذت صوفًا ونفشته، وصنعت منه لبدًا، وأحضرت جلدًا وألبسته للسرج وصقلته، ثم إنني ركبت سيوره، وشدت شريحته، وبعد ذلك أحضرت الحداد، ووصفت له كيفية الركاب، فدقَّ ركابًا عظيمًا، وبردته، وبيّضته بالقزدير، ثم إنني شددت له أهدابًا من الحرير، وبعد ذلك قمت وجئت بحصان من خيار خيول الملك، وشدت عليه ذلك السرج، وعلّقت فيه الركاب، وألجمته بلجام، وقدمته إلى الملك؛ فأعجبه ولاق بخاطره وشكرني، وركب عليه، وقد حصل له فرح شديد بذلك السرج، وأعطاني شيئًا كثيرًا في نظير عملي له. فلما نظرني وزيره عملت ذلك السرج، طلب مني واحدًا مثله، فعملت له سرجًا مثله، وقد صار أكابر الدولة وأصحاب المناصب يطلبون مني السروج، فأفعل لهم، وعلمت النجار صنعة السرج، والحداد صنعة الركاب، وصرنا نعمل السروج والركابات، ونبيعها للأكابر والمخاديم، وقد جمعت من ذلك مالًا كثيرًا، وصار لي عندهم مقام كبير، وحبوني محبةً زائدة، وبقيت صاحب منزلة عالية عند الملك وجماعته، وعند أكابر البلد وأرباب الدولة، إلى أن جلستُ يومًا من الأيام عند الملك وأنا في غاية السرور والعز. فبينما أنا جالس قال لي الملك: اعلم يا هذا أنك صرت معززًا مكرمًا عندنا، وواحدًا منّا، ولا نقدر على مفارقتك، ولا نستطيع خروجك من مدينتنا، ومقصودي منك شيء تطيعني فيه، ولا ترد قولي. فقلت له: وما الذي تريد مني أيها الملك؟ فإنني لا أرد قولك؛ لأنه صار لك فضل وجميل وإحسان عليّ، والحمد لله أنا صرت من بعض خدامك. فقال: أريد أن أزوّجك عندنا بزوجة حسنة، مليحة ظريفة، صاحبة مال وجمال، وتصير مستوطنًا عندنا، وأسكنك عندي وفي قصري، فلا تخالفني، ولا ترد كلمتي. فلما سمعتُ كلام الملك استحييتُ منه وسكتُ، ولم أرد عليه جوابًا من كثرة الحياء منه، فقال لي: لِمَ لا ترد عليّ يا ولدي؟ فقلت له: يا سيدي، الأمر أمرك يا ملك الزمان. فأرسل من وقته وساعته، وأحضر القاضي والشهود، وزوّجني في ذلك الوقت بامرأة شريفة القدر، عالية النسب، كثيرة المال والنوال، عظيمة الأصل، بديعة الجمال والحسن، صاحبة أماكن وأماكن وعقارات. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٥٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن السندباد البحري بعد أن زوّجه الملك وعقد له على امرأة عظيمة، قال: ثم إنه أعطاني بيتاً عظيماً مليحاً بمفرده، وأعطاني خدماً وحشماً، ورتّب له جرايات وجوامك، وصرت في غاية الراحة والبسط والانشراح، ونسيت جميع ما حصل لي من التعب والمشقة والشدة، وقلت في نفسي: إذا سافرتُ إلى بلادي أخذها معي، وكلُّ مقدر على الإنسان لا بد منه، ولم يعلم أحد بما يجري له، وقد أحببتها وأحببني محبة عظيمة، ووقع الوفاق بيني وبينها، وقد أقمنا في ألد عيش وأرغد مورد. ولم نزل على هذه الحالة مدةً من الزمان، فأفقد الله تعالى زوجة جاري، وكان صاحباً لي، فدخلت إليه لأعزيه في زوجته، فرأيته في أسوأ حال، وهو مهموم تعبان السر والخاطر، فعند ذلك عزيته وسليته، وقلت له: لا تحزن على زوجتك، الله يعوضك خيراً بأحسن منها، ويكون عمرك طويلاً إن شاء الله تعالى. فبكى بكاءً شديداً، وقال لي: يا صاحبي، كيف أتزوّج بغيرها؟ أو كيف يعوّضني الله خيراً منها، وأنا بقي من عمري يوم واحد؟ فقلت له: يا أخي، ارجع لعقلك، ولا تبشّر على روحك بالموت؛ فإنك طيب بخير وعافية. فقال لي صاحبي: وحياتك في غدٍ تعدمني، وما بقيت عمرك تنظرنني. فقلت له: وكيف ذلك؟ فقال لي: في هذا النهار يدفنون زوجتي، ويدفنوني معها في القبر، فإنها عادتنا في بلادنا، إذا ماتت المرأة يدفنون معها زوجها بالحياة، وإن مات الرجل يدفنون معه زوجته بالحياة، حتى لا يتلذذ أحد منهم بالحياة بعد رفيقه. فقلت له: بالله إن هذه العادة رديئة جدّاً، وما يقدر عليها أحد.

فبينما نحن في ذلك الحديث، وإذا بغالب أهل المدينة قد حضروا وصاروا يعزّون صاحبي في زوجته، وفي نفسه، وقد شرعوا في تجهيزها على جري عاداتهم، فأحضروا تابوتاً، وحملوا فيه المرأة، وذلك الرجل معهم، وخرجوا بهما إلى خارج المدينة، وأتوا إلى مكان في جانب الجبل على البحر، وتقدّموا على مكان، ورفعوا عنه حجراً كبيراً، فبان من

تحت ذلك الحجر خرزة من حجر مثل خرزة البئر، فرموا تلك المرأة فيها، وإذا هو جب كبير تحت الجبل، ثم إنهم جاءوا بذلك الرجل، وربطوه تحت صدره في سلبة، وأنزلوه في ذلك الجب، وأنزلوا عنده كوزَ ماءٍ عذبٍ كبيرًا، وسبعة أرغفة من الزاد، ولما نزلوه، فكَّ نفسه من السلبة، فسحبوا السلبة، وغطوا فم البئر بذلك الحجر مثلما كان، وانصرفوا إلى حال سبيلهم، وتركوا صاحبي عند زوجته في الجب، فقلت في نفسي: والله إن هذا الموت أصعب من الموت الأول. ثم إني جئتُ عند ملكهم وقلت له: يا سيدي، كيف تدفنون الحي مع الميت في بلادكم؟ فقال لي: أعلم أن هذه عادتنا في بلادنا، إذا مات الرجل ندفن معه زوجته، وإذا ماتت المرأة ندفن معها زوجها بالحياة حتى لا نفرِّق بينهما في الحياة، ولا في الممات، وهذه العادة عن أجدادنا. فقلت: يا ملك الزمان، وكذلك الرجل الغريب مثلي إذا ماتت زوجته عندكم تفعلون به مثل ما فعلتم بهذا؟ فقال لي: نعم، ندفنه معها، ونفعل به كما رأيت. فلما سمعت ذلك الكلام منه انشقتُ مرارتي من شدة الغم والحزن على نفسي، وذهل عقلي، وصرت خائفًا أن تموت زوجتي قبلي فيدفنوني معها وأنا بالحياة. ثم إني سليت نفسي وقلت: لعلِّي أموت أنا قبلها، ولا يعلم أحدُ السابق من اللاحق. وصرت أتلَّه في بعض الأمور، فما مضت مدة يسيرة بعد ذلك حتى مرضت زوجتي، وقد مكثت أيامًا قلائل وماتت، فاجتمع غالب الناس يعزونني، ويعزون أهلها فيها، وقد جاءني الملك يعزيني فيها على جري عادتهم.

ثم إنهم جاءوا لها بغاسلة فغسلوها، وألبسوها أفخر ما عندها من الثياب والمصاغ والقلائد والجواهر من المعادن، فلما ألبسوا زوجتي وحطوها في التابوت، وحملوها وراحوا بها إلى ذلك الجبل، ورفعوا الحجر عن فم الجب وألقوها فيه، تقدَّم جميع أصحابي وأهل زوجتي يودِّعونني في روعي، وأنا أصبح بينهم: أنا رجل غريب، وليس لي صبر على عادتكم. وهم لا يسمعون قولي، ولا يلتفتون إلى كلامي؛ ثم إنهم أمسكوني وربطوني بالغصب، وربطوا معي سبعة أقراص من الخبز، وماء عذب على جري عادتهم، وأنزلوني في ذلك البئر، فإذا هو مغارة كبيرة تحت ذلك الجبل، وقالوا لي: فكَّ نفسك من الحبال. فلم أرَضَ أن أفكَّ نفسي، فرموا عليَّ الحبال، ثم غطوا فم ذلك البئر بذلك الحجر الكبير الذي كان عليه، وراحوا إلى حال سبيلهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٥٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما حطوه في المغارة مع زوجته التي ماتت، وردوا باب المغارة، وراحوا إلى حال سبيلهم، قال: وأما أنا فأني رأيتُ في تلك المغارة أمواتًا كثيرة، ورائحتها منتنة كريهة، فلمتُ نفسي على ما فعلته، وقلت: والله إنني أستحق جميع ما يجري لي، وما يقع لي. ثم إنني صرت أعرف الليل من النهار، وصرت أتقوت باليسير، ولا أكل حتى يكاد أن يقطعني الجوع، ولا أشرب حتى يشد بي العطش، وأنا خائف أن يفرغ ما عندي من الزاد والماء، وقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أي شيء بلاني بالزواج في هذه المدينة؟ وكلما أقول خرجت من مصيبة أقع في مصيبة أقوى منها، والله إن موتي هذا موت مشئوم، يا ليتني غرقت في البحر، أو مت في الجبال، كان أحسن لي من هذا الموت الرديء. ولم أزل على هذه الحالة ألوم نفسي، ونمت على عظام الأموات، واستعنت بالله، وصرت أتمنى الموت فلم أجده من شدة ما أنا فيه، ولم أزل على هذه الحالة حتى أحرق قلبي الجوع، وألهبني العطش، فقعدت وحسست على الخبز، وأكلت منه شيئًا قليلًا، وتجرّعت عليه شيئًا قليلًا من الماء، ثم إنني قمت وقفت على حيلي وصرت أمشي في جوانب تلك المغارة، فرأيتها متسعة الجوانب، خالية البطون، ولكن في أرضها أموات كثيرة، وعظام رميمة من قديم الزمان، فعند ذلك عملت لي مكانًا في جانب المغارة بعيدًا عن الموتى الطريين، وصرت أنام فيه، وقد قلّ زادي، ولم يَبَقْ معي إلا شيء يسير، وقد كنت أكل في كل يوم أو أكثر أكلةً وأشرب شربة؛ خوفًا من فراغ الماء والزاد من عندي قبل موتي.

ولم أزل على هذه الحالة إلى أن جلست يومًا من الأيام. فبينما أنا جالس متفكر في نفسي كيف أفعل إذا فرغ زادي والماء من عندي، وإذا بالصخرة قد تزحزحت من مكانها، ونزل منه النور عندي، فقلت: يا ترى ما الخبر؟ وإذا بالقوم واقفون على رأس البئر

وقد نزلوا رجلاً ميتاً، وامرأة معه بالحياة، وهي تبكي وتصيح على نفسها، وقد نزلوا عندها شيئاً كثيراً من الزاد والماء، فصرت أنظر المرأة وهي لم تتظرنني، وقد غطوا فم البئر بالحجر، وانصرفوا إلى حال سبيلهم، فقمْتُ أنا وأخذت في يدي قصبه رجل ميت، وجئت إلى المرأة وضربتُها في وسط رأسها، فوقعت على الأرض مغشياً عليها، فضربتُها ثانياً وثالثاً فماتت، فأخذتُ خبزها وما معها، ورأيتُ عليها شيئاً كثيراً من الحلي والحلل والقلائد والجواهر والمعادن، ثم إنني أخذت الماء والزاد الذي مع المرأة، وقعدت في الموضع الذي كنت عملته في جانب المغارة لأنام فيه، وصرت أكل من ذلك الزاد شيئاً قليلاً على قدر ما يقوتني حتى لا يفرغ بسرعة فأموت من الجوع والعطش، وأقمت في تلك المغارة مدة من الزمان، وأنا كل مَنْ دفنوه أقتل مَنْ دُفِنَ معه بالحياة، وأخذ أكله وشربه أتقوت به، إلى أن كنت نائماً يوماً من الأيام فاستيقظتُ من منامي، وسمعت شيئاً يركب في جانب المغارة، فقلت: ما يكون هذا؟ ثم إنني قمت ومشيت نحوه ومعني قصبه رجل ميت، فلما أحسَّ بي فرَّ وهرب مني، فإذا هو وحش، فتبعته إلى صدر المغارة، فبان لي نور من مكان صغير مثل النجمة، تارة يبان لي، وتارة يخفى عني، فلما نظرتُه قصدت نحوه، وبقيت كلما أتقرب منه يظهر لي نور منه ويتسع؛ فعند ذلك تحققت أنه خرَّق في تلك المغارة ينفذ للخلاء، فقلت في نفسي: لا بد أن يكون لهذا المكان حركة، إما أن يكون فماً ثانياً مثل الذي نزلوني منه، وإما أن يكون تخريق من هذا المكان.

ثم إنني تفكرت في نفسي ساعة من الزمان، ومشيت إلى ناحية النور، وإذا به نقب في ظهر الجبل من الوحوش نقبوه، وصاروا يدخلون منه إلى هذا المكان، ويأكلون الموتى حتى يشبعوا ويطلعوا من ذلك النقب، فلما رأيته هدأت واطمأنت نفسي، وارتاح قلبي، وأيقنت بالحياة بعد الممات، وصرت كأني في المنام، ثم إنني عالجت حتى طلعت من ذلك النقب، فرأيت نفسي على جانب البحر المالح فوق جبل عظيم، وهو قاطع بين البحرين، وبين الجزيرة والمدينة، ولا يستطيع أحد الوصول إليه، فحمدت الله تعالى وشكرته، وفرحت فرحاً عظيماً، وقوي قلبي. ثم إنني بعد ذلك رجعت من النقب إلى تلك المغارة، ونقلت جميع ما فيها من الزاد والماء الذي كنت وفَّرْتُهُ، ثم إنني أخذت من ثياب الأموات، ولبست شيئاً منها غير الذي كان عليّ، وأخذت مما عليهم شيئاً كثيراً من أنواع العقود والجواهر، وقلائد اللؤلؤ، والمصاغ من الفضة والذهب المُرصَّع بأنواع المعادن والتحف، وربطت في ثيابي ثياب الموتى، وطلعتها من النقب إلى ظهر الجبل، ووقفت على جانب البحر، وبقيت في كل يوم أنزل المغارة وأطلع عليها، وكل مَنْ دفنوه أخذ زاده وماءه وأقتله سواء كان

ذكرًا أو أنثى، وأطلع من ذلك النقب فأجلس على جانب البحر لانتظر الفرج من الله تعالى
بمركب تجوز عليّ، وصرت أنقل من تلك المغارة كل شيء رأيت من المصاغ، وأربطه في
ثياب الموتى، ولم أزل على هذه الحالة مدةً من الزمان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت
عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٥٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري صار ينقل من تلك المغارة ما يلقاه فيها من المصاغ وغيره، ويجلس على جانب البحر مدةً من الزمان، قال: فبينما أنا جالس يوماً من الأيام على جانب البحر وأنا متفكّر في أمري، وإذا بمركب جائز في وسط البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، فأخذت في يدي ثوباً أبيض من ثياب الموتى، وربطته في عكاز، وجريت به على شاطئ البحر، وصرت أشير إليهم بذلك الثوب حتى لاحت منهم التفتاة، فرأوني وأنا في رأس الجبل، فجاءوا إليّ وسمعوا صوتي، وأرسلوا إليّ زورقاً من عندهم وفيه جماعة من المركب، فلما قربوا مني قالوا: مَنْ أنت؟ وما سبب جلوسك في هذا المكان؟ وكيف وصلت إلى هذا الجبل؟ وما في عمرنا رأينا أحداً جاء إليه. فقلت لهم: إني رجل تاجر، غرقت المركب التي كنت فيها، فطلعت على لوح ومعني حوائجي، وقد سهّل الله عليّ بالطلوع إلى هذا المكان وحوائجي معي باجتهادي وشطارتي بعد تعب شديد. فأخذوني معهم في الزورق وحملوا جميع ما كنتُ أخذته من المغارة مربوطاً في الثياب والأكفان، وساروا بي إلى أن طلّعوني المركب عند الرئيس ومعني حوائجي؛ فقال لي الرئيس: يا رجل، كيف وصولك إلى هذا المكان وهو جبل عظيم ووراءه مدينة عظيمة، وأنا عمري أسافر في هذا البحر وأجوز على هذا الجبل، فلم أرَ أحداً فيه غير الوحوش والطيور؟ فقلت له: إني رجل تاجر، كنت في مركب كبيرة وقد انكسرت وغرق جميع أسبابي من هذا القماش والثياب كما تراها، فوضعتها على لوح كبير من ألواح المركب، فساعدتني القدرة والنصيب حتى طلعت على الجبل، وقد صرت أنتظر أحداً يجوز فيأخذني معه. ولم أخبرهم بما جرى لي في المدينة ولا في المغارة؛ خوفاً أن يكون معهم أحد في المركب من تلك المدينة.

ثم إني طلعت لصاحب المركب شيئاً كثيراً من مالي وقلت له: يا سيدي، أنت سبب نجاتي من هذا الجبل، فخذ هذا مني نظير جميلك الذي فعلته معي. فلم يقبله مني وقال

لي: نحن لا نأخذ من أحد شيئاً، وإذا رأينا غريقاً على جانب البحر أو في الجزيرة نحمله معنا ونُطعمه ونسقيه، وإن كان عرياناً نكسوه، ولما نصل إلى بندر السلامة نعطيه شيئاً من عندنا هديةً، ونعمل معه المعروف والجميل لوجه الله تعالى. فعند ذلك دعوت له بطول العمر. ولم نزل مسافرين من جزيرة إلى جزيرة، ومن بحر إلى بحر، وأنا أرجو النجاة، وصرت فرحاناً بسلامتي، وكلما أتفكر قعودي في المغارة مع زوجتي يغيب عقلي، وقد وصلنا بقدرة الله مع السلامة إلى مدينة البصرة، فطلعت إليها وأقمت فيها أياماً قلائل، وبعدها جئتُ إلى مدينة بغداد، فجئتُ إلى حارتي ودخلت داري، وقابلت أهلي وأصحابي، وسألت عنهم؛ ففرحوا بسلامتي وهنوني، وقد خزنت جميع ما كان معي من الأمتعة في حواصلي، وتصدّقتُ ووهبتُ وكسوتُ الأيتام والأرامل، وصرت في غاية البسط والسرور، وقد عدت لما كنت عليه من المعاشرة والمرافقة، ومصاحبة الإخوان، واللهو والطرب، وهذا أعجب ما صار لي في السفرة الرابعة، ولكن يا أخي تعشى عندي، وخذ عادتك، وفي غدٍ تجيء عندي فأخبرك بما كان لي وما جرى لي في السفرة الخامسة؛ فإنها أعجب وأغرب مما سبق.

ثم أمر له بمائة مثقالٍ ذهباً، ومدَّ السماط، وتعشى الجماعة، وانصرفوا إلى حال سبيلهم، وهم متعجبون غاية العجب، وكل حكاية أعظم من التي قبلها، وقد راح السندباد الحمال إلى منزله، وبات في غاية البسط والانشراح وهو متعجب، ولما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، قام السندباد البري وصلى الصبح، وتمشّى إلى أن دخل دار السندباد البحري وصبّح عليه، فرحّب به وأمره بالجلوس عنده حتى جاء بقية أصحابه، فأكلوا وشربوا، وتلذذوا وطربوا، ودارت بينهم المحادثة، فابتدأ السندباد البحري بالكلام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٥٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري ابتدأ بالكلام فيما جرى له وما وقع له في الحكاية الخامسة، فقال: اعلموا يا إخواني أنني لما رجعت من السفرة الرابعة، وقد غرقت في اللهو والطرب والانشراح، وقد نسيت جميع ما كنت لقيته، وما جرى لي وما قاسيته، من شدة فرحي بالمكسب والربح والفوائد، فحدّثتني نفسي بالسفر، والتفرّج في بلاد الناس وفي الجزائر، فقامت وهممت في ذلك الوقت، واشتريت بضاعة نفيسة تناسب البحر، وحزمت الحمول، وسرت من مدينة بغداد، وتوجّهتُ إلى مدينة البصرة، ومشيت على جانب الساحل، فرأيت مركبًا كبيرة عالية مليحة، فأعجبتنني فاشتريتها، وكانت عدتها جديدة، واكترت لها ريسًا وبحرية، ونظرت عليها عبيدي وغلماي، وأنزلت فيها حمولي، وجاءني جماعة من التجار فنزلوا حمولهم فيها، ودفعوا إليّ الأجرة، وسرنا ونحن في غاية الفرح والسرور، وقد استبشرنا بالسلامة والكسب، ولم نزل مسافرين من جزيرة إلى جزيرة، ومن بحر إلى بحر، ونحن نتفرج في الجزائر والبلدان، ونطلع إليها نبيع فيها ونشتري.

ولم نزل على هذه الحالة إلى أن وصلنا يومًا من الأيام إلى جزيرة خالية من السكان، وليس فيها أحد، وهي خراب قفرًا، وفيها قبة عظيمة بيضاء كبيرة الحجم، فطلعنا نتفرج عليها، وإذا هي بيضة رخ كبيرة، فلما طلع التجار إليها وتفرجوا عليها، ولم يعلموا أنها بيضة رخ، ضربوها بالحجارة فكُسرت، ونزل منها ماء كثير، وقد بان منها فرخ الرخ، فسحبوه منها وطلّعوه من تلك البيضة وذبحوه، وأخذوا منه لحمًا كثيرًا، وأنا في المركب ولم أعلم، ولم يُطْلِعُونِي على ما فعلوه، فعند ذلك قال لي واحد من الركاب: يا سيدي، قم تفرّج على هذه البيضة التي نحسبها قبة. فقامت لأتفرج عليها، فوجدت التجار يضربون البيضة، فصحت عليهم: لا تفعلوا هذا الفعل، فيطلع طير الرخ ويكسر مركبنا ويهلكنا. فلم يسمعوا كلامي، فبينما هم على هذه الحالة، وإذا بالشمس قد غابت عنا، والنهار

أظلم، وصار فوقنا غمامة أظلم الجو منها، فرفعنا رءوسنا لننظر ما الذي حال بيننا وبين الشمس؟ فرأينا أجنحة الرخ هي التي حجبَتْ عنا ضوء الشمس حتى أظلم الجو؛ وذلك لما جاء الرخ ورأى بيضته انكسرت، صاح علينا، فجاءت رفيقته وصارا حائمين على المركب يصرخان علينا بصوتٍ أشد من الرعد، فصحت أنا على الرئيس والبحرية، وقلت لهم: ادفعوا المركب، واطلبوا السلامة قبل ما نهلك. فأسرع الرئيس، وطلع التجار، وحلَّ المركب، وسرنا في تلك الجزيرة.

فلما رأنا الرخ سرنا في البحر، غاب عنا ساعة من الزمان، وقد سرنا وأسرعنا في السير بالمركب نريد الخلاص منهما، والخروج من أرضهما، وإذا بهما قد تبعانا، وأقبلَا علينا، وفي رجلٍ كل واحد منهما صخرة عظيمة من الجبل، فألقى الصخرة التي كانت معه علينا، فجذب الرئيس المركب، وقد أخطأها نزول الصخرة بشيء قليل، فنزلت في البحر تحت المركب، فقامت بنا المركب وقعدت من عظم وقوعها في البحر، وقد رأينا قرار البحر من شدة عزمها. ثم إن رفيقة الرخ أَلْقَتْ علينا الصخرة التي معها وهي أصغر من الأولى، فنزلت بالأمر المقدر على مؤخر المركب فكسرتة، وطيرت الدفة عشرين قطعة، وقد غرق جميع ما كان في المركب في البحر، فصرت أحاول النجاة لحلاوة الروح، فقدر الله تعالى لي لوحًا من ألواح المركب، فشبطت فيه وركبته، وصرت أقذف عليه برجلي، والريح والموج يساعداني على السير، وكانت المركب غرقت بالقرب من جزيرة في وسط البحر، فرمتني المقادير بإذن الله تعالى إلى تلك الجزيرة، فطلعت عليها وأنا على آخر نفس، وفي حالة الموتى من شدة ما قاسيته من التعب والمشقة، والجوع والعطش، ثم إنني انطرحت على شاطئ البحر ساعة من الزمان حتى ارتاحت نفسي، واطمأن قلبي، ثم مشيت في تلك الجزيرة فرأيتها كأنها روضة من رياض الجنة، أشجارها يانعة، وأنهارها دافقة، وطيورها مغردة، تسبح من له العزة والبقاء، وفي تلك الجزيرة شيء كثير من الأشجار والفواكه وأنواع الأزهار، فعند ذلك أكلتُ من الفواكه حتى شبعت، وشربت من تلك الأنهار حتى رويت، وحمدت الله تعالى على ذلك، وأثنت عليه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٥٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما طلع من الغرق إلى الجزيرة، وأكل من فواكهها وشرب من أنهارها وحمد الله وأثنى عليه، قال: ولم أزل على هذه الحالة قاعدًا في الجزيرة إلى أن أمسى المساء، وأقبل الليل، وأنا مثل القاتل مما حصل لي من التعب والخوف، ولم أسمع في تلك الجزيرة صوتًا، ولم أرَ فيها أحدًا، ولم أزل راقدًا فيها إلى الصباح، ثم قمت على حيلي ومشيت بين تلك الأشجار، فرأيتُ ساقية على عين ماء جارية، وعند تلك الساقية شيخ جالس مليح، وذلك الشيخ مؤزَّر بإزارٍ من ورق الأشجار، فقلت في نفسي: لعل هذا الشيخ طلع إلى هذه الجزيرة، وهو من الغرقاء الذين كُسرَ بهم المركب. ثم دنوتُ منه وسلَّمْتُ عليه، فردَّ عليَّ السلام بالإشارة ولم يتكلم، فقلت له: يا شيخ، ما سبب جلوسك في هذا المكان؟ فحرَّكَ رأسه وتأسَّفَ، وأشار لي بيده: يعني احملني على رقبتك، وانقلني من هذا المكان إلى جانب الساقية الثانية، فقلت في نفسي: أعمل مع هذا معروفًا، وأنقله إلى هذا المكان الذي يريد، لعل ثوابه يحصل لي. فتقدَّمتُ إليه وحملته على أكتافي، وجبْتُ إلى المكان الذي أشار لي إليه، وقلت له: انزل على مهلك. فلم ينزل عن أكتافي، وقد لفَّ رجله على رقبتني، فنظرت إلى رجلَيْه، فرأيتهما مثل جلد الجاموس في السواد والخشونة، ففزعت منه وأردت أن أرميه من فوق أكتافي، فقرط على رقبتني برجلَيْه وخنقني بهما حتى اسودَّت الدنيا في وجهي، وغبت عن وجودي، ووقعت في الأرض مغشيًا عليَّ مثل الميت، فرفع ساقيه وضربني على ظهري وعلى أكتافي، فحصل لي ألم شديد، فنهضت قائمًا به وهو راكب على أكتافي، وقد تعبت منه، فأشار لي بيده أن أدخل بين الأشجار إلى أطيب الفواكه، وإذا خالفته يضربني برجلَيْه ضربًا أشد من ضرب الأسواط. ولم يزل يشير لي بيده إلى كل مكان أرادته وأنا أمشي به إليه، وإن توانيت أو تمهلْتُ يضربني، وأنا معه شبه الأسير، وقد دخلنا في وسط الجزيرة بين الأشجار، وصار

يبول ويخري على أكتافي، ولا ينزل ليلاً ولا نهاراً، وإذا أراد النوم يلف رجله على رقبتني وبينام قليلاً، ثم يقوم ويضربني فأقوم مُسرِعاً به، ولا أستطيع مخالفته من شدة ما أقاسي منه، وقد ملت نفسي على ما كان مني من حملة والشفقة عليه. ولم أزل معه على هذه الحالة وأنا في أشد ما يكون من التعب، وقلت في نفسي: أنا فعلت مع هذا خيراً، فانقلب عليّ شراً، والله ما بقيتُ أفعل مع أحدٍ خيراً طول عمري. وقد صرت أتمنى الموت من الله تعالى في كل وقت وكل ساعة من كثرة ما أنا فيه من التعب والمشقة.

ولم أزل على هذه الحالة مدة من الزمان إلى أن جئتُ به يوماً من الأيام إلى مكان في الجزيرة، فوجدتُ فيه يقطيناً كثيراً، ومنه شيء يابس، فأخذت منه واحدة كبيرة يابسة، وفتحت رأسها وصفيتها ومشيت بها إلى شجرة العنب، فملأتها منها، وسددت رأسها، ووضعتها في الشمس، وتركتها مدة أيام حتى صارت خمراً صرفاً، وصرت كل يوم أشرب منه لأستعين به على تعبي مع ذلك الشيطان المرید، وكلما سكرت منها تقوى همتي، فنظرني يوماً من الأيام وأنا أشرب، فأشار لي بيده: ما هذا؟ فقلت له: هذا شيء مريح يقوي القلب ويشرح خاطر. ثم إني جريت به ورقصت بين الأشجار، وحصل لي نشوة من السكر، فصَفَّقْتُ وَغَنَيْتُ وانشرحت، فلما رأني على هذه الحالة، أشار لي أن أناوله الیقطينة ليشرب منها، فحَفَّتْ منه وأعطيتها له، فشرب ما كان باقياً فيها، ورماها على الأرض، وقد حصل له طرب، فصار يهتز على أكتافي، ثم إنه سكر وغرق في السكر، وقد ارتخت جميع أعضائه وفرائصه، وصار يتمايل من فوق أكتافي، فلما علمت بسكره وأنه غاب عن الوجود، مدت يدي إلى رجله، وفككتهما من رقبتني، ثم ملت به إلى الأرض، وألقيته عليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٥٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما ألقى الشيطان عن أكتافه على الأرض قال: فما صدَّقْتُ أنني خلصت نفسي ونجوت من ذلك الأمر الذي كنت فيه، ثم إنني خفت منه أن يقوم من سكره ويؤذيني، وأخذت صخرة عظيمة من بين الأشجار وجئت إليه، فضربتة على رأسه وهو نائم، فاختلط لحمه بدمه، وقد قُتِل، فلا رحمة الله عليه. وبعد ذلك مشيت في الجزيرة وقد ارتاح خاطري، وجئت إلى المكان الذي كنت فيه على ساحل البحر، ولم أزل في تلك الجزيرة أكل من أثمارها، وأشرب من أنهارها مدة من الزمان، وأنا أترقب مركبًا تمر عليَّ، إلى أن كنت جالسًا يومًا من الأيام متفكرًا فيما جرى لي، وما كان من أمري، وأقول في نفسي: يا ترى، هل يبقيني الله سالمًا، ثم أعود إلى بلادي، وأجتمع بأهلي وأصحابي؟ وإذا بمركب قد أقبلت من وسط البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، ولم تنزل سائرة حتى رست على تلك الجزيرة، وطلع منها الركاب إلى الجزيرة، فمشيت إليهم، فلما نظروني أقبلوا عليَّ كلهم مُسرَّعين، واجتمعوا حولي وقد سألوني عن حالي، وما سبب وصولي إلى تلك الجزيرة، فأخبرتهم بأمرى، وما جرى لي، فتعجبوا من ذلك غاية العجب، وقالوا لي: إن هذا الرجل الذي ركب على أكتافك يُسمَّى شيخ البحر، وما أحد دخل تحت أعضائه وخلص منه إلا أنت، والحمد لله على سلامتك.

ثم إنهم جاءوا إليَّ بشيء من الطعام، فأكلت حتى اكتفيت، وأعطوني شيئًا من الملابس لبسته، وسترت به عورتى، ثم أخذوني معهم في المركب وقد سرنا أيامًا وليالي، فرمنا المقادير على مدينة عالية البناء، جميع بيوتها مطلة على البحر، وتلك المدينة يُقال لها مدينة القروء، ولما يدخل الليل يأتي الناس الذين هم ساكنون في تلك المدينة، ويخرجون من هذه الأبواب التي على البحر، ثم ينزلون في زوارق ومراكب، ويبيتون في البحر خوفًا من القروء أن تنزل عليهم في الليل من الجبال. فطلعت أنفجر في تلك المدينة، فسافرت

المركب ولم أعلم، فندمتُ على طلوعي إلى تلك المدينة، وتذكَّرتُ رفقتي وما جرى لي مع القروء أولاً وثانياً، فقعدت أبكي وأنا حزين، فتقدَّم إليَّ رجل من أصحاب هذه البلد وقال لي: يا سيدي، كأنك غريب في هذه الديار؟ فقلت له: نعم، أنا غريب ومسكين، وكنت في مركب قد رست على تلك المدينة، فطلعت منه لأتفرج في المدينة، وعدت إليها فلم أراها. فقال: قُمْ وسِرْ معنا وانزل الزورق، فإنك إن قعدت في المدينة ليلاً أهلكك القروء. فقلت له: سمعاً وطاعة. وقمت من وقتي وساعتي ونزلت معهم في الزورق، ودفعوه من البر حتى أبعدوه عن ساحل البحر مقدار ميل، وباتوا تلك الليلة وأنا معهم.

فلما أصبح الصباح رجعوا بالزورق إلى المدينة، وطلعوا وراح كل واحد منهم إلى شغله، ولم تزل هذه عادتهم في كل ليلة، وكل مَنْ تخلف منهم في المدينة بالليل، جاء إليه القروء وأهلكوه، وفي النهار تطلع القروء إلى خارج المدينة فيأكلون من أثمار البساتين، ويرقدون في الجبال إلى وقت المساء، ثم يعودون إلى المدينة. وهذه المدينة في أقصى بلاد السودان، ومن أعجب ما وقع لي من أهل هذه المدينة، أن شخصاً من الجماعة التي بُتَّ معهم في الزورق قال لي: يا سيدي، أنت غريب في هذه الديار، فهل لك صنعة تشغل فيها؟ فقلت: لا والله يا أخي، ليس لي صنعة، ولست أعرف عمل شيء، وإنما أنا رجل تاجر صاحب مال ونوال، وكان لي مركب ملكي مشحونة بأموال كثيرة وبضائع فكسرت في البحر، وغرق جميع ما كان فيها، وما نجوت من الغرق إلا بإذن الله، فرزقني الله بقطعة لوح ركبته فكانت السبب في نجاتي من الغرق. فعند ذلك قام الرجل وأحضر لي مخللة من قطن وقال لي: خذ هذه المخللة واملأها حجارة زلط من هذه المدينة، وأخرج مع جماعة من أهل المدينة وأنا أرفقك بهم وأوصيهم عليك، وافعل كما يفعلون؛ فلعلك أن تعمل بشيء تستعين به على سفرك وعودك على بلادك. ثم إن ذلك الرجل أخذني وأخرجني إلى خارج المدينة، فنقيت حجارة صغاراً من الزلط، وملأت تلك المخللة، وإذا بجماعة خارجين من المدينة فأرفقني بهم وأوصاهم عليّ، وقال لهم: هذا رجل غريب، فخذوه معكم وعلموه اللقط؛ فلعله يعمل بشيء يتقوت به، ويبقى لكم الأجر والثواب. فقالوا: سمعاً وطاعة. ورحبوا بي وأخذوني معهم وساروا، وكل واحد منهم معه مخللة مثل المخللة التي معي مملوءة زلطاً.

ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى وادٍ واسع فيه أشجار كثيرة عالية لا يقدر أحد أن يطلع عليها، وفي ذلك الوادي قروء كثيرة، فلما رأنا هذه القروء نفرت منا وطلعت تلك الأشجار، فصاروا يرجمون القروء بالحجارة التي معهم في المخالي، والقروء تقطع من

ثمار تلك الأشجار، وترمي بها هؤلاء الرجال، فنظرت تلك الثمار التي ترميها القروء، وإذا هي جوز هندي، فلما رأيت ذلك العمل من القوم اخترتُ شجرةً عظيمةً عليها قروء كثيرة، وجئتُ إليها، وصرت أُرجم هذه القروء، فتقطع من ذلك الجوز وترميني به، فأجمعه كما يفعل القوم، فما فرغت الحجارة من مخلاتي حتى جمعت شيئاً كثيراً. فلما فرغ القوم من هذا العمل لموا جميع ما كان معهم، وحمل كل واحد منهم ما أطاقه، ثم عدنا إلى المدينة في باقي يومنا، فجنّتُ إلى الرجل صاحبي الذي أرفقني بالجماعة وأعطيته جميع ما جمعت، وشكرت فضله، فقال لي: خذ هذا بَعَه وانتفع بثمره. ثم أعطاني مفتاحَ مكانٍ في داره، وقال لي: ضَعُ في هذا المكان هذا الذي بقي معك من الجوز، واطلع في كل يوم مع الجماعة مثل ما طلعت هذا اليوم، والذي تجيء به مَيِّزٌ منه الرديء وبَعَه، وانتفع بثمره، واحفظه عندك في هذا المكان؛ فلعلك تجمع منه شيئاً يُعينك على سفرك. فقلت له: أجرك على الله تعالى. وفعلت مثل ما قال لي، ولم أزل في كل يوم أملاً المخلاة من الحجارة، وأطلع مع القوم، وأعمل مثل ما يعملون، وقد صاروا يتواصلون بي، ويدلونني على الشجرة التي فيها الثمر الكثير.

ولم أزل على هذه الحالة مدة من الزمان، وقد اجتمع عندي شيء كثير من الجوز الهندي الطيب، وبعث شيئاً كثيراً، وكثر عندي ثمنه، وصرت أشتري كلَّ شيء رأيتَه ولاق بخاطري، وقد صفا وقتي، وزاد في كل المدينة حظي، ولم أزل على هذه الحالة مدة؛ فبينما أنا واقف على جانب البحر، وإذا بمركب قد وردت إلى تلك المدينة، ورست على الساحل وفيها تجار معهم بضائع، فصاروا يبيعون ويشترون، ويقايضون على شيء من الجوز الهندي وغيره، فجنّتُ عند صاحبي وأعلمته بالمركب التي جاءت، وأخبرته بأني أريد السفر إلى بلادي، فقال: الرأي لك. فودّعته وشكرته على إحسانه إليّ، ثم إني جنّتُ عند المركب وقابلت الرئيس، واكتريت معه، ونزلت ما كان معي من الجوز وغيره في تلك المركب، وقد ساروا بالمركب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٥٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما نزل من مدينة القروذ في المركب، وأخذ ما كان معه من الجوز الهندي وغيره، واكترى مع الرئيس قال: وقد ساروا بالمركب في ذلك اليوم، ولم نزل سائرين من جزيرة إلى جزيرة، ومن بحر إلى بحر، وكل جزيرة رسينا عليها أبيع فيها من ذلك الجوز وأفايض، وقد عوّض الله عليّ بأزيد مما كان معي وضاع مني. وقد مررنا على جزيرة فيها شيء من القرفة والفلفل، وقد ذكر لنا جماعة أنهم نظروا على كل عنقود من عناقيد الفلفل ورقة كبيرة تظله، وتلقي عنه المطر إذا أمطرت، وإذا ارتفع عنه المطر انقلبت الورقة عن العنقود ونزلت بجانبه. فأخذت معي من تلك الجزيرة شيئاً كثيراً من الفلفل والقرفة مقايضةً بالجوز. وقد مررنا على جزيرة العسرات، وهي التي فيها العود القماري، ومن بعدها على جزيرة أخرى مسيرتها خمسة أيام، وفيها العود الصيني وهو أغلى من القماري، وأهل تلك الجزيرة أقبح حالةً ودينًا من أهل جزيرة العود القماري، فإنهم يحبون الفساد وشرب الخمر، ولا يعلمون الأذان ولا أمر الصلاة. وجئنا بعد ذلك إلى معاطن اللؤلؤ، فأعطينت الغواصين شيئاً من جوز الهند وقلت لهم: غوصوا على بختي ونصيبتي. فغاصوا في تلك البركة، وقد طلّعوا شيئاً كثيراً من اللؤلؤ الكبير الغالي وقالوا لي: يا سيدي، والله إن بختك سعيد. فأخذت جميع ما طلّعوه لي في المركب، وقد سرنا على بركة الله تعالى، ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا البصرة، فطلعت فيها، وأقمت بها مدة يسيرة، ثم توجّهت منها إلى مدينة بغداد، ودخلت حارتي، وجئت إلى بيتي، وسلّمت على أهلي وأصحابي، وهنوني بالسلامة، وخزنت جميع ما كان معي من البضائع والأمتعة، وكسوت الأيتام والأرامل، وتصدّقت ووهبت، وهاديت أهلي وأصحابي وأحبائي، وقد عوّض الله عليّ بأكثر مما راح مني أربع مرات، وقد نسيت ما جرى لي، وما قاسيته من التعب بكثرة الربح والفوائد، وعدت لما كنت عليه في الزمن الأول من المعاشرة

والصحبة، وهذا أعجب ما كان من أمري في السفرة الخامسة، ولكن تعشوا وفي غدٍ تعالوا أخبركم بما كان في السفرة السادسة؛ فإنها أعجب من هذه.

فعند ذلك مدوا السماط وتعشوا، فلما فرغوا من العشاء أمر السندباد للحمّال بمائة مثقال من الذهب، فأخذها وانصرف وهو متعجّب من ذلك الأمر، وبات السندباد الحمّال في بيته، ولما أصبح الصباح قام على حيله وصلى الصبح، ومشى إلى أن وصل إلى دار السندباد البحري، فدخل عليه، فأمره بالجلوس فجلس عنده، ولم يزل يتحدّث معه حتى جاء بقية أصحابه، فتحدثوا ومدوا السماط، وأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا، وابتدأ السندباد البحري يحدثهم بحكاية السفرة السادسة، فقال لهم: اعلموا يا إخواني وأحبائي وأصحابي أنني لما جئت من تلك السفرة الخامسة، ونسيت ما كنت قاسيته بسبب اللهو والطرب والبسط والانشراح، وأنا في غاية الفرح والسرور، ولم أزل على هذه الحالة إلى أن جلست يوماً من الأيام في حظ و سرور، وانشراح زائد، فبينما أنا جالس إذا بجماعة من التجار وردوا عليّ، وعليهم آثار السفر، فعند ذلك تذكرت أيام قدومي من السفر، وفرحي بلقاء أهلي وأصحابي وأحبائي، وفرحي بدخولي بلادي، فاشتاقْتُ نفسي إلى السفر والتجارة، فعزمتُ على السفر، واشتريتُ لي بضائع نفيسة فاخرة تصلح للبحر، وحملت حمولي، وسافرت من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، فرأيتُ مركباً عظيمة فيها تجارٌ وأكابر ومعهم بضائع نفيسة، فنزلت حمولي معهم في هذه المركب، وسرنا بالسلامة من مدينة البصرة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٦٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما جهَّزَ حموله، ونزلها في المركب من مدينة البصرة وسافرَ قال: ولم نزل مسافرين من مكان إلى مكان، ومن مدينة إلى مدينة ونحن نبيع ونشتري، ونتفرج على بلاد الناس، وقد طاب لنا السعد والسفر، واغتنمنا المعاش إلى أن كنَّا سائرين يوماً من الأيام، وإذا بريس المركب صرخ وصاح ورمى عمامته، ولطم على وجهه، وبتف لحيته، ووقع في بطن المركب من شدة الغم والقهر، فاجتمع عليه جميع التجار والركاب، وقالوا له: يا ريس، ما الخبر؟ فقال لهم الريس: اعلموا يا جماعة أننا قد تهنا بمركبنا، وخرجنا من البحر الذي كنا فيه، ودخلنا بحراً لم نعرف طريقه، وإذا لم يقيض الله لنا شيئاً خلَّصنا من هذا البحر، هلكنّا بأجمعنا، فادعوا الله تعالى أن ينجيننا من هذا الأمر.

ثم إن الريس قام على حيله وصعد على الصاري، وأراد أن يحل القلوع، فقوي الرياح على المركب، فردَّها على مؤخرها فانكسرت دفتها قُربَ جبلٍ عالٍ، فنزل الريس من الصاري وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا يقدر أحد أن يمنع المقدور، والله إننا قد وقعنا في مهلكة عظيمة، ولم يبقَ لنا منها مخلص ولا نجاة. فبكى جميع الركاب على أنفسهم، وودَّع بعضهم بعضاً لفرارهم، وانقطع رجاؤهم، ومالت المركب على ذلك الجبل فانكسرت، وتفرَّقت ألواحها، فغرق جميع ما كان فيها، ووقع التجار في البحر، فمَنهم مَن غرق، ومنهم مَن تمسَّكَ بذلك الجبل وطلع عليه، وكنت أنا من جملة مَضن طلع على ذلك الجبل، وإذا فيه جزيرة كبيرة عندها كثير من المراكب المكسرة، وفيها أرزاق كثيرة على شاطئ البحر من الذي يطرحه من المراكب التي كُسِرت وغرق رُكَّابها، وفيها شيء كثير يحير العقل والفكر من المتاع والأموال التي يلقيها البحر على جوانبها؛ فعند ذلك طلعتُ على تلك الجزيرة ومشيت فيها، فرأيت في وسطها عينَ ماءٍ عذب جارٍ خارج

من تحت أول ذلك الجبل، وداخل في آخره من الجانب الثاني؛ فعند ذلك طلع الركاب على ذلك الجبل إلى آخر الجزيرة، وانتشروا فيها، وقد ذهلت عقولهم من ذلك، وصاروا مثل المجانين من كثرة ما رأوا في الجزيرة من الأمتعة والأموال التي على ساحل البحر. وقد رأيتُ في وسط تلك العين شيئاً كثيراً من أصناف الجواهر والمعادن، واليواقيت واللائئ الكبار الملوكية، وهي مثل الحصى في مجاري الماء في تلك الغيطان، وجميع أرض تلك العين تبرق من كثرة ما فيها من المعادن وغيرها. ورأينا شيئاً كثيراً في تلك الجزيرة من أعلى العود الصيني، والعود القماري، وفي تلك الجزيرة عين نابغة من صنف العنبر الخام، وهو يسيل مثل الشمع على جانب تلك العين من شدة حر الشمس، ويمتد على ساحل البحر، فتطلع الهوايش من البحر تبلعه، وتنزل به في البحر فيحتمي في بطونها، فتقذفه من أفواهها في البحر، فيجمد على وجه الماء، فعند ذلك يتغير لونه وأحواله، فتقذفه الأمواج إلى جانب البحر، فيأخذه السياحون والتجار الذين يعرفونه فيبيعونه. وأما العنبر الخام الخالص من البلع، فإنه يسيل على جانب تلك العين، ويتجمد بأرضه، وإذا طلعت عليه الشمس يسيح وتبقى منه رائحة ذلك الوادي كله مثل المسك، وإذا زالت عنه الشمس يجمد. وذلك المكان الذي هو فيه هذا العنبر الخام لا يقدر أحدٌ على دخوله ولا يستطيع سلوكه، فإن الجبل محيط بتلك الجزيرة، ولا يقدر أحد على صعود ذلك الجبل. ولم نزل دائرين في تلك الجزيرة نتفرج على ما خلق الله تعالى فيها من الأرزاق ونحن متحيرون في أمرنا وفيما نراه، وعندنا خوف شديد، وقد جمعنا على جانب الجزيرة شيئاً قليلاً من الزاد، فصرنا نوفره ونأكل منه في كل يوم أو يومين أكلة واحدة، ونحن خائفون أن يفرغ الزاد منّا فنموت كمداً من شدة الجوع والخوف، وكل من مات منّا نغسله ونكفنه في ثياب وقماش من الذي يطرحه البحر على جانب الجزيرة، حتى مات منّا خلقٌ كثير، ولم يَبْقَ منّا إلا جماعة قليلة؛ فضعفنا بوجع البطن من البحر، وأقمنا مدةً قليلة، فمات جميع أصحابي ورفقائي واحداً بعد واحد، وكل من مات منهم ندفنه، وبقيت في تلك الجزيرة وحدي، وبقي معي زاد قليل بعد أن كان كثيراً، فبكيت على نفسي، وقلت: يا ليتني مت قبل رفقائي، وكانوا غسّلوني ودفنوني، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٦١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما دفن رفقاءه جميعاً، وصار في الجزيرة وحده قال: ثم إنني قمت مدة يسيرة، ثم قمت حفرت لنفسي حفرة عميقة في جانب تلك الجزيرة، وقلت في نفسي: إذا ضعفت وعلمت أن الموت قد أتاني، أرقد في هذا القبر فأموت فيه، ويبقى الريح يسفي الرمل عليّ فيغطيني، وأصير مدفوناً فيه، وصرت ألوم نفسي على قلة عقلي وخروجي من بلادي ومدينتي، وسفري إلى البلاد بعد الذي قاسيته أولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً، ولا سفرة من الأسفار إلا وأقاسي فيها أهوالاً وشدائد أشق وأصعب من الأهوال التي قبلها، وما أصدق بالنجاة والسلامة، وأتوب عن السفر في البحر، وعن عودي إليه، ولست محتاجاً لمال وعندي شيء كثير، والذي عندي لا أقدر أن أفنيه، ولا أضيع نصفه في باقي عمري، وعندي ما يكفيني وزيادة. ثم إنني تفكرت في نفسي وقلت: والله لا بد أن هذا النهر له أول وآخر، ولا بد له من مكان يخرج منه إلى العمار، والرأي السديد عندي أن أعمل لي فلکاً صغيراً على قدر ما أجلس فيه وأنزل وألقيه في هذا النهر، وأسير به، فإن وجدت خلاصاً أخلص وأنجو بإذن الله تعالى، وإن لم أجد لي مخلصاً أموت داخل هذا النهر أحسن من هذا المكان. وصرت أتحسّر على نفسي، ثم إنني قمت وسعيت فجمعت أخشاباً من تلك الجزيرة من خشب العود الصيني والقماري، وشددتها على جانب البحر بحبال من حبال المراكب التي كُسرت، وجئت بألواح متساوية من ألواح المراكب، ووضعتها في ذلك الخشب، وجعلت ذلك الفلك على عرض ذلك النهر أو أقل من عرضه، وشددته شدّاً طيباً مكيناً، وقد أخذت معي من تلك المعادن والجواهر والأموال واللؤلؤ الكبير الذي مثل الحصى، وغير ذلك من الذي في تلك الجزيرة، وشيئاً من العنبر الخام الخالص الطيب، ووضعت في ذلك الفلك، ووضعت فيه جميع ما جمعته من

الجزيرة، وأخذت معي جميع ما كان باقياً من الزاد. ثم إنني ألقيت ذلك الفلك في هذا النهر، وجعلت له خشبتين على جنبيه مثل المجاديف، وعملت بقول بعض الشعراء:

وَحَلَّ الدَّارَ تَنْعِي مَنْ بَنَاهَا	تَرَحَّلْ عَنْ مَكَانٍ فِيهِ ضَيْمٌ
وَنَفْسُكَ لَمْ تَجِدْ نَفْسًا سِوَاهَا	فَإِنَّكَ وَاحِدٌ أَرْضًا بِأَرْضٍ
فَكُلُّ مُصِيبَةٍ يَأْتِي أَنْتَاهَا	وَلَا تَجْزَعُ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي
فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا	وَمَنْ كَانَتْ مَنِيتُهُ بِأَرْضٍ
فَمَا لِلنَّفْسِ نَاصِحَةٌ سِوَاهَا	وَلَا تَبْعَثْ رَسُولَكَ فِي مُهِمٍّ

وسرت بذلك الفلك في النهر، وأنا متفكر فيما يصير إليه أمري، ولم أزل سائرًا إلى المكان الذي يدخل فيه النهر تحت ذلك الجبل، وأدخلت الفلك في ذلك المكان وقد صرت في ظلمة شديدة تحت الجبل، ولم يزل الفلك داخلًا بي مع الماء إلى ضيق تحت الجبل، وصارت جوانب الفلك تحك في جوانب النهر، ورأسي تحك في سقف النهر، ولم أقدر على أنني أعود منه، وقد لُمت نفسي على ما فعلته بروحي وقلت: إن ضاق هذا المكان على الفلك قلَّ أن يخرج منه ولا يمكن عوده، فأهلك في هذا المكان كمدًا بلا محالة. وقد انطرحت على وجهي في الفلك من ضيق النهر، ولم أزل سائرًا ولا أعلم ليلاً من نهار بسبب الظلمة التي أنا فيها تحت ذلك الجبل مع الفزع والخوف على نفسي من الهلاك. ولم أزل على هذه الحالة سائرًا في ذلك النهر وهو يتسع تارةً ويضيق أخرى، ولكن شدة الظلمة قد أتعبتني تعبًا شديدًا، فأخذتني سنة من النوم من شدة قهري، فنمت على وجهي في الفلك، ولم يزل سائرًا بي وأنا نائم لا أدري بكثير ولا قليل. ثم إنني استيقظت فوجدت نفسي في النور، ففتحت عيني فرأيت مكانًا واسعًا، وذلك الفلك مربوط على جزيرة، وحولي جماعة من الهنود والحبشة، فلما رأوني قمت نهضوا إليَّ وكلموني بلسانهم، فلم أعرف ما يقولون، وبقيت أظن أنه حلم، وأن هذا في المنام من شدة ما كنت فيه من الضيق والقهر؛ فلما كلموني ولم أعرف حديثهم، ولم أرد عليهم جوابًا، تقدَّم إليَّ رجل منهم وقال لي بلسان عربي: السلام عليكم يا أخانا، من تكون أنت؟ ومن أين جئت؟ وما سبب مجيئك إلى هذا المكان؟ ونحن أصحاب الزرع والغيطان، وجئنا لنسقي غيطاننا وزرعنا فوجدناك نائمًا في الفلك، فأمسكناه وربطناه عندنا حتى تقوم على مهلك، فأخبرنا ما سبب وصولك إلى هذا المكان؟ فقلت له: بالله عليك يا سيدي ائتنني بشيء من الطعام، فإني جائع، وبعد ذلك أسألني عمَّا تريد. فأسرَّ وأتاني بالطعام، فأكلت حتى شبعت وارتحت وسكن روحي،

وازداد شعبي، ورُدَّتْ لي رُوحِي، فحمدت الله تعالى على كل حال، وفرحت بخروجي من ذلك النهر ووصولي إليهم، وأخبرتهم بجميع ما جرى لي من أوله إلى آخره، وما لقيته في ذلك النهار وضيقه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٦٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما طلع من الفلك على جانب الجزيرة، ورأى فيها جماعة من الهنود والحبشة، وارتاح من تعبهِ، سأله عن خبره، فأخبرهم بقصته. ثم إنهم تكلموا مع بعضهم وقالوا: لا بد أن نأخذه معنا، ونعرضه على ملكنا ليخبره بما جرى له. قال: فأخذوني معهم، وحملوا معي الفلك بجميع ما فيه من المال والنوال والجواهر والمعادن والمصاغ، وقد أدخلوني على ملكهم، وأخبروه بما جرى، فسلم عليّ ورحب بي، وسألني عن حالي، وما اتفق لي من الأمور، فأخبرته بجميع ما كان من أمري، وما لاقيته من أوله إلى آخره، فتعجب الملك من هذه الحكاية غاية العجب، وهنأني بالسلامة؛ فعند ذلك قمت وأطلعت من ذلك الفلك شيئاً كثيراً من المعادن والجواهر والعود والعنبر الخام، وأهديته إلى الملك، فقبله مني، وأكرمني إكراماً زائداً، وأنزلني في مكان عنده، وقد صاحبني أخيارهم وأكابرهم، وأعزوني معزة عظيمة، وصرت لا أفارق دار الملك، وصار الواردون إلى تلك الجزيرة يسألونني عن أمور بلادي، فأخبرهم بها، وكذلك أسألهم عن أمور بلادهم فيخبرونني بها، إلى أن سألني ملكهم يوماً من الأيام عن أحوال بلادي، وعن أحوال حكم الخليفة في بلاد مدينة بغداد، فأخبرته بعدله في أحكامه، فتعجب من أموره وقال لي: والله إن الخليفة له أمور عقلية، وأحوال مرضية، وأنت قد حببتني فيه، ومرادي أن أجهز له هدية، وأرسلها معك إليه. فقلت: سمعاً وطاعة يا مولانا، أوصلها إليه وأخبره أنك محب صادق.

ولم أزل مقيماً عند ذلك الملك وأنا في غاية العز والإكرام، وحسن المعيشة مدةً من الزمان إلى أن كنت جالساً يوماً من الأيام في دار الملك، فسمعت بخبر جماعة من تلك المدينة أنهم جهّزوا لهم مركباً يريدون السفر فيها إلى نواحي مدينة البصرة، فقلت في نفسي: ليس لي أوفق من السفر مع هؤلاء الجماعة. فأسرعت من وقتي وساعتي وقبّلت يد

ذلك الملك، وأعلمته بأن مرادي السفر مع الجماعة في المركب التي جهّزوها؛ لأنني اشتقت إلى أهلي وبلادي، فقال لي الملك: الرأي لك، وإن شئت الإقامة عندنا فعلى الرأس والعين، وقد حصل لنا أنسك. فقلت: والله يا سيدي لقد غمرتني بجميلك وإحسانك، ولكني قد اشتقت إلى أهلي وبلادي وعيالي. فلما سمع كلامي أحضر التجار الذين جهّزوا المركب، وأوصاهم عليّ، وقد وهب لي شيئاً كثيراً من عنده، ودفع عني أجرة المركب، وأرسل معي هدية عظيمة إلى الخليفة هارون الرشيد بمدينة بغداد.

ثم إنني ودّعت الملك، وودّعت جميع أصحابي الذين كنت أتردد عليهم، ثم نزلت المركب مع التجار وسرنا وقد طاب لنا الريح والسفر، ونحن متوكلون على الله سبحانه وتعالى. ولم نزل مسافرين من بحر إلى بحر، ومن جزيرة إلى جزيرة، إلى أن وصلنا بالسلامة بإذن الله تعالى إلى مدينة البصرة، فطلعت من المركب، ولم أزل مُقيماً بأرض البصرة أياماً وليالي حتى جهّزت نفسي وحملت حمولي، وتوجهت إلى مدينة بغداد دار السلام، فدخلت على الخليفة هارون الرشيد، وقدمتُ إليه تلك الهدية، وأخبرته بجميع ما جرى لي، ثم خزنت جميع أموالي وأمتعتي، ودخلت حارتي، وجاءني أهلي وأصحابي، وفرّقت الهدايا على جميع أهلي، وتصدّقت ووهبت، وبعد مدة من الزمان أرسل إليّ الخليفة، فسألني عن سبب تلك الهدية، ومن أين هي؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، والله لا أعرف للمدينة التي هي منها اسماً ولا طريقاً، ولكن لما غرقت المركب الذي كنت فيه، طلعت على جزيرة، وقد صنعت لي فلجاً ونزلت في نهر كان في وسط تلك الجزيرة. وأخبرته بما جرى لي في السفرة، وكيف كان خلاصي من ذلك النهر إلى تلك المدينة، وبما جرى لي فيها، وبسبب إرسال الهدية؛ فتعجب الخليفة من ذلك غاية العجب، وأمر المؤرخين أن يكتبوا حكايتي، ويجعلوها في خزانته ليعتبر بها كل من رآها، ثم إنه أكرمني إكراماً زائداً، وقد أقمت بمدينة بغداد على ما كنت عليه في الزمن الأول، ونسيت جميع ما جرى لي، وما قاسيته من أوله إلى آخره، ولم أزل في لذة عيش ولهو وطرب. وهذا ما كان من أمري في السفرة السادسة يا إخواني، وإن شاء الله تعالى في غدٍ أحكي لكم حكاية السفرة السابعة، فإنها أعجب وأغرب من هذه السفرات. ثم إنه أمر بمد السماط، وتعيشوا عنده، وأمر السندباد البحري للسندباد الحمال بمائة مثقال من الذهب، فأخذها وانصرف إلى حال سبيله، وانصرف الجماعة وهم متعجبون من ذلك غاية العجب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٦٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما حكى حكاية سفرته السادسة، وراح كل واحد إلى حال سبيله، بات السندباد البري في منزله، ثم صلى الصبح وجاء إلى منزل السندباد البحري وأقبل الجماعة، فلما تكاملوا ابتدأ السندباد البحري بالكلام في حكاية السفرة السابعة، وقال: اعلّموا يا جماعة أنني لما رجعت من السفرة السادسة، وعدت لما كنت عليه في الزمن الأول من البسط والانشراح واللهو والطرب، أقمت على تلك الحالة مدةً من الزمان، وأنا متواصل الهناء والسرور ليلاً ونهاراً، وقد حصل لي مكاسب كثيرة وفوائد عظيمة، فاشتأقت نفسي إلى الفرجة في البلاد، وإلى ركوب البحر وعشرة التجار وسماع الأخبار، فهممتُ في ذلك الأمر، وقد حزمت أحمالاً بحرية من الأمتعة الفاخرة، وحملتُها من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، فرأيتُ مركباً محضرة للسفر وفيها جماعة من التجار العظام، فنزلت معهم واستأنست بهم، وقد سرنا بسلامة وعافية قاصدين السفر، وقد طاب لنا الريح حتى وصلنا إلى مدينة تُسمّى مدينة الصين، ونحن في غاية الفرح والسرور، نتحدّث مع بعضنا في أمر السفر والمتجر.

فبينما نحن على هذه الحالة، وإذا بريح عاصف هبَّ من مقدم المركب، ونزل علينا مطر شديد حتى ابتلنا وابتلت حمولنا، فغطَّينا الحمول باللباد والخيش؛ خوفاً على البضاعة من التلف بالمطر، وصرنا ندعو الله تعالى ونتضرَّع إليه في كشف ما نزل بنا مما نحن فيه، فعند ذلك قام ريس المركب وشد حزامه، وتشمر وطلع على الصاري، وصار يلتفت يميناً وشمالاً، وبعد ذلك نظر إلى أهل المركب ولطم على وجهه، وندف لحيته، فقلنا: يا ريس، ما الخبر؟ فقال لنا: اطلبوا من الله تعالى النجاة مما وقعنا فيه، وابكوا على أنفسكم، وودَّعوا بعضكم، واعلموا أن الريح قد غلب علينا ورمانا في آخر بحار الدنيا. ثم إن الريس نزل من فوق الصاري وفتح صندوقه، وأخرج منه كيس قطن وفكه، وأخرج

منه ترابًا مثل الرماد وبله بالماء، وصبر عليه قليلاً، ثم شمه، ثم إنه أخرج من ذلك الصندوق كتاباً صغيراً وقرأ فيه، وقال لنا: اعلموا يا ركب أن في هذا الكتاب أمراً عجيبيًا يدل على أن كلَّ مَنْ وصل إلى هذه الأرض لم يَنْجُ منها، بل يهلك؛ فإن هذه الأرض تُسمَّى إقليم الملوك، وفيها قبر سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام، وفيه حيات عظام الخلقة، هائلة المنظر، فكل مركب وصل إلى هذا الإقليم يطلع له حوت من البحر فيبتلعها بجميع ما فيها.

فلما سمعنا هذا الكلام من الرئيس تعجَّبنا غاية العجب من حكايته، فلم يتم الرئيس كلامه لنا حتى صارت المركب ترتفع بنا عن الماء ثم تنزل، وسمعنا صرخة عظيمة مثل الرعد القاصف؛ فارتعبنا منها وصرنا كالأموات، وأيقنا بالهلاك في ذلك الوقت، وإذا بحوت قد أقبلَ على المركب كالجبل العالي، ففزعنا منه، وقد بكينا على أنفسنا بكاءً شديداً، وتجهَّزنا للموت، وصرنا ننظر إلى ذلك الحوت ونتعجب من خلقته الهائلة، وإذا بحوتٍ قد أقبلَ علينا فما رأينا أعظم منه ولا أكبر، فعند ذلك ودَّعنا بعضنا ونحن نبكي على أرواحنا، وإذا بحوتٍ ثالث قد أقبل وهو أكبر من الاثنين اللذين جاءانا قبله، فصرنا لا نعي ولا نعقل، وقد اندهشت عقولنا من شدة الخوف والفرع، ثم إن هذه الحيتان الثلاثة صاروا يدورون حول المركب، وقد أهوى الحوت الثالث ليبتلع المركب بكل ما فيها، وإذا بريحٍ عظيم ثار فقامت المركب ونزلت على شعب عظيم فانكسرت، وتفرَّقت جميع الألواح، وغرقت جميع الحمول والتجار والركاب في البحر، فخلعت أنا جميع ما عليَّ من الثياب، ولم يَبْقَ عليَّ غير ثوب واحد، ثم عمتُ قليلاً فلحقت لوحاً من ألواح المركب وتعلَّقت به، ثم إنني طلعت عليه وركبته وقد صارت الأمواج والأرياح تلعب بي على وجه الماء وأنا قابض على ذلك اللوح، والموج يرفعني ويحطني، وأنا في أشد ما يكون من المشقة والخوف والجوع والعطش، وصرت ألوم نفسي على ما فعلته، وقد تعبَت نفسي بعد الراحة، وقلت لروحي: يا سندباد يا بحري، أنت لم تَتَبَّ وكل مرة تقاسي فيها الشدائد والتعب، ولم تتب عن سفر البحر، وإن تَبَّتْ تكذب في التوبة، فقاَسِ كلَّ ما تلقاه؛ فإنك تستحق جميع ما يحصل لك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٦٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما غرق في البحر ركب لوحًا من الخشب، وقال في نفسه: أستحق جميع ما يجري لي، وكل هذا مقدورٌ عليّ من الله تعالى حتى أرجع عمّا أنا فيه من الطمع، وهذا الذي أقاسيه من طمعي؛ فإنّ عندي مالا كثيرا. ثم إنه قال: وقد رجعت لعقلي وقلت: إني في هذه السفرة قد تبتُّ إلى الله تعالى توبةً نصوحًا عن السفر، وما بقيت عمري أذكره على لساني، ولا على بالي. ولم أزل أتضرع إلى الله تعالى وأبكي، ثم إني تذكرت في نفسي ما كنت فيه من الراحة والسرور واللهو والطرب والانشراح، ولم أزل على هذه الحال أول يومٍ وثاني يومٍ إلى أن طلعت على جزيرة عظيمة، وفيها شيء كثير من الأشجار والأنهار، فصرتُ أكل من ثمر تلك الأشجار، وأشرب من ماء تلك الأنهار حتى انتعشتُ، ورُدّت لي روحي، وقويت همتي، وانشرح صدري، ثم مشيت في الجزيرة فرأيت في جانبها الثاني نهرًا عظيمًا من الماء العذب، ولكن ذلك النهر يجري جريًا قويًا، فتذكرتُ أمر الفلك الذي كنت فيه سابقًا، وقلت في نفسي: لا بد أني أعمل لي فلكًا مثله؛ فلعلي أنجو من هذا الأمر، فإنّ نجوتُ به حصل المراد، وتبتُّ إلى الله تعالى من السفر، وإن هلكتُ ارتاح قلبي من التعب والمشقة.

ثم إني قمت فجمعت أخشابًا من تلك الأشجار من خشب الصندل العال الذي لا يوجد مثله، وأنا لا أدري أي شيء هو، ولما جمعتُ تلك الأخشاب تحيَّلتُ بأغصانٍ ونباتٍ من هذه الجزيرة، وفتلتها مثل الحبال، وشددت بها الفلك، وقلت: إنَّ سلمتُ فمن الله. ثم إني نزلت في ذلك الفلك، وسرت به في ذلك النهر حتى خرجت من آخر الجزيرة، ثم بعدت عنها، ولم أزل سائرًا أول يومٍ وثاني يومٍ وثالث يومٍ بعد مفارقة الجزيرة وأنا نائم، ولم أكل في هذه المدة شيئًا، ولكن إذا عطشتُ شربتُ من ذلك النهر، وصرت مثل الفرخ الداخ من شدة التعب والجوع والخوف، حتى انتهى بي الفلك إلى جبلٍ عال، والنهر داخل من

تحتة، فلما رأيت ذلك خفت على نفسي من الضيق الذي كنت فيه أول مرة في النهر السابق، وأردتُ أنني أوقف الفلك وأطلع منه إلى جانب الجبل، فغلبني الماء فجذب الفلك وأنا فيه، ونزل به تحت الجبل، فلما رأيت ذلك أيقنت بالهلاك، وقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولم يزل الفلك سائرًا مسافة يسيرة، ثم طلع إلى مكان واسع، وإذا هو وادٍ كبير، والماء يهدر فيه، وله دوي مثل دوي الرعد، وجريان مثل جريان الريح، فصرت قابضًا على ذلك الفلك بيدي وأنا خائف أن أقع من فوقه، والأمواج تلعب بي يمينًا وشمالًا في وسط ذلك المكان، ولم يزل الفلك منحدرًا مع الماء الجاري في ذلك الوادي وأنا لا أقدر على منعه، ولا أستطيع الدخول به في جهة البر، إلى أن رسا بي على جانب مدينة عظيمة المنظر، مليحة البناء، فيها خلق كثير، فلما رأوني وأنا في ذلك الفلك منحدرًا في وسط النهر مع التيار، رموا عليّ الشبكة والحبال في ذلك الفلك، ثم طلعا الفلك من ذلك النهر إلى البر وقد سقطت بينهم وأنا مثل الميت من شدة الجوع والسهر والخوف، فتلقاني من بين هؤلاء الجماعة رجل كبير السن وهو شيخ عظيم، ورحّب بي ورمى عليّ ثيابًا كثيرة جميلة، فسترت بها عورتني، ثم إنه أخذني وسار بي وأدخلني الحمام، وجاء لي بالأشربة المنعشة والروائح الزكية، ثم بعد خروجنا من الحمام أخذني إلى بيته وأدخلني فيه؛ ففرح بي أهل بيته، ثم أجلسني في مكان ظريف، وهبّ لي شيئًا من الطعام الفاخر، فأكلت حتى شبع، وحمدت الله تعالى على نجاتي، وبعد ذلك قدّم لي غلمان ماءً ساخنًا، فغسلت يدي، وجاءتني جواريه بمناشف من الحرير، فنشفت يدي ومسحت فمي، ثم إن الشيخ قام من وقته وأخلى لي مكانًا منفردًا وحده في جانب داره، وألزم غلمانه وجواريه بخدمتي وقضاء حاجتي وجميع مصالحني، فصاروا يتعهدونني، ولم أزل على هذه الحالة عنده في دار الضيافة ثلاثة أيام وأنا على أكل طيب، وشرب طيب، ورائحة طيبة، حتى رُدّت لي روحي، وسكن روحي، وهذا قلبي، وارتاحت نفسي.

فلما كان اليوم الرابع تقدّم إليّ الشيخ وقال لي: آنستنا يا ولدي، والحمد لله على سلامتك، فهل لك أن تقوم معي إلى ساحل البحر وتنزل السوق، فتبيع البضاعة وتقبض ثمنها؟ لعلك تشتري بها شيئًا تتجر فيه. فسكت قليلًا، وقلت في نفسي: من أين معي بضاعة، وما سبب هذا الكلام؟ ثم قال الشيخ: يا ولدي، لا تهتم ولا تتفكر، فقم بنا إلى السوق، فإن رأينا من يعطيك في بضاعتك ثمنًا يرضيك أقبضه لك، وإن لم يجئ فيها شيء يرضيك أحطها لك عندي في حواصلي حتى تجيء أيام البيع والشراء. فتفكرت في أمري،

وقلت لعقلي: طاعه حتى تنظر أي شيء تكون هذه البضاعة. ثم إنني قلت له: سمعاً وطاعة يا عم الشيخ، والذي تفعله فيه البركة، ولا يمكن مخالفتك في شيء. ثم إنني جئت معه إلى السوق، فوجدته قد فكَّ الفلك الذي جئتُ فيه وهو من خشب الصندل، وأطلق المنادي عليه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٦٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما ذهب مع الشيخ إلى شاطئ البحر، ورأى الفلك الذي جاء فيه من خشب الصندل مفكوكًا، ورأى الدَّلَّال يدلُّ عليه، جاء التجار وفتحوا باب سعره، وتزايدوا فيه إلى أن بلغ ثمنه ألف دينار، وبعد ذلك توقَّفَ التجارُ عن الزيادة، فالتفتَ إليَّ الشيخ وقال: اسمع يا ولدي، هذا سعر بضاعتك في مثل هذه الأيام، فهل تبعها بهذا السعر، أم تصبر وأنا أحطها لك عندي في حواصلي حتى يجيء أوانُ زيادتها في الثمن، فنبيعها لك؟ فقلت له: يا سيدي، الأمر أمرُك فافعل ما تريد. فقال: يا ولدي، أتبيعني هذا الحطب بزيادة مائة دينار ذهبًا فوق ما أعطى فيه التجار؟ فقلت له: نعم بعتك وقبضت الثمن. فعند ذلك أمر غلمانه بنقل ذلك الخشب إلى حواصله، ثم إنني رجعت معه إلى بيته، فجلسنا وعدَّ لي جميع ثمن ذلك الحطب، وأحضر لي أكياسًا، وحطَّ المال فيها، وقفل عليها بقفل حديد وأعطاني مفتاحه، وبعد مدة أيام وليالٍ قال الشيخ: يا ولدي، إنني أعرض عليك شيئًا، وأشتهي أن تطاوعني فيه. فقلت له: وما ذاك الأمر؟ فقال لي: اعلم أنني بقيتُ رجلًا كبير السن، ليس لي ولد ذكر، وعندي بنت صغيرة السن ظريفة الشكل عندها مال كثير وجمال، فأريد أن أزوجه لك، وتقعّد معها في بلادنا، ثم إنني أملكك جميع ما هو عندي وما تملكه يدي، فإنني بقيت رجلًا كبيرًا وأنت تقوم مقامِي. فسكتُ ولم أتكلّم، فقال لي: أطعني يا ولدي في الذي أقوله لك؛ فإن مرادي لك الخير، فإن أطعنتني زوّجْتُك ابنتي، وتبقى مثل ولدي وجميع ما في يدي، وما هو ملكي يصير لك، وإن أردت التجارة والسفر إلى بلادك لا يمنحك أحد، وهذا مالك تحت يدك فافعل به ما تريده وما تختاره. فقلت له: والله يا عم الشيخ أنت صرتَ مثل والدي، وأنا قاسيت أهوالًا كثيرة، ولم يبقَ لي رأي ولا معرفة، فالأمر أمرُك في جميع ما تريده.

فعند ذلك أمر الشيخ غلمانه بإحضار القاضي والشهود، فأحضروهم وزوجني ابنته، وعمل لنا وليمة عظيمة، وفرحاً كبيراً، وأدخلني عليها، فرأيتها في غاية الحُسن والجمال، بقَدِّ واعتدال، وعليها شيء كثير من أنواع الحلي والحلل، والمعادن والمصاغ والعقود والجواهر الثمينة، وما قيمتها إلا ألوف الألوف من الذهب، ولا يقدر أحد على ثمنها. فلما دخلت عليها أعجبتني ووقعت المحبة بيننا، وأقمت معها مدة من الزمان وأنا في غاية الأُنس والانشراح، وقد توفي والدها إلى رحمة الله تعالى، فجهَّزناه ودفناه، ووضعت يدي على ما كان معه، وصار جميع غلمانه غلماني، وتحت يدي في خدمتي، ولأنني التجار مرتبته؛ فإنه كان كبيرهم، ولم يأخذ أحد منهم شيئاً إلا بمعرفته وإذنه؛ لأنه شيخهم، وصرت أنا في مكانه. فلما خالطت أهل تلك المدينة وجدتهم تنقلب حالتهم في كل شهر، فظهر لهم أجنحة يطبِّرون بها إلى عنان السماء، ولا يبقى متخلفاً في تلك المدينة غير الأطفال والنساء، فقلت في نفسي: إذا جاء رأس الشهر أسأل أحداً منهم، فلعلهم يحملوني معهم إلى أين يروحون. فلما جاء رأس ذلك الشهر تغيَّرت ألوانهم، وانقلبت صورهم، فدخلت على واحد منهم وقلت له: بالله عليك أنك تحملني معك حتى أتفرج وأعود معكم. فقال لي: هذا شيء لا يمكن. فلم أزل أتناول عليه حتى أنعم عليّ بذلك، وقد وافقتهم وتعلقت به، فطار بي في الهواء، ولم أعلم أحداً من أهل بيتي ولا من غلماني ولا من أصحابي، ولم يزل طائرًا بي ذلك الرجل وأنا على أكتافه حتى علا بي في الجو، فسمعت تسبيح الأملاك في قبة الأفلاك، فتعجَّبتُ من ذلك، وقلت: سبحان الله والحمد لله. فلم أستم التسييح حتى خرجتُ نار من السماء كادت تحرقهم، فنزلوا جميعاً، وقد ألقوني على جبل عالٍ، وقد صاروا في غاية الغيظ مني، ورحلوا وخلوني، فصرت وحدي في ذلك الجبل، فلمتُ نفسي على ما فعلتُ، وقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أنا كلما أخلص من مصيبة أقع في مصيبة أقوى منها! ولم أزل في ذلك الجبل، ولا أعلم أين أذهب، وإذا بغلامين سائرين كأنهما قمران، وفي يد كل واحد منهما قضيب من ذهب يتعكز عليه، فتقدَّمتُ إليهما، وسلَّمتُ عليهما، فردَّ عليَّ السلام، فقلت لهما: بالله عليكم من أنتما؟ وما شأنكما؟ فقالا لي: نحن من عباد الله تعالى. ثم إنهما أعطيانِي قضيباً من الذهب الأحمر الذي كان معهما، وانصرفا في حال سبيلهما وخلياني، فصرت أسير على رأس ذلك الجبل وأنا أتعكز بالعكاز، وأفكر في أمر هذين الغلامين، وإذا بحية قد خرجت من تحت ذلك الجبل وفي فمها رجل بلعته إلى تحت سرتة، وهو يصيح ويقول: مَنْ يخلصني يخلصه الله من كل شدة؟ فتقدَّمتُ إلى تلك الحية وضربتُها بالقضيب الذهبي على رأسها، فرمت الرجل من فمها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٦٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد البحري لما ضرب الحية بالقضيب الذهب الذي كان بيده، وألقت الرجل من فمها قال: فتقدّم إليّ الرجل وقال: حيث كان خلاصي على يدك من هذه الحية، فما بقيت أفارقك، وأنت صرت رفيقي في هذا الجبل. فقلت له: مرحبًا. وسرنا في ذلك الجبل، وإذا بقوم أقبلوا علينا، فنظرت إليهم فإذا فيهم الرجل الذي كان حملني على أكتافه وطار بي، فتقدّمتُ إليه واعتذرت له وتلطفت به، وقلت له: يا صاحبي، ما هكذا يفعل الأصحاب بأصحابهم! فقال لي الرجل: أنت الذي أهلكتنا بتسيحك على ظهري. فقلت له: لا تؤاخذني، فأني لم يكن لي علم بهذا الأمر، ولكنني لا أتكلم بعد ذلك أبدًا. فسمح بأخذي معه، ولكن شرط عليّ ألا أذكر الله ولا أسبّحه على ظهره، ثم إنه حملني وطار بي مثل الأول حتى أوصلني إلى منزلي، فتلقّنتي زوجتي وسلمت عليّ، وهنّنتني بالسلامة وقالت لي: احترس من خروجك بعد ذلك مع هؤلاء الأقوام، ولا تعاشرهم؛ فإنهم إخوان الشياطين، ولا يعلمون ذكر الله تعالى. فقلت لها: كيف حال أبيك معهم؟ فقالت لي: إن أبي لم يكن منهم، ولم يعمل مثلهم، والرأي عندي حيث مات أبي أنك تبيع جميع ما عندنا وتأخذ بثمنه بضائع، ثم تسافر إلى بلادك وأهلك، وأنا أسير معك وليس لي حاجة بالعودة هنا في هذه المدينة بعد أمي وأبي. فعند ذلك صرت أبيع من متاع ذلك الشيخ شيئًا بعد شيء وأنا أترقب أحدًا يسافر من تلك المدينة، وأسير معه.

فبينما أنا كذلك وإذا بجماعة في المدينة قد أرادوا السفر ولم يجدوا لهم مركبًا، فاشتروا خشبًا وصنعوا لهم مركبًا كبيرة، فاكترت معهم ودفعت إليهم الأجرة بتمامها، ثم نزلت زوجتي وجميع ما كان معنا في المركب وتركنا الأملاك والعقارات، وسرنا ولم نزل سائرين في البحر من جزيرة إلى جزيرة، ومن بحر إلى بحر، وقد طاب لنا ربح السفر حتى وصلنا بالسلامة إلى مدينة البصرة، فلم أقم بها، بل اكترت مركبًا أخرى،

ونقلت إليها جميع ما كان معي، وتوجهت إلى مدينة بغداد، ثم دخلت حارتي، وجئت إلى داري، وقابلت أهلي وأصحابي وأحبائي، وخزنت جميع ما كان معي من البضائع في حواصلي، وقد حسب أهلي مدة غيابي عنهم في السفرة السابقة، فوجدوها سبعة وعشرين سنة حتى قطعوا الرجاء مني، فلما جئتهم وأخبرتهم بجميع ما كان من أمري وما جرى لي، صاروا كلهم يتعجبون من ذلك الأمر عجباً كبيراً، وقد هنوني بالسلامة، ثم إنني تبت إلى الله تعالى عن السفر في البر والبحر بعد عدة السفرة السابقة التي هي غاية السفرات، وقاطعة الشهوات، وشكرت الله سبحانه وتعالى وحمدته، وأثنيته عليه حيث أعادني إلى أهلي وبلادي وأوطاني؛ فانظر يا سندباد يا بري ما جرى لي وما وقع لي، وما كان من أمري. فقال السندباد البري للسندباد البحري: بالله عليك لا تؤاخذني بما كان مني في حقل. ولم يزالوا في عشرة ومودة، مع بسط زائد وفرح وانشراح، إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومخرب القصور ومعمر القبور، وهو كأس الممات، فسبحان الحي الذي لا يموت.

حكاية مدينة النحاس

بلغني أيضاً أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان بدمشق الشام، ملك من الخلفاء يُسمى عبد الملك بن مروان، وكان جالساً يوم من الأيام وعنده أكابر دولته من الملوك والسلاطين، فوقعت بينهم مُباحثة في حديث الأمم السالفة، وتذكروا أخبار سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام، وما أعطاه الله تعالى من الملك والحكم في الإنس والجن والطير والوحش وغير ذلك، وقالوا: قد سمعنا ممن كان قبلنا أن الله سبحانه وتعالى لم يُعط أحداً مثل ما أعطى سيدنا سليمان، وأنه وصل إلى شيء لم يصل إليه أحد، حتى إنه كان يسجن الجن والمردة والشياطين في قماقم من النحاس، ويسبك عليهم بالرصاص، ويختم عليهم بخاتمه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٦٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة عبد الملك بن مروان لما تحدّث مع أعوانه وأكابر دولته، وتذكروا سيدنا سليمان وما أعطاه الله من الملك، قال: إنه وصل إلى شيء لم يصل إليه أحد، حتى إنه كان يسجن المردة والشياطين في قماقم من النحاس، ويسبك عليهم الرصاص، ويختم عليهم بخاتمه، وأخبر طالب أن رجلاً نزل في مركب مع جماعة، وانحدروا إلى بلاد الهند، ولم يزالوا سائرين حتى طلع عليهم ريح، فوجّههم ذلك الريح إلى أرض من أراضي الله تعالى، وكان ذلك في سواد الليل، فلما أشرق النهار خرج إليهم من مغارات تلك الأرض أقوام سود الألوان، عراة الأجساد، كأنهم وحوش لا يفقهون خطاباً، لهم ملك من جنسهم، وليس منهم أحد يعرف العربية غير ملكهم، فلما رأوا المركب ومَن فيها، خرج إليهم في جماعة من أصحابه فسَلَّم عليهم، ورَحَّب بهم، وسألهم عن دينهم، فأخبروه بحالهم، فقال لهم: لا بأس عليكم. وحين سألهم عن دينهم كان كلُّ منهم على دين من الأديان، قبل ظهور الإسلام، وقبل بعث محمد ﷺ، فقال أهل المركب: نحن لا نعرف ما تقول، ولا نعرف شيئاً من هذا الدين. فقال لهم الملك: إنه لم يصل إلينا أحد من بني آدم قبلكم. ثم إنه ضيفهم بلحم الطيور والوحوش والسماك؛ لأنه ليس لهم طعام غير ذلك، ثم إن أهل المركب نزلوا يتفرجون في تلك المدينة، فوجدوا بعض الصيادين أرخى شبكةً في البحر ليصطاد سمكاً، ثم رفعها فإذا فيها قمقم من نحاس مرصص مختوم عليه بخاتم سليمان بن داود عليهما السلام، فخرج به الصياد وكسره، فخرج منه دخان أزرق التحق بعنان السماء، فسمعنا صوتاً منكراً يقول: التوبة التوبة يا نبي الله. ثم صار من ذلك الدخان شخص هائل المنظر مهول الخلقة، يلحق رأسه الجبل، ثم غاب عن أعينهم. فأما أهل المركب فكادت تنخلع قلوبهم، وأما السودان فلم يفكروا في ذلك، فرجع رجل إلى الملك وسأله عن ذلك، فقال له: اعلم أن هذا من الجن الذين كان سليمان بن داود

إذا غضب عليهم سجنهم في هذه القماقم، ورصّص عليهم ورماهم في البحر، فإذا رمى الصياد الشبكة تطلع بهذه القماقم في غالب الأوقات، فإذا كُسِرَتْ يخرج منها جني ويخطر بباله أن سليمان حي فيتوب، ويقول: التوبة يا نبي الله. فتعجّب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان من هذا الكلام، وقال: سبحان الله، لقد أوتي سليمان ملكاً عظيماً. وكان ممّن حضر في ذلك المجلس النابغة الذبياني فقال: صدق طالب فيما أخبر به، والدليل على صدقه قول الحكيم الأول:

وَفِي سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الْإِلَهُ لَهُ قُمْ بِالْخِلَافَةِ وَاحْكُمْ حُكْمَ مُجْتَهِدٍ
فَمَنْ أَطَاعَكَ فَأَكْرِمُهُ بِطَاعَتِهِ وَمَنْ أَبَى عَنْكَ فَاحْبِسْهُ إِلَى الْأَبَدِ

وكان يجعلهم في قماقم من النحاس، ويرميهم في البحر، فاستحسن أمير المؤمنين هذا الكلام وقال: والله إنني لأشتهي أن أرى شيئاً من هذه القماقم. فقال له طالب بن سهل: يا أمير المؤمنين، إنك قادر على ذلك وأنت مقيم في بلادك، فأرسل إلى أخيك عبد العزيز بن مروان أن يأتيك بها من بلاد الغرب، بأن يكتب إلى موسى أن يركب من بلاد الغرب إلى هذا الجبل الذي ذكرناه، ويأتيك من هذه القماقم بما تطلب، فإن البر متصل من آخر ولايته بهذا الجبل. فاستصوب أمير المؤمنين رأيه، وقال: يا طالب، صدقت فيما قلت، وأريد أن تكون أنت رسولي إلى موسى بن نصر في هذا الأمر، ولك الراية البيضاء وكل ما تريده من مال أو جاه أو غير ذلك، وأنا خليفتك في أهلك. قال: حباً وكرامة يا أمير المؤمنين. فقال له: سرّ على بركة الله تعالى وعونه. ثم أمر أن يكتبوا له كتاباً لأخيه عبد العزيز نائبه في مصر، وكتاباً آخر إلى موسى نائبه في بلاد الغرب يأمره بالسير في طلب القماقم السلیمانية بنفسه، ويستخلف ولده على البلاد، ويأخذ معه الأدلة، وينفق المال وليستكثر من الرجال، ولا يلحقه في ذلك فترة، ولا يحتج بحجة، ثم ختم الكتابين وسلمهما إلى طالب بن سهل، وأمره بالسرعة، ونصب الرايات على رأسه. ثم إن الخليفة أعطاه الأموال والركاب والرجال ليكونوا أعواناً له في طريقه، وأمر بإجراء النفقة على بيته من كل ما يحتاج إليه، وتوجه طالب يطلب مصر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٦٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن طالب بن سهل سار هو وأصحابه يقطعون البلاد من الشام إلى أن دخلوا مصر، فتلقاه أمير مصر وأنزله عنده وأكرمه غاية الإكرام في مدة إقامته عنده، ثم بعث معه دليلًا إلى الصعيد الأعلى حتى وصلوا إلى الأمير موسى بن نصير، فلما علم به خرج إليه وتلقاه وفرح به، فناوله الكتاب فأخذه وقرأه وفهم معناه، ووضعه على رأسه، وقال: سمعًا وطاعة لأمر المؤمنين. ثم إنه اتفق رأيهم على أن يحضر أرباب دولته فحضروا، فسألهم عما بدا له في الكتاب، فقالوا: أيها الأمير، إن أردت من يدلك على طريق ذلك المكان، فعليك بالشيخ عبد الصمد بن عبد القدوس الصمودي؛ فإنه رجل عارف، وقد سافر كثيرًا، وهو خير بالبراري والقفار والبحار وسكانها وعجائبها، والأرضين وأقطارها، فعليك به فإنه يرشدك إلى ما تريده. فأمر بإحضاره فحضر بين يديه، وإذا هو شيخ كبير قد أهرمه تداول السنين والأعوام، فسلم عليه الأمير موسى وقال له: يا شيخ عبد الصمد، إن مولانا أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد أمرنا بكذا وكذا، وأنا قليل المعرفة بتلك الأرض، وقد قيل لي إنك عارف بتلك البلاد والطرق، فهل لك رغبة في قضاء حاجة أمير المؤمنين؟ فقال الشيخ: اعلم أيها الملك أن هذه الطريق وعرة، بعيدة الغيبة، قليلة المسالك. فقال له الأمير: كم مسير مسافتها؟ فقال: مسير سنتين وأشهر زهابًا، ومثلها مجيئًا، وفيها شدائد وأهوال وغرائب وعجائب، وأنت رجل مجاهد، وبلادنا بالقرب من العدو، فربما تخرج النصاري في غيبتك، والواجب أن تستخلف في مملكتك من يدبرها. قال: نعم. فاستخلف ولده هارون عوضًا عنه في مملكته، وأخذ عليه عهدًا، وأمر الجنود ألا يخالفوه بل يطاوعوه في جميع ما يأمرهم به، فسمعوا كلامه وأطاعوه.

وكان ولده هارون عظيم البأس همامًا جليلاً، وبطلًا كميًا، وأظهر له الشيخ عبد الصمد أن الموضع الذي فيه حاجة أمير المؤمنين مسير أربعة أشهر، وهو على ساحل البحر،



وصلوا إلى قصر، وهو عبْرَة لَمَن اعتبر، فتقدّم الأمير ومعه الشيخ.

وكله منازل تتصل ببعضها، وفيها عشب وعيون، وقال: قد يهون الله علينا ذلك ببركتك يا نائب أمير المؤمنين. فقال الأمير موسى: هل تعلم أن أحدًا من الملوك وطئ هذه الأرض قبلنا؟ قال له: نعم يا أمير المؤمنين، هذه الأرض ملك الإسكندرية داران الرومي. ثم ساروا، ولم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى القصر، فقال: تقدّم بنا إلى هذا القصر الذي هو عبْرَة لَمَن اعتبر. فتقدّم الأمير موسى إلى القصر ومعه الشيخ عبد الصمد وخواص أصحابه حتى

وصلوا إلى بابه فوجدوه مفتوحاً، وله أركان طويلة ودرجات، وفي تلك الدرجات درجتان وممتدتان، وهما من الرخام الملون الذي لم يُر مثله، والسقوف والحيطان منقوشة بالذهب والفضة والمعدن، وعلى الباب لوح مكتوب فيه باليوناني، فقال الشيخ عبد الصمد: هل أقرأه يا أمير؟ فقال له: تقدّم واقرأ بَارَكَ اللهُ فيك، فما حصل لنا في هذا السفر إلا بركتك. فقرأه، فإذا فيه شعر وهو:

قَوْمٌ تَرَاهُ بَعْدَ مَا صَنَعُوا	يَبْكِي عَلَى الْمَلِكِ الَّذِي نَزَعُوا
فَالْقَصْرُ فِيهِ مُنْتَهَى خَبَرٍ	عَنْ سَادَةٍ فِي التُّرْبِ قَدْ جَمَعُوا
أَبَادَهُمْ مَوْتُ وَفَرَّقَهُمْ	وَضَيَعُوا فِي التُّرْبِ مَا جَمَعُوا
كَأَنَّمَا حَطُّوا رِحَالَهُمْ	لِيَسْتَرِيحُوا فَجَاءَ رَحَلُوا

قال: فبكى الأمير موسى حتى غشي عليه، وقال: لا إله إلا الله الحي الباقي بلا زوال. ثم إنه دخل القصر فتحير من حُسْنِهِ وبنائه، ونظر إلى ما فيه من الصور والتمائيل، وإذا على الباب الثاني أبيات مكتوبة، فقال الأمير موسى: تقدّم أيها الشيخ واقرأ. فتقدّم وقرأ فإذا هي:

كَمْ مَعَشَرَ فِي قِبَابِهَا نَزَلُوا	عَلَى قَدِيمِ الزَّمَانِ وَارْتَحَلُوا
فَانْظُرْ إِلَى مَا بَغِيرَهُمْ صَنَعَتْ	حَوَائِثُ الدَّهْرِ إِذْ بِهِمْ نَزَلُوا
تَقَاسَمُوا كُلُّ مَا لَهُمْ جَمَعُوا	وَخَلَّفُوا بَعْدُ فَارْتَحَلُوا
كَمْ لَابَسُوا نِعْمَةً وَكَمْ أَكَلُوا	فَأَصْبَحُوا فِي التُّرَابِ قَدْ أَكَلُوا

فبكى الأمير موسى بكاءً شديداً، واصفرت الدنيا في وجهه، ثم قال: لقد خُلِقْنَا لأمر عظيم. ثم تأملوا القصر فإذا هو قد خلا من السكان، وعدم الأهل والقطان، دوره موحشات، وجهاته مقفرات، وفي وسطه قبة عالية شاهقة في الهواء، وحواليها أربعمائة قبر. قال: فدنا الأمير موسى إلى تلك القبور، وإذا بقبر بينهم مبني بالرخام، منقوش عليه هذه الأبيات:

فَكَمْ قَدْ وَقَفْتُ وَكَمْ قَدْ فَتَكْتُ	وَكَمْ قَدْ شَهِدْتُ مِنَ الْكَائِنَاتِ
وَكَمْ قَدْ أَكَلْتُ وَكَمْ قَدْ شَرِبْتُ	وَكَمْ قَدْ سَمِعْتُ مِنَ الْغَانِيَاتِ

وَكَمْ قَدْ أَمَرْتُ وَكَمْ قَدْ نَهَيْتُ
فَحَاصِرْتُهَا ثُمَّ فَتَشْتُهَا
وَلَكِنْ بِجَهْلِي تَعَدَّيْتُ فِي
فَحَاسِبٍ لِنَفْسِكَ يَا ذَا الْفَتَى
فَعَمَّا قَلِيلٍ يُهَالُ الثَّرَى
وَكَمْ مِنْ حُصُونٍ تُرَى مَانِعَاتٍ
وَبَيَّنْتُ مِنْهَا حُلِيَّ الْعَانِيَاتِ
حُصُولِ أَمَانٍ غَدَتْ فَانِيَاتِ
قُبَيْلَ شَرَابِكُ كَأْسِ الْمَمَاتِ
عَلَيْكَ وَأَنْتَ عَدِيمُ الْحَيَاةِ

فبكى الأمير موسى ومن معه، ثم دنا من القبة فإذا لها ثمانية أبواب من خشب الصندل، بمسامير من الذهب مكوكبة بكواكب الفضة، مرصعة بالمعادن من أنواع الجواهر، مكتوب على الباب الأول هذه الأبيات:

مَا قَدْ تَرَكْتُ فَمَا خَلَفْتُهُ كَرَمًا
فَطَالَ مَا كُنْتُ مَسْرُورًا وَمُعْتَبِطًا
لَا أَسْتَقِرُّ وَلَا أَسْخَى بِخَزَلَةٍ
حَتَّى رُمِيتُ بِأَقْدَارٍ مُقَدَّرَةٍ
إِنْ كَانَ مَوْتِي مُحْتَوًّا عَلَى عَجَلٍ
وَلَا جُنُودِي الَّتِي جَمَعْتُهَا نَفَعَتْ
وَطُولُ عُمْرِي مُتَعَوِّبٌ عَلَى سَفَرٍ
عَادَتْ لِغَيْرِكَ قَبْلَ الصُّبْحِ كَامِلَةً
وَيَوْمَ عَرْضِكَ تَلْقَى اللَّهَ مُنْفَرِدًا
فَلَا تَغُرَّنَّكَ الدُّنْيَا بِزِينَتِهَا
بَلِ الْقَضَاءُ وَحُكْمُ فِي الْوَرَى جَارٍ
أَحْمِي حِمَايَ لِمِثْلِ الضَّيْعِمِ الضَّارِي
شُحًا عَلَيْهِ وَلَوْ أَلْقَيْتُ فِي النَّارِ
مِنْ إِلَهِ الْعَظِيمِ الْخَالِقِ الْبَارِي
فَلَمْ أَطِقْ دَفْعَهُ عَنِّي بِإِكْتَارِي
وَلَمْ يَغْنِنِي صَدِيقٌ لِي وَلَا جَارِي
تَحْتَ الْمَنِيَّةِ فِي يُسْرِ وَإِعْسَارِ
وَقَدْ أَتَوْتُ بِحَمَالٍ وَحَقَّارِ
بِحَمْلِ إِثْمٍ وَإِجْرَامٍ وَأَوْزَارِ
وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِهَا بِالْأَهْلِ وَالْجَارِ

فلما سمع الأمير موسى هذه الأبيات بكى بكاءً شديدًا حتى غشي عليه، فلما أفاق دخل القبة فرأى فيها قبرًا طويلًا هائل المنظر، وعليه لوح من الحديد الصيني، فدنا منه الشيخ عبد الصمد وقرأه، فإذا فيه مكتوب: باسم الله الدائم الأبدي الأبد، باسم الله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، باسم الله ذي العزة والجبروت، باسم الحي الذي لا يموت ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٦٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ عبد الصمد لما قرأ ما ذكرناه، رأى بعده مكتوبًا في اللوح: أما بعد، أيها الواصل إلى هذا المكان اعتبر بما ترى من حوادث الزمان، وطوارق الحدثان، ولا تغترّ بالدنيا وزينتها، وزورها وبهتانها، وغرورها وزخرفها؛ فإنها مَلَاقَةٌ مَكَّارَةٌ غَدَّارَةٌ، أمورها مستعارة، تأخذ المعار من المستعير، فهي كأضغاث النائم، وحلم الحالم، كأنها أسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، يزخرفها الشيطان للإنسان إلى الممات، فهذه صفات الدنيا فلا تثق بها، ولا تَمَلْ إليها؛ فإنها تخون مَنْ استند إليها، وعَوَّلَ في أموره عليها، لا تقع في حبالها، ولا تتعلّق بأذيالها، فإنني ملكت أربعة آلاف حصان أحمر في دار، وتزوَّجت ألف بنت من بنات الملوك، نواهد أبكارًا كأنهن الأقمار، ورُزِقت ألف ولد كأنهم الليوث العوايس، وعشت من العمر ألف سنة منعم البال والأسرار، وجمعت من الأموال ما يعجز عنه ملوك الأقطار، وكان ظني أن النعيم يدوم لي بلا زوال، فلم أشعر حتى نزل بنا هازم اللذات، ومفرق الجماعات، وموحش المنازل، ومخرب الدور العامرات، ومفني الكبار والصغار والأطفال والولدان والأمهات، وقد تركنا في هذا القصر مطمئنين حتى نزل بنا حكم رب العالمين، ورب السموات ورب الأرضين، فأخذتنا صيحة الحق المبين، فصار يموت منّا كلّ يوم اثنان، حتى فني منّا جماعة كثيرة، فلما رأيت الفناء قد خل ديارنا وقد حلّ بنا وفي بحر المنايا أغرقنا، أحضرت كاتبًا وأمرته أن يكتب هذه الأشعار والمواعظ والاعتبارات، وقد جعلتها بالبيكار مسطرّة على هذه الأبواب والألواح والقبور.

وقد كان لي جيش ألف ألف عنان أهل جلال برمّاح وأزرد وسيوف حداد، وسواعد شداد، فأمرتهم أن يلبسوا الدروع السابغات، ويتقلدوا السيوف الباترات، ويعتقلوا الرماح الهاثلات، ويركبوا الخيول الصافنات، فلما نزل بنا حكم رب العالمين، رب الأرض والسموات، قلت: يا معاشر الجنود والعساكر، هل تقدرون أن تمنعوا ما نزل بي من

الملك القاهر؟ فعجزت العساكر والجنود عن ذلك وقالوا: كيف نحارب من لم يحجب عنه حاجب، صاحب الباب الذي ليس له بواب؟ فقلت لهم: أحضروا لي الأموال وهي ألف جب، في كل جب ألف قنطار من الذهب الأحمر، وفيها أصناف الدر والجواهر، ومثلها من الفضة البيضاء والذخائر التي يعجز عنها ملوك الأرض. ففعلوا ذلك، فلما أحضروا المال بين يدي قلت لهم: هل تقدرون أن تنقذوني بهذه الأموال كلها وتشتروا لي بها يوماً واحداً أعيشه؟ فلم يقدرُوا على ذلك، وصاروا مسلمين للقضاء والقدر، وصبرت لله على القضاء والبلاء حتى أخذ روعي وأسكنني ضريحي. وإن سألت عن اسمي، فإني كوش بن شداد بن عاد الأكبر، وفي ذلك اللوح مكتوب أيضاً هذه الأبيات:

وَتَقَلُّبِ الْأَيَّامِ وَالْحَدَثَانِ	إِنْ تَذْكُرُونِي بَعْدَ طُولِ زَمَانِي
وَالْأَرْضِ أَجْمَعَهَا بِكُلِّ مَكَانِ	فَأَنَا ابْنُ شَدَادِ الَّذِي مَلَكَ الْوَرَى
وَالشَّامِ مِنْ مِصْرَ إِلَى عَدْنَانَ	ذَانَتْ لِي الزُّمَرُ الصُّعَابُ بِأَسْرَهَا
وَتَخَافُ أَهْلَ الْأَرْضِ مِنْ سُلْطَانِي	قَدْ كُنْتُ فِي عِزٍّ أَدَلَّ مُلُوكَهَا
وَأَرَى الْبِلَادَ وَأَهْلَهَا تَخْشَانِي	وَأَرَى الْقَبَائِلَ وَالْجَحَافِلَ فِي يَدِي
فَوْقَ الصَّوَاهِلِ أَلْفَ أَلْفِ عِنَانِ	وَإِذَا رَكِبْتُ رَأَيْتُ عِدَّةَ عَسْكَرِي
أَعَدَّدْتُهُ لِنَوَائِبِ الْحَدَثَانِ	وَمَلَكَتُ مَا لَا لَيْسَ يُحْصَرُ عَدُّهُ
رُوحِي إِلَى حِينٍ مِنَ الْأَحْيَانِ	وَعَزَمْتُ أَنْ أَفِيدِي بِمَالِي كُلَّهُ
فَأَنَا الْوَجِيدُ إِذَنْ مِنَ الْإِخْوَانِ	فَأَبَى إِلَهَهُ سِوَى نَفَازِ مُرَادِهِ
فَنُقِلْتُ مِنْ عِزٍّ لِدَارِ هَوَانِ	وَأَتَانِي الْمَوْتُ الْمُفَرِّقُ لِلْوَرَى
فَأَنَا الرَّهِينُ بِهِ وَكُنْتُ الْجَانِي	وَلَقَدْ لَقِيتُ جَمِيعَ مَا قَدَّمْتُهُ
وَاحْذَرْ هُدَيْتَ طَوَارِقَ الْحَدَثَانِ	فَارْبَابُ بِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ عَلَى شَفَا

فبكى الأمير موسى حتى غشي عليه لما رأى من مصارع القوم. قال: فبينما هم يطوفون بنواحي القصر، ويتأملون في مجالسه ومنترهاته، وإذا بمائدة على أربع قوائم من المرمز مكتوب عليها: قد أكل على هذه المائدة ألف ملك أعور، وألف ملك سليم العينين، كلهم فارقوا الدنيا، وسكنوا الأرماس والقبور. فكتب الأمير موسى ذلك كله، ثم خرج ولم يأخذ معه من القصر غير المائدة، وسار العسكر والشيخ عبد الصمد أمامهم يدلهم على الطريق، حتى مضى ذلك اليوم كله وثانيه وثالثه، وإذا هم برابية عالية، فنظروا إليها فإذا عليها فارس من نحاس، وفي رأس رمحه سنان عريض برّاق يكاد أن يخطف البصر،

مكتوب عليه: أيها الواصل إليّ، إن كنت لا تعرف الطريق الموصلة إلى مدينة النحاس، فافرك
كفّ الفارس فإنه يدور، ثم يقف، فأني جهة وقف إليها فاسلكها، ولا خوف عليك ولا
حرج؛ فإنها توصلك إلى مدينة النحاس. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٧٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمير موسى لما فرك كفَّ الفارس، دار كأنه البرق الخاطف، وتوجَّه إلى غير الجهة التي كانوا فيها، فتوجَّه القوم فيها وساروا، فإذا هي طريق حقيقة فسلكوها، ولم يزالوا سائرين يومهم وليلتهم حتى قطعوا بلادًا بعيدة. فبينما هم سائرون يومًا من الأيام، وإذا هم بعمود من الحجر الأسود وفيه شخص غائص في الأرض إلى إبطه، وله جناحان عظيمان، وأربع أيادٍ؛ يدان منها كأيدي الآدميين، ويدان كأيدي السباع فيها مخالب، وله شعر في رأسه كأنه أذنان الخيل، وله عينان كأنهما جمرتان، وله عين ثالثة في جبهته كعين الفهد يلوح منها شرر النار، وهو أسود طويل، وينادي: سبحان ربي حكم عليَّ بهذا البلاء العظيم والعذاب الأليم إلى يوم القيامة. فلما عاينَه القوم طارت عقولهم، واندھشوا لما رأوا من صفته، وولوا هاربين، فقال الأمير موسى للشيخ عبد الصمد: ما هذا؟ قال: لا أدري ما هو. فقال: ادنُ منه وابحث عن أمره؛ فلعله يكشف عن أمره، ولعلك تطلع على خبره. فقال الشيخ عبد الصمد: أصلحَ الله الأمير، إنَّا نخاف منه. قال: لا تخافوا، فإنه مكفوف عنكم وعن غيركم بما هو فيه. فدنا منه الشيخ عبد الصمد وقال له: أيها الشخص، ما اسمك؟ وما شأنك؟ وما الذي جعلك في هذا المكان على هذه الصورة؟ فقال له: أما أنا فإنني عفريت من الجن، واسمي داهش بن الأعمش، وأنا مكفوف ها هنا، بالعظمة محبوس، بالقدرة معذَّب إلى ما شاء الله عزَّ وجل. قال الأمير موسى: يا شيخ عبد الصمد، أسأله ما سبب سجنه في هذا العمود؟ فسأله عن ذلك فقال له العفريت: إن حديثي عجيب؛ وذلك أنه كان لبعض أولاد إبليس صنم من العقيق الأحمر، وكنت موكلًا به، وكان يعبدُه ملك من ملوك البحر جليل القدر عظيم الخطر، يقود من عساكر الجان ألفَ ألفٍ، يضربون بين يديه بالسيوف، ويجيبون دعوته في الشدائد، وكان الجان الذين يطيعونه تحت أمري وطاعتي، يتبعون قولي إذا أمرتهم، وكانوا كلهم عصاة

عن سليمان بن داود عليهما السلام، وكنت أدخل في جوف الصنم فأمرهم وأنهاهم، وكانت ابنة ذلك الملك تحت ذلك الصنم كثيرة السجود له منهمكة على عبادته، وكانت أحسن أهل زمانها؛ ذات حُسن وجمال وبهاء وكمال، فوصفتها لسليمان عليه السلام، فأرسل إلى أبيها يقول له: زوّجني بنتك، واكسر صنمك العقيق، واشهد أن لا إله إلا الله وأن سليمان نبي الله، فإن أنت فعلت ذلك كان لك ما لنا، وعليك ما علينا، وإن أنت أبيت أتيتك بجنود لا طاقة لك بها، فاستعدّ للسؤال جواباً، والبس للموت جلباباً، فسوف أسير لك بجنود تملأ الفضاء، وتذكر كالأمس الذي مضى. فلما جاءه رسول سليمان عليه السلام، طغى وتجبّر وتعاضم في نفسه وتكبر، ثم قال لوزرائه: ماذا تقولون في أمر سليمان بن داود؟ فإنه أرسل يطلب ابنتي، وأن أكسر صنمي العقيق، وأن أدخل في دينه. فقالوا: أيها الملك العظيم، هل يقدر سليمان أن يفعل بك ذلك وأنت في وسط هذا البحر العظيم؟ فإن هو سار إليك لا يقدر عليك؛ فإن مرّدة الجن يقاتلون معك، وتستعين عليه بصنمك الذي تعبد، فإنه يُعينك عليه وينصرك، والصواب أن تشاور ربك في ذلك — ويعنون به الصنم العقيق الأحمر — وتسمع ما يكون جوابه، فإن أشار عليك أن تقاتله فقاتله وإلا فلا. فعند ذلك سار الملك من وقته وساعته، ودخل على صنمه بعد أن قرّب القربان، وذبح الذبائح، وخرّ له ساجداً، وجعل يبكي ويقول شعراً:

يَا رَبِّ إِنِّي عَارِفٌ بِقَدْرِكَ وَهَا سُلَيْمَانُ يَرُومُ كَسْرَكَ
يَا رَبِّ إِنِّي طَالِبٌ لِنَصْرِكَ فَأُمِرُّ فَإِنِّي طَائِعٌ لِأَمْرِكَ

ثم قال ذلك العفريت الذي نصفه في العمود للشيخ عبد الصمد ومن حوله يسمع: دخلت أنا في جوف الصنم من جهلي، وقلة عقلي، وعدم اهتمامي بأمر سليمان، وجعلت أقول شعراً:

أَمَا أَنَا فَلَسْتُ مِنْهُ خَائِفٌ لِأَنَّنِي بِكُلِّ أَمْرٍ عَارِفٌ
وَأِنْ يَرِدْ حَرْبِي فَإِنِّي زَاخِفٌ وَإِنَّنِي لِلرُّوحِ مِنْهُ زَاخِفٌ

فلما سمع الملك جوابي له قوي قلبه، وعزم على حرب سليمان نبي الله عليه السلام، وعلى مقاتلته، فلما حضر رسول سليمان ضربه ضرباً وجيعاً، وردّ عليه ردّاً شنيعاً، وأرسل يهدده ويقول له مع الرسول: لقد حدّثتك نفسك بالأمان، أتوعدني بزور الأقوال!

فإِما أن تسير إِلَيَّ وإِما أن أسير إِلَيْكَ. ثم رجع الرسول إلى سليمان وأعلمه بجميع ما كان من أمره، وما حصل له، فلما سمع نبي الله سليمان ذلك قامت قيامته، وثارت عزمته، وجَهَّزَ عساكره من الجن والإنس والوحوش والطير والهوام، وأمر وزيره الدمرياط ملك الجن أن يجمع مَرَدَّة الجن من كل مكان، فجمع له من الشياطين ستمائة ألف ألف، وأمر آصف بن برخياء أن يجمع عساكره من الإنس، فكانت عدتهم ألف ألف أو يزيدون، وأَعَدُّوا العدة والسلاح، وركب هو وجنوده من الجن والإنس على البساط، والطير فوق رأسه طائر، والوحوش من تحت البساط سائرة، حتى نزل بساحته وأحاط بجزيرته، وقد ملأ الأرض بالجنود. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٧١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العفريت قال: لما نزل نبي الله سليمان عليه السلام بجيوشه حول الجزيرة، أرسل إلى ملكنا يقول له: ها أنا قد أتيت فاردد عن نفسك ما نزل، وإلا فادخل تحت طاعتي وقرّ برسالتي، واكسر صنمك، واعبد الواحد المعبود، وزوّجني بنتك بالحلال، وقل أنت ومن معك: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سليمان نبي الله. فإن قلت ذلك كان لك الأمان والسلامة، وإن أبييت فلا يمنعك تحصنك مني في هذه الجزيرة؛ فإن الله تبارك وتعالى أمر الريح بطاعتي، فأمرها أن تحملني إليك بالبساط، وأجعلك عبدة ونكالا لغيرك. فجاءه الرسول وبلغه رسالة نبي الله سليمان عليه السلام، فقال له: ليس لهذا الأمر الذي طلبه مني سبيل، فأعلمه أي خارج إليه. فعاد الرسول إلى سليمان وردّ عليه الجواب، ثم إن الملك أرسل إلى أهل أرضه وجمع له من الجن الذين كانوا تحت يده ألف ألف، وضمّ إليهم غيرهم من المردة والشياطين الذين في جزائر البحار ورءوس الجبال، ثم جهّز عساكره وفتح خزائن السلاح، وفرّقها عليهم.

وأما نبي الله سليمان عليه السلام، فإنه رتب جنوده وأمر الوحوش أن تنقسم شطرين؛ على يمين القوم وعلى شمالهم، وأمر الطيور أن تكون في الجزائر، وأمرها عند الحملة أن تختطف أعينهم بمناقيرها، وأن تضرب وجوههم بأجنحتها، وأمر الوحوش أن تفترس خيولهم، فقالوا: السمع والطاعة لله ولك يا نبي الله. ثم إن سليمان نبي الله نصب له سريرا من المرمر مرصعا بالجواهر مصفحا بصفائح الذهب الأحمر، وجعل وزيره آصف بن برخيا على الجانب الأيمن، ووزيره الدمرياط على الجانب الأيسر، وملوك الإنس على يمينه، وملوك الجن على يساره، والوحوش والأفاعي والحيات أمامه، ثم زحفوا علينا زحفة واحدة، وتحارينا معه في أرض واسعة مدة يومين، ووقع بنا البلاء في اليوم الثالث، فنفذ فينا قضاء الله تعالى، وكان أول من حمل على سليمان أنا وجنودي، وقلت لأصحابي: الزموا

مواطنكم حتى أبرز إليهم وأطلب قتال الدمرياط، وإذا به قد برز كأنه الجبل العظيم، ونيرانه تلتهب، ودخانه مرتفع، فأقبل ورماني بشهاب من نار فغلب سهمه على ناري، وصرخ عليّ صرخة عظيمة تخيلت منها أن السماء انطبقت عليّ، وانهزت لصوته الجبال، ثم أمر أصحابه فحملوا علينا حملة واحدة، وحملنا عليهم، وصرخ بعضنا على بعض، وارتفعت النيران وعلا الدخان، وكادت القلوب أن تنفطر، وقامت الحرب على ساق، وصارت الطيور تقاتل في الهواء والوحوش تقاتل في الثرى، وأنا أقاتل الدمرياط حتى أعياني وأعيبته، ثم بعد ذلك ضعفت وخذلت أصحابي وجنودي، وانهزمت عشائري، وصاح نبي الله سليمان: خذوا هذا الجبار العظيم النحاس الذميم. فحملت الإنس على الإنس، والجن على الجن، ووقعت بملكنا الهزيمة، وكنا لسليمان غنيمة، وحملت العساكر على جيوشنا، والوحوش حولهم يميناً وشمالاً، والطيور فوق رؤوسنا تخطف أبصار القوم تارةً بمخالبها، وتارةً بمناقيرها، وتارةً تضرب بأجنحتها في وجوه القوم، والوحوش تنهش الخيول وتفترس الرجال، حتى صار أكثر القوم على وجه الأرض كجدوع النخل، وأما أنا فطرتُ من بين أيادي الدمرياط، فتبعني مسيرة ثلاثة أشهر حتى لحقني، وقد وقعت كما تروني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٧٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجني الذي في العمود لما حكى لهم حكايته من أولها إلى أن سُجِنَ في العمود، قالوا له: أين الطريق الموصلة إلى مدينة النحاس؟ فأشار لنا إلى طريق المدينة، وإذا بيننا وبينها خمسة وعشرون باباً لا يظهر منها باب واحد، ولا يُعرَف له أثر، وسورها كأنه قطعة من جبل أو حديد صُبَّ في قالب، فنزل القوم ونزل الأمير موسى والشيخ عبد الصمد، واجتهدوا أن يعرفوا لها باباً، أو يجدوا لها سبيلاً، فلم يصلوا إلى ذلك، فقال الأمير موسى: يا طالب، كيف الحيلة في دخول هذه المدينة؟ فلا بد أن نعرف لها باباً ندخل منه؟ فقال طالب: أصلح الله الأمير، ليسترح يومين أو ثلاثة وندبر الحيلة إن شاء الله تعالى في الوصول إليها والدخول فيها. قال: فعند ذلك أمر الأمير موسى بعض غلمانه أن يركب جملاً، ويطوف حول المدينة لعله يطلع على أثر باب، أو موضع قصر في المكان الذي هم فيه نازلون، فركب بعض غلمانه وسار حولها يومين بلياليهما يجدُ السير ولا يستريح، فلما كان اليوم الثالث أشرف على أصحابه وهو مدهوش لما رأى من طولها وارتفاعها، ثم قال: أيها الأمير، إن أهون موضع فيها هذا الموضع الذي أنتم نازلون فيه. ثم إن الأمير موسى أخذ طالب بن سهل والشيخ عبد الصمد وصعدوا على جبل مقابلها وهو مشرف عليها، فلما طلّعوا ذلك الجبل رأوا مدينة لم تَرِ العيون أعظم منها، قصورها عالية، وقبابها زاهية، ودورها عامرات، وأنهارها جاريات، وأشجارها مثمرات، رياضها يانعات، وهي مدينة بأبواب منيعة خالية خادمة لا حس فيها ولا أنيس، يصفر البوم في جهاتها، ويحوم الطير في عرصاتها، وينعق الغراب في نواحيها وشوارعها، ويكي على مَنْ كان فيها، فوقف الأمير موسى يتندّم على خلوها من السكان، وخرابها من الأهل والقطان، وقال: سبحان مَنْ لا تغيّر الدهور والأزمان، خالق الخلق بقدرته. فبينما هو يسبح الله عز وجل إذ حانت منه التفاتة إلى جهة، وإذا فيها سبعة ألواح من الرخام



فلما طلّعوا ذلك الجبل رأوا مدينةً لم تَرَ العيونُ أعظمَ منها.

الأبيض، وهي تلوح من البُعد، فدنا منها فإذا هي منقوشة مكتوبة، فأمر أن تُقرأ كتابتها، فتقدّم الشيخ عبد الصمد وتأمّلها وقرأها، فإذا فيها وعظ واعتبار، وزجر لذوي الأبصار، مكتوب على اللوح الأول بالقلم اليوناني: «يا ابن آدم، ما أغفلك عن أمر هو أمامك، قد ألّهتكَ عنه سنونك وأعوامك، أمّا علمتَ أن كأس المنية لك يترع، وعن قريب له تتجرّع، فانظر لنفسك قبل دخولك رمسك، أين من ملك البلاد وأذلّ العباد، وقاد الجيوش؟ نزل

بهم والله هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومخرب المنازل العامرات، فنقلهم من سعة القصور إلى ضيق القبور!« وفي أسفل اللوح مكتوب هذه الأبيات:

أَيْنَ الْمُلُوكُ وَمَنْ بِالْأَرْضِ قَدْ عَمَرُوا	قَدْ فَارَقُوا مَا بَنَوْا فِيهَا وَمَا عَمَرُوا
وَأَصْبَحُوا رَهْنَ قَبْرِ بِالَّذِي عَمِلُوا	عَادُوا رَمِيمًا مِنْ بَعْدِ مَا دُثِرُوا
أَيْنَ الْعَسَاكِرُ مَا رَدَّتْ وَمَا نَفَعَتْ	وَأَيْنَ مَا جَمَعُوا فِيهَا وَمَا ادَّخَرُوا
أَتَاهُمْ أَمْرُ رَبِّ الْعَرْشِ فِي عَجَلٍ	لَمْ يُنْجِهِمْ مِنْهُ أَمْوَالٌ وَلَا وَرَرُ

فصُنع الأمير موسى وجرت دموعه على خده، وقال: والله إن الزهد في الدنيا هو غاية التوفيق ونهاية التحقيق. ثم إنه أحضر دواة وقرطاسًا، وكتب ما على اللوح الأول، ثم دنا من اللوح الثاني، وإذا عليه مكتوب: «يا ابن آدم، ما غرَّك بقديم الأزل، وما ألهاك عن حلول الأجل، أَلَمْ تعلم أن الدنيا دار بوار، وما لأحد فيها قرار، وأنت ناظر إليها، ومكب عليها؟ أين الملوك الذين عمروا العراق، وملكوا الآفاق؟ أين من عمروا أصفهان وبلاد خراسان؟ دعاهم داعي المنايا فأجابوه، وناداهم داعي الفناء فلبَّوه، وما نفعهم ما بنوا وشيّدوا، ولا ردَّ عنهم ما جمعوا وعددوا.» وفي أسفل اللوح مكتوب هذه الأبيات:

أَيْنَ الَّذِينَ بَنَوْا لِذَاكَ وَشَيَّدُوا	غُرَفًا بِهِ لَمْ يَحْكِيهَا بِنْيَانُ
جَمَعُوا الْعَسَاكِرَ وَالْجُيُوشَ مَخَافَةً	مِنْ ذُلِّ تَقْدِيرِ إِلَهِ فَهَانُوا
أَيْنَ الْأَكَاْسِرَةُ الْمَنَاعُ حِصْنُهُمْ	تَرَكُوا الْبِلَادَ كَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا

فبكى الأمير موسى وقال: والله لقد خُلِقنا لأمرٍ عظيم. ثم كتب ما عليه، ودنا من اللوح الثالث ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٧٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمير موسى دنا من اللوح الثالث فوجد فيه مكتوب: «يا ابن آدم، أنت بحب الدنيا لاه، وعن أمر ربك ساه، كل يوم من عمرك ماض، وأنت بذلك قانع وراض، فقدّم الزاد ليوم الميعاد، واستعدّ لرد الجواب بين يدي ربّ العباد.» وفي أسفل اللوح مكتوب هذه الأبيات:

أَيَّنَ الَّذِي عَمَرَ الْبِلَادَ بِأَسْرِهَا	سِنْدًا وَهِنْدًا وَاعْتَدَى وَتَجَبَّرَا
وَالزُّنُجَ وَالْحَبَشَ اسْتَقَادُوا لِأَمْرِهِ	وَالنُّوبَ لَمَّا أَنْ طَغَى وَتَكَبَّرَا
لَا تَنْتَظِرُ خَيْرًا بِمَا فِي قَبْرِهِ	هَمِيَّاتٍ أَنْ تَلْقَى لِذَلِكَ مُخْبِرَا
فَدَهَنَتْهُ مِنْ رَيْبِ الْمُؤْنِ حَوَادِثُ	لَمْ يُنْجِهِ مِنْ قَصْرِهَا مَا عَمَّرَا

فبكى الأمير موسى بكاءً شديداً، ثم دنا من اللوح الرابع فرأى مكتوباً عليه: «يا ابن آدم، كم يهلك مولاك وأنت غائص في بحر لهوك؟ كل يوم خيره إليك حتى لا تموت. يا ابن آدم لا تغرنك أيامك ولياليك، وساعاتك الملئية وغفلاتها، واعلم أن الموت لك مراصد، وعلى كتفك صاعد، ما من يوم يمضي إلا صبحك صباحاً ومساك مساء، فاحذِرْ من هجمته، واستعدّ له، فكأنني بك وقد سلبت طول حياتك، وضيّعت لذات أوقاتك، فاسمع مقالتي، وثق بمولى الموالي؛ ليس للدنيا ثبوت، إنما الدنيا كبيت العنكبوت.» ورأى في أسفل اللوح مكتوباً هذه الأبيات:

أَيَّنَ مَنْ أَسَسَ الدُّرَى وَبَنَاهَا	وَتَوَلَّى مَشِيدَهَا ثُمَّ عَلَى
أَيَّنَ أَهْلُ الْحُصُونِ مَنْ سَكْنُوهَا	كُلُّهُمْ عَنْ تِلْكَ الصَّيَاصِي وَلَى
أَصْبَحُوا فِي الْقُبُورِ رَهْنًا لِيَوْمٍ	فِيهِ كُلُّ السَّرَائِرِ تَبْلَى
لَيْسَ يَبْقَى سِوَى إِلَهِ تَعَالَى	وَهُوَ مَا زَالَ لِلْكَرَامَةِ أَهْلًا

فبكى الأمير موسى، وكتب ذلك كله ونزل من فوق الجبل، وقد صور الدنيا بين عينيه، فلما وصل إلى العسكر أقاموا يومهم يدبرون الحيلة في دخول المدينة، فقال الأمير موسى لوزيريه طالب بن سهل ولَمَن حوله من خواصه: كيف تكون الحيلة في دخول المدينة للنظر عجائبها؟ ولعلنا نجد فيها ما نتقَرَّب به إلى أمير المؤمنين. فقال طالب بن سهل: أدام الله نعمة الأمير، نعمل سلماً ونصعد عليه لعلنا نصل إلى الباب من داخل. فقال الأمير موسى: هذا ما خطر ببالي وهو نَعْم الرأي. ثم إنه دعا بالنجارين والحدادين، وأمر أن يسووا الأخشاب، ويعملوا سلماً مصفَّحاً بصفائح الحديد، ففعلوه وأحكموه، وقعدوا في عمله شهراً كاملاً، واجتمعت عليه الرجال فأقاموه وألصقوه بالسور، فجاء مساوياً له كأنه قد عُمِل له قبل ذلك اليوم؛ فتعجَّب الأمير موسى منه، وقال: بارَك الله فيكم، كأنكم قستوه عليه من حُسْن صنعكم! ثم إن الأمير موسى قال للناس: مَنْ يطلع منكم على هذا السلم ويصعد فوق السور ويمشي عليه، ويتحایل في نزوله إلى أسفل المدينة لينظر كيف الأمر، ثم يخبرنا بكيفية فتح الباب؟ فقال أحدهم: أنا أصعد عليه أيها الأمير وأنزل أفتحه. فقال له الأمير موسى: اصعد بارَك الله فيك. فصعد الرجل على السلم حتى صار في أعلاه، ثم إنه قام على قدميه وشخص إلى المدينة، وصفَّق بكفيه وصاح بأعلى صوته، وقال: أنت مليح. ورمى بنفسه من داخل المدينة فانهرس لحمه على عظمه، فقال الأمير موسى: هذا فعل العاقل، فكيف يكون فعل المجنون؟ إن كُنَّا نفعل هكذا بجميع أصحابنا، لم يَبْقَ منهم أحد فتعجز عن قضاء حاجتنا وحاجة أمير المؤمنين، ارحلوا فلا حاجة لنا بهذه المدينة. فقال بعضهم: لعل غير هذا أثبت منه. فصعد ثانٍ وثالث ورابع وخامس، فما زالوا يصعدون من على ذلك السلم إلى السور واحداً بعد واحد، إلى أن راح منهم اثنا عشر رجلاً، وهم يفعلون كما فعل الأول، فقال الشيخ عبد الصمد: ما لهذا الأمر غيري، وليس المجرب كغير المجرب. فقال له الأمير موسى: لا تفعل ذلك، ولا أمكنك من الطلوع إلى هذا السور؛ لأنك إذا مت كنت سبباً لموتنا كلنا، ولم يَبْقَ منَّا أحد لأنك أنت دليل القوم. فقال له الشيخ عبد الصمد: لعل ذلك يكون على يدي بمشيئة الله تعالى. فاتفق القوم كلهم على صعوده. ثم إن الشيخ عبد الصمد قام ونشط نفسه وقال: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم إنه صعد على السلم وهو يذكر الله تعالى ويقرأ آيات النجاة، إلى أن بلغ أعلى السور، ثم إنه صفَّق بيديه وشخص ببصره، فصاح عليه القوم جميعاً وقالوا: أيها الشيخ عبد الصمد، لا تفعل ولا تُلْقَ نفسك. وقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن وقع الشيخ عبد الصمد هلكنا بأجمعنا. ثم إن الشيخ عبد الصمد ضحك ضحكاً زائداً، وجلس ساعة طويلة يذكر الله تعالى ويتلو

آيات النجاة، ثم إنه قام على حيله، ونادى بأعلى صوته: أيها الأمير، لا بأس عليكم، فقد صرف الله عزّ وجلّ عني كيدَ الشيطان ومكره، ببركة بسم الله الرحمن الرحيم. فقال له الأمير: ما رأيته أيها الشيخ؟ قال: لما حصلت أعلى السور رأيتُ عشرَ جوارٍ كأنهن الأقمار، وهنّ ينادين ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٧٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ عبد الصمد قال: لما حصلت أعلى السور رأيت عشرَ جوارٍ كأنهن الأقمار، وهنَّ يُشَرْنَ بأيديهن أن تعال إلينا، وتخيل لي أن تحتي بحرًا من الماء، فأردت أن ألقي نفسي كما فعل أصحابنا، فرأيتهم موتى، فتماسكتُ عنهم، وتلوتُ شيئًا من كتاب الله تعالى، فصرف الله عني كيدهن، وانصرفن عني، فلم أرم نفسي، وردَّ الله عني كيدهن وسحرهن، ولا شك أن هذا سحر ومكيده صنعها أهل تلك المدينة ليردوا عنها كلَّ مَنْ أراد أن يشرف عليها، ويروم الوصول إليها، وهؤلاء أصحابنا مطروحون موتى. ثم إنه مشى على السور إلى أن وصل إلى البرجين النحاس، فرأى لهما بابين من الذهب ولا قفل عليهما، وليس فيهما علامة للفتح، ثم وقف الشيخ ما شاء الله وتأمَّلَ فرأى في وسط الباب صورة فارس من نحاس له كف ممدود كأنه يشير به، وفيه خط مكتوب، فقرأه الشيخ عبد الصمد فإذا فيه: افرك المسمار الذي في سرَّة الفارس اثنتي عشرة فركة؛ فإن الباب ينفتح. فتأمَّلَ الفارس فإذا في سرته مسمار محكم متقن مكين، ففركه اثنتي عشرة فركة فانفتح الباب في الحال، وله صوت كالرعد، فدخل منه الشيخ عبد الصمد، وكان رجلًا فاضلاً عالمًا بجميع اللغات والأقلام، فمشى إلى أن دخل دهليزًا طويلاً نزل منه على درجات، فوجد مكانًا بدكك حسنة، وعليها أقوام موتى، وفوق رءوسهم التروس المكلفة والحسامات المرفهة، والقسي الموترة، والسهام المفوقة، وخلف الباب عمود من حديد، ومتاريس من خشب، وأقفال رقيقة، وآلات محكمة، فقال الشيخ عبد الصمد في نفسه: لعل المفاتيح عند هؤلاء القوم. ثم نظر بعينه وإذا هو بشيخ يظهر أنه أكبرهم سنًا وهو على دكة عالية بين القوم الموتى، فقال الشيخ عبد الصمد: وما يدريك أن تكون مفاتيح هذه

المدينة مع هذا الشيخ؟ ولعله بؤاب المدينة وهؤلاء من تحت يده. فدنا منه ورفع ثيابه، وإذا بالمفاتيح معلقة في وسطه، فلما رآها الشيخ عبد الصمد فرح فرحاً شديداً، وقد كاد عقله أن يطير من الفرحة.

ثم إن الشيخ عبد الصمد أخذ المفاتيح ودنا من الباب وفتح الأقفال وجذب الباب والمتاريس والآلات، فانفتحت وانفتح الباب بصوت كالرعد لكبره وهوله وعظم آلاته، فعند ذلك كبر الشيخ وكبر القوم معه، واستبشروا وفرحوا، وفرح الأمير موسى بسلامة الشيخ عبد الصمد، وفتح باب المدينة، وقد شكره القوم على ما فعله، فبادر العسكر كلهم بالدخول من الباب، فصاح عليهم الأمير موسى وقال لهم: يا قوم، لا نأمن إذا دخلنا من أمر يحدث، ولكن يدخل النصف ويتأخر النصف. ثم إن الأمير موسى دخل من الباب ومعه نصف القوم وهم حاملون آلات الحرب، فنظر القوم إلى أصحابهم وهم ميتون فدفنهم، ورأوا البوابين والخدم والحجاب والنواب راكدين فوق الفراش الحرير موتى كلهم، ودخلوا إلى سوق المدينة فنظروا سوقاً عظيمة عالية الأبنية لا يخرج بعضها عن بعض، والدكاكين مفتحة والموازين معلقة، والنحاس مصفوفاً، والخانات ملأنة من جميع البضائع، ورأوا التجار موتى على دكاكينهم، وقد يبست منهم الجلود، ونخرت منهم العظام، وصاروا عبرة لمن اعتبر. ونظروا إلى أربعة أسواق مستقلات دكاكينها مملوءة بالمال، فتركوها ومضوا إلى سوق الخز، وإذا فيها من الحرير والديباج ما هو منسوج بالذهب الأحمر والفضة البيضاء على اختلاف الألوان، وأصحابه موتى رقود على أنطاع الأديم، يكادون أن ينطقوا، فتركوهم ومضوا إلى سوق الجواهر واللؤلؤ والياقوت، فتركوها ومضوا إلى سوق الصيارف، فوجدتهم موتى وتحتهم أنواع الحرير والإبريسم، ودكاكينهم مملوءة من الذهب والفضة، فتركوهم ومضوا إلى سوق العطارين، فإذا دكاكينهم مملوءة بأنواع العطريات، ونوافح المسك والعنبر والعود والند والكافور وغير ذلك، وأهلها كلهم موتى، ولم يكن عندهم شيء من المأكول، فلما طلَعوا من سوق العطارين وجدوا قريباً منه قصرًا مزخرفاً مبنياً متقناً، فدخلوه فوجدوا أعلاماً منشورة وسيوفاً مجردة وقسيًا موترة، وتروساً معلقة بسلاسل من الذهب والفضة، وخوداً مطلية بالذهب الأحمر، وفي دهاليز ذلك القصر دك من العاج المصفح بالذهب الوهاج والإبريسم، وعليها رجال قد يبست منهم الجلود على العظام، يحسبهم الجاهل نياماً، ولكنهم من عدم القوت ماتوا وذاقوا الجِمام، فعند ذلك وقف الأمير موسى يسبح الله تعالى ويقدّسه، وينظر إلى حُسن ذلك القصر، ومحكم بنائه، وعجيب

صنعه بأحسن صفة وأتقن هندسة، وأكثر نقشه باللازورد الأخضر، مكتوب على دائره هذه الأبيات:

وَكُنْ عَلَى حَدَرٍ مِنْ قَبْلِ تَرْتَحِلْ	انْظُرْ إِلَى مَا تَرَى يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ
فَكُلُّ سَاكِنٍ دَارٍ سَوْفَ يَرْتَحِلْ	وَقَدِّمِ الزَّادَ مِنْ خَيْرِ تَفَرُّ بِهِ أَبَدًا
فَأَصْبَحُوا فِي الثَّرَى رَهْنَا بِمَا عَمِلُوا	وَانْظُرْ إِلَى مَعْشَرٍ زَانُوا مَنَازِلَهُمْ
لَمْ يُنْجِهِمْ مَالُهُمْ لَمَّا انْقَضَى الْأَجَلُ	بَنَوْا فَمَا نَفَعَ الْبُنْيَانُ وَادَّخَرُوا
إِلَى الْقُبُورِ وَلَمْ يَنْفَعُهُمُ الْأَمَلُ	كَمْ أَمَلُوا غَيْرَ مَقْدُورٍ لَهُمْ فَمَضَوْا
لِذَلٍّ ضَيْقُ لُحُودًا سَاءَ مَا نَزَلُوا	وَاسْتَنْزَلُوا مِنْ أَعَالِي عِزٍّ رُتِبَتِهِمْ
أَيْنَ الْأَسْرَةُ وَالْتِيْجَانُ وَالْحُلُلُ	فَجَاءَهُمْ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا دُفِنُوا
مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ وَالْمُثُلُ	أَيْنَ الْوُجُوهُ الَّتِي كَانَتْ مُحَجَّبَةً
أَمَّا الْخُدُودُ فَعَنْهَا الْوَرْدُ مُنْتَقِلُ	فَأَفْصَحَ الْقَبْرِ عَنْهُمْ حَسْبُ سَائِلِهِمْ
فَأَصْبَحُوا بَعْدَ طَيْبِ الْأَكْلِ قَدْ أَكَلُوا	قَدْ طَالَ مَا أَكَلُوا يَوْمًا وَمَا شَرَبُوا

فبكى الأمير موسى حتى غشي عليه، وأمر بكتابة هذا الشعر، ودخل القصر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٧٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمير موسى دخل القصر فرأى حجرة كبيرة وأربع مجالس عالية كبار متقابلة واسعة، منقوشة بالذهب والفضة، مختلفة الألوان، وفي وسطها فسقية كبيرة من المرمز، وعليها خيمة من الديباج، وفي تلك المجالس جهات، وفي تلك الجهات فساق مزخرفة وحيطان مرخمة ومجار تجري من تحت تلك المجالس، وتلك الأنهر الأربعة تجري وتجتمع في بحيرة عظيمة مرخمة باختلاف الألوان. ثم قال الأمير موسى للشيخ عبد الصمد: ادخل بنا هذه المجالس. فدخلوا المجلس الأول فوجدوه مملوءاً من الذهب والفضة البيضاء واللؤلؤ والجواهر واليواقيت والمعادن النفيسة، ووجدوا فيها صناديق مملوءة من الديباج الأحمر والأصفر والأبيض. ثم إنهم انتقلوا إلى المجلس الثاني ففتحو خزانة فيه، فإذا هي مملوءة بالسلاح وآلات الحرب من الخوذ المذهبة، والدروع الداودية، والسيوف الهندية، والرماح الخطية، والدبابيس الخوارزمية، وغيرها من أصناف آلات الحرب والكفاح. ثم انتقلوا إلى المجلس الثالث فوجدوا فيه خزائن عليها أقفال مغلقة، وفوقها ستارات منقوشة بأنواع الطراز، ففتحو منها خزانة فوجدوها مملوءة بالسلاح المزخرف بأنواع الذهب والفضة والجواهر. ثم إنهم انتقلوا إلى المجلس الرابع فوجدوا فيه خزائن، ففتحو منها خزانة فوجدوها مملوءة بآلات الطعام والشراب من أصناف الذهب والفضة، وسكارج البلور، والأقداح المرصعة باللؤلؤ الرطب، وكاسات العقيق وغير ذلك، فجعلوا يأخذون ما يصلح لهم من ذلك، ويحمل كل واحد من العسكر ما يقدر عليه.

فلما عزموا على الخروج من تلك المجالس رأوا هناك باباً من الساج متداخلاً فيه العاج والأبنوس، وهو مصفح بالذهب الوهاج في وسط ذلك القصر، وعليه ستر مسبول من حرير منقوش بأنواع الطراز، وعليه أقفال من الفضة البيضاء تفتح بالحيلة بغير مفتاح، فتقدم الشيخ عبد الصمد إلى تلك الأقفال ففتحها بمعرفته وشجاعته وبراعته، فدخل

القوم من دهليز مرخم، في جوانب ذلك الدهليز براقع عليها صور من أصناف الوحوش والطيور، وكل ذلك من ذهب أحمر وفضة بيضاء وأعينها من الدرر والياقوت، تحير كل من رآها. ثم وصلوا إلى قاعة مصنوعة، فلما رآها الأمير موسى والشيخ عبد الصمد اندهشاً من صنعتها. ثم إنهم عبروا فوجدوا قاعة مصنوعة من رخام مسقول منقوش بالجواهر، يتوهم الناظر أن في طريقه ماءً جارياً لو مرَّ عليه أحدٌ لزلق، فأمر الأمير موسى الشيخ عبد الصمد أن يطرح عليها شيئاً حتى يتمكنوا أن يمشوا عليها، ففعل ذلك وتحيل حتى عبروا فوجدوا فيها قبة عظيمة مبنية بحجارة مطلية بالذهب الأحمر، لم يشاهد القوم في جميع ما رأوه أحسن منها، وفي وسط تلك القبة قبة عظيمة كبيرة من المرمر، بدائرها شبابيك منقوشة مرصعة بقضبان الزمرد لا يقدر عليها أحد من الملوك، وفيها خيمة من الديباج منصوبة على أعمدة من الذهب الأحمر، وفيها طيور أرجلها من الزمرد الأخضر، وتحت كل طير شبكة من اللؤلؤ الرطب مجللة على فسقية، وموضوع على الفسقية سرير مرصع بالدر والجواهر والياقوت، وعلى السرير جارية كأنها الشمس الضاحية، لم يرَ الرءون أحسن منها، وعليها ثوب من اللؤلؤ الرطب، وعلى رأسها تاج من الذهب الأحمر وعصابة من الجواهر، وفي عنقها عقد من الجواهر، وفي وسطه جواهر مشرقة، وعلى جبينها جوهرتان نورهما كنور الشمس، وهي كأنها ناظرة إليهم تتأملهم يميناً وشمالاً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٧٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمير موسى لما رأى هذه الجارية تعجَّب غاية العجب من جمالها، وتحَيَّرَ من حُسْنِها وحُمرة خَدَّيْها وسواد شعرها، يظن الناظر أنها بالحياة ولم تكن ميتة. فقالوا لها: السلام عليك أيتها الجارية. فقال له طالب بن سهل: أصلح الله شأنك، اعلم أن هذه الجارية ميتة لا روحَ فيها، فمن أين لها أن تردَّ السلام؟ ثم إن طالب بن سهل قال له: أيها الأمير، إنها صورة مدبرة بالحكمة، وقد قُلعت عيناها بعد موتها وجُعِلَ تحتها زئبق وأُعِدتا مكانهما، فهما يلمعان كأنهما يحركهما الهدب، يُخَيِّلُ للناظر أنها ترمش بعينيهما وهي ميتة. فقال الأمير موسى: سبحان الله الذي قهر العباد بالموت.

وأما السرير الذي عليه الجارية فله درج، وعلى الدرج عبدان أحدهما أبيض والآخر أسود، وبُيِّد أحدهما آلة من البولاد، وبُيِّد الآخر سيف مجوهر يخطف الأبصار، وبين يدي العبدَين لوح من ذهب، وفيه كتابة تُقْرَأ وهي: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله خالق الإنسان وهو رب الأرباب، ومسبَّب الأسباب، باسم الله الباقي السرمدي، باسم الله مقدِّر القضاء والقدر. ويا ابن آدم ما أجْهَكَ بطول الأمل، وما أسْهَكَ عن حلول الأجل، أَمَا عَلِمْتَ أن الموت لك قد دعاك، وإلى قبض روحك قد سعى؟ فكُنْ على أهبة الرحيل، وتزوَّدْ من الدنيا فستفارقتها عن قليل، أين آدم أبو البشر؟ أين نوح وما نسل؟ أين الملوك الأكاسرة والقياصرة؟ أين ملوك الهند والعراق؟ أين ملوك الآفاق؟ أين العمالقة؟ أين الجبابرة؟ خلت منهم الديار وقد فارقوا الأهل والأوطان. أين ملوك العجم والعرب؟ ماتوا بأجمعهم وصاروا أممًا. أين السادة ذوو الرتب؟ قد ماتوا جميعًا. أين قارون وهامان؟ أين شداد بن عاد؟ أين كنعان وذو الأوتاد؟ قرضهم والله قارض الأعمار وأخلى منهم الديار، فهل قَدَّمُوا الزاد ليوم المعاد، واستعدُّوا لجواب رب العباد؟ يا هذا إن كنت لا تعرفني، فأنا أعرفك باسمي ونسبي، أنا ترمز ابن بنت عمالقة الملوك، من الذين عدلوا في البلاد، ملكت ما لم

يملكه أحد من الملوك، وأعدلت في القضية، وأنصفت بين الرعية، وأعطيت ووهبت، وقد عشت زماناً طويلاً في سرور وعيش رغيد، وأعتقتُ الجواري والعبيد، حتى نزل بي طارق المنايا، وحلّت بين يدي الرزايا، وذلك أنه قد تواترت علينا سبع سنين لم ينزل علينا ماء من السماء، ولا نبت لنا عشب على وجه الأرض، فأكلنا ما كان عندنا من القوت، ثم عطفنا على المواشي من الدواب، فأكلناها ولم يَبْقَ شيء، فحينئذٍ أحضرت المال واكتلته بمكيال وبعثته مع الثقات من الرجال، فطافوا به جميع الأقطار، ولم يتركوا مصرّاً من الأمصار في طلب شيء من القوت فلم يجدوه، ثم عادوا إلينا بالمال بعد طول الغيبة، فحينئذٍ أظهرنا أموالنا وذخائرنا، وأغلقتنا أبواب الحصون التي بمدينتنا وسلّمنا لحكم ربنا، وفوضنا أمرنا للمالكن، فمتنا جميعاً كما ترانا، وتركنا ما عمّرنا وما ادّخرنا، فهذا هو الخبر، وما بعد العين إلا الأثر.» وقد نظروا في أسفل اللوح فرأوا مكتوباً فيه هذه الأبيات:

عَنْ كُلِّ مَا ادَّخَرْتَ كَفَاكَ تَنْتَقِلُ	بُنَيَّ آدَمَ لَا يَهْزَأُ بِكَ الْأَمَلُ
وَقَدْ سَعَى قَبْلَكَ الْمَاضُونَ وَالْأَوَّلُ	أَرَاكَ تَرْغَبُ فِي الدُّنْيَا وَزَيْنَتِهَا
فَلَمْ يَرِدْ الْقَضَا لَمَّا انْتَهَى الْأَجَلُ	قَدْ حَصَلُوا الْمَالَ مِنْ جِلٍّ وَمِنْ حُرْمٍ
فَحَلَفُوا الْمَالَ وَالْبُنْيَانِ وَارْتَحَلُوا	قَادُوا الْعَسَاكِرَ أَفْوَاجًا وَقَدْ جَمَعُوا
وَقَدْ أَقَامُوا بِهِ رَهْنًا بِمَا عَمِلُوا	إِلَى قُبُورٍ وَضِيقٍ فِي الثَّرَى رَقَدُوا
فِي جُمُعَ لَيْلٍ بَدَارَ مَا بِهَا نُزُلُ	كَأَنَّمَا الرُّكْبُ قَدْ حَطُّوا رِحَالَهُمْ
فِيهَا مَقَامٌ فَشَدُّوا بَعْدَ مَا نَزَلُوا	فَقَالَ صَاحِبُهَا يَا قَوْمُ لَيْسَ لَكُمْ
وَلَا يَطِيبُ لَهُ حَلٌّ وَمُرْتَحَلُ	فَكُلُّهُمْ خَائِفٌ أَضْحَى بِهَا وَجَلًا
وَلَيْسَ إِلَّا بِتَقْوَى رَبِّكَ الْعَمَلُ	فَقَدِمَ الزَّادُ مِنْ خَيْرٍ نُسِرُ غَدًا

فبكى الأمير موسى لما سمع هذا الكلام: «والله إن التقوى هي رأس الأمور والتحقيق والركن الوثيق، وإن الموت هو الحق المبين والوعد اليقين، وفيه يا هذا المرجع والمآب، واعتبر بمن سلف قبلك في التراب، وبادر إلى سبيل المعاد، أما ترى الشيب إلى القبر دعاك، وبياض شعرك على نفسك قد نعاك؟ فكن على يقظة الرحيل والحساب. يا ابن آدم، ما أقسى قلبك! فما غرك بربك؟ أين الأمم السالفة؟ العبرة لمن يعتبر، أين ملوك الصين أهل البأس والتمكين؟ أين عاد؟ أين شذاد وما بنى وعمّر؟ أين النمرود الذي طغى وتجبّر؟ أين فرعون الذي جحد وكفر؟ كلهم قهرهم الموت على الأثر، فما أبقي صغيراً ولا كبيراً، ولا أنثى ولا ذكراً، قرضهم قارض الأعمار، ومكور الليل على النهار. اعلم أيها الواصل إلى

هذا المكان ممَّن رآنا أنه لا يُغْتَرُّ بشيء من الدنيا وحطامها؛ فإنها غدارة مكاره، دار بوار وغرور، فطوبى لعبيدٍ ذكر ذنبه وخشي ربه وأحسن المعاملة، وقدم الزاد ليوم المعاد، فمَّن وصل إلى مدينتنا ودخلها وسهَّلَ الله عليه دخولها، فَلْيَأْخُذْ من المال ما يقدر عليه، ولا يمس من فوق جسدي شيئاً؛ فإنه ستر لعورتي وجهازي من الدنيا، فَلْيَتَّقِ الله ولا يسلب منه شيئاً فيهلك نفسه. وقد جعلت ذلك نصيحة مني إليه، وأمانة مني لديه والسلام، فأسأل الله أن يكفيكم شر البلايا والسقام.» وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٧٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمير موسى لما سمع هذا الكلام بكى بكاءً شديداً حتى غشي عليه، فلما أفاق كتب جميع ما رآه واعتبر بما شاهده، ثم قال لأصحابه: ائتوا بالأعدال واملئوها من هذه الأموال وهذه الأواني والتحف والجواهر. فقال طالب بن سهل للأمير موسى: أيها الأمير، أنترك هذه الجارية بما عليها وهو شيء لا نظير له، ولا يوجد في وقت مثله، وهو أوفى ما أخذت من الأموال، وأحسن هدية تتقرب بها إلى أمير المؤمنين. فقال الأمير موسى: يا هذا، ألم تسمع ما أوصت به الجارية في هذا اللوح، لا سيما وقد جعلته أمانة، وما نحن من أهل الخيانة. فقال الوزير طالب: وهل لأجل هذه الكلمات نترك هذه الأموال وهذه الجواهر وهي مينة؟ فما تصنع بهذا وهو زينة الدنيا وجمال الأحياء؟ وثوب من القطن تستر به هذه الجارية ونحن أحق به منها. ثم دنا من السلم وصعد على الدرج حتى صار بين العمودين، وحصل بين الشخصين، وإذا بأحد الشخصين ضربه في ظهره، وضربه الآخر بالسيف الذي في يده، فرمى رأسه ووقع ميتاً، فقال الأمير موسى: لا رحم الله لك مضجعاً، لقد كان في هذه الأموال ما فيه كفاية، والطمع لا شك يزري بصاحبه. ثم أمر بدخول العساكر، فدخلوا وحملوا الجمال من تلك الأموال والمعادن، ثم إن الأمير موسى أمرهم أن يغلقوا الباب كما كان.

ثم ساروا على الساحل حتى أشرفوا على جبل عالٍ مشرف على البحر، وفيه مغارات كثيرة، وإذا فيها قوم من السودان وعليهم نطوع، وعلى رءوسهم برانس من نطوع، لا يُعرَف كلامهم، فلما رأوا العسكر أجفلوا منهم وولوا هاربين إلى تلك المغارات ونساؤهم وأولادهم على أبواب المغارات، فقال الأمير موسى: يا شيخ عبد الصمد، ما هؤلاء القوم؟ فقال: هؤلاء طلبة أمير المؤمنين. فنزلوا وضربت الخيام وحطت الأموال، فما استقر بهم المكان حتى نزل ملك السودان من الجبل، ودنا من العسكر وكان يعرف العربية، فلما

وصل إلى الأمير موسى سَلَّمَ عليه، فردَّ عليه السلام وأكرمه، فقال ملك السودان للأمير موسى: أنتم من الإنس أم من الجن؟ فقال الأمير موسى: أما نحن فمن الإنس، وأما أنتم فلا شك أنكم من الجن، لانفرادكم في هذا الجبل المنفرد عن الخلق، ولعظم خلقتكم. فقال ملك السودان: بل نحن قوم آدميون من أولاد حام بن نوح عليه السلام، وأما هذا البحر فإنه يُعرَف بالكركر. فقال له الأمير موسى: ومن أين لكم علم ولم يبلغكم نبي أُوحِي إليه في مثل هذه الأرض؟ فقال: اعلم أيها الأمير أنه يظهر لنا من هذا البحر شخص له نور تضيء له الآفاق، فينادي بصوتٍ يسمعه البعيد والقريب: يا أولاد حام، استحووا ممَّن يرى ولا يرى، وقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأنا أبو العباس الخضر. وكنا قبل ذلك نعبد بعضنا، فدعانا إلى عبادة رب العباد. ثم قال للأمير موسى: وقد علَّمنا كلمات نقولها. فقال الأمير موسى: وما تلك الكلمات؟ قال: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. وما نتقرب إلى الله عز وجل إلا بهذه الكلمات ولا نعرف غيرها، وكل ليلة جمعة نرى نورًا على وجه الأرض ونسمع صوتًا يقول: سبوح قدوس رب الملائكة والروح، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كل نعمة من الله فضل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقال له الأمير موسى: نحن أصحاب ملك الإسلام عبد الملك بن مروان، وقد جئنا بسبب القمامم النحاس التي عندكم في بحرکم، وفيها الشياطين محبوسة من عهد سليمان بن داود عليهما السلام، وقد أمر أن نأتيه بشيء منها يبصره ويتفرج عليه. فقال له ملك السودان: حبًّا وكرامةً.

ثم أضافه بلحوم السمك، وأمر الغواصين أن يُخْرِجُوا من البحر شيئًا من القمامم السليمانية، فأخرجوا لهم اثني عشر قمقمًا؛ ففرح الأمير موسى بها والشيخ عبد الصمد والعساكر لأجل قضاء حاجة أمير المؤمنين. ثم إن الأمير موسى وهب لملك السودان مواهب كثيرة، وأعطاه عطايا جزية، وكذلك ملك السودان أهدى إلى الأمير موسى هدية من عجائب البحر على صفة الآدميين، وقال: إن ضيافتكم في هذه الثلاثة أيام من لحوم هذا السمك. فقال الأمير موسى: لا بد أن نحمل معنا شيئًا حتى ينظر إليه أمير المؤمنين، فيطمئن خاطره بذلك أكثر من القمامم السليمانية. ثم ودَّعوه وساروا حتى وصلوا إلى بلاد الشام، فدخلوا على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فحدَّثه الأمير موسى بجميع ما رآه، وما وقع له من الأشعار والأخبار والمواعظ، وأخبره بخبر طالب بن سهل، فقال له أمير المؤمنين: ليتني كنتُ معكم حتى أعاين ما عاينتكم. ثم أخذ القمامم، وجعل يفتح قمقمًا بعد قمقم، والشياطين يخرجون منها ويقولون: التوبة يا نبي الله، وما نعود لمثل ذلك أبدًا. فتعجَّب

عبد الملك بن مروان من ذلك. وأما بنات البحر التي أضافهم بنوعها ملك السودان، فإنهم صنعوا لها حياضاً من خشب وملئوها ماءً، ووضعوها فيها فماتت من شدة الحر. ثم إن أمير المؤمنين أحضر الأموال، وقسّمها بين المسلمين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٧٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لما رأى القماقم وما فيها، تعجّب من ذلك غاية العجب، وأمر بإحضار الأموال وقسّمها بين المسلمين وقال: لم يعط الله أحدًا مثل ما أعطى سليمان بن داود. ثم إن الأمير موسى سأل أمير المؤمنين أن يستخلف ولده مكانه على بلاده، وهو يتوجّه إلى القدس الشريف يعبد الله فيه؛ فولى أمير المؤمنين ولده وتوجّه هو إلى القدس الشريف ومات فيه. وهذا آخر ما انتهى إلينا من حديث مدينة النحاس على التمام، والله أعلم.

حكاية الملك وولده والجارية والوزراء السبعة

وقد بلغنا أيضًا أنه في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، ملك من ملوك الزمان كان كثير الجند والأعوان، وصاحب جاه وأموال، ولكنه بلغ من العمر مدّة ولم يُرزَق ولدًا ذكرًا، فلما قلق الملك توسّل بالنبي ﷺ إلى الله تعالى، وسأله بجاه الأنبياء والأولياء والشهداء من عباده المقربين أن يرزقه بولد ذكر حتى يرث الملك من بعده، ويكون قرّة عينه، ثم قام من وقته وساعته ودخل إلى قاعة جلوسه، وأرسل إلى بنت عمه فواصلها فصارت حاملة بإذن الله تعالى، فمكثت مدة حتى آن أوان وضعها، فولدت ولدًا ذكرًا وجهه مثل دورة القمر ليلة أربعة عشر، فتربّى ذلك الغلام إلى أن بلغ من العمر خمس سنين، وكان عند ذلك الملك رجل حكيم من الحكماء الماهرين يُسمّى السندباد، فسلم إليه ذلك الغلام، فلما بلغ من العمر عشر سنين علّمه الحكمة والأدب إلى أن صار ذلك الولد ليس أحدًا في هذا الزمان يناظره في العلم والأدب والفهم. فلما بلغ والده ذلك أحضر له جماعة من فرسان العرب يعلمونه الفروسية فمهر فيها، وصال وجال في حومة الميدان إلى أن فاق أهل زمانه

وسائر أقرانه؛ ففي بعض الأيام نظر ذلك الحكيم في النجوم فرأى طالع الغلام، وأنه متى عاش سبعة أيام وتكلم بكلمة واحدة صار فيها هلاكه، فذهب الحكيم إلى الملك والده وأعلمه بالخبر، فقال له والده: فما يكون الرأي والتدبير يا حكيم؟ فقال له الحكيم: أيها الملك، الرأي والتدبير عندي أن تجعله في مكان نزهة وسماع آلات مطربة، يكون فيه إلى أن تمضي السبعة أيام. فأرسل الملك إلى جارية من خواصه، وكانت أحسن الجواري، فسلم إليها الولد وقال لها: خذي سيدك في القصر واجعليه عندك، ولا ينزل من القصر إلا بعد سبع أيام تمضي. فأخذته الجارية من يده وأجلسته في ذلك القصر.

وكان في القصر أربعون حجرة، وفي كل حجرة عشر جوارٍ، وكل جارية معها آلة من آلات الطرب إذا ضربت واحدة منهن يرقص من نغمتها ذلك القصر؛ وحواليه نهر جارٍ مزروع شاطئه بجميع الفواكه والمشموم. وكان ذلك الولد فيه من الحُسن والجمال ما لا يُوصف، فبات ليلة واحدة فرأته الجارية محظية والده، فطرق العشق قلبها، فلم تتمالك حتى رمت نفسها عليه، فقال لها الولد: إن شاء الله تعالى حين أخرج عند والدي أخبره بذلك فيقتلك. فتوجهت الجارية إلى الملك، ورمت نفسها عليه بالبكاء والنحيب، فقال لها: ما خبرك يا جارية؟ كيف سيدك أمّا هو طيب؟ فقالت: يا مولاي، إن سيدي راودني عن نفسي، وأراد قتلي على ذلك، فمنعته وهربت منه، وما بقيت أرجع إليه ولا إلى القصر أبدًا. فلما سمع والده ذلك الكلام حصل له غيظ عظيم، فأحضر عنده الوزراء وأمرهم بقتله، فقالوا لبعضهم: إن الملك صمم على قتل ولده، وإن قتلته يندم عليه بعد قتله لا محالة؛ فإنه عزيز عنده، وما جاءه هذا الولد إلا بعد اليأس، ثم بعد ذلك يرجع عليكم باللوم، فيقول لكم: لم تدبروا لي تدبيرًا يمنعني عن قتله؟ فاتفق رأيهم على أن يدبروا له تدبيرًا يمنعه عن قتل ولده، فتقدم الوزير الأول وقال: أنا أكفيكم شرَّ الملك في هذا اليوم. فقام ومضى إلى أن دخل على الملك وتمثل بين يديه، ثم استأذنه في الكلام فأذن له، فقال له: أيها الملك، لو قدّر أنه كان لك ألف ولد لم تطع نفسك في أن تقتل واحدًا منهم بقول جارية، إما أن تكون صادقة أو كاذبة، ولعل هذه مكيدة منها لولدك. فقال: وهل بلغك شيء من كيدهن أيها الوزير؟ قال: نعم.

حكاية الملك وزوجة وزيره

بلغني أيها الملك أنه كان ملك من ملوك الزمان مغرمًا بحب النساء، فبينما هو مختلٍ في قصره يومًا من الأيام، إذ وقعت عينه على جارية وهي في سطح بيتها، وكانت ذات حُسن

وجمال، فلما رآها لم يتمالك نفسه من المحبة، فسأل عن ذلك البيت، فقالوا له: هذا بيت وزيرك فلان. فقام من ساعته وأرسل إلى الوزير، فلما حضر بين يديه أمره أن يسافر إلى بعض جهات الملكة ليطلع عليها ثم يعود، فسافرَ الوزير كما أمره الملك، فبعد أن سافرَ تحايَلَ الملك حتى دخل بيت الوزير، فلما رأتَه الجارية عرفته، فوثبت قائمة على قدميها وقبَّلت يديه ورجليه ورَحَّبَتْ به، ووقفت بعيداً عنه مشغولة بخدمته، ثم قالت له: يا مولانا، ما سبب القدوم المبارك، ومثلي لا يكون له ذلك؟ فقال: سببه أن عشقك والشوق إليك أقدماني على ذلك. فقَبَّلت الأرض بين يديه ثانياً وقالت له: يا مولانا، أنا لا أصلح أن أكون جاريةً لبعض خدام الملك، فمن أين يكون لي عندك هذا الحظ حتى صرت عندك بهذه المنزلة؟ فمدَّ الملك يده إليها، فقالت: هذا الأمر لا يفوتنا، ولكن اصبر أيها الملك وأقمْ عندي هذا اليوم كله حتى أصنع لك شيئاً تأكله. قال: فجلس الملك على مرتبة وزيره، ثم نهضت قائمة، وأتته بكتاب فيه المواعظ والآداب ليقرأ فيه حتى تجهَّز له الطعام، فأخذه الملك وجعل يقرأ فيه، فوجد فيه من المواعظ والحكم ما زجره عن الزنا وكسر همته عن ارتكاب المعاصي. فلما جهَّزَتْ له الطعام قدَّمته بين يديه، وكانت عدة الصحون تسعين صحناً، فجعل الملك يأكل من كل صحن ملعقة والطعام أنواع مختلفة وطعمها واحد، فتعجَّبَ الملك من ذلك غاية العجب، ثم قال: أيتها الجارية، أرى هذه الأنواع كثيرة وطعمها واحد! فقالت له الجارية: أسعد الله الملك، هذا مثل ضربته لك لتعتبر به. فقال لها: وما سببه؟ فقالت: أصلح الله حال مولانا الملك، إن في قصرِك تسعين محظية مختلفات الألوان وطعمهن واحد. فلما سمع الملك ذلك الكلام خجل منها وقام من وقته، وخرج من المنزل ولم يتعرض لها بسوء، ومن خجلته نسي خاتمه عندها تحت الوسادة، ثم توجَّهَ إلى قصره. فلما جلس الملك في قصره حضر الوزير ذلك الوقت وتقدَّم إلى الملك وقبَّل الأرض بين يديه، وأعلمه بحال ما أرسله إليه، ثم سار الوزير إلى أن دخل بيته وقعد على مرتبته، ومدَّ يده تحت الوسادة فلقى خاتم الملك تحتها، فرفعه الوزير وحمله على قلبه، وانعزل عن الجارية مدة سنة كاملة ولم يكلمها وهي لا تعلم ما سبب غيظه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٧٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير انعزل عن الجارية مدة سنة كاملة ولم يكلمها وهي لا تعلم ما سبب غيظه، فلما طال بها المطال، ولم تعلم ما سبب ذلك، أرسلتُ إلى أبيها وأعلمته بما جرى لها معه من انعزاله عنها مدة سنة كاملة. فقال لها أبوها: إني أشكوه حين يكون بحضرة الملك. فدخل يوماً من الأيام فوجده بحضرة الملك وبين يديه قاضي العسكر، فادّعى عليه فقال: أصلح الله تعالى حال الملك، إنه كان لي روضة حسنة غرستها بيدي، وأنفقت عليها مالي حتى أثمرت، وطاب جناها، فأهديتها لوزيرك هذا، فأكل منها ما طاب له، ثم رفضها ولم يسقها، فبيس زهرها، وذهب رونقها، وتغيّرت حالتها. فقال الوزير: أيها الملك، صدّق هذا في مقالته، إني كنت أحفظها وأكل منها، فذهبتُ يوماً إليها، فرأيت أثر الأسد هناك، فخفت على نفسي منه، فعزلت نفسي عنها. ففهم الملك أن الأثر الذي وجده الوزير هو خاتم الملك الذي نسيه في البيت، فقال الملك عند ذلك لوزيره: ارجع أيها الوزير لروضتك وأنت آمن مطمئن، فإن الأسد لم يقربها، وقد بلغني أنه وصل إليها ولكن لم يتعرّض لها بسوء وحرمة آبائي وأجدادي. فقال الوزير عند ذلك: سمعاً وطاعة. ثم إن الوزير رجع إلى بيته، وأرسل إلى زوجته وصالحها ووثق بصيانتها.

حكاية التاجر وزوجته والدرّة

وبلغني أيها الملك أيضاً أن تاجراً كان كثير الأسفار، وكانت له زوجة جميلة يحبها ويغار عليها من كثرة المحبة، فاشترى لها درّة، فكانت الدرّة تُعلم سيدها بما جرى في غيبته، فلما كان في بعض أسفاره تعلّقت امرأة التاجر بغلام كان يدخل عليها فتكرمه وتواصله

مدة غياب زوجها، فلما قدِمَ زوجها من سفره أعلمته الدرة بما جرى، وقالت له: يا سيدي، غلام تركي كان يدخل على زوجتك في غيابك، فتكرمه غاية الإكرام. فهمَّ الرجل بقتل زوجته، فلما سمعت زوجته ذلك قالت له: يا رجل، اتَّقِ الله وارجع إلى عقلك، هل يكون لطير عقلٌ أو فهمٌ؟ وإن أردتَ أن أبينَ لك ذلك لتعرفَ كذبها من صدقها، فامضِ هذه الليلة ونمَّ عند بعض أصدقائك، فإذا أصبحتَ فتعالَ لها واسألها حتى تعلم هل تصدق هي فيما تقول أو تكذب؟ فقام الرجل وذهب إلى بعض أصدقائه فبات عنده، فلما كان الليلة عمدت زوجة الرجل إلى قطعة نطع غطَّت به قفص الدرة، وجعلت ترش على ذلك النطع شيئاً من الماء وتروح عليها بمروحة، وتقرب إليها السراج على صورة لمعان البرق، وصارت تدير الرحي إلى أن أصبح الصباح.

فلما جاء زوجها قالت له: يا مولاي، اسأل الدرة. فجاء زوجها إلى الدرة يحدثها ويسألها عن ليلتها الماضية، فقالت له الدرة: يا سيدي، ومَن كان ينظر أو يسمع في الليلة الماضية؟ فقال لها: لأي شيء؟ فقالت: يا سيدي من كثرة المطر والريح والرعد والبرق. فقال لها: كذبتِ، إن الليلة التي مضت ما كان فيها شيء من ذلك. فقالت الدرة: ما أخبرتك إلا بما عاينتُ وشاهدتُ وسمعتُ. فكذبها في جميع ما قالتَه عن زوجته، وأراد أن يصلح زوجته فقالت: والله ما أصطلح حتى تذبح هذه الدرة التي كذبت عليَّ. فقام الرجل إلى الدرة وذبحها، ثم أقام بعد ذلك مع زوجته مدة أيام قلائل، ثم رأى في بعض الأيام ذلك الغلام التركي وهو خارج من بيته، فعلم صدق قول الدرة وكذب زوجته، فندم على ذبح الدرة، ودخل من وقته وساعته على زوجته وذبحها، وأقسمَ على نفسه أنه لا يتزوج بعدها امرأة مدة حياته. وما أعلمتك أيها الملك إلا لتعلم أن كيدهن عظيم، والعجلة تورث الندامة. فرجع الملك عن قتل ولده.

حكاية القصار وولده

فلما كان في اليوم الثاني دخلت عليه الجارية وقبَّلت الأرض بين يديه، وقالت له: أيها الملك، كيف أهماكتَ حقي، وقد سمع الملوك عنك أنك أمرتَ بأمرٍ ثم نقضه وزيرك؟ وطاعة الملك من نفاذ أمره، وكل أحد يعلم عدلك وإنصافك، فأنصفني من ولدك، فقد بلغني أن رجلاً قصاراً كان يخرج كل يوم إلى شاطئ دجلة يقصر القماش، ويخرج معه ولده فينزل النهر ليعوم فيه مدة إقامته، ولم يَنْهه والده عن ذلك. فبينما هو يعوم يوماً من الأيام إذ تعبت سواعده فغرق، فلما نظر إليه أبوه وثب عليه وترامى إليه، فلما أمسكه

أبوه تعلّق به ذلك الولد، فغرق الأب والابن جميعاً، فكذاك أنت أيها الملك، إذا لم تنّه ولدك وتأخذ حقي منه، أخاف عليك أن يغرق كلُّ منكما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٨٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما حكّت للملك حكاية القصار وولده، وقالت: أخاف أن تغرق أنت وولدك أيضًا.

حكاية اتهام غير عادل في زوجته

قالت: وكذلك بلغني من كيد الرجال أن رجلًا عشق امرأة وكانت ذات حُسن وجمال، وكان لها زوج يحبها وتحبه، وكانت تلك المرأة صالحة عفيفة، ولم يجد الرجل العاشق إليها سبيلًا، فطال عليه الحال ففكّر في الحيلة، وكان لزوج المرأة غلام ربّاه في بيته، وذلك الغلام أمين عنده، فجاء إليه ذلك العاشق وما زال يلاطفه بالهدية والإحسان إلى أن صار الغلام طوعًا له فيما يطلبه منه، فقال له يومًا من الأيام: يا فلان، أَمَا تدخل بي منزلكم إذا خرجت سيدتك منه؟ فقال له: نعم. فلما خرجت سيدته إلى الحمام وخرج سيده إلى الدكان، جاء الغلام إلى صاحبه وأخذ بيده إلى أن أدخله المنزل، ثم عرض عليه جميع ما في المنزل، وكان العاشق مصممًا على مكيدة يكيد بها المرأة، فأخذ بياض بيضه معه في إناء، ودنا من فراش الرجل وسكبه على الفراش من غير أن ينظر إليه الغلام، ثم خرج من المنزل ومضى إلى حال سبيله، ثم بعد ساعة دخل الرجل فأتى الفراش ليستريح عليه، فوجد فيه بللًا فأخذه بيده، فلما رآه ظنّ في عقله أنه منّي رجل، فنظر إلى الغلام بعين الغضب، ثم قال له: أين سيدتك؟ فقال له: ذهبت إلى الحمام وتعود في هذه الساعة. فتحقّق ظنّه وغلب على عقله أنه منّي رجال، فقال للغلام: اخرج في هذه الساعة وأحضر سيدتك. فلما حضرت بين يديه وثب قائمًا إليها وضربها ضربًا عنيفًا، ثم كتّفها وأراد أن يذبّحها، فصاحت على الجيران فأدركوها فقالت لهم: إن هذا الرجل يريد أن يذبّحني ولا

أعرف لي ذنبًا. فقام عليه الجيران وقالوا له: ليس لك عليها سبيل، إما أن تطلقها وإما أن تمسكها بمعروف، فإننا نعرف عفافها، وهي جارتنا مدة طويلة، ولم نعلم عليها سوءًا أبدًا. فقال: إني رأيت في فراشي منيًّا كمني الرجال، وما أدري ما سبب ذلك. فقام رجل من الحاضرين وقال له: أرني ذلك. فلما رآه الرجل قال: أحضر لي نارًا ووعاء. فلما أحضر له ذلك أخذ البياض وقلاده على النار وأكل منه الرجل، وأطعمه للحاضرين، فتحقَّق الحاضرون أنه بياض بيض، فعلم الرجل أنه ظالم لزوجته وأنها بريئة من ذلك. ثم دخل عليه الجيران وصالحوه هو وإياها بعد أن طلقها، وبطلت حيلة ذلك الرجل فيما دبَّره من المكيدة لتلك المرأة وهي غافلة. فاعلم أيها الملك أن هذا من كيد الرجال. فأمر الملك بقتل ولده، فتقدَّم الوزير الثاني وقبَّل الأرض بين يديه، وقال له: أيها الملك، لا تعجل على قتل ولدك، فإن أمه ما رزقته إلا بعد يأس، ونرجو أن يكون ذخيرة في ملكك، وحافظًا على مالك، فتصبر أيها الملك عليه، لعل له حجة يتكلم بها، فإن عجلت على قتله ندمت كما ندم الرجل التاجر. قال له الملك: وكيف كان ذلك؟ وما حكايته يا وزير؟

حكاية التاجر البخيل والخبيل

قال: بلغني أنه كان تاجر لطيف في مأكله ومشربه، فسافرَ يومًا من الأيام إلى بعض البلاد، فبينما هو يمشي في أسواقها وإذا بعجوز معها رغيفان، فقال لها: هل تبيعيهما؟ فقالت له: نعم. فساومها بأرخص ثمن واشتراها منها وذهب بهما إلى منزله، فأكلهما ذلك اليوم. فلما أصبح الصباح عاد إلى ذلك المكان، فوجد العجوز ومعهما الرغيفان، فاشتراها أيضًا منها، ولم يزل كذلك مدة عشرين يومًا، ثم غابت العجوز عنه فسأل عنها فلم يجد لها خبرًا. فبينما هو ذات يوم من الأيام في بعض شوارع المدينة إذ وجدها، فوقف وسلمَ عليها وسألها عن سبب غيابها وانقطاع الرغيفين عنه، فلما سمعت العجوز كلامه تكاسلت عن رد الجواب، فأقسم عليها أن تخبره عن أمرها. فقالت له: يا سيدي، اسمع مني الجواب، وما ذلك إلا أنني كنت أخدم إنسانًا، وكانت به أكلة في صلبه، وكان عنده طبيب يأخذ الدقيق ويلته بسمن ويجعله على الموضع الذي فيه الوجع طول ليلته إلى أن يصبح الصباح، فأخذ ذلك الدقيق وأجعله رغيفين وأبيعهما لك أو لغيرك، وقد مات ذلك الرجل فانقطع عني الرغيفان. فلما سمع التاجر ذلك الكلام قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٨١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما أخبرت التاجر بسبب الرغيفين قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولم يزل التاجر يتقياً إلى أن مرض وندم، ولم يفده الندم.

حكاية امرأة مع العاشقين

وبلغني أيها الملك من كيد النساء أن رجلاً كان يقف بالسيف على رأس ملك من الملوك، وكان لذلك الرجل جارية يهواها، فبعث إليها يوماً من الأيام غلامه برسالة على العادة بينهما، فجلس الغلام عندها ولأعجبها فمالت إليه وضمته إلى صدرها، فطلب منها المجامعة فطاوعته، فبينما هما كذلك، وإذا بسيد الغلام قد طرق الباب، فأخذت الغلام ورمته في طابق عندها، ثم فتحت الباب، فدخل وسيفه بيده، فجلس على فراش المرأة، فأقبلت عليه تمازجه وتلاعبه وتضمه إلى صدرها وتقبله، فقام الرجل إليها وجامعها، وإذا بزوجها يدق عليها الباب فقال لها: من هذا؟ قالت: زوجي. فقال لها: كيف أفعل؟ وكيف الحيلة في ذلك؟ فقالت له: قم سل سيفك وقف على الدهليز، ثم سبني واشتمني، فإذا دخل عليك زوجي فاذهب وامض إلى حال سبيلك. ففعل ذلك، فلما دخل زوجها رأى خازن دار الملك واقفاً وسيفه مسلول بيده، وهو يشتم زوجته ويهددها، فلما رآه الخازن دار استحى وأغمد سيفه وخرج من البيت، فقال الرجل لزوجته: ما سبب ذلك؟ فقالت له: يا رجل، ما أبرك هذه الساعة التي أتيت فيها، قد أعتقت نفسك مؤمنة من القتل، وما ذاك إلا أنني كنت فوق السطح أغزل، وإذا بغلام قد دخل عليّ مطروداً ناهب العقل وهو يلهث خوفاً من القتل، وهذا الرجل مجرد سيفه وهو يسرع وراءه ويجد في طلبه، فوقع الغلام عليّ وقبل يدي ورجلي وقال: يا سيدتي، أعتقيني ممن يريد قتلي ظمناً. فخبأته في الطابق الذي

عندنا، فلما رأيت هذا الرجل قد دخل وسيفه مسلول أنكرته منه حين طلبه مني، فصار يشتمني ويهددني كما رأيت، والحمد لله الذي ساقك لي، فإني كنت حائرةً وليس عندي أحد ينقذني. فقال لها زوجها: نَعَمْ ما فعلت يا امرأة، أجرك على الله فيجازيك بفعلك خيرًا. ثم إن زوجها ذهب إلى الطابق ونادى الغلام، وقال له: اطلع لا بأس عليك. فطلع من الطابق وهو خائف، والرجل يقول له: أرخ نفسك لا بأس عليك. وصار يتوجع لما أصابه والغلام يدعو لذلك الرجل، ثم خرجًا جميعًا ولم يعلمًا بما دبّرت هذه المرأة. فاعلم أيها الملك أن هذا من جملة كيد النساء، فإياك والركون إلى قولهن. فرجع الملك عن قتل ولده. فلما كان اليوم الثالث، دخلت الجارية على الملك وقبّلت الأرض بين يديه، وقالت له: أيها الملك، خذ لي حقي من ولدك، ولا ترجع إلى قول وزرائك، فإن وزراء اليوم لا خير فيهم، ولا تكن كالملك الذي ركن إلى قول وزير السوء من وزرائه. فقال لها الملك: وكيف كان ذلك؟

حكاية ابن الملك والجارية الشنيعة المنظر

قالت: بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد، أن ملكًا من الملوك كان له ولد يحبه ويكرمه غاية الإكرام، ويفضّله على سائر أولاده، فقال له يومًا من الأيام: يا أبتى، إني أريد أن أذهب إلى الصيد والقنص. فأمر بتجهيزه، وأمر وزيرًا من وزرائه أن يخرج معه في خدمته، ويقضي له جميع مهماته في سفره، فأخذ ذلك الوزير جميع ما يحتاج إليه الولد في السفر، وخرج معهما الخدم والنواب والغلمان، وتوجّهوا إلى الصيد حتى وصلوا إلى أرض مخضرة ذات عشب ومرعى ومياه، والصيد فيها كثير، فتقدّم ابن الملك للوزير وعرفه بما أعجبه من النزه، فأقاموا بتلك الأرض مدة أيام، وابن الملك في أطيب عيش وأرغده. ثم أمرهم ابن الملك بالانصراف، فاعترضته غزالة قد انفردت عن رفقتها، فاشتاقت لنفسه إلى اقتناصها وطمع فيها، فقال للوزير: إني أريد أن أتبع هذه الغزالة. فقال له الوزير: افعل ما بدّا لك. فتبعها الولد منفردًا وحده، وطلبها طول النهار إلى أن أمسى الليل، فصعدت الغزالة إلى محل وعر، وأظلم على الولد الليل، وأراد الرجوع فلم يعرف أين يذهب، فبقي متحيرًا في نفسه، وما زال راكبًا على ظهر فرسه إلى أن أصبح الصباح ولم يلقَ فرجًا لنفسه، ثم سار ولم يزل سائرًا خائفًا جائعًا عطشانًا وهو لا يدري أين يذهب، حتى انتصف عليه النهار، وحملت عليه الرمضاء، وإذا هو قد أشرف على مدينة عالية البنيان مشيدة الأركان، وهي قفراء خراب ليس فيها غير البوم والغراب. فبينما هو

واقف عند تلك المدينة يتعجّب من رسومها إذ لاحت منه نظرة، فرأى جارية ذات حُسن وجمال تحت جدار من جدرانها وهي تبكي، فدنا منها وقال لها: مَنْ تكونين؟ فقالت له: أنا بنت التميمة ابنة الطياخ ملك الأرض الشهباء، خرجتُ ذات يوم من الأيام أقضي حاجة لي، فاختطفني عفريت من الجن، وطار بين السماء والأرض، فنزل عليه شهاب من نارٍ فاحترق فسقطتُ ها هنا، ولي ثلاثة أيام بالجوع والعطش، فلما نظرتُك طمعتُ في الحياة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتتُ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٨٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك لما خاطبته بنت الملك الطياخ وقالت له: لما نظرتك طمعتُ في الحياة. أدرك ابن الملك عليها الرأفة، فأركبها وراءه على جواده، وقال لها: طيبي نفساً وقرى عيناً، إن رَدَّني الله سبحانه وتعالى إلى قومي وأهلي أرسلتك إلى أهلك. ثم سار ابن الملك يلتمس الفرَج، فقالت له الجارية التي وراءه: يا ابن الملك، أنزلني حتى أقضي حاجتي تحت هذا الحائط. فوقف وأنزلها ثم انتظرها، فتوارت في الحائط، ثم خرجت بأشنع منظر، فلما رآها ابن الملك اقشعرَّ بدنه وطار عقله، وخاف منها وتغيَّرت حالته، ثم وثبت تلك الجارية فركبت وراء ظهره على الجواد وهي في صورة أقبح ما يكون من الصور، ثم قالت له: يا ابن الملك، ما لي أراك قد تغيَّر وجهك؟ فقال لها: إني تذكرت أمراً أهمني. فقالت له: استعِنْ عليه بجيوش أبيك وأبطاله. فقال لها: إن الذي أهمني لا تزعه الجيوش ولا يهتَمُّ بالأبطال. فقالت له: استعِنْ عليه بمال أبيك وذخائره. فقال لها: إن الذي أهمني لا يقنع بالمال ولا بالذخائر. فقالت له: إنكم تزعمون أن لكم في السماء إلهاً يرى ولا يُرى، وإنه قادر على كل شيء. فقال لها: نعم ما لنا إلا هو. قالت له: فادعوه لعله أن يخلِّصك مني. فرفع ابن الملك طرفه إلى السماء وأخلص بقلبه الدعاء وقال: اللهم إني استعنت بك على هذا الأمر الذي أهمني. وأشار بيده إليها، فسقطت على الأرض محرقة مثل الفحمة، فحمد الله وشكره. وما زال يجدُّ في المسير والله سبحانه وتعالى يهوِّن عليه السير ويدلُّه في الطرق، إلى أن أشرف على بلاده، ووصل إلى مُلك أبيه بعد أن كان قد يئس من الحياة، وكان ذلك كله برأي الوزير الذي سافرَ معه لأجل أن يهلكه في سفرته، فنصره الله تعالى. وإنما أخبرتك أيها الملك لتعلم أن وزراء السوء لا يصفون النية ولا يحسنون التوبة مع ملوكهم، فكُنْ من ذلك الأمر على حذر. فأقبل عليها الملك وسمع كلامها، وأمر بقتل ولده، فدخل الوزير الثالث وقال: أنا أكفيكم شر الملك في هذا النهار.

ثم إن ذلك الوزير دخل على الملك وقبّل الأرض بين يديه، وقال له: أيها الملك، إني ناصحك وشفيق عليك وعلى دولتك، ومشير عليك برأي سديد، وهو ألاّ تعجل على قتل ولدك، وقرة عينك، وثمرة فؤادك، فربما كان ذنبه أمراً هيناً قد عظّمته عندك هذه الجارية. فقد بلغني أن أهل قريتين أفنوا بعضهم على قطرة عسل. فقال له الملك: وكيف ذلك؟

حكاية قطرة العسل

فقال: اعلم أيها الملك أنه بلغني أن رجلاً صياداً كان يصيد الوحوش في البرية، فدخل يوماً من ذات الأيام كهفاً من كهوف الجبل، فوجد فيه حفرة ممتلئة عسل نحل، فجمع شيئاً من ذلك العسل في قربة كانت معه، ثم حملها على كتفه، وأتى بها إلى المدينة ومعه كلب صيد، وكان ذلك الكلب عزيزاً عليه، فوقف الرجل الصياد على دكان زيات، وعرض عليه العسل، فاشتراه صاحب الدكان، ثم فتح القربة وأخرج منها العسل لينظره، فقطرت من القربة قطرة عسل، فسقط عليها طير، وكان الزيات له قطٌّ فوثبَ على الطير، فرآه كلب الصياد فوثب على القطّ فقتله، فوثب الزيات على كلب الصياد فقتله، فوثب الصياد على الزيات فقتله، وكان للزيات قرية وللصياد قرية، فسمعوا بذلك، فأخذوا أسلحتهم وعدّدهم وقاموا على بعضهم بعضاً، والتقى الصفان؛ فلم يزل السيف دائراً بينهم إلى أن مات خلق كثير لا يعلم عدّدهم إلا الله تعالى.

حكاية امرأة والدرهم الضائع

وقد بلغني أيها الملك من جملة كيد النساء أن امرأة دفع لها زوجها درهماً لتشتري به أرزاً، فأخذت منه الدرهم وذهبت به إلى بيع الأرز، فأعطاه الأرز وجعل يلعبها ويغامزها ويقول لها: إن الأرز لا يطيب إلا بالسكر، فإن أردته فادخلي عندي قدر ساعة. فدخلت المرأة عنده في الدكان، فقال بياع الأرز لعبده: زن لها بدرهم سكرًا. وأعطاه سيده رمزاً، فأخذ العبد المندبل من المرأة وفرغ منه الأرز، وجعل في موضعه تراباً، وجعل بدل السكر حجراً، وعقد المندبل وتركه عندها، فلما خرجت المرأة من عنده أخذت مندبلها وانصرفت إلى منزلها وهي تحسب أن الذي في مندبلها أرز وسكر. فلما وصلت إلى منزلها وضعت المندبل بين يدي زوجها، فوجد فيه تراباً وحجراً، فلما أحضرت القدر قال لها زوجها: هل نحن قلنا لك أن عندنا عمارة حتى جئنا لنا بتراب وحجر؟ فلما نظرت إلى ذلك، علمت

أن عبد البياح نصب عليها، وكانت قد أتت بالقدر في يدها، فقالت لزوجها: يا رجل، من شغل البال الذي أصابني ذهبْتُ لأجبيء بالغربال فجئتُ بالقدر. فقال لها زوجها: وأي شيء أشغل بالك؟ قالت له: يا رجل، إن الدرهم الذي كان معي سقط مني في السوق، فاستحييت من الناس أن أدور عليه، وما هان عليَّ أن الدرهم يروح مني، فجمعت التراب من ذلك الموضع الذي وقع فيه الدرهم وأردت أن أغربله، وكنت رائحة أجبيء بالغربال فجئتُ بالقدر. ثم ذهبت وأحضرت الغربال وأعطته لزوجها، وقالت له: غربله فإن عينك أصح من عيني. فقعد الرجل يغربل في التراب إلى أن امتلأ وجهه وذقنه من الغبار وهو لا يدرك مكرها وما وقع منها. فهذا أيها الملك من جملة كيد النساء، وانظر إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

فلما سمع الملك من كلام الوزير ما أقنعه وأرضاه وزجره عن هواه، وتأمَّل ما تلاه عليه من آيات الله، سطعت أنوار النصيحة على سماء عقله وخلده، ورجع عن تصميمه على قتل ولده، فلما كان اليوم الرابع دخلت الجارية على الملك وقبَّلت الأرض بين يديه وقالت له: أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد، قد أظهرتُ لك حقي عياناً، فظلمتني وأهملت مقاصصة غريمي لكونه ولدك ومهجة قلبك، وسوف ينصرنى الله سبحانه وتعالى عليه كما نصر الله ابن الملك على وزير أبيه. فقال لها الملك: وكيف كان ذلك؟

حكاية عين الماء المسحورة

فكانت له الجارية: بلغني أيها الملك أنه كان ملك من الملوك الماضية له ولد، ولم يكن له من الأولاد غيره، فلما بلغ ذلك الولد زوجَه أبوه بابنة ملك آخر، وكانت جارية ذات حُسن وجمال، وكان لها ابن عم قد خطبها من أبيها، ولم تكن راضيةً بزواجها منه، فلما علم ابن عمها أنها تزوجت بغيره أخذته الغيرة، فاتفق رأي ابن عم الجارية أن يرسل الهدايا إلى وزير الملك الذي تزوج بها ابنه، فأرسل إليه هدايا عظيمة، وأنفذ إليه أموالاً كثيرة، وسأله أن يحتال على قتل ابن الملك بمكيده تكون سبباً لهلاكه، أو يتلطف به حتى يرجع عن زواج الجارية، وبعث يقول له: أيها الوزير، لقد حصل عندي من الغيرة على ابنة عمي ما حملني على هذا الأمر. فلما وصلت الهدايا إلى الوزير قبلها وأرسل إليه يقول: طب نفساً وقر عيناً، فلك عندي كل ما تريده.

ثم إن الملك أبا الجارية أرسل إلى ابن الملك بالحضور إلى مكانه لأجل الدخول على ابنته، فلما وصل الكتاب إلى ابن الملك أذن له أبوه في المسير، وبعث معه الوزير الذي

جاءت له الهدايا، وأرسل معهما ألف فارس وهدايا ومحامل وسراقات وخيامًا، فسار الوزير مع ابن الملك وفي ضميره أن يكيده بمكيده، وأضمر له في قلبه سوء، فلما صاروا في الصحراء تذكّر الوزير أن في هذا الجبل عينًا جارية من الماء تُعرّف بالزهراء، وكلُّ مَنْ شرب منها إذا كان رجلًا يعود امرأة، فلما تذكّر ذلك الوزير أنزل العسكر بالقرب منها، وركب الوزير جواده، ثم قال لابن الملك: هل لك أن تروح معي نتفرّج على عين ماء في هذا المكان؟ فركب ابن الملك وسار هو ووزير أبيه وليس معهما أحد، وابن الملك لا يدري ما قد جرى له في الغيب، ولم يزالا سائرين حتى وصلا إلى تلك العين، فنزل ابن الملك من فوق جواده وغسل يديه وشرب منها، وإذا به قد صار امرأة، فلما عرف ذلك صرخ وبكى حتى غشي عليه، فأقبل عليه الوزير يتوجّع لما أصابه، ويقول: ما الذي أصابك؟ فأخبره الولد، فلما سمع الوزير كلامه توجّع له وبكى لما أصاب ابن الملك، ثم قال له: يعينك الله تعالى من هذا الأمر، كيف قد حلّت بك هذه المصيبة، وعظمت بك تلك الرزية، ونحن سائرون بفرحة حيث تدخل على ابنة الملك، والآن لا أدري هل نتوجّه إليها أم لا؟ والرأي لك، فما تأمرني به؟ فقال له الولد: ارجع إلى أبي، وأخبره بما أصابني، فإني لست أبرح من ها هنا حتى يذهب عني هذا الأمر، أو أموت بحسرتي. فكتب الولد كتابًا لأبيه يُعلمه بما جرى له، ثم أخذ الوزر الكتاب وانصرف راجعًا إلى مدينة الملك، وترك العساكر والولد وما معه من الجيوش عنده وهو فرحان في الباطن بما فعل بابن الملك.

فلما دخل الوزير على الملك أعلمه بقضية ولده وأعطاه كتابه، فحزن الملك على ولده حزنًا شديدًا، ثم أرسل إلى الحكماء وأصحاب الأسرار أن يكشفوا له عن هذا الأمر الذي حصل لولده، فما أحد ردّ عليه جوابًا، ثم إن الوزير أرسل إلى ابن عم الجارية يبشّره بما حصل لابن الملك، فلما وصل إليه الكتاب فرح فرحًا شديدًا، وطمع في زواج ابنة عمه، وأرسل إلى الوزير هدايا عظيمة وأموالًا كثيرة، وشكره شكرًا زائدًا. وأما ابن الملك فإنه أقام على تلك العين مدة ثلاثة أيام بليلاتها لا يأكل ولا يشرب، واعتمد فيما أصابه على الله سبحانه وتعالى الذي ما خاب مَنْ توكلّ عليه، فلما كان في الليلة الرابعة، وإذا هو بفارس على رأسه تاج، وهو في صفة أولاد الملوك، فقال له الفارس: مَنْ أتى بك أيها الغلام إلى ها هنا؟ فأعلمه الولد بما أصابه، وأنه كان مسافرًا إلى زوجته ليدخل عليها، وأعلمه أن الوزير أتى به إلى عين الماء، فشرب منها فحصل له ما حصل. وكلما تحدّث الغلام يغلبه البكاء فيبكي.

فلما سمع الفارس كلامه رثى لحاله وقال له: إن وزير أبيك هو الذي رماك في هذه المصيبة؛ لأن هذه العين لم يعلم بها أحدٌ من البشر إلا رجل واحد. ثم إن الفارس أمره

أن يركب معه فركب الولد، وقال له الفارس: امضْ معي إلى منزلي، فأنت ضيفي في هذه الليلة. فقال له الولد: أَعْلِمْنِي مَنْ أَنْتِ حَتَّى أُسِيرَ مَعَكَ. فقال له: أنا ابن ملك الجان، وأنت ابن ملك الإنس، فطَبَّ نفساً وقرَّ عيناً بما يزيل همك وغمك، فهو عليّ هَيِّن. فسار معه الولد من أول النهار وأهمل جيوشه وعساكره، وما زال سائراً معه إلى نصف الليل، فقال له ابن ملك الجن: أتدري كم قطعنا في هذا الوقت؟ فقال له الغلام: لا أدري. فقال له ابن ملك الجن: قطعنا مسيرة سنةٍ للمُجِدِّ المسافر. فتعجَّب ابن الملك من ذلك، وقال له: كيف العمل والرجوع إلى أهلي؟ فقال له: ليس هذا من شأنك إنما هو من شأني، فحيث تبرأ من علتك تعود إلى أهلك في أسرع من طرفة العين، وذلك عليّ هين. فلما سمع الغلام من الجنّي هذا الكلام طار من شدة الفرح، وظنَّ أنه أضغاث أحلام، وقال: سبحان القدير على أن يرد الشقي سعيّداً. وفرح بذلك فرحاً شديداً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٨٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن ملك الجن قال لابن ملك الإنس: حيث تبرأ من علتك تعود إلى أهلك أسرع من طرفة عين. ففرح بذلك ولم يزالا سائرين إلى أن أصبح الصباح، وإذا هم بأرض مخضرة نَضرة ذات أشجار باسقة، وأطيّار ناطقة، ورياض فائقة، وقصور رابقة، فنزل ابن ملك الجن عن جواده وأمر الولد بالنزول فنزل، وأخذ بيده ودخلا في بعض تلك القصور؛ فنظر ابن الملك إلى مُلْكٍ عالٍ وسلطانٍ له شأن، فأقام عنده ذلك اليوم في أكل وشرب إلى أن أقبل الليل، فقام ابن ملك الجن وركب جواده وركب ابن ملك الإنس معه وخرجًا تحت الليل مُجِدِّين السير إلى أن أصبح الصباح، وإذا هما بأرض سوداء غير عامرة، ذات صخور وأحجار سود كأنها قطعة من جهنم؛ فقال له ابن ملك الإنس: ما يقال لهذه الأرض؟ فقال له: يقال لها الأرض الدهماء، ملك من ملوك الجن اسمه ذو الجناحين، لم يقدر أحد من الملوك أن يسطو عليه ولا يدخلها أحدٌ إلا بإذنه، فقف في مكانك حتى نستأذنه. فوقف الشاب، ثم غاب عنه ساعةً وعاد إليه وسارا. ولم يزالا سائرين حتى انتهيا إلى عين ماء تسيل من جبال سود، فقال للشاب: انزل. فنزل الشاب من فوق جواده، ثم قال له: اشرب من هذه العين. فشرب منها الشاب، فعاد لوقته وساعته ذكراً كما كان أولاً بقدرة الله تعالى؛ ففرح الشاب فرحاً شديداً ما عليه من مزيد، ثم قال له: يا أخي، ما يقال لهذه العين؟ فقال له: يقال لها عين النساء، لا تشرب منه امرأة إلا صارت رجلاً، فاحمد الله واشكره على العافية، واركب جوادك. فسجد ابن الملك شكراً لله تعالى، ثم ركب وسارا يُجِدَّان السير بقية يومهما حتى رجعا إلى أرض ذلك الجنى، فبات الشاب عنده في أرغد عيش، ولم يزالا في أكل وشرب إلى أن جاء الليل، ثم قال له ابن ملك الجن: أتريد أن ترجع إلى أهلك في هذه الليلة؟ فقال: نعم أريد ذلك؛ لأنني محتاج إليه. فدعا ابن ملك الجان بعبده له من عبيد أبيه اسمه راجز، وقال له: خذ

هذا الفتى من عندي واحمله على عاتقك، ولا تخل الصباح يصبح عليه إلا وهو عند صهره وزوجته. فقال له العبد: سمعاً وطاعةً، وحباً وكرامةً. ثم غاب العبد عنه ساعة وأقبل وهو في صورة عفريت، فلما رآه الفتى طار عقله واندهش، فقال له ابن ملك الجن: لا بأس عليك، اركب جوادك واعلُ به فوق عاتقه. فقال الشاب: بل أركب أنا وأترك الجواد عندك. ثم نزل الشاب عن الجواد وركب على عاتقه، فقال له ابن ملك الجن: أغمض عينيك. فأغمض عينيه وطار به بين السماء والأرض، ولم يزل طائرًا به، ولم يدر الشاب بنفسه، فما جاء ثلث الليل الأخير إلا وهو على قصر صهره، فلما نزل على قصره قال له العفريت: انزل. فنزل، وقال له: افتح عينيك، فهذا قصر صهرك وابنته. ثم تركه ومضى، فلما أضاء النهار وسكن الشاب من روعه نزل من فوق القصر، فلما نظره صهره قام إليه وتلقاه وتعجب حيث رآه فوق القصر، ثم قال له: إننا رأينا الناس تأتي من الأبواب وأنت تنزل من السماء؟ فقال له: قد كان الذي أراده الله سبحانه وتعالى. فتعجب الملك من ذلك وفرح بسلامته.

فلما طلعت الشمس أمر صهره وزيره أن يعمل اللوائم العظيمة، فعمل اللوائم واستقام العرس، ثم دخل على زوجته وأقام مدة شهرين، ثم ارتحل بها إلى مدينة أبيه. وأما ابن عم الجارية فإنه هلك من الغيرة والحسد لما دخل بها ابن الملك ونصره الله سبحانه وتعالى عليه وعلى وزير أبيه، ووصل إلى أبيه بزوجه على أتم حال وأكمل سرور، فتلقاه أبوه بعسكره ووزرائه. وأنا أرجو الله تعالى أن ينصرك على وزرائك أيها الملك، وأنا أسألك أن تأخذ حقي من ولدك. فلما سمع الملك ذلك منها أمر بقتل ولده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٨٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما حكّت للملك وقالت: أسألك أن تأخذ حقي من ولدك أمر بقتله، وكان ذلك في اليوم الرابع، فدخل على الملك الوزير الرابع، وقبّل الأرض بين يديه، وقال: ثبّت الله الملك وأيّده، أيها الملك، تأنّ في هذا الأمر الذي عزمته عليه؛ لأنّ العاقل لا يعمل عملاً حتى ينظر في عاقبته، وصاحب المثل يقول: «مَنْ لم يتدبّر في العواقب، فما الدهر له بصاحب.» ومَنْ عمل عملاً بغير تنبّه، أصابه ما أصاب الحمّامي في زوجته. فقال له الملك: وما أصاب الحمّامي في زوجته؟

حكاية ولد الوزير وزوجة الحمّامي

فقال له الوزير: بلغني أيها الملك أن حمامياً كان يدخل عنده أكابر الناس ورؤساؤهم، فدخل عنده يوماً من الأيام شاب حسن الصورة من أولاد الوزراء، وذلك الشاب سمين ضخّم الجسم، فصار الحمامي واقفاً في خدمته؛ فلما تجرّد الشاب من ثيابه، لم يرَ ذكره الحمّامي؛ لأنّه غاب بين فخذه من شدة السمن، ولم يظهر منه إلا مثل البندقة، فصار الحمامي يتأسّف ويضرب يده على الأخرى، فلما رآه الشاب قال له: ما لك يا حمامي تتأسّف؟ فقال له: يا سيدي، تأسّفني عليك لأنك في حصر شديد، مع أنك في هذه النعمة والحُسْن والجمال العظيم، وليس معك شيء تتمتع به مثل الرجال. فقال له الشاب: صدقت فيما قلت، ولكن ذكّرنتني بشيء كنت غافلاً عنه. فقال له الحمّامي: وما هو؟ فقال له: تأخذ مني هذا الدينار وتُحضّر لي امرأة مليحة حتى أجرب نفسي فيها. فأخذ الحمّامي الدينار وسار إلى زوجته وقال لها: يا امرأتي، قد دخل عندي في الحمّام شاب من أولاد الوزراء، وهو كالبدن ليلة تمامه، وليس له ذكر مثل الرجال، وما معه إلا شيء يسير مثل

البندقة، وقد تأسَّفتُ على شبابه، وإنه أعطاني هذا الدينار وسألني أن آتية بامرأةٍ يجربُ نفسه فيها، وأنتُ أحقُّ بالدينار، وما علينا في ذلك من بأسٍ وأنا أستر عليكِ، فاقعدي معه ساعة تضحكين عليه وخذي هذا الدينار منه. فأخذت زوجة الحمَّامي منه ذلك الدينار. ثم إنها قامت وتزينت ولبست أفخر ملبوسها، وكانت مليحة زمانها، ثم إنها خرجت مع زوجها إلى أن أدخلها على ابن الوزير في موضعٍ خالٍ، فلما حضرت عنده ورأته وجدته شاباً حسناً جميل المنظر كأنه البدر في كماله، فاندَهشتُ من حُسْنه وجماله.

ثم إن الشاب لما نظر إليها ذهل عقله ولبه من وقته، ومكث هو وإياها وقفاً عليهما الباب. ثم إن الشاب أخذ تلك الصبية وضمَّها إلى صدره وتعانقًا، فانتشر من ذلك الشاب دُكرٌ مثل دُكر الحمار، وركب على صدر زوجة الحمَّامي ساعة طويلة، وهي تبكي وتصرخ تحته وتهرج وتمرج، فصار الحمَّامي يناديها ويقول لها: يا أم محمد يكفيكِ، اخرجي قد طال النهار على ابنك الرضيع. فيقول لها الشاب: اخرجي إلى ابنك وتعالِي. فتقول له: إن خرجتُ من عندك طلعت روعي، ومن قبل ابني، فأنا أتركه يموت من البكاء أو يتربى يتيمًا بلا أم. وما زالت عند الشاب إلى أن قضى حاجته منها عشر مرات، وزوجها قدام الباب ينادي ويصيح ويبكي ويتسغيث فلا يغاث، وما زال كذلك وهو يقول: قتلت نفسي. ولم يجد إلى زوجته وصولاً، واشتدَّ بالحمَّامي البلاء والغيرة، فطلع على أعلى الحمام وارتقى من فوقه فمات.

حكاية امرأة جميلة والشاب والعجوز

وبلغني أيضًا أيها الملك من كيد النساء حكاية أخرى. قال له الملك: وما بلغك؟ فقال له: بلغني أيها الملك أن امرأة ذات حُسن وجمال، وبهاء وكمال، لم يكن لها نظير، فنظرها بعض الشبان الغاوين، فتعلَّقَ بها شاب وأحبَّها محبة عظيمة، وكانت تلك المرأة عفيفة عن الزنا، وليس لها فيه رغبة، فاتفق أن زوجها سافرَ يوماً من الأيام إلى بعض البلاد، فصار الشاب كل يوم يرسل إليها مرات عديدة ولم تجبه، فقصد الشاب عجوزاً كانت ساكنة بالقرب فسَلَّم عليها، وقعد يشكو إليها ما أصابه من المحبة وما هو عليه من عشق المرأة، وأخبرها أنه مراده وصالها، فقالت له العجوز: أنا أضمن لك ذلك ولا بأس عليك، وأنا أبلغك ما تريد إن شاء الله تعالى. فلما سمع الشاب كلامها دفع لها ديناراً، ثم انصرف إلى حال سبيله. فلما أصبح الصباح دخلت العجوز على المرأة وجدَّتْ معها عهداً ومعرفة، وصارت العجوز تتردد إليها في كل يوم وتتغدى وتتغشى عندها، وتأخذ من عندها بعض



فلما حضرت عنده رآته شاباً حسناً جميلَ المنظر كأنه البدر، ولما نظر إليها ذهَل عقله.

الطعام إلى أولادها، وصارت تلك العجوز تلاعبها وتبأسطها إلى أن أفسدت حالها، وصارت لا تقدر على مفارقة العجوز ساعة واحدة، فاتفق في بعض الأيام أن العجوز وهي خارجة من عند المرأة كانت تأخذ خبزاً وتجعل فيه شحمًا وفلفلًا، وتُطعمه إلى كلبة مدة أيام، فجعلت الكلبة تتبعها من أجل الشفقة والحسنة، فأخذت لها يومًا شيئاً كثيراً من الفلفل والشحم وأطعمته للكلبة، فلما أكلته صارت عيناها تدمع من حرارة الفلفل، ثم تبتعتها

الكلبة وهي تبكي، فتعجبت منها الصبية غاية العجب، ثم قالت للعجوز: يا أمي، ما سبب بكاء هذه الكلبة؟ فقالت لها: يا بنتي هذه لها حكاية عجيبة، فإنها كانت صبية وكانت صاحبتني ورفيقتي، وكانت صاحبة حُسن وجمال وبهاء وكمال، وكان قد تعلّق بها شاب في الحارة، وزاد بها حبًّا وشغفًا حتى لزم الوسادة، وأرسل إليها مرات عديدة لعلها ترقّ له وترحمه، فأبت، فنصحتها وقلت لها: يا بنتي، أطيعيه في جميع ما قاله وارحميه، واشفقي عليه. فما قبلت نصيحتي، فلما قلّ صبر هذا الشاب شكا لبعض أصحابه، فعملوا لها سحرًا وقلبوا صورتها من صورة البشر إلى صورة الكلاب، فلما رأت ما حصل لها وما هي فيه من الأحوال وانقلاب الصورة، ولم تجد أحدًا من المخلوقين يشفق عليها غيري، جاءتني إلى منزلي وصارت تستعطف بي وتقبّل يدي ورجلي، وتبكي وتنتحب، فعرفتها وقلت لها: كثيرًا ما نصحتك فلم يفدك نصحي شيئًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٨٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز صارت تحكي للمرأة خبر الكلبة وتعرفها عن حالها بمكر وخداع، لأجل موافقتها لغرض تلك العجوز، وجعلت تقول لها: لما جاءتني هذه الكلبة المسحورة وبكت قلت لها: كم نصحتك! ولكن يا بنتي لما رأيته في هذه الحالة شفقت عليها وأبقيتها عندي، فهي على هذه الحالة، وكلما تتفكر حالتها الأولى تبكي على نفسها. فلما سمعت الصبية كلامَ العجوز حصل لها رعب كبير، وقالت لها: يا أمي، والله إنك خوِّفتني بهذه الحكاية. فقالت لها العجوز: من أي شيء تخافين؟ فقالت لها: إن شاباً مليحاً متعلّقاً بحبي، وأرسل لي مرات وأنا أمتنع منه، وأنا اليوم أخاف أن يحصل لي مثل ما حصل لهذه الكلبة. فقالت لها العجوز: احذري يا بنتي أن تخالفي، فإني أخاف عليك كثيراً، وإذا كنتِ لم تعرفي محله فأخبريني بصفته وأنا أجيء به إليك، ولا تخل قلب أحدٍ يتغيّر عليك. فوصفته لها وجعلت تتغافل وتريها أنها لم تعرفه، وقالت لها: لما أقوم وأسأل عنه. فلما خرجت من عندها ذهبت إلى الشاب وقالت له: طُبِّ نفسك قد لعبت بعقل الصبية فأنت في غدٍ وقت الظهر تحضر وتقف لي عند رأس الحارة، حتى أجيء فأخذك وأذهب بك إلى منزلها وتنسبط عندها بقية النهار وطول الليل. ففرح الشاب فرحاً شديداً وأعطاهما دينارين وقال لها: لما أقضي حاجتي أعطي لك عشرة دنانير. فرجعت إلى الصبية وقالت لها: عرفته وكلمته في شأن ذلك فرأيته غضباناً عليك كثيراً وعازماً على ضررك، فما زلتُ أستعطف بخاطره على حضوره في غدٍ عند آذان الظهر. ففرحت الصبية فرحاً شديداً وقالت لها: يا أمي، إن طاب خاطره وجاءني وقت الظهر أعطيكي عشرة دنانير. فقالت لها العجوز: لا تعرفي حضوره إلا مني.

فلما أصبح قالت لها العجوز: أحضري الغداء وتزيّني والبسي أعزّ ما عندك حتى أذهب إليه وأجيء به إليك. فقامت تزين نفسها وتهيئ الطعام، وأما العجوز فإنها خرجت

في انتظار الشاب فلم يأت، فدارت تفتش عليه فلم تقف له على خبر، فقالت في نفسها: كيف العمل؟ أيروح هذا الأكل الذي فعلته خسارة والوعد الذي وعدتني به من الدراهم؟ ولكن لم أدخل هذه الحيلة تروح بلا شيء، بل أفتش لها على غيره، وأجيء به إليها. فبينما هي كذلك تدور في الشارع إذ نظرت شاباً حسناً جميلاً على وجهه أثر السفر، فتقدمت إليه وسلمت عليه، وقالت له: هل لك في طعام وشراب وصببة مهيأة؟ فقال لها الرجل: وأين هذا؟ قالت: عندي في بيتي. فسار معها الرجل والعجوز وهي لا تعلم أنه زوج الصبية، حتى وصلت إلى البيت ودقت الباب، ففتحت لها الصبية الباب، فدخلت وهي تجري لتتھيا بالملبوس والبخور، فأدخلته العجوز في قاعة الجلوس وهي في كيد عظيم، فلما دخلت المرأة عليه ووقع بصرها عليه، والعجوز قاعدة عنده، بادرت المرأة بالحيلة والمكيدة، ودبرت لها أمراً في الوقت والساعة، ثم سحبت الخف من رجلها وقالت لزوجها: ما هكذا العهد الذي بيني وبينك؟ فكيف تخونني وتفعل معي هذا الفعل؟ فإني لما سمعت بحضورك جربتك بهذه العجوز، فأوقعتك فيما حذرتك منه، وقد تحققت أمرك، وإنك نقضت العهد الذي بيني وبينك، وكنت قبل الآن أظن أنك طاهر حتى شاهدتك بعيني مع هذه العجوز، وأنت تتردد على النساء الفاجرات. وصارت تضربه بالخف على رأسه وهو يتبرأ من ذلك، ويحلف لها أنه ما خانها مدة عمره، ولا فعل فعلاً مما اتهمته به، ولم يزل يحلف لها أيماناً بالله تعالى وهي تضربه وتبكي وتصرخ، وتقول: تعالوا إليّ يا مسلمين. فيمسك فمها بيده وهي تعضه، وصار متذلاً لها ويقبل يديها ورجليها، وهي لا ترضى عليه ولا تكف يدها عن صفعه. ثم إنها غمزت العجوز أن تمسك يدها عنه، فجاءتها العجوز وصارت تقبل يديها ورجليها إلى أن أجلستهما، فلما جلسا جعل الزوج يقبل يد العجوز ويقول لها: جزاك الله تعالى كل خير حيث خلصتني منها. فصارت العجوز تتعجب من حيلة المرأة وكيدها. وهذا أيها الملك من جملة مكر النساء وحيلهن وكيدهن، فلما سمعه الملك انتصح بحكايته، ورجع عن قتل ولده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٨٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير الرابع لما حكى الحكاية للملك رجع عن قتل ولده، فلما كان في اليوم الخامس دخلت الجارية على الملك وبيدها قرح فيه سم، واستغاثت ولطمت على خديها ووجهها، وقالت له: أيها الملك، إما أن تنصفني وتأخذ حقي من ولدك وإلا أشرب هذا القرح السم وأموت، ويبقى ذنبي متعلقاً بك إلى يوم القيامة، فإن وزراء هؤلاء ينسبونني إلى الكيد والمكر، وليس في الدنيا أكر منهم، أما سمعت أيها الملك حديث الصائغ مع الجارية؟ فقال لها الملك: ما جرى منهما يا جارية؟

حكاية الصائغ والمغنية

فقالت: بلغني أيها الملك السعيد أنه كان رجل صائغ مولعاً بالنساء وشرب الخمر، فدخل يوماً من الأيام عند صديق له، فنظر إلى حائط من حيطان بيته فرأى فيها صورة جارية منقوشة لم يرَ الرءون أحسنَ ولا أجملَ ولا أطرفَ منها، فأكثر الصائغ من النظر إليها وتعجب من حُسن هذه الصورة، ووقع حب هذه الصورة في قلبه إلى أن مرض وأشرف على الهلاك، فجاءه أحد أصدقائه يزوره، فلما جلس عنده سأله عن حاله وما يشكو منه، فقال له: يا أخي، إن مرضي كله وجميع ما أصابني من العشق؛ وذلك أنني عشقت صورة منقوشة في حائط فلان أخي. فلامه ذلك الصديق وقال له: إن هذا من قلة عقلك، فكيف تعشق صورة في حائط لا تضر ولا تنفع، ولا تنظر ولا تسمع، ولا تأخذ ولا تمنع؟ فقال له: ما صوَّرها المصوِّر إلا على مثال امرأة جميلة. فقال له صديقه: لعل الذي صوَّرها اخترعها من رأسه. فقال له: أنا في حبها ميت على كل حال، وإن كان لهذه الصورة شبيه في الدنيا فأنا أرجو الله تعالى أن يمدني بالحياة إلى أن أراه. فلما قام الحاضرون سألوها

عَمَّن صَوَّرَهَا فوجدوه قد سافر إلى بلد من البلدان، فكتبوا له كتاباً يشكون له فيه حال صاحبهم، ويسألونه عن تلك الصورة وما سببها؛ هل هو اخترعها من ذهنه، أو رأى لها شبيهاً في الدنيا؟ فأرسل إليهم: إني صورت هذه الصورة على شكل جارية مغنية لبعض الوزراء، وهي بمدينة كشمير بإقليم الهند.

فلما سمع الصائغ بالخبر وكان ببلاد الفرس، تجهَّزَ وسار متوجَّهاً إلى بلاد الهند، فوصل إلى تلك المدينة من بعد جهد جهيد، فلما دخل تلك المدينة واستقر فيها، ذهب يوماً من الأيام عند رجل عطار من أهل تلك المدينة، وكان ذلك العطار حاذقاً فطناً لبيباً، فسأله الصائغ عن مَلِكهم وسيرته، فقال له العطار: أما ملكنا فعادل حسن السيرة، محسن لأهل دولته، منصف لرعيته، وما يكره في الدنيا إلا السَّحَرَة، فإذا وقع في يده ساحر أو ساحرة ألقاها في خارج المدينة، ويتركها بالجوع إلى أن يموتاً. ثم سأله عن وزرائه؟ فذكر له سيرة كل وزير وما هو عليه، إلى أن انجَرَّ الكلام إلى الجارية المغنية، فقال له: عند الوزير الفلاني. فصبر بعد ذلك أياماً حتى أخذ في تدبير الحيلة. فلما كان في ليلة ذات مطر ورعد ورياح عاصفة، ذهب الصائغ وأخذ معه عدة من اللصوص وتوجَّهَ إلى دار الوزير سيد الجارية، وعلق فيه السلام بكلايب، ثم طلع إلى أعلى القصر، فلما وصل إليه نزل إلى ساحته، فرأى جميع الجواري نائمات كل واحدة على سريرها، ورأى سريرًا من المرمر عليه جارية كأنها البدر إذا أشرق في ليلة أربعة عشر، فقصدها وقعد عند رأسها، وكشف الستر عنها، فإذا عليها ستر من ذهب، وعند رأسها شمعة، وعند رجلَيْها شمعة، كل شمعة منهما في شمعدان من الذهب الوهاج، وهاتان الشمعتان من العنبر، وتحت الوسادة حُقُّ من الفضة فيه جميع حليها، وهو مغطَّى عند رأسها. فأخرج سكيناً وضرب بها كفلَ الجارية فجرحها جرحاً واضحاً، فانتبَهِت فَزَعَة مرعوبة، فلما رأته خافت من الصباح فسكتت وظنت أنه يريد أخذ المال، فقالت له: خذ الحُقُّ والذي فيه، وليس بقتلي نفع، وأنا في جبرتك وفي حسبك، فتناول الرجل الحُقُّ بما فيه وانصرف. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٨٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الصائغ حين طلع قصر الوزير ضرب الجارية على كفلها فجرحها، وأخذ الحُقَّ الذي فيه حليها وانصرف، فلما أصبح الصباح لبس ثيابه وأخذ معه الحُقَّ الذي فيه الحلي، ودخل به على ملك تلك المدينة، ثم قَبَلَ الأرض بين يديه وقال: أيها الملك، إنني رجل ناصح لك وأنا من أرض خراسان، وقد أتيت مهاجرًا إلى حضرتك لما شاع من حُسْن سيرتك وعدلك في ريعتك، فأردتُ أن أكون تحت لوائك، وقد وصلت إلى هذه المدينة آخر النهار، فوجدت الباب مغلقًا فنمتُ من خارجه، فبينما أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت أربع نسوة إحداهن راكبة مكنسة، والأخرى راكبة مروحة، فعلمت أيها الملك أنهن سَحَرَة يدخلن مدينتك، فدنت إحداهن مني ورفصتني برجلها، وضربتني بذنْب ثعلب كان في يدها، فأوجعتني فأخذتني الحدة من الضرب فضربتها بسكين كانت معي، فأصابت كفلها وهي مولية شاردة، فلما جرحتها انهزمت قدامي فوقع منها هذا الحُقُّ بما فيه، فأخذته وفتحته فرأيتُ فيه هذا الحلي النفيس، فخذته فليس لي به حاجة؛ لأنني رجل سائح في الجبال، وقد رفضت الدنيا عن قلبي، وزهدتها بما فيها، وإني قاصد وجه الله تعالى. ثم ترك الحُقَّ بين يدي الملك وانصرف.

فلما خرج من عند الملك فتح الملك ذلك الحُقَّ، وأخرج جميع الحلي منه، وصار يقلِّبه بيده فوجد فيه عقدًا كان أنعم به على الوزير سيد الجارية، فدعا الملك بالوزير، فلما حضر بين يديه قال له: هذا العقد الذي أهديته إليك؟ فلما رآه الوزير عرفه وقال للملك: نعم، وأنا أهديته إلى جارية مغنية عندي. فقال له الملك: أحضر لي الجارية في هذه الساعة. فأحضرها، فلما حضرت الجارية بين يدي الملك، قال له: اكشف عن كفلها وانظر هل فيه جرح أم لا؟ فكشف الوزير عنه فرأى فيه جرح سكين، فقال الوزير للملك: نعم يا مولاي فيها الجرح. فقال الملك للوزير: هذه ساحرة كما قال لي الرجل الزاهد بلا شك ولا ريب.

ثم أمر الملك بأن يجعلوها في جب السَّحَرَة، فأرسلوها إلى الجبِّ في ذلك النهار، فلما جاء الليل وعرف الصائغ أن حيلته قد تَمَّتْ جاء إلى حارس الجب وبيده كيس فيه ألف دينار، وجلس مع الحارس يتحدَّث إلى ثلث الليل الأول، ثم دخل مع الحارس في الكلام وقال له: اعلم يا أخي أن هذه الجارية بريئة من هذه البلية التي ذكروها عنها وأنا الذي أوقعتها. وقص عيه القصة من أولها إلى آخرها، ثم قال له: يا أخي، خذ هذا الكيس فإن فيه ألف دينار، وأعطني الجارية أسافر بها إلى بلادي، فهذه الدنانير أنفع لك من حبس الجارية، واغتنم أجرتنا ونحن الاثنان ندعو لك بالخير والسلامة. فلما سمع حكايته تعجب غاية العجب من هذه الحيلة وكيف تمت، ثم أخذ الحارس الكيس بما فيه وتركها له، وشرط عليه ألا يقيم بها في هذه المدينة ساعة واحدة، فأخذها الصائغ من وقته وسار، وجعل يحدُّ في السير إلى أن وصل إلى بلاده وقد بلغ مراده. فانظر أيها الملك إلى كيد الرجال وحيلهم ووزرائك يردونك عن أخذ حقي، وفي غد أقف أنا وأنت بين يدي حاكم عادل فيأخذ حقي منك أيها الملك.

فلما سمع الملك كلامها أمر بقتل ولده، فدخل عليه الوزير الخامس وقبَّل الأرض بين يديه، ثم قال له: أيها الملك العظيم الشأن، تمهَّلْ ولا تعجل على قتل ولدك؛ فرُبَّ عجلة أعقبت ندامة، وأخاف عليك أن تندم ندامة الرجل الذي لم يضحك بقية عمره. فقال له الملك: وكيف ذلك أيها الوزير؟

حكاية الرجل الحزين

قال: بلغني أيها الملك أنه كان رجل من ذوي البيوت والنَّعم، وكان ذا مال وخدم وعبيد وأملاك، فمات إلى رحمة الله تعالى وترك ولدًا صغيرًا، فلما كبر الولد أخذ في الأكل والشرب وسماع الطرب والأغاني، وتكرم وأعطى وأنفق الأموال التي خلفها له أبوه حتى ذهب المال جميعه ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٨٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الولد لما أذهب المال الذي خلفه له أبوه ولم يَبْقَ منه شيء، رجع إلى بيع العبيد والجواري والأملّك، وأنفق جميع ما كان عنده من مال أبيه وغيره، فافتقر حتى صار يشغل مع الفَعْلَة، فمكث على ذلك مدة سنة. فبينما هو جالس يومًا من الأيام تحت حائط ينتظر مَنْ يستأجره، وإذا هو برجل حسن الوجه والثياب قد دَنَا من الشاب وسلَّم عليه، فقال له الولد: يا عم، هل أنت تعرفني قبل الآن؟ فقال له: لم أعرفك يا ولدي أصلًا، بل أرى آثارَ النعمة عليك وأنت في هذه الحالة. فقال له: يا عم، نفذ القضاء والقدر، فهل لك يا عم يا صبيح الوجه من حاجة تستخدمني فيها؟ فقال له: يا ولدي، أريد أن أستخدمك في شيء يسير. قال له الشاب: وما هو يا عم؟ فقال له: عندي عشرة من الشيوخ في دار واحدة، وليس عندنا مَنْ يقضي حاجتنا، ولك عندنا من المأكَل والملبس ما يكفيك، فتقوم بخدمتنا، ولك عندنا ما يصل إليك من الخير والدرهم، ولعل الله يرد عليك نعمتك بسببنا. فقال له الشاب: سمعًا وطاعة. ثم قال له الشيخ: لي عليك شرط. فقال له الشاب: وما هو شرطك يا عم؟ قال له: يا ولدي أن تكون كاتمًا لسرنا فيما ترانا عليه، وإذا رأيتنا نبكي فلا تسألنا عن سبب بكائنا. فقال له الشاب: نعم يا عم. فقال له الشيخ: يا ولدي، سِرْ بنا على بركة الله تعالى. فقام الشاب خلف الشيخ إلى أن أوصله إلى الحمام فأدخله فيه، وأزال عن بدنه ما عليه من القشف، ثم أرسل الشيخ رجلًا فأتى له بحلة حسنة من القماش فألبسه إياها، ومضى به إلى منزله عند جماعته، فلما دخل الشاب وجدها دارًا عالية البنيان، مشيدة الأركان، واسعة بمجالس متقابلة وقاعات، في كل قاعة فسقية من الماء عليها طيور تغرد، وشبابيك تطل من كل جهة على بستان حسن في تلك الدار، فأدخله الشيخ في أحد المجالس فوجده منقوشًا بالرخام الملون، ووجد سقفه منقوشًا باللازورد والذهب الوهاج، وهو مفروش ببسط الحرير، ووجد فيه عشرة من

الشيخ قاعدين متقابلين، وهم لابسون ثياب الحزن يبكون وينتحبون، فتعجب الشاب من أمرهم وهم أن يسأل الشيخ، فتذكر الشرط فمنع لسانه.

ثم إن الشيخ سلم إلى الشاب صندوقاً فيه ثلاثون ألف دينار، وقال له: يا ولدي أنفق علينا من هذا الصندوق وعلى نفسك بالمعروف، وأنت أمين، واحفظ ما استودعتك فيه.

فقال الشاب: سمعاً وطاعة. ولم يزل الشاب ينفق عليهم مدة أيام وليالٍ، ثم مات واحد منهم فأخذه أصحابه وغسلوه وكفّنوه ودفنوه في روضة خلف الدار، ولم يزل الموت يأخذ منهم واحداً بعد واحد إلى أن بقي الشيخ الذي استخدم الشاب، فاستمر هو والشاب في تلك الدار وليس معهما ثالث، وأقاما على ذلك مدة من السنين. ثم مرض الشيخ، فلما يئس الشاب من حياته أقبل عليه وتوجّع له، ثم قال له: يا عم، أنا خدمتكم ولا كنت أقصر في خدمتكم ساعة واحدة مدة اثنتي عشرة سنة، وإنما أنصح لكم وأخدمكم بجهدِي وطاقتي. فقال له الشيخ: نعم يا ولدي، خدمتنا إلى أن توفيت هذه المشايخ إلى الله عز وجل، ولا بد لنا من الموت. فقال الشاب: يا سيدي، أنت على خطر وأريد منك أن تعلمني ما سبب بكائكم، ودوام انتحابكم وحزنكم وتحسركم؟ فقال له: يا ولدي، ما لك بذلك من حاجة، ولا تكلفني ما لا أطيق، فإني سألتُ الله تعالى ألا يبلي أحداً ببليتي، فإن أردت أن تسلم مما وقعنا فيه فلا تفتح ذلك الباب — وأشار إليه بيده، وحذّره منه — وإن أردت أن يصيبك ما أصابنا فافتحه؛ فإنك تعلم سبب ما رأيت منّا، لكونك تندم حيث لا ينفك الندم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٨٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ الذي بقي من العشرة قال للشاب: احذر أن تفتح هذا الباب فتندم حيث لا ينفعك الندم. ثم تزايدت العلة على الشيخ فمات، فغسله الشاب بيده وكفّنه ودفنه عند أصحابه، وقعد الشاب في ذلك الموضع وهو مختوم على ما فيه، وهو مع ذلك قلق متفكّر فيما كان فيه الشيوخ. فبينما هو يتفكر يوماً من الأيام في كلام الشيخ ووصيته له بعدم فتح الباب، إذ خطر بباله أنه ينظر إليه، فقام إلى تلك الجهة وفتش حتى رأى باباً لطيفاً قد عَشَّشَ عليه العنكبوت، وعليه أربعة أقفال من البولاد، فلما نظره تذكر ما حدّره منه الشيخ فانصرف عنه، وصارت نفسه تراوده على فتح الباب وهو يمنعها مدة سبعة أيام، وفي اليوم الثامن غلبت عليه نفسه وقال: لا بد أن أفتح ذلك الباب، وأنظر أي شيء يجري عليّ منه؛ فإن قضاء الله تعالى وقدره لا يرده شيء، ولا يكون أمر من الأمور إلا بإرادته. فنهض وفتح الباب بعد أن كسر الأقفال، فلما فتح الباب رأى دهليزاً ضيقاً، فجعل يمشي فيه مقدار ثلاث ساعات، وإذا به قد خرج على شاطئ نهر عظيم، فتعجّب الشاب من ذلك، فصار يمشي على ذلك الشاطئ، وينظر يميناً وشمالاً، وإذا بعقاب كبير قد نزل من الجو، فحمل ذلك الشاب في مخالبه، وطار بين السماء والأرض إلى أن أتى به إلى جزيرة في وسط البحر فألقاه فيها، وانصرف عنه ذلك العقاب، فصار الشاب متحيراً في أمره لا يدري أين يذهب.

فبينما هو جالس يوماً من الأيام، وإذا بقلع مركب قد لاح له في البحر كالنجمة في السماء، فتعلق خاطر الشاب بالمركب؛ لعل نجاته تكون فيها، وصار ينظر إليها حتى وصلت إلى قربه، فلما وصلت رأى زورقاً من العاج والأبنوس ومجاديفه من الصندل والعود، وهو مصفح جميعه بالذهب الوهاج، وفيه عشر من الجواري والأبكار كأنهن الأقمار، فلما نظره الجواري طلعن إليه من الزورق، وقبّلن يديه، وقلن له: أنت الملك

العريس. ثم تقدّمت إليه جارية وهي كالشمس الضاحية في السماء الصاحية، وفي يدها منديل حرير فيه خلعة ملوكية، وتاج من الذهب مرصّع بأنواع اليواقيت، فتقدّمت عليه وألبسته وتوجّته وحملته على الأيدي إلى ذلك الزورق، فوجد فيه أنواعاً من بسط الحرير الملون، ثم نشرن القلوع وبيرن في لجج البحر. قال الشاب: فلما سرتُ معهن اعتقدت أن هذا منام، ولا أدري أين يذهبن بي، فلما أشرفن على البر رأيت البر قد امتلأ بعساكر لا يعلم عدتهم إلا الله سبحانه وتعالى وهم متدرعون، ثم قدّموا إليّ خمسة من الخيل المسومة بسروج من ذهب مرصّعة بأنواع اللآلئ والفصوص الثمينة، فأخذت منها فرساً فركبته والأربعة سارت معي، ولما ركبت انعقدت على رأسي الرايات والأعلام، ودقّت الطبول وضربت الكاسات، ثم ترتبت العساكر ميمنة وميسرة، وسرتُ أتردد: هل أنا نائم أم يقظان؟ ولم أزل سائراً ولا أصدق بما أنا فيه من الموكب، بل أظن أنه أضغاث أحلام، حتى أشرفنا على مرج أخضر فيه قصور وبساتين وأشجار، وأنهار وأزهار وأطيّار تسبح الله الواحد القهار. فبينما هم كذلك وإذا بعسكر قد برز من بين تلك القصور والبساتين مثل السيل إذا انحدر إلى أن ملأ ذلك المرج، فلما دنوا مني وقفت تلك العساكر، وإذا بملك منهم قد تقدّم بمفرده راكب بين يديه بعض خواصه مشاة، فلما قرب الملك من الشاب نزل عن جواده، فلما رأى الملك نزل عن جواده نزل هو الآخر، ثم سلّما على بعضهما أحسن سلام، ثم ركبوا خيولهم، فقال الملك للشاب: سرّ بنا فإنك ضيفي. فسار معه الشاب وهم يتحدثون، والمواكب مرتبة وهي تسير بين أيديهما إلى قصر الملك، ثم نزلوا ودخلوا القصر جميعاً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٩٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما أخذ الشاب سار هو وإياه بالموكب حتى دخلا القصر، ويد الشاب في يد الملك، ثم أجلسه على كرسي من الذهب وجلس عنده، فلما كشف ذلك الملك اللثامَ عن وجهه، وإذا هو جارية كالشمس الضاحية في السماء الصاحية؛ حُسْن وجمال وبهاء وكمال وعجب ودلال، فنظر الشاب إلى نعمة عظيمة وسعادة جسيمة، وصار الشاب متعجباً من حُسْنها وجمالها، ثم قالت له: اعلم أيها الملك أنني ملكة هذه الأرض، وكل هذه العساكر التي رأيتهما وجميع ما رأيته من فارس أو راجل فهن نساء ليس فيهن رجال، والرجال عندنا في هذه الأرض يحرثون ويزرعون ويحصدون، ويشغلون بعمارة الأرض وعمارة البلاد ومصالح الناس من سائر الصناعات، وأما النساء فهنَّ الحَكَّام وأرباب المناصب والعساكر. فتعجبَّ الشاب من ذلك غاية العجب، فبينما هم كذلك وإذا بالوزير قد دخل، وإذا هي عجوز شمطاء وهي محتشمة ذات هيبة ووقار، فقالت لها الملكة: أحضري لنا القاضي والشهود. فمضت العجوز لذلك، ثم عطفت الملكة على الشاب تناديه وتؤانسّه، وتزيل وحشته بكلام لطيف، ثم أقبلت عليه وقالت: أترضى أن أكون لك زوجة؟ فقام وقَبَلَ الأرض بين يديها فمنعته، فقال لها: يا سيدتي، أنا أقل من الخدم الذين يخدمونك. فقالت له: أما ترى جميع ما نظرت من الخدم والعساكر والمال والخزائن والذخائر؟ فقال لها: نعم. فقالت له: جميع ذلك بين يديك تتصرف فيه بحيث تعطي وتهب ما بَدَا لك. ثم إنها أشارت إلى باب مغلق وقالت له: جميع ذلك تتصرف فيه إلا هذا الباب فلا تفتحه، وإذا فتحته تندم حيث لا ينفك الندم. فما استتم كلامها إلا والوزيرة والقاضي والشهود معها. فلما حضروا وكلهن عجائز ناشرات الشعر على أكتافهن، وعليهن هيبة ووقار. قال: فلما حضرَ بين يدي الملكة أمرتهن أن يعقدن العقد بالتزويج، فزَوَّجَها الشاب وعملت الولائم وجمعت العساكر، فلما أكلوا وشربوا دخل عليها

ذلك الشاب فوجدها بكرًا عذراء، فأزال بكارتها، وأقام معها سبعة أعوام في ألد عيش وأرغده وأهنأه وأطيبه.

فتذكر ذات يوم من الأيام فتح الباب وقال: لولا أن يكون فيه ذخائر جلييلة أحسن مما رأيت ما منعني عنه. ثم قام وفتح الباب وإذا داخله الطائر الذي حمله من ساحل البحر وحطّه في الجزيرة، فلما نظر ذلك الطائر قال له: لا مرحبًا بوجه لا يفلح أبدًا. فلما نظره وسمع كلامه هرب منه، فتبعه وخطفه بين السماء والأرض مسافة ساعة، وحطّه في المكان الذي خطفه منه، ثم غاب عنه، فجلس مكانه، ثم رجع إلى عقله وتذكّر ما نظره قبل ذلك من النعمة والعز والكرامة وركوب العسكر أمامه، والأمر والنهي، فجعل يبكي وينتحب، ثم أقام على ساحل البحر الذي وضعه فيه ذلك الطائر مدة شهرين وهو يتمنى أن يعود إلى زوجته.

فبينما هو ذات ليلة من الليالي سهران حزين متفكر، وإذا بقائل يقول وهو يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو ينادي: ما أعظم اللذات! هيهات هيهات أن يرجع إليك ما فات، فأكثر الحسرات. فلما سمعه ذلك الشاب يئس من لقاء تلك الملكة، ومن رجوع النعمة التي كان فيها إليه، ثم دخل الدار التي فيها المشايخ، وعلم أنهم قد جرى لهم مثل ما جرى له، وهذا الذي كان سبب بكائهم وحزنهم، فعذرهم بعد ذلك. ثم إن الشاب أخذه الحزن والههم ودخل ذلك المجلس، وما زال يبكي وينوح، وترك المأكل والمشرب والروائح الطيبة والضحك إلى أن مات، ودفنوه بجانب المشايخ. فاعلم أيها الملك أن العجلة ليست محمودة، وإنما هي تورث الندامة، وقد نصحتك بهذه النصيحة. فلما سمع الملك ذلك الكلام اتّعظ به وانتصح، ورجع عن قتل ولده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٩١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما سمع حكاية الوزير رجع عن قتل ولده، فلما كان في اليوم السادس دخلت الجارية على الملك وفي يدها سكين مسلوقة، وقالت: اعلم يا سيدي أنك لم تقبل شكائتي وترع حقك وحرمتك فيمن تعدى عليّ، وهم وزراؤك الذين يزعمون أن النساء صاحبات حيل ومكر وخديعة، ويقصدون بذلك ضياع حقي، وإهمال الملك النظر في حقي، وها أنا أحقق بين يديك أن الرجال أكر من النساء بحكاية ابن ملك من الملوك، حيث خلا بزوجة تاجر. فقال لها الملك: وأي شيء جرى له معها؟

حكاية التاجر الغيور وابن الملك

فقالت: بلغني أيها الملك السعيد أنه كان تاجر من التجار غيورًا، وكان عنده زوجة ذات حُسن وجمال، فمن كثرة خوفه وغيته عليها لم يسكن بها في المداثن، وإنما عمل لها خارج المدينة قصرًا منفردًا وحده عن البنیان، وقد أعلى بنيانه وشيّد أركانه وحصّن أبوابه وأحكم أقفاله، فإذا أراد الذهاب إلى المدينة قفل الأبواب، وأخذ مفاتيحها معه وعلّقها في رقبته، فبينما هو يومًا من الأيام في المدينة إذ خرج ابن ملك تلك المدينة يتنزه خارجها ويتفرج على الفضاء، فنظر ذلك الخلاء وصار يتأمل فيه زمانًا طويلًا، فلاح لعينه ذلك القصر، فنظر فيه جارية عظيمة تطل من بعض طيقان القصر، فلما نظرها صار متحيرًا في حسنها وجمالها، ويريد الوصول إليها فلم يمكنه ذلك، فدعا بغلام من غلمانه فأثاه بدواة وورقة، وكتب فيها شرح حاله من المحبة، وجعلها في سنان نشابة، ثم رمى النشابة داخل القصر، فنزلت عليها وهي تمشي في بستان، فقالت لجارية من جواربها: أسرعي إلى هذه الورقة وناولينيها. وكانت تقرأ الخط، فلما قرأتها وعرفت ما ذكر لها من الذي

أصابه من المحبة والشوق والغرام، كتبت له جواب ورقته، وذكرت له أنه قد وقع عندها من المحبة أكثر مما عنده. ثم طلت له من طاقة القصر فرأته، فألقت إليه الجواب واشتدَّ بها الشوق، فلما نظر إليها جاء تحت القصر وقال لها: ارمي من عندك خيطاً لأربط فيه هذا المفتاح حتى تأخذه عندك. فرمت له خيطاً، وربط فيه المفتاح، ثم انصرف إلى وزرائه، فشكا إليهم محبة تلك الجارية، وأنه قد عجز عن الصبر عنها، فقال له بعضهم: وما التدبير الذي تأمرني به؟ فقال له ابن الملك: أريد منك أن تجعلني في صندوق وتودعه عند هذا التاجر في قصره، وتجعل أن ذلك الصندوق لك حتى أبلغ أربي من تلك الجارية مدة أيام، ثم تسترجع ذلك الصندوق، فقال له الوزير: حباً وكرامةً.

ثم إن ابن الملك لما توجه إلى منزله جعل نفسه داخل صندوق كان عنده وأغلق الوزير عليه، وأتى به إلى قصر التاجر، فلما حضر التاجر بين يدي الوزير قبَّل يديه، ثم قال له التاجر: لعل لمولانا الوزير خدمة أو حاجة نفوز بقضائها. فقال له الوزير: أريد منك أن تجعل هذا الصندوق في أعز مكان عندك. فقال التاجر للحمَّالين: احمِلوه. ثم أدخله التاجر في القصر، ووضع في خزانة عنده، ثم بعد ذلك خرج إلى بعض أشغاله، فقامت الجارية إلى الصندوق وفتحته بالمفتاح الذي معها، فخرج منه شاب مثل القمر، فلما رأته لبست أحسن ملبوسها، وذهبت به إلى قاعة الجلوس وقعدت معه في أكل وشرب مدة سبعة أيام، وكلما يحضر زوجها تجعله في الصندوق وتقفل عليه. فلما كان في بعض الأيام سأل الملك عن ولده، فخرج الوزير مُسرِعاً إلى منزل التاجر، وطلب منه الصندوق. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٩٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما حضر إلى منزل التاجر لطلب الصندوق، جاء التاجر إلى قصره على خلاف العادة وهو مستعجل وطرق الباب، فحسّت به الجارية، فأخذت ابن الملك وأدخلته في الصندوق وذهلت عن قفله، فلما وصل التاجر إلى المنزل هو والحمّالون، حملوا الصندوق من غطاءه فانفتح، فنظروا فيه فإذا فيه ابن الملك راقداً، فلما رآه التاجر وعرفه خرج إلى الوزير وقال له: ادخل أنت وخذ ابن الملك، فلا يستطيع أحدٌ منّا أن يمسكه. فدخل الوزير وأخذه، ثم انصرفوا جميعاً، فلما انصرفوا طلق التاجر الجارية وأقسم على نفسه ألا يتزوج أبداً.

حكاية الغلام ولغة الطير

وبلغني أيضاً أيها الملك أن رجلاً من الظرفاء دخل السوق، فوجد غلاماً يُنادى عليه للبيع، فاشتراه وجاء به إلى منزله، وقال لزوجته: استوصي به. فقام الغلام مدة من الزمان، فلما كان في بعض الأيام قال الرجل لزوجته: اخرجي غداً إلى البستان وتفرجي وتنزهي وانشرحي. فقالت: حباً وكرامةً. فلما سمع الغلام ذلك عمد إلى طعام وجهّزه في تلك الليلة، وإلى شراب ونقل وفاكهة، ثم توجّه إلى البستان وجعل ذلك الطعام تحت شجرة، وجعل ذلك الشراب تحت شجرة، والفواكه والنقل تحت شجرة في طريق زوجة سيده. فلما أصبح الصباح أمر الرجل الغلام أن يتوجه مع سيدته إلى ذلك البستان، وأمر بما يحتاجون إليه من المأكّل والمشرب والفواكه، ثم طلعت الجارية وركبت فرساً والغلام معها حتى وصلوا إلى ذلك البستان، فلما دخلوا أنعق غراب فقال له الغلام: صدقت. فقالت له سيدته: هل أنت عرفتَ ما يقول الغراب؟ فقال لها: نعم يا سيدتي. قالت له: فما يقول؟ قال لها: يا سيدتي،

يقول إن تحت هذه الشجرة طعاماً تعالوا كلوه. فقالت له: أراك تعرف لغات الطير. فقال لها: نعم. فتقدمت الجارية إلى تلك الشجرة فوجدت طعاماً مجهّزاً، فلما أكلوه تعجبت منه غاية العجب، واعتقدت أنه يعرف لغات الطير.

فلما أكلوا ذلك الطعام تفرجوا في البستان، فنشق الغراب، فقال له الغلام: صدقت. فقالت له سيده: أي شيء يقول؟ قال: يا سيدتي، يقول إن تحت الشجرة الفلانية كوز ماء ممسك وخمرًا عتيقًا. فذهبت هي وإياه فوجدًا ذلك، فتزايد عجبها وعظم الغلام عندها، فقعدت مع الغلام يشربان. فلما شربا مشيا في ناحية البستان، فنشق الغراب فقال له الغلام: صدقت. فقالت له سيده: أي شيء يقول هذا الغراب؟ قال: يقول إن تحت الشجرة الفلانية فواكه ونقلاً. فذهبا إلى تلك الشجرة فوجدًا ذلك، فأكلتا من تلك الفواكه والنقل، ثم مشيا في البستان فنشق الغراب، فأخذ الغلام حجرًا ورماه به، فقالت: ما لك تضربه؟ وما الذي قاله؟ قال: يا سيدتي، إنه يقول كلامًا ما أقدر أن أقوله لك. قالت: قل ولا تستح مني، أنا ما بيني وبينك شيء. فصار يقول: لا. وهي تقول: قل. ثم أقسمت عليه فقال لها: إنه يقول لي: افعل بسيدتك مثل ما يفعل بها زوجها. فلما سمعت كلامه ضحكّت حتى استلقت على قفاهما، ثم قالت له: حاجة هينة لا أقدر أن أخالفك فيها. ثم توجّهت نحو شجرة من الأشجار، وفرشت تحتها الفرش، ونادته ليقضي لها حاجتها، وإذا بسيدته خلفه ينظر إليه، فناداه وقال له: يا غلام، ما لسيدتك راقدة هنا تبكي؟ فقال: يا سيدي، وقعت من فوق شجرة فماتت، وما ردها عليك إلا الله سبحانه وتعالى، فرقدت ها هنا ساعة لتستريح. فلما رأت الجارية زوجها فوق رأسها قامت وهي متمرضة تتوجّع وتقول: آه يا ظهري، يا جنبي، تعالوا إليّ يا أحبابي ما بقيت أعيش. فصار زوجها مبهوتًا، ثم نادى الغلام وقال له: هات لسيدتك الفرس وركبها. فلما ركبت أخذ الزوج بركابها والغلام بركابها الثاني، ويقول لها: الله يعافيك ويشفيك. وهذا أيها الملك من جملة حيل الرجال ومكرهم، فلا يردك وزراؤك عن نصرتي والأخذ بحقي. ثم بكت، فلما رأى الملك بكاءها، وهي عنده أعزّ جواريه، أمر بقتل ولده. فدخل عليه الوزير السادس وقبّل الأرض بين يديه، وقال له: أعزّ الله تعالى الملك، إنني ناصحك ومشيرٌ عليك بالتمهل في أمر ولدك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٩٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير السادس قال له: أيها الملك تمهل في أمر ولدك، فإن الباطل كالدخان، والحق مشيد الأركان، ونور الحق يذهب ظلام الباطل، واعلم أن مكر النساء عظيم، وقد قال الله في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وقد بلغني حديث امرأة فعلت مع أرباب الدولة مكيدة ما سبقها بمثلها أحد قط. فقال الملك: وكيف كان ذلك؟

حكاية امرأة والمعجبين الخمسة

قال الوزير: بلغني أيها الملك أن امرأة من بنات التجار كان لها زوج كثير الأسفار، فسافر زوجها إلى بلاد بعيدة وأطال الغيبة، فزاد عليها الحال، فعشقت غلاماً ظريفاً من أولاد التجار، وكانت تحبه ويحبها محبة عظيمة، ففي بعض الأيام تنازع الغلام مع رجل، فشكاه الرجل إلى والي تلك البلد فسجنه، فبلغ خبره زوجة التاجر معشوقته، فطار عقلها عليه، فقامت ولبست أفخر ملبوسها، ومضت إلى منزل الوالي فسلمت عليه ودفعت له ورقة تذكر فيها أن الذي سجنه وحبسته هو أخي فلان الذي تنازع مع فلان، والجماعة الذين شهدوا عليه قد شهدوا باطلاً، وقد سجن في سجنك وهو مظلوم، وليس عندي من يدخل عليّ ويقوم بحالي غيره، وأسأل من فضل مولانا إطلاقه من السجن. فلما قرأ الوالي الورقة، نظر إليها فعشقتها وقال لها: ادخلي المنزل حتى أحضره بين يدي، ثم أرسل إليك فتأخذه. فقالت له: يا مولانا، ليس لي أحد إلا الله تعالى، وأنا امرأة غريبة لا أقدر على دخول منزل أحد. فقال لها الوالي: لا أطلقه لك حتى تدخل المنزل وأقضي حاجتي منك. فقالت له: إن أردت ذلك، فلا بد أن تحضر عندي في منزلي وتقع وتنام وتستريح نهارك كله. فقال لها: وأين منزلك؟ فقالت له: في الموضع الفلاني.

ثم خرجت من عنده، وقد اشتغل قلب الوالي. فلما خرجت دخلت على قاضي البلد وقالت له: يا سيدنا القاضي. قال لها: نعم. قالت له: انظر في أمري وأجرك على الله. فقال لها: مَنْ ظلمك؟ قالت له: يا سيدي، لي أخ وليس لي أحد غيره، وهو الذي كَلَّفَنِي الخروج إليك؛ لأن الوالي قد سجنه وشهدوا عليه بالباطل أنه ظالم، وإنما أطلب منك أن تشفع لي فيه عند الوالي. فلما نظرها القاضي عشقها فقال لها: ادخلي المنزل عند الجواري واستريحي معنا ساعة ونحن نرسل إلى الوالي بأن يطلق أخاك، ولو كنا نعرف الدراهم التي عليه كنا دفعناها من عندنا لأجل قضاء حاجتنا؛ لأنك أعجبتنا من حسن كلامك. فقالت له: إذا كنت أنت يا مولانا تفعل ذلك فما نلوم الغير. فقال لها القاضي: إن لم تدخلني منزلنا فاخرجني إلى حال سبيلك. فقالت له: إن أردت ذلك يا مولانا، فيكون عندي في منزلي أستر وأحسن من منزلك، فإن فيه الجواري والخدم والداخل والخارج، وأنا امرأة ما أعرف شيئاً من هذا الأمر، لكن الضرورة تحوج. فقال لها القاضي: وأين منزلك؟ فقالت له: في الموضع الفلاني. وواعدته على اليوم الذي واعدت فيه الوالي.

ثم خرجت من عند القاضي إلى منزل الوزير، فرفعت إليه قصتها وشكت إليه ضرورة أخيها، وأنه سجنه الوالي، فراودها الوزير عن نفسها، وقال لها: نقضي حاجةً منك ونُطلق لك أخاك. فقالت له: إن أردت ذلك فيكون عندي في منزلي، فإنه أستر لي ولك؛ لأن المنزل ليس بعيداً، وأنت تعرف ما نحتاج إليه من النظافة والظرافة. فقال لها الوزير: وأين منزلك؟ فقالت له: في الموضع الفلاني. وواعدته على ذلك اليوم.

ثم خرجت من عنده إلى ملك تلك المدينة، ورفعت إليه قصتها وسأله إطلاق أخيها، فقال لها: مَنْ حبسه؟ قالت له: حبسه الوالي. فلما سمع الملك كلامها رشقته بسهام العشق في قلبه، فأمرها أن تدخل معه القصر حتى يرسل إلى الوالي ويخلص أخاها. فقالت له: أيها الملك، هذا أمر يسهل عليك، إما باختياري وإما قهراً عني، فإن كان الملك أراد ذلك مني فإنه من سعد حظي، ولكن إذا جاء إلى منزلي يشرفني بنقل خطواته الكرام، كما قال الشاعر:

خَلِيلِي هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا زِيَارَةَ مَنْ جَلَّتْ مَكَارِمُهُ عِنْدِي

فقال لها الملك: لا نخالف لك أمراً. فواعدته باليوم الذي واعدت فيه غيره وعرفته منزلها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٩٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة لما أجابت الملك عرّفته منزلها ووعدته على ذلك اليوم الذي واعدت فيه الوالي والقاضي والوزير، ثم خرجت من عنده فجاءت إلى رجل نجار، وقالت له: أريد منك أن تصنع لي خزانة بأربع طبقات بعضها فوق بعض، كل طبقة بباب يُقفل عليها، وأخبرني بقدر أجرتك فأعطيكه. فقال لها: أربعة دنانير، وإن أنعمت عليّ أيتها السيدة المصونة بالوصال فهو الذي أريد، ولا آخذ منك شيئاً. فقالت له: إن كان لا بد من ذلك فاعمل لي خمس طبقات بأقفالها. فقال لها: حباً وكرامةً. ووعدته أن يحضر لها الخزانة في ذلك اليوم بعينه، فقال لها النجار: يا سيدتي، اقعدي حتى تأخذي حاجتك في هذه الساعة، وأنا بعد ذلك أجيء على مهلي. فقعدت عنده حتى عمل لها الخزانة بخمس طبقات، وانصرفت إلى منزلها فوضعتها في المحل الذي فيه الجلوس. ثم إنها أخذت أربعة ثياب وحملتها إلى الصباغ، فصبغ كل ثوب لوناً، وكل لون خلاف الآخر، وأقبلت على تجهيز المأكول والمشروب والمشموم والفواكه والطيب، فلما جاء يوم الميعاد لبست أفخر ملبوسها، وتزينت وتطيبت، ثم فرشت المجلس بأنواع البسط الفاخرة، وقعدت تنتظر من يأتي، وإذا بالقاضي دخل عليها قبل الجماعة، فلما رآته قامت واقفة على قدميها وقبّلت الأرض بين يديه، وأخذته وأجلسته على ذلك الفرش، ونامت معه ولاعبته، فأراد منها قضاء الحاجة فقالت له: يا سيدي، اخلع ثيابك وعمامتك، والبس هذه الغلالة الصفراء، واجعل هذا القناع على رأسك حتى نحضر بالمأكول والمشروب، وبعد ذلك تقضي حاجتك. فأخذت ثيابه وعمامته ولبس الغلالة والقناع، وإذا بطارق يطرق الباب، فقال لها القاضي: من هذا الذي يطرق الباب؟ فقالت له: هذا زوجي. فقال لها: وكيف العمل؟ وأين أروح أنا؟ فقالت له: لا تخفْ فإني أدخلك هذه الخزانة. فقال لها: افعلي ما بدّا لك. فأخذته من يده وأدخلته في الطبقة السفلى وقفلت عليه.

ثم إنها خرجت إلى الباب وفتحته، وإذا هو الوالي، فلما رأيته قبَّلت الأرض بين يديه وأخذته بيدها وأجلسته على ذلك الفراش، وقالت له: يا سيدي، إن الموضوع موضعك والمحل محلك، وأنا جاريك، ومن بعض خدامك، وأنت تقيم هذا النهار كله عندي، فاخلع ما عليك من الملبوس، والبس هذا الثوب الأحمر فإنه ثوب النوم. وقد جعلتُ على رأسه خلفاً من خرقة كانت عندها، فلما أخذت ثيابه أتت إليه في الفراش ولاعبته ولاعبها، فلما مدَّ يده إليها قالت له: يا مولانا، هذا النهار نهارك، وما أحد يشاركك فيه، لكن من فضلك وإحسانك تكتب لي ورقة بإطلاق أخي من السجن حتى يطمئن خاطري. فقال لها: السمع والطاعة على الرأس والعين. وكتب كتاباً إلى خازن داره يقول له فيها: ساعة وصول هذه المكاتبة إليك تطلق فلاناً من غير إهمال ولا إهمالٍ، ولا تراجع حاملها بكلمة. ثم ختمها وأخذتها منه، ثم أقبلت تلاعبه على الفراش، وإذا بطارق يطرق الباب، فقال لها: مَنْ هذا؟ قالت: زوجي. قال: وكيف أعمل؟ فقالت له: ادخل هذه الخزانة حتى أصرفه وأعود إليك. فأخذته وأدخلته في الطبقة الثانية وقفلت عليه، كل هذا والقاضي يسمع كلامها.

ثم خرجت إلى الباب وفتحته، وإذا هو الوزير قد أقبل، فلما رأيته قبَّلت الأرض بين يديه وتلقته وخدمته، وقالت له: يا سيدي، لقد شرفتنا بقدموك في منزلنا يا مولانا، فلا أعدمنا الله هذه الطلعة. ثم أجلسه على الفراش وقالت له: اخلع ثيابك وعمامتك والبس هذه التخفيفة. فخلع ما كان عليه وألبسته غلالة زرقاء، وطرطوراً أحمر وقالت له: يا مولانا، أما هذه ثياب الوزارة فخلها لوقتها، وأما في هذه الساعة فهذه ثياب المنادمة والبسط والنوم. فلما لبسها الوزير لاعبته على الفراش ولاعبها، وهو يريد قضاء الحاجة وهي تمنعه، وتقول له: يا سيدي هذا ما يفوتنا. فبينما هم في الكلام وإذا بطارق يطرق الباب، فقال لها: مَنْ هذا؟ فقالت له: زوجي. فقال لها: كيف التدبير؟ فقالت له: قم وادخل هذه الخزانة حتى أصرف زوجي وأعود إليك ولا تخف. ثم إنها أدخلته الطبقة الثالثة، وقفلت عليه، وخرجت ففتحت الباب، وإذا هو الملك قد دخل، فلما رأيته قبَّلت الأرض بين يديه، وأخذت بيده، وأدخلته في صدر المكان، وأجلسه على الفراش، وقالت: شرفتنا أيها الملك، ولو قدما لك الدنيا وما فيها ما تساوي خطوة من خطواتك إلينا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٩٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما دخل دار المرأة قالت له: لو أهدينا لك الدنيا وما فيها ما تساوي خطوة من خطواتك إلينا. فلما جلس على الفراش قالت له: أعطني إذنًا حتى أكلّمك كلمة واحدة. فقال لها: تكلمي مهما شئت. فقالت له: استرح يا سيدي، واخلع ثيابك وعمامتك. وكانت ثيابه في ذلك الوقت تساوي ألف دينار، فلما خلعها ألْبسته ثوبًا خلَقًا قيمته عشرة دراهم بلا زيادة، وأقبلت تؤانسه وتلاعبه، هذا كله والجماعة الذين في الخزانة يسمعون ما يحصل منهما، ولا يقدر أحد أن يتكلم، فلما مدَّ الملك يده إلى عنقها، وأراد أن يقضي حاجته منها قالت له: هذا الأمر لا يفوتنا، وقد كنت قبل الآن وعدت خدمتك بهذا المجلس فك عندني ما يسرك. فبينما هما يتحدثان وإذا بطارق يطرق الباب، فقال لها: مَنْ هذا؟ قالت له: زوجي. فقال لها: اصرفيه عنا كرمًا منه وإلا أطلع إليه أصرفه قهْرًا. فقالت له: لا يكون ذلك يا مولانا، بل اصبر حتى أصرفه بحسن معرفتي. فقال لها: وكيف أفعل أنا؟ فأخذته من يده وأدخلته في الطبقة الرابعة وقفلت عليه.

ثم خرجت إلى الباب ففتحته، وإذا هو النجار، فلما دخل وسلّم عليها قالت له: أي شيء هذه الخزائن التي عملتها؟ فقال لها: ما لها يا سيدتي؟ فقالت له: إن هذه الطبقة ضيقة. فقال لها: يا سيدتي، هذه واسعة. فقالت له: ادخل وانظرها فإنها لا تسعك. فقال لها: هذه تسع أربعة. ثم دخل النجار، فلما دخل قفلت عليه الطبقة الخامسة.

ثم إنها قامت وأخذت ورقة الوالي ومضت بها إلى الخازن دار، فلما أخذها وقرأها قبلها وأطلق لها الرجل عشيقها من الحبس، فأخبرته بما فعلته، فقال لها: وكيف نفعل؟ قالت له: نخرج من هذه المدينة إلى مدينة أخرى، وليس لنا بعد هذا الفعل إقامة هنا. ثم جهّزًا ما كان عندهما وحملاه على الجِمال، وسافرا من ساعتها إلى مدينة أخرى.



أنت إليه في الفراش ولاعبته ولاعبها.

وأما القوم فإنهم أقاموا في طبقات الخزانة ثلاثة أيام بلا أكل، فانحصروا؛ لأن لهم ثلاثة أيام لم يبولوا، فبال النجار على رأس السلطان، وبال السلطان على رأس الوزير، وبال الوزير على رأس الوالي، وبال الوالي على رأس القاضي، فصاح القاضي وقال: أي شيء هذه النجاسة؟ أما يكفي ما نحن فيه حتى تبولوا علينا؟ فرفع الوالي صوته وقال: عظم الله أجرك أيها القاضي. فلما سمعه عرفه أنه الوالي. ثم إن الوالي رفع صوته وقال: ما بال

هذه النجاسة؟ فرفع الوزير صوته وقال: عَظَّمَ اللهُ أجرك أيها الوالي. فلما سمعه الوالي عرف أنه الوزير، ثم إن الوزير رفع صوته وقال: ما بال هذه النجاسة؟ فرفع الملك صوته وقال: عَظَّمَ اللهُ أجرك أيها الوزير. ثم إن الملك لما سمع كلام الوزير عرفه، ثم سكت وكنتم أمره، ثم إن الوزير قال: لعن الله هذه المرأة بما فعلت معنا، أحضرت جميع أرباب الدولة عندها ما عدا الملك. فلما سمعهم الملك قال لهم: اسكتوا فأنا أول مَنْ وقع في شبكة هذه العاهرة الفاجرة. فلما سمع النجار قولهم قال لهم: وأنا أي شيء ذنبي؟ قد عملت لها خزانة بأربعة دنانير ذهبًا، وجئت أطلب الأجرة فاحتالت عليّ وأدخلتني هذه الطبقة وقفلتها عليّ.

ثم إنهم صاروا يتحدثون مع بعضهم، وسلوا الملك بالحديث، وأزالوا ما عنده من الانقباض، فجاء جيران ذلك المنزل فرأوه خاليًا، فقال بعضهم لبعض: بالأمس كانت جارتنا زوجة فلان فيه، والآن لم نسمع في هذا الموضع صوت أحد ولا نرى فيه أنيسًا، فاكسروا هذه الأبواب وانظروا حقيقة الأمر لئلا يسمع الوالي أو الملك فيسجننا فنكون نادمين على أمرٍ لم نفعله قبل ذلك. ثم إن الجيران كسروا الأبواب ودخلوا فرأوا خزانة من خشب، ووجدوا فيها رجالًا تتنُّ من الجوع والعطش، فقالوا لبعضهم: هل جنني في هذه الخزانة؟ فقال واحد منهم: نجمع لها حطبًا ونحرقها بالنار. فصاح عليهم القاضي وقال: لا تفعلوا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٩٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجيران لما أرادوا أن يحملوا الحطب ويحرقوا الخزانة صاح عليهم القاضي وقال: لا تفعلوا ذلك. فقال الجيران لبعضهم: إن الجن يتصورون ويتكلمون بكلام الإنس. فلما سمعهم القاضي قرأ شيئاً من القرآن العظيم، ثم قال للجيران: ادنوا من الخزانة التي نحن فيها. فلما دنوا منها قال لهم: أنا فلان وأنتم فلان وفلان، ونحن هنا جماعة. فقال الجيران للقاضي: ومَن جاء بك هنا فأعلمنا الخبر؟ فأعلمهم بالخبر من أوله إلى آخره، فأحضروا لهم نجاً ففتح للقاضي خزانته، وكذلك الوالي والوزير والملك والنجار، وكلُّ منهم بالملبوس الذي عليه، فلما طلعوا نظر بعضهم لبعض وصار كلُّ منهم يضحك على الآخر، ثم إنهم خرجوا وطلبوا المرأة فلم يلقوها لها على خبر، وقد أخذت جميع ما كان عليهم، فأرسل كلُّ منهم إلى جماعته يطلب ثياباً، فأحضروا لهم ملبوساً، ثم خرجوا مستورين به عند الناس. فانظر يا مولانا الملك هذه المكيدة التي فعلتها هذه المرأة مع هؤلاء القوم.

حكاية الدعوات الثلاث

وقد بلغني أيضاً أنه كان رجل يتمنى في عمره أن يرى ليلة القدر، فنظر ليلة من الليالي إلى السماء، فرأى الملائكة وأبواب السماء قد فُتحت، ورأى كل شيء ساجداً في محله، فلما رأى ذلك قال لزوجته: يا فلانة، إن الله قد أراني ليلة القدر، ونذرتُ إن رأيْتُها أن أدعو ثلاث دعوات مستجابات، فأنا أشاورك فماذا أقول؟ فقالت المرأة: قل اللهم كبر لي أيري. فقال ذلك فصار دَكره مثل ضرف القرع، حتى صار ذلك الرجل لا يستطيع القيام به، وكانت زوجته إذا أراد أن يجامعها تهرب منه من موضع إلى موضع، فقال لها الرجل: كيف

العمل؟ فهذه أمنيته لأجل شهوتك؟ فقالت له: أنا ما أشتي أن يبقى بهذا الطول. فرفع الرجل رأسه إلى السماء وقال: اللهم أنقذني من هذا الأمر وخلصني منه، فصار الرجل ممسوحاً ليس له ذكر، فلما رأته زوجته قالت له: ليس لي بك حاجة حيث صرت بلا ذكر. فقال لها: هذا كله من شؤم رأيك وسوء تدبيرك، كان لي عند الله ثلاث دعوات أنال بها خيري الدنيا والآخرة، فذهبت دعوتان وبقيت دعوة واحدة. فقالت: ادع الله تعالى أن يردك على ما كنت عليه أولاً. فدعا ربه فعاد كما كان. فهذا أيها الملك بسبب سوء تدبير المرأة، وإنما ذكرت لك ذلك لتتحقق غفلة النساء، وسخافة عقولهن، وسوء تدبيرهن، فلا تسمع قولها وتقتل ولدك مهجة قلبك، وتمحو ذكرك من بعدك. فانتهى الملك عن قتل ولده. فلما كان اليوم السابع، حضرت الجارية صارخة بين يدي الملك وأضرمت ناراً عظيمة، فأتوا بها قدام الملك ماسكين بأطرافها، فقال لها الملك: لماذا فعلت ذلك؟ قالت له: إن لم تنصفني من ولدك ألقيت نفسي في هذه النار، فقد كرهت الحياة، وقبل حضوري كتبت وصيتي وتصدقت بمالي، وعزمت على الموت، فتنذمت كل الندم كما ندم الملك على عذاب حارسة الحمام. فقال لها الملك: وكيف كان ذلك؟

حكاية العقد المسروق

فقالت له الجارية: بلغني أيها الملك أن امرأة كانت عابدة زاهدة ناسكة، وكانت تدخل قصر ملك من الملوك يتبركون بها، وكان لها عندهم حظ عظيم، فدخلت يوماً من الأيام ذلك القصر على جري عاداتها، وجلست بجانب زوجة الملك فناولتها عقداً قيمته ألف دينار، وقالت لها: يا جارية، خذي هذا العقد عندك، واحرسيه حتى أخرج من الحمام فأخذه منك. وكان الحمام في القصر، فأخذته الجارية وجلست في موضع في منزل الملكة حتى تدخل الحمام الذي عندها في المنزل وتخرج، ثم وضعت ذلك العقد تحت السجادة وقامت تصلي، فجاء طير وأخذ ذلك العقد وجعله في شق من زوايا القصر، وقد خرجت الحارسة لحاجة تقضيها وترجع ولم تعلم بذلك، فلما خرجت زوجة الملك من الحمام طلبت العقد من تلك الحارسة فلم تجده، وجعلت تفتش عليه فلم تجد له خبراً ولم تقع له على أثر، فصارت الحارسة تقول: والله يا بنتي ما جاءني أحد، وحين أخذته وضعته تحت السجادة، ولم أعلم هل أحد من الخدم عاينه واستغفلني وأنا في الصلاة وأخذه؟ والعلم في ذلك لله تعالى. فلما سمع الملك بذلك أمر زوجته أن تعذب الحارسة بالنار والضرب الشديد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٩٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما أمر زوجته أن تعذب الحارسة بالنار والضرب الشديد، عذبتها بأنواع العذاب، فلم تقرّ بشيء، ولم تتهم أحداً، فبعد ذلك أمر بسجنها وأن يجعلوها في القيود فحبست، ثم إن الملك جلس يوماً من الأيام في وسط القصر والماء محدّق به وزوجته بجانبه، فوقعت عينه على طير وهو يسحب ذلك العقد من شق من زوايا القصر، فصاح على جارية عنده فأدركت ذلك الطير وأخذت العقد منه، فعلم الملك أن الحارسة مظلومة، فندم على ما فعل معها، وأمر بإحضارها، فلما حضرت أخذ يقبّل رأسها، ثم صار يبكي ويستغفر ويتندّم على ما فعل معها، ثم أمر لها بمالٍ جزيل، فأبّت أن تأخذه، ثم سامحته وانصرفت من عنده، وأقسمت على نفسها أنها لن تدخل منزل أحد، وساحت في الجبال والأودية، وصارت تعبد الله تعالى إلى أن ماتت.

حكاية الحمامتين

وبلغني أيضاً أيها الملك من كيد الرجال أن حمامتين ذكرًا وأنثى جمعا قمحاً وشعيراً في عشمهما أيام الشتاء، فلما كان في زمن الصيف ضمر الحب ونقص، فقال الذكر للأنثى: أنتِ أكلتِ ذلك الحب. فصارت تقول: لا والله ما أكلت منه شيئاً. فلم يصدقها على ذلك وضربها بأجنحته ونقرها بمنقاره إلى أن قتلها. فلما كان زمن البرد عاد الحب كما كان على حاله، فعلم الذكر أنه قتل زوجته ظلماً وعدواناً، وندم حيث لا ينفعه الندم، فنام في جانبها ينوح عليها ويبكي تأسفاً، وامتنع من الأكل والشرب وضعف ولم يزل ضعيفاً إلى أن مات.

حكاية الأمير بهرام وجارية الملك الدتما

وبلغني أيضًا من كيد الرجال والنساء حكاية أعجب من هؤلاء كلهم. فقال لها الملك: هات ما معك. فقالت: اعلم أيها الملك أن جارية من جوارى الملك ليس لها نظير في زمانها في الحُسْن والجمال، والقَدِّ والاعتدال، والبهاء والدلال، والأخذ بعقول الرجال، وكانت تقول: ليس لي نظير في زمانى. وكان جميع أولاد الملوك يخطبونها فلم ترضَ أن تأخذ واحدًا منهم، وكان اسمها الدتما. وكانت تقول: لا يتزوجني إلا مَنْ يقهرني في حومة الميدان والضرب والطعان، فإن غلبني أحد تزوّجته بطيب قلبي، وإن غلبته أخذت فرسه وسلاحه وثيابه، وكتبت على جبهته: هذا عتيق فلانة. وكان أبناء الملوك يأتون إليها من كل مكان بعيد وقريب، وهي تغلبهم وتعيبهم، وتأخذ أسلحتهم وتسهمهم بالنار؛ فسمع بها ابن ملك من ملوك العجم يقال له بهرام، فقصدها من مسافة بعيدة، واستصحب معه مالا وخيلاً ورجالاً، وذخائر من ذخائر الملوك حتى وصل إليها، فلما حضر عندها أرسل إلى والدها هدية سنية، فأقبل عليه الملك وأكرمه غاية الإكرام. ثم إنه أرسل إليه مع وزرائه أنه يريد أن يخطب بنته، فأرسل إليه والدها وقال له: يا ولدي، أما ابنتي الدتما فليس لي عليها حكم؛ لأنها أقسمت على نفسها أنها لا تتزوج إلا مَنْ يقهرها في حومة الميدان. فقال له ابن الملك: وأنا ما سافرت من مدينتي إلا على هذا الشرط. فقال له الملك: في غدٍ تلتقي معها. فلما جاء الغد أرسل والدها إليها واستأذنها، فلما سمعت تأهبّت للحرب ولبست آلة حربها، وخرجت إلى الميدان فخرج ابن الملك إلى لقاءها وعزم على حربها، فتسامعت الناس بذلك، فأنت من كل مكان، فحضروا في ذلك اليوم، وخرجت الدتما وقد لبست وتمنطقت وتنقبت، فبرز لها ابن الملك وهو في أحسن حالة وأتقن آلة من آلات الحرب، وأكمل عدة، فحمل كل واحد منهما على الآخر، ثم تجاوزا طويلاً واعتكرا ملياً، فنظرت منه من الشجاعة والفروسية ما لم تنظره من غيره، فخافت على نفسها أن يخلها بين الحاضرين، وعلمت أنه لا محالة غالبها، فأرادت مكيدته وعملت له الحيلة، فكشفت عن وجهها، وإذا هو ضوء من البدر؛ فلما نظر إليها ابن الملك اندهش فيه وضعفت قوته وبطلت عزيمته، فلما نظرت ذلك منه حملت عليه واقتلعتة من سرجه، وصار في يدها مثل العصفور في مخالب العقاب، وهو ذاهل في صورتها لا يدري ما يفعل به، فأخذت جواده وسلاحه وثيابه، ووسمته بالنار، وأطلقت سبيله. فلما أفاق من غشيته مكث أياماً لا يأكل ولا يشرب ولا ينام من القهر، وتمكّن حب الجارية في قلبه، فصرف عبيده إلى والده، وكتب له كتاباً أنه لا يقدر أن يرجع إلى بلده حتى يظفر بحاجته أو يموت دونها. فلما وصلت المكاتبه إلى والده حزن عليه، وأراد أن يبعث إليه بالجيوش والعساكر، فمنعه الوزراء من ذلك وصبروه.

ثم إن ابن الملك استعمل في حصول غرضه الحيلة، فجعل نفسه شيخاً هَرَمًا، وقصد بستان بنت الملك؛ لأنها كانت أكثر أيامها تدخل فيه، فاجتمع ابن الملك بالخولي وقال له: إنني رجل غريب من بلاد بعيدة، وكنت مدة شبابي خولي وإلى الآن أحسنُ الفلاحة وحفظ النبات والمشموم ولا يُحسِنُه أحدٌ غيري. فلما سمعه الخولي فرح به غاية الفرح، فأدخله البستان ووصى عليه جماعة، فأخذ في الخدمة وتربية الأشجار، والنظر في مصالح أثمارها، فبينما هو كذلك يومًا من الأيام وإذا بالعبيد قد دخلوا البستان ومعهم البغال عليها الفرش والأواني، فسأل عن ذلك فقالوا له: إن بنت الملك تريد أن تتفرج على ذلك البستان. فمضى وأخذ الحلي والحلل التي كانت معه من بلاده وجاء بها إلى البستان، وقعد فيه، ووضع قدامه شيئًا من تلك الذخائر، وصار يرتعش ويُظهر أن ذلك من الهَرَم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٩٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن ملك العجم لما جعل نفسه شيخاً كبيراً وقعد في البستان، حط بين يديه الحلي والحلل، وأظهر أنه يرتعش من الكبر والهَرَم والضَّعْف، فلما كان بعد ساعة حضر الجواري والخدم ومعهن ابنة الملك في وسطهن كأنها القمر بين النجوم، فأقبلن وجعلن يدرن في البستان، ويقطفن الأثمار ويتفرجن، فرأين رجلاً قاعداً تحت شجرة من الأشجار، فقصدنه وهو ابن الملك، ونظرنه وإذا به شيخ كبير يرتعش بيديه ورجليه، وبين يديه حلي وذخائر من ذخائر الملوك، فلما نظرته تعجب من أمره، فسألته عن هذا الحلي ما يصنع به، فقال له: هذا الحلي أريد أن أتزوج به واحدة منكن. فتضاحكن عليه وقلن له: إذا تزوجت فما تصنع بها؟ فقال: كنت أقبلها قبلة واحدة وأطلقها. فقالت له ابنة الملك: قد زوّجْتُك بهذه الجارية. فقام إليها وهو يتوكأ على عصا ويرتعش ويتعثر، فقبَّلها ودفع لها ذلك الحلي والحلل، ففرحت الجارية وتضاحكن عليه، ثم ذهبن إلى منازلهن.

فلما كان في اليوم الثاني دخلن البستان وجئن نحوه، فوجدنه جالساً في موضعه وبين يديه حلي وحلل أكثر من الأول، فقعدن عنده وقلن له: أيها الشيخ ما تصنع بهذا الحلي؟ فقال: أتزوج به واحدة منكن مثل البارحة. فقالت له ابنة الملك: قد زوّجْتُك هذه الجارية. فقام إليها وقبَّلها وأعطاهما ذلك الحلي والحلل وذهبن إلى منزلهن، فلما رأت ابنة الملك الذي أعطاه للجواري من الحلي والحلل، قالت في نفسها: أنا كنت أحق بذلك، وما عليّ بذلك من بأس. فلما أصبح الصباح خرجت من منزلها وحدها وهي في صورة جارية من الجواري، وأخفت نفسها إلى أن أتت عند الشيخ، فلما حضرت بين يديه قالت له: يا شيخ، أنا ابنة الملك هل تريد أن تتزوّج بي؟ فقال لها: حباً وكرامةً. وأخرج لها من الحلي والحلل ما هو أعلى قدراً وأغلى ثمناً، ثم دفعه إليها وقام ليقبِّلها وهي آمنة مطمئنة، فلما وصل إليها



رَأَيْنَ رَجُلًا قَاعِدًا تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَإِذَا بِهِ شَيْخٌ كَبِيرٌ يَرْتَعِشُ.

قبض عليها بشدة وضرب بها الأرض وأزال بكارتها، وقال لها: أَمَا تعرفيني؟ فقالت له: مَنْ أَنْتَ؟ فقال لها: أنا بهرام ابن ملك العجم، قد غَيَّرْتُ صورتِي وتَغَرَّبْتُ عَنْ أَهْلِي ومملكتي من أجلك. فقامت من تحته وهي ساكتة لا تردُّ عليه جوابًا، ولا تبدي له خطابًا مما أصابها، وقالت في نفسها: إِنَّ قَتْلَتِهِ فَمَا يَفِيدُ قَتْلَهُ. ثم تَفَكَّرَتْ في نفسها وقالت: ما يسعني في ذلك إلا أن أهرب معه إلى بلاده. فجمعت مالها وذخائرها وأرسلت إليه وأعلمته

بذلك لأجل أن يتجهَّز أيضًا ويجمع ماله، وتعاهدا على ليلة يسافران فيها، ثم ركبا الخيل الجياد وسارا تحت الليل، فما أصبح الصباح حتى قطعوا بلادًا بعيدة، ولم يزالا سائرين حتى وصلا إلى بلاد العجم، قرب مدينة أبيه، فلما سمع والده تلقاه بالعساكر والجنود، وفرح غاية الفرح، ثم بعد أيام قلائل أرسل إلى والد الدتما هدية سنية، وكتب له كتابًا يخبره فيه أن ابنته عنده ويطلب جهازها، فلما وصلت الهدايا إليه تلقاها وأكرم من حضر بها غاية الإكرام، وفرح بذلك فرحًا شديدًا، ثم أولم الولاثم، وأحضر القاضي والشهود، وكتب كتابها على ابن الملك، وخلع على الرسل الذين حضروا بالكتاب من عند ابن ملك العجم، وأرسل إلى ابنته جهازها، ثم أقام معها ابن ملك العجم حتى فرَّق الموت بينهما. فانظر أيها الملك كيدَ الرجال والنساء، وأنا لن أرجع عن حقي إلى أن أموت. فأمر الملك بقتل ولده، فدخل عليه الوزير السابع، فلما حضر بين يديه قَبَلَ الأرض وقال: أيها الملك، أملهني حتى أقول لك هذه النصيحة، فإن من صبر وتَأَنَّى أدرك الأمل ونال ما تمَنَّى، ومن استعجل يحصل له الندم، وقد رأيت ما تعهرته هذه الجارية من حمل الملك على ركوب الأهوال، والمملوك المغمور من فضلك وإنعامك ناصح لك، وأنا أيها الملك أعرف من كيد النساء ما لا يعرفه أحد غيري، وقد بلغني من ذلك حديث العجوز وولد التاجر. فقال له الملك: وكيف كان ذلك يا وزير؟

حكاية ابن التاجر والدار الحسن المليح

فقال له الوزير: بلغني أيها الملك أن تاجرًا كان كثير المال، وكان له ولد يعزُّ عليه، فقال الولد لوالده يومًا من الأيام: يا والدي، أتمنى عليك أمنية تفرج عني بها. فقال له أبوه: وما هي يا ولدي حتى أعطيكها؟ ولو كانت نور عيني لأبلغك به مقصودك. فقال له الولد: أتمنى عليك أن تعطيني شيئًا من المال أسافر به مع التجار إلى بلاد بغداد لأتفرج عليها، وأنظر قصور الخلفاء؛ لأن أولاد التجار وصفوا لي ذلك، وقد اشتقت أن أنظر إليها. فقال له والده: يا بني، من له صبر على غيبتك؟ فقال له الولد: أنا قلت لك هذه الكلمة، ولا بد من السير إليها برضاء أو بغير رضاء، فقد وقع في نفسي وجَد لا يزول إلا بالوصول إليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٥٩٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك قال لأبيه: لا بد من السفر والوصول إلى بغداد. فلما تحقّق منه ذلك جهّز له متجرًا بثلاثين ألف دينار، وسفّره مع التجار الذين يثق بهم، ووصّى عليه التجار. ثم إن والده ودّعه ورجع إلى منزله، وما زال الولد مسافرًا مع رفقائه التجار إلى أن وصلوا إلى مدينة بغداد دار السلام، فلما بلغوها دخل الولد سوقها واكترى له دارًا حسنة مليحة أذهلت عقله، وأدهشت ناظره، فيها الطيور تغرد، والمجالس يقابل بعضها بعضًا، وأرضها مرخمة بالرخام الملون، وسقوفها مذهّبة باللازورد المعدني، فسأل البواب عن مقدار أجرتها كم في الشهر؟ فقال له: عشرة دنانير. فقال له الولد: هل أنت تقول حقًا أو تهزأ بي؟ فقال له البواب: والله لا أقول إلا حقًا، فإن كل من سكن هذه الدار لا يسكنها إلا جمعة أو جمعتين. فقال له الولد: وما السبب في ذلك؟ فقال له: يا ولدي، كل من سكنها لا يخرج منها إلى مريضًا أو ميتًا، وقد اشتهرت هذه الدار بهذه الأشياء عند جميع الناس، فلم يقدم أحد على سكناها، وقد قلّت أجرتها لهذا القدر.

فلما سمع الولد ذلك تعجّب منه غاية العجب وقال: لا بد أن يكون لهذه الدار سبب من الأسباب حتى يحصل فيها ذلك المرض أو الموت. ثم تفكّر الولد في نفسه واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وأزال ذلك الوهم من خاطره، وسكنها وباع واشترى، ومضى عليه مدة أيام وهو مقيم في الدار ولم يُصِبْه شيء مما قاله ذلك البواب. فبينما هو جالس يومًا من الأيام على باب الدار، إذ مرت عليه عجوز شمطاء كأنها الحية الرقطاء، وهي تُكثّر من التسبيح والتقديس، وتزيل الحجارة والأذى من الطريق، فرأت الولد جالسًا على الباب، فنظرت إليه وتعجبت من أمره، فقال لها الولد: يا امرأة، هل تعرفينني أو تشبهين عليّ؟ فلما سمعت كلامه هرولت إليه وسلّمت عليه، وقالت له: كم لك ساكنًا في هذه الدار؟ فقال لها: يا أُمي مدة شهرين. فقالت: من هذا تعجّبت، وأنا يا ولدي لا أعرفك ولا تعرفني ولا

شَبَّهْتُ عليك، بل إنني تعجبت من أنه لا أحد غيرك يسكنها إلا ويخرج منها ميتاً أو مريضاً، وما أشك في أنك يا ولدي مُخَاطِرٌ بشبابك، هل لا طلعت القصر ولا نظرت من المنظرة التي فيه؟ ثم إن العجوز مضت إلى حال سبيلها، فلما فارقت العجوز صار الولد متفكراً في كلامها، وقال في نفسه: أنا ما طلعتُ أعلى القصر ولا أعلم أن به منظرة. ثم دخل من وقته وساعته وجعل يطوف في أركان البيت حتى رأى في ركن منها باباً لطيفاً معشّشاً عليه العنكبوت بين الأشجار، فلما رآه الولد قال في نفسه: لعل العنكبوت ما عَشَّشَ على هذا الباب إلا لأن المنية داخله. فتمسَّكَ بقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، ثم فتح ذلك الباب وطلع في سلم لطيف حتى وصل إلى أعلاه، فرأى منظرة، فجلس فيها يستريح ويتفرج، فنظر إلى موضع لطيف نظيف بأعلاه مقعد منيف يشرف على جميع بغداد، وفي ذلك المقعد جارية كأنها حورية، فأخذت بمجامع قلبه، وزهبت بعقله ولبه، وأورثته صبر أيوب وحزن يعقوب، فلما نظرها الولد وتأمَّلَهَا بالتحقيق قال في نفسه: لعل الناس يذكرون أنه لا يسكن هذه الدار واحد إلا مات أو مرض بسبب هذه الجارية، فيا ليت شعري كيف يكون خلاصي؟ فقد ذهب عقلي.

ثم نزل من أعلى القصر متفكراً في أمره، فجلس في الدار فلم يستقر له قرار حتى خرج وجلس على الباب متحيراً في أمره، وإذا بالعجوز ماشية وهي تذكر وتسبح في الطريق، فلما رآها الولد قام واقفاً على قدميه، وبدأها بالسلام والتحية، وقال لها: يا أمي، كنتُ بخير وعافية حتى أشرت عليّ بفتح الباب، فرأيت المنظرة وفتحتها ونظرت من أعلاها فرأيت ما أدهشني، والآن أظن أنني هالك، وأنا أعلم أنه ليس لي طبيب غيرك. فلما سمعته ضحكت وقالت له: لا بأس عليك إن شاء الله تعالى. فلما كلمته بذلك الكلام قام الولد ودخل الدار وخرج لها وفي كفه مائة دينار، وقال لها: خذيها يا أمي وعامليني معاملة السادات للعبيد، وبالعجل أدركيني، وإذا مت فأنت المطالبة بدمي يوم القيامة. فقالت له العجوز: حباً وكرامَةً، وإنما أريد منك يا ولدي أن تساعدني بمعونة لطيفة فيها تبلغ مرادك. فقال لها: وما تريد يا أمي؟ فقالت: أريد منك أن تعينني وتروح إلى سوق الحرير، وتسأل عن دكان أبي الفتح بن قيدام، فإذا دلوك عليه فاقعد على دكانه وسلِّم عليه، وقل له: أعطني القناع الذي عندك مرسوماً بالذهب. فإنه ما عنده في دكانه أحسن منه، فاشتره منه يا ولدي بأغلى ثمن، واجعله عندك حتى أحضر إليك في غدٍ إن شاء الله تعالى.

ثم إن العجوز انصرفت وبات الولد تلك الليلة يتقلب على جمر الغضا، فلما أصبح الصباح أخذ الولد في جيبه ألف دينار وذهب بها إلى سوق الحرير وسأل عن دكان أبي الفتح، فأخبره به رجل من التجار، فلما وصل إليه رأى بين يديه غلماناً وخداماً

وحشماً، ورأى عليه وقاراً وهو في سعة مال، ومن تمام نعمته تلك الجارية التي ما مثلها عند أبناء الملوك. ثم إن الولد لما نظره سلّم عليه، فردّ عليه السلام، ثم أمره بالجلوس فجلس عنده، فقال له الولد: يا أيها التاجر، أريد منك القناع الفلاني لأنظره. فأمر التاجر العبد أن يأتيه بربطة من الحرير من صدر الدكان، فأتاه بها ففتحها، وأخرج منها عدة قناعات، فتحير الولد من حُسْنها وأرى ذلك القناع بعينه، فاشتراه من التاجر بخمسين ديناراً، وانصرف به مسروراً إلى داره. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٠٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الولد لما اشترى القناع من التاجر أخذه وانصرف به إلى داره، وإذا هو بالعجوز قد أقبلت، فلما رآها قام لها على قدميه وأعطاهها ذلك القناع، ثم قالت له: أحضر لي جمرة نار. فأحضر الولد النار، فقربت طرف القناع من الجمرة فأحرقت طرفه، ثم طوته كما كان وأخذته وانصرفت به إلى بيت أبي الفتح، فلما وصلت طرقت الباب، فلما سمعت الجارية صوتها قامت وفتحت لها الباب، وكان للعجوز صحبة بأَم الجارية وهي تعرفها؛ وذلك بسبب أنها رفيقة أمها، فقالت لها الجارية: وما حاجتك يا أُمي؟ إن والدتي خرجت من عندي إلى منزلها. فقالت لها العجوز: يا بنتي أنا عارفة أن أمك ليست عندك، وأنا كنت عندها في الدار، وما جئت إليك إلا خوف فوات وقت الصلاة، فأريد الوضوء عندك، فأني أعلم منك أنك نظيفة ومنزلك طاهر. فأذنت لها الجارية بالدخول عندها، فلما دخلت سلمت عليها ودعت لها، ثم أخذت الإبريق ودخلت بيت الخلاء، ثم توضأت وصلت في موضع، وقامت بعد ذلك للجارية وقالت لها: يا بنتي، أظن أن هذا الموضع الذي صليت فيه مشى فيه الخدم وأنه نجس، فانظري لي موضعاً آخر لأصلي فيه، فأني أبطلت الصلاة التي صليتُها. فأخذتها الجارية من يدها وقالت لها: يا أُمي تعالي صلي على فرشي الذي يجلس عليه زوجي. فلما أوقفته على الفراش قامت تصلي وتدعو وتركع، ثم غافلت الجارية وجعلت ذلك القناع تحت المخذة من غير أن تنظرها، ولما فرغت من الصلاة دعت لها وقامت فخرجت من عندها.

فلما كان آخر النهار، دخل التاجر زوجها فجلس على الفراش، فأنته بطعام فأكل منه كفايته وغسل يديه، ثم اتكأ على الوسادة وإذا بطرف القناع خارج من تحت المخذة، فأخرجه من تحتها، فلما نظره عرفه، فظنَّ بالجارية الفحشاء، فناداها وقال لها: من أين لك هذا القناع؟ فحلفت له أيماناً وقالت له: إنه لم يأتني أحدٌ غيرك. فسكت التاجر خوفاً

من الفضيحة، وقال في نفسه: متى فتحت هذا الباب افتضحت في بغداد؛ لأن ذلك التاجر كان جليس الخليفة. فلم يسعه إلا السكوت، ولم يخاطب زوجته بكلمة واحدة، وكان اسم الجارية محظية، فنادها وقال لها: قد بلغني أن أمك راقدة ضعيفة من وجع قلبها، وجميع النساء عندها يتباكين عليها، وقد أمرتك أن تخرجي إليها. فمضت الجارية إلى أمها، فلما دخلت الدار وجدت أمها طيبة، فجلست ساعة وإذا بالحمالين قد أقبلوا عليها بنقل حوائجها من دار التاجر، فنقلوا جميع ما في الدار من الأمتعة، فلما رأت ذلك أمها قالت: يا بنتي، أي شيء جرى لك؟ فأنكرت منها ذلك، ثم بكّت أمها وحزنت على فراق بنتها من ذلك الرجل.

ثم إن العجوز بعد مدة من الأيام جاءت إلى الجارية وهي في المنزل، فسلمت عليها باشتياق وقالت لها: ما لك يا بنتي يا حبيبتي قد شوشت فكري؟ ودخلت على أم الجارية فقالت لها: يا أختي، ما الخبر؟ وما حكاية البنت مع زوجها؟ فإنه قد بلغني أنه طلقها، فأني شيء لها من الذنب يوجب هذا كله؟ فقالت لها أم الجارية: لعل زوجها يرجع إليها ببركتك، فادعي لها يا أختي، فإنك صوّامة قوّامة طول ليلك. ثم إن البنت لما اجتمعت هي وأمها والعجوز في البيت وتحديثن مع بعضهن، قالت لها العجوز: يا ابنتي، لا تحملي همًّا، إن شاء الله تعالى أجمع بينك وبين زوجك في هذه الأيام. ثم خرجت إلى الولد وقالت له: هيئ لنا مجلسًا مليحًا، فإني آتيك بها في هذه الليلة. فنهض الولد وأحضر ما يحتجن إليه من الأكل والشرب، وقعد في انتظارهما، فجاءت العجوز إلى أم الجارية وقالت لها: يا أختي، عندنا فرح فأرسلني البنت معي لتتفرج ويزول ما بها من الهم والغم، ثم أرجع بها إليك مثل ما أخذتها من عندك. فقامت أم الجارية وألبستها أفخر ملبوسها وزينتها بأحسن الزينة من الحلي والحلل، وخرجت مع العجوز وذهبت أمها معها إلى الباب، وصارت توصي العجوز وتقول لها: احذري أن ينظرها أحد من خلق الله تعالى، فإنك تعلمين منزلة زوجها عند الخليفة، ولا تتعوقي وارجعي بها في أسرع وقت. فأخذتها العجوز إلى أن وصلت بها إلى منزل الولد، والجارية تظن أنه منزل العرس، فلما دخلت الدار ووصلت إلى قاعة الجلوس ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٠١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما دخلت الدار ووصلت إلى قاعة الجلوس، وثب الولد إليها وعانقها وقبّل يديها ورجليها، فاندھشت الجارية من حُسن الولد، وتخلّلت أن ذلك المكان، وجميع ما فيه من مشموم ومأكول ومشروب منام، فلما نظرت العجوز اندھاشها قالت لها: اسم الله عليك يا بنتي، فلا تخافي، وأنا قاعدة ولا أفارقك ساعة واحدة، وأنت تصلحين له وهو يصلح لك. فقعدت الجارية وهي في شدة الخجل، فلم يزل الولد يلعبها ويضاحكها ويؤانسها بالأشعار والحكايات حتى انشرح صدرها وانبسّطت، فأكلت وشربت، ولما طاب لها الشراب أخذت العود وغنّت، ولحُسن الولد مالت وحنّت، فلما رأى الولد منها ذلك سكر من غير مدام، وهانت عليه روحه، وخرجت العجوز من عندهما، ثم أنتهما في الصباح وصبحت عليهما، ثم قالت للجارية: كيف كانت ليلتك يا سيدتي؟ فقالت لها: كانت طيبة بطول أياديك وحُسن تعرّضك. ثم قالت لها: قومي نروح إلى أمك. فلما سمع الولد كلام العجوز أخرج لها مائة دينار وقال لها: خليها عندي هذه الليلة. فخرجت العجوز من عندهما، ثم ذهبت إلى والدّة الجارية وقالت لها: بنتك تسلّم عليك، وأم العروسة قد حلفت عليها أنها تبّيت عندها هذه الليلة. فقالت لها أمها: يا أختي، سلّمي عليهما، وإذا كانت الجارية منشرحة لذلك فلا بأس ببياتهما حتى تنبسط وتجيء على مهلها، فإنني ما أخاف عليها إلا من القهر من جهة زوجها.

وما زالت العجوز تعمل لأم الجارية حيلة بعد حيلة إلى أن مكثت سبعة أيام، وكل يوم تأخذ من الولد مائة دينار، فلما مضت هذه الأيام قالت أم الجارية للعجوز: هات لي بنتي في هذه الساعة، فإن قلبي مشغول عليها، وقد طالّت مدة غيبتها وتوهمت من ذلك. فخرجت العجوز من عندها غضبانة من كلامها، ثم جاءت إلى الجارية ووضعت يدها في يدها، ثم خرجتا من عند الولد وهو نائم على فراشه من سكر المدام إلى أن وصلتا إلى أم

الجارية، فالتفتت أمها إليها ببسط وانشراح، وفرحت بها غاية الفرح، وقالت لها: يا بنتي، إن قلبي مشغول بك، ووقعت في حق أختي بكلام أوجعتها به. فقالت لها: قومي وقبلي يديها ورجليها، فإنها كانت لي كالخادم في قضاء حاجتي، وإن لم تفعلي ما أمرتك به فما أنا بنتك ولا أنت أُمي. فقامت من وقتها وصالحتها. ثم إن الولد قام من سكره فلم يجد الجارية؛ لكنه استبشر بما ناله لما بلغ مقصوده.

ثم إن العجوز ذهبت إلى الولد وسلمت عليه، وقالت له: ماذا رأيتَ من فعالي؟ فقال لها: نِعَم ما فعلته من الرأي والتدبير. ثم قالت له: تعالَ لنصلح ما أفسدنا، ونرد هذه الجارية إلى زوجها، فإننا كنا سبب الفراق بينهما. فقال لها: وكيف أفعل؟ قالت: تذهب إلى دكان التاجر وتقعده عنده وتسلم عليه، وأنا أفوت على الدكان، فلما تنظرني قم إليّ من الدكان بسرعة واقبض عليّ واجذبني من ثيابي واشتمني، وخوِّفني وطالبني بالقناع، وقل للتاجر: أنت يا مولاي ما تعرف القناع الذي اشتريته منك بخمسين ديناراً؟ فقد حصل يا سيدي أن جاريته لبسته فاحترق منها موضع من طرفه، فأعطته جاريته لهذه العجوز تعطيه لأحد يرفوه لها، فأخذته ومضت ولم أرها من ذلك اليوم. فقال لها الولد: حباً وكرامة. ثم إن الولد تمشى من وقته وساعته إلى دكان التاجر وجلس عنده ساعة، وإذا بالعجوز جائزة على الدكان، ويدها سبحة تسبح بها، فلما رآها قام على رجليه من الدكان وجذبها من ثيابها وصار يشتمها ويسبها، وهي تكلمه بلطافة وتقول له: يا ولدي، أنت معذور. فاجتمع أهل السوق عليها وقالوا: ما الخبر؟ فقال: يا قوم، إنني اشتريت من هذا التاجر قناعاً بخمسين ديناراً، ولبسته الجارية ساعة واحدة، فقعدت تبخره فطارت شرارة فأحرقت طرفه، فدفعناه إلى هذه العجوز على أنها تعطيه لمن يرفوه وترده لنا، فمن ذلك الوقت ما رأيناها أبداً. فقالت العجوز: صدق هذا الولد، نعم إنني أخذته ودخلت به بيتاً من البيوت التي أدخلها على عادتي، فنسيته في موضع من تلك الأماكن، ولم أدر في أي موضع هو، وأنا امرأة فقيرة وخفت من صاحبه، فلم أواجهه. كل هذا والتاجر زوج المرأة يسمع كلامها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٠٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الولد لما قبض على العجوز وكلمها من قبل القناع كما علّمته، كان التاجر زوج المرأة يسمع الكلام من أوله إلى آخره، فلما اطلع التاجر على الخبر الذي دبّرتّه هذه العجوز الماكرة مع الولد، قام التاجر على قدميه، ثم قال: الله أكبر، إني أستغفر الله العظيم من ذنوبي، وما توهمه خاطري. وحمد الله الذي كشف له عن الحقيقة، ثم أقبل التاجر وقال لها: هل تدخلين عندنا؟ فقالت له: يا ولدي، أنا أدخل عندك وعند غيرك لأجل الحسنة، ومن ذلك اليوم لم يعطني أحد خبر ذلك القناع. فقال لها التاجر: هل سألت أحداً عنه في بيتنا؟ فقالت له: يا سيدي، إنني رحت البيت وسألت فقالوا لي إن أهل البيت قد طلقها التاجر، فرجعت ولم أسأل أحداً بعد ذلك إلى هذا اليوم. فالتفت التاجر إلى الولد وقال له: أطلق سبيل هذه العجوز، فإن القناع عندي. وأخرجه من الدكان، وأعطاه للرفاه قدام الحاضرين، ثم بعد ذلك ذهب إلى زوجته، وأعطاه شيئاً من المال، وراجعها إلى نفسه بعد أن بالغ في الاعتذار إليها، واستغفر الله وهو لا يدري بما فعلت العجوز. فهذا من جملة كيد النساء أيها الملك.

حكاية ابن الملك والجارية والعفريت

ثم قال الوزير: وقد بلغني أيضاً أيها الملك أن بعض أولاد الملوك خرج منفرداً بنفسه ليتفرج، فمرّ بروضة خضراء ذات أشجار وأثمار وأطيّار وأنهار تجري خلال تلك الروضة، فاستحسن الولد ذلك الموضع وجلس فيه، وأخرج شيئاً من النقل الذي كان معه، وجعل يأكل فيه، فبينما هو كذلك إذ رأى دخاناً عظيماً طالعاً إلى السماء من ذلك المكان، فخاف ابن الملك وقام فصعد على شجرة من الأشجار واختفى فيها، فلما طلع فوقها رأى عفريتاً

طلع من وسط ذلك النهر، وعلى رأسه صندوق من الرخام، وعليه قفل، فوضعه في تلك الروضة، وفتح ذلك الصندوق فخرجت منه جارية كأنها الشمس الضاحية في السماء الصاحية، وهي من الإنس، فأجلسها بين يديه يتفرج عليها، ثم حط رأسه على حجرها فنام، فأخذت رأسه وحطتها على الصندوق وقامت تتمشى، فلاح منها نظرة إلى تلك الشجرة، فرأت ابن الملك، فأومت إليه بالنزول، فامتنع من النزول، فأقسمت عليه وقالت له: إن لم تنزل وتفعل بي الذي أقوله لك نبّهتُ العفريت من النوم وأعلمته، فيهلكك من ساعتك. فخاف الولد منها فنزل، فلما نزل قبّلَتْ يديه ورجليه، وراودته على قضاء حاجتها، فأجابها إلى سؤالها، فلما فرغ من قضاء حاجتها، قالت له: أعطني هذا الخاتم الذي بيدك. فأعطاه الخاتم فصرتُ في منديل حرير كان معها، وفيه عدة من الخواتم تفوق عن ثمانين، وجعلت ذلك الخاتم من جملتها، فقال لها ابن الملك: وما تصنعين بهذه الخواتم التي معك؟ فقالت له: إن هذا العفريت اختطفني من قصر أبي، وجعلني في هذا الصندوق، وقفل عليّ بقفل معه، ووضعني فيه على رأسه حيثما توجه، ولا يكاد يصبر عني ساعة واحدة من شدة غيظه عليّ، ويمنعني مما أشتهيه، فلما رأيتُ ذلك منه حلفت أني لا أمنع أحداً من وصالي، وهذه الخواتم التي معي على قدر عدد الرجال الذين واصلوني؛ لأن كلَّ مَنْ واصلني أخذ خاتمَه فأجعله في هذا المنديل. ثم قالت له: توجهْ إلى حال سبيلك لأنتظر أحداً غيرك، فإنه لا يقيم في هذه الساعة. فما صدق الولد ابن الملك بذلك إلا وانصرف إلى حال سبيله حتى وصل إلى منزل أبيه، والملك لم يعلم بكيد الجارية لابنه، ولم تخف من ذلك، ولم تحسب له حساباً.

فلما سمع الملك أن خاتم ولده ضاع، أمر أن يقتل ذلك الولد، ثم قام من موضعه فدخل قصره، وإذا بالوزراء رجعوه عن قتل ولده، فلما كان ذات ليلة أرسل الملك إلى الوزراء يدعوه فحضرُوا جميعاً، فقام إليهم الملك وتلقاهم وشكرهم على ما كان منهم من مراجعته عن قتل ولده، وكذلك شكرهم الولد، وقال لهم: نعم ما دبّرتم إلى والدي في بقاء نفسي، وسوف أجازيكم بخير إن شاء الله تعالى. ثم إن الولد بعد ذلك أخبرهم بسبب ضياع خاتمته، فدعوا له بطول البقاء وعلو الارتقاء، ثم انصرفوا من المجلس. فانظر أيها الملك كيد النساء وما تفعله في الرجال. فرجع الملك عن قتل ولده.

فلما أصبح الصباح، جلس والده في اليوم الثامن فدخل عليه ولده ويده في يد مؤدبه السندباد، وقبل الأرض بين يديه، ثم تكلم بأفصح لسان، ومدح والده ووزراء وأرباب دولته، وشكرهم وأثنى عليهم، وكان حاضراً بالمجلس العلماء والأمراء والجند وأشرف الناس، فتعجب الحاضرون من فصاحة ابن الملك وبلاغته وبراعته في نطقه. فلما سمع

والده ذلك فرح به فرحاً شديداً زائداً، ثم ناداه وقبَّله بين عينيه، ونادى مؤدبه السندباد وسأله عن سبب صمت ولده مدة السبعة أيام، فقال له المؤدب: يا مولانا، الإصلاح في أنه لا يتكلم، فأني خشيت عليه من القتل في تلك المدة، وكنت يا سيدي أعرف هذا الأمر يوم ولادته، فأني لما رأيت طالعه دلَّني على جميع ذلك، وقد زال عنه السوء بسعادة الملك. ففرح الملك بذلك، وقال لوزرائه: لو كنت قتلته ولدي هل يكون الذنب عليَّ أو على الجارية أو على المؤدب السندباد؟ فسكت الحاضرون عن رد الجواب، فقال مؤدب الولد السندباد لولد الملك: ردَّ الجواب يا ولدي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٠٣

حكاية اللبن المسموم

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السندباد لما قال لابن الملك: ردّ الجواب يا ولدي. قال ابن الملك: إني سمعت أن رجلاً من التجار حلّ به ضيف في منزله، فأرسل جاريته لتشتري له من السوق لبناً في جرة، فأخذت اللبن في جرتها، وطلبت الرجوع إلى منزل سيدها، فبينما هي في الطريق إذ مرت عليها حداة طائفة وفي مخلبها حية تعصرها به، فقطرت نقطة من الحية في الجرة، وليس عند الجارية خبر بذلك، فلما وصلت إلى المنزل أخذ السيد منها اللبن وشرب منه هو وضيوفه، فما استقر اللبن في جوفهم حتى ماتوا جميعاً؛ فانظر أيها الملك لمن كان الذنب في هذه القضية؟ فقال أحد الحاضرين: الذنب للجماعة الذين شربوا. وقال آخر: الذنب للجارية التي تركت الجرة مكشوفة من غير غطاء. فقال السندباد مؤدب الغلام: ما تقول أنت في ذلك يا ولدي؟ فقال ابن الملك: أقول إن القوم أخطئوا، ليس الذنب للجارية ولا للجماعة، وإنما آجال القوم فرغت مع أرزاقهم، وقدرت ميتتهم بسبب ذلك الأمر. فلما سمع الحاضرون تعجّبوا منه غاية العجب، ورفعوا أصواتهم بالدعاء لابن الملك، وقالوا له: يا مولانا، قد تكلمت بجواب ليس له نظير، وأنت عالم أهل زمانك الآن. فلما سمعهم ابن الملك قال لهم: إني لست بعالم، وإن الشيخ الأعمى وابن الثلاث سنين، وابن الخمس سنين أعلم مني. فقال له الجماعة الحاضرون: حدّثنا بحديث هؤلاء الثلاثة الذين هم أعلم منك يا غلام.

حكاية الأعمى وابن ثلاث وخمس سنين

فقال لهم ابن الملك: بلغني أنه كان تاجر من التجار كثير الأموال والأسفار إلى جميع البلدان، فأراد المسير على بعض البلدان، فسأل من جاء منها وقال لهم: أي بضاعة فيها

كثيرة المكسب؟ فقالوا له: حطب الصندل، فإنه فيها يباع غالباً. فاشتري التاجر بجميع ما عنده من المال حطب صندل، وسافر إلى تلك المدينة، فلما وصل إليها كان قدومه إليها آخر النهار، وإذا بعجوز تسوق غنماً لها، فلما رأت التاجر قالت له: مَنْ أنت أيها الرجل؟ فقال لها: أنا رجل تاجر غريب. فقالت له: احذر من أهل البلد، فإنهم قوم مكّارون لصوص، وإنهم يخدعون الغريب ليظفروا به ويأكلوا ما كان معه، وقد نصحتك. ثم فارقت، فلما أصبح الصباح تلقاه رجل من أهل المدينة، فسَلَّم عليه وقال له: يا سيدي، من أين قدمت؟ فقال له: قدمت من البلد الفلانية. قال له: ما حملت معك من التجارة؟ قال له: خشب صندل، فأني سمعت أن له قيمة عندكم. فقال له الرجل: لقد أخطأ مَنْ أشار عليك بذلك؛ فإننا لم نوقد تحت القدر إلا بذلك الحطب الصندل، فقيمته عندنا هو والحطب سواء.

فلما سمع التاجر كلام الرجل تأسَّف وندم وصار بين مصدِّق ومكذِّب، ثم نزل ذلك التاجر في بعض حانات المدينة يقيد بالصندل تحت القدر، فلما رآه ذلك الرجل قال له: أتبيع هذا الصندل؟ كل صاع بما تريده نفسك. فقال له: بعتك. فَحَوَّلَ الرجل ما عنده من الصندل في منزله، وقصد البائع أن يأخذ ذهباً بقدر ما يأخذ المشتري، فلما أصبح الصباح تمشى التاجر في المدينة، فلقى رجل أزرق العينين من أهل تلك المدينة وهو أعور، فتعلَّقَ بالتاجر وقال له: أنت الذي أتلَفْتَ عيني فلا أطلقك أبداً. فأنكر التاجر ذلك وقال له: إن هذا الأمر لا يتم. فاجتمع الناس عليهما، وسألا الأعور المهلة إلى غِدِّ ويعطيه ثمن عينه، فأقام الرجل التاجر له ضامناً حتى أطلقوه، ثم مضى التاجر وقد انقطع نعله من مجاذبة الرجل الأعور، فوقف على دكان الإسكافي ودفعه له، وقال له: أصلحه ولك عندي ما يرضيك. ثم انصرف عنه، وإذا بقوم قاعدين يلعبون فجلس عندهم من الهم والغم، فسألوه اللعب فلعب معهم، فأوقعوا عليه الغلب وغلّبوه، وخيروه إما أن يشرب البحر، وإما أن يخرج من ماله جميعاً، فقام التاجر وقال: أمهلوني إلى غِدِّ. ثم مضى التاجر وهو مغموم على ما فعل، ولا يدري كيف يكون حاله، فقعد في موضع متفكراً مغموماً مهموماً، وإذا بالعجوز جائزة عليه، فنظرت نحو التاجر فقالت له: لعل أهل المدينة ظفروا بك، فأني أراك مهموماً من الذي أصابك. فحكى لها جميع ما جرى من أوله إلى آخره، قالت له: مَنْ الذي عمل عليك في الصندل؟ فإن الصندل عندنا قيمته كل رطل بعشرة دنانير، ولكن أنا أدبّر لك رأياً أرجو به أن يكون لك فيه خلاص نفسك، وهو أن تسير نحو الباب الفلاني، فإن في ذلك الموضع شيخاً أعمى مقعداً، وهو عالم عارف كبير خبير، وكل الناس تحضر عنده يسألونه عمّا يريدونه، فيشير إليهم بما يكون لهم فيه الصلاح؛ لأنه عارف

بالمكر والسحر والنصب، وهو شاطر، فتجتمع الشطار عنده بالليل، فاذهب عنده واخفِ
نفسك من غرمائك بحيث تسمع كلامهم ولا يرونك؛ فإنه يخبرهم بالغالبية والمغلوبة؛
لعلك تسمع منه حجة تخلّصك من غرمائك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام
المباح.

فلما كانت الليلة ٦٠٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز قالت للتاجر: اذهب الليلة إلى العالم الذي يجتمع عليه أهل البلد واخف نفسك، لعلك تسمع منه حجة تخلصك من غمائك. فانصرف التاجر من عندها إلى الموضع الذي أخبرته به وأخفى نفسه، ثم نظر إلى الشيخ وجلس قريباً منه، فما كان إلا ساعة وقد حضر جماعته الذين يتحاكمون عنده، فلما صاروا بين يدي الشيخ سلّموا عليه وسلّم بعضهم على بعض وقعدوا حوله، فلما رآهم التاجر وجد غرماءه الأربعة من جملة الذين حضروا، فقدم لهم الشيخ شيئاً من الأكل فأكلوا، ثم أقبل كل واحد منهم يخبره بما جرى له في يومه، فتقدّم صاحب الصندل وأخبر الشيخ بما جرى له في يومه، من أنه اشترى صندلاً من رجل بغير قيمته، واستقر البيع بينهما على ملء صاع مما يحب، فقال له الشيخ: قد غلبك خصمك. فقال له: كيف يغلبني؟ قال الشيخ: فإذا قال لك أنا آخذ ملئه ذهباً أو فضة، فهل أنت تعطيه؟ قال: نعم أعطيه وأنا أكون الرابع. فقال له الشيخ: فإذا قال لك: أنا آخذ ملء صاع براغيث، النصف ذكور والنصف إناث، فماذا تصنع؟ فعلم أنه مغلوب.

ثم تقدّم الأعور وقال: يا شيخ، إنني رأيت اليوم رجلاً أزرق العينين وهو غريب البلاد، فتقاويت عليه وتعلقت به وقلت له: أنت قد أتلّفت عيني. وما تركته حتى ضمنه لي جماعة أنه يعود إليّ ويرضيّني في عيني. فقال له الشيخ: لو أراد غلبك لغلبك. قال: وكيف يغلبني؟ قال: يقول لك اقلع عينك وأنا أقلع عيني، ونزن كل منهما، فإن تساوت عيني بعينك فأنت صادق فيما ادّعيته، ثم تغرم دية عينه وتكون أنت أعمى، ويكون هو بصيراً بعينه الثانية. فعلم أنه يغلبه بهذه الحجة.

ثم تقدّم الإسكافي وقال له: يا شيخ، إنني رأيت رجلاً أعطاني نعله، وقال لي: أصْلِحْه. فقلت له: ألن تعطيني الأجرة؟ فقال لي: أصْلِحْه ولك عندي ما يرضيك. وأنا لا يرضيني

إلا جميع ماله. فقال له الشيخ: إذا أراد أخذ نعله منك ولا يعطيك شيئاً أخذه. فقال له: وكيف ذلك؟ قال: يقول لك إن السلطان هُزمت أعداؤه، وضعفت أصداده، وكثرت أولاده وأنصاره، أرضيت أم لا؟ فإن قلت: رضيتُ. أخذ نعله منك وانصرف، وإن قلت: لا. أخذ نعله وضرب به وجهك وقفاك. فعلم أنه مغلوب.

ثم تقدّم الرجل الذي لعب معه بالمراهنة وقال له: يا شيخ، إنني لقيت رجلاً فراهنته وغلبته، فقلت له: إن شربت هذا البحر فأنا أخرج عن جميع مالي لك، وإن لم تشربه فأخرج عن جميع مالك لي. فقال له الشيخ: لو أراد غلبك لغلبك. فقال له: وكيف ذلك؟ قال: يقول لك أمسك لي فم البحر بيدك، وناوله لي وأنا أشربه. فلا تستطيع ويغلبك بهذه الحجة.

فلما سمع التاجر ذلك عرف ما يحتجُّ به على غرمائه، ثم قاموا من عند الشيخ وانصرف التاجر إلى محله، فلما أصبح الصباح أتاه الذي راهنه على شرب البحر، فقال له التاجر: ناولني فم البحر وأنا أشربه. فلم يقدر فغلبه التاجر، وفدى الراهن نفسه بمائة دينار وانصرف. ثم جاءه الإسكافي وطلب منه ما يرضيه، فقال له التاجر: إن السلطان غلب أعداءه، وأهلك أصداده، وكثرت أولاده، أرضيت أم لا؟ قال له: نعم رضيتُ. فأخذ مركوبه بلا أجره وانصرف. ثم جاءه الأعور وطلب منه دية عينه. فقال له التاجر: اقلع عينك وأنا أقلع عيني ونزنيهما، فإن استوتا فأنت صادق فخذ دية عينك. فقال له الأعور: أمهلني. ثم صالح التاجر على مائة دينار وانصرف. ثم جاءه الذي اشترى الصندل فقال له: خذ ثمن صندلك. فقال له: أي شيء تعطيني؟ فقال له: قد اتفقنا على أن صاعاً صندلاً بصاعٍ من غيره، فإن أردتَ خذ ملؤه ذهباً أو فضة. فقال له التاجر: أنا لا آخذ إلا ملؤه براغيث، النصف ذكور والنصف إناث. فقال له: أنا لا أقدر على شيء من ذلك. فغلبه التاجر وفدى المشتري نفسه منه بمائة دينار بعد أن رجّع له صندله، وباع التاجر الصندل كيف أراد، وقبض ثمنه وسافر من تلك المدينة إلى بلده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٠٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل التاجر لما باع صندله وقبض ثمنه سافر من تلك المدينة إلى مدينته، ثم قال ابن الملك: وأما ابن الثلاث سنين، فإنه كان رجلاً فاسقاً مغرماً بالنساء، قد سمع بامرأة ذات حُسن وجمال، وهي ساكنة في مدينة غير مدينته، فسافر إلى المدينة التي هي فيها، وأخذ معه هدية، وكتب لها رقعة يصف لها شدة ما يقاسيه من الشوق والغرام، وقد حمله حبه إياها على المهاجرة إليها والقدوم عليها، فأذنت له في الذهاب إليها، فلما وصل إلى منزلها ودخل عليها قامت له على قدميها وقد تلقتَه بالإكرام والاحترام، وقبلت يديه وضيافته ضيافة لا مزيد عليها من المأكول والمشروب. وقد كان لها ولد صغير له من العمر ثلاث سنين، فتركته واشتغلت بطهي الطباخ، فقال لها الرجل: قومي بنا ننام. فقالت له: إن ولدي قاعد ينظرنا. فقال لها: هذا ولد صغير لا يفهم ولا يعرف أن يتكلم. فقالت له: لو علمت معرفته ما تكلمت. فلما علم الولد أن الأرز استوى بكى بكاءً شديداً، فقالت له أمه: ما يبكيك يا ولدي؟ فقال لها: اغرفي لي من الأرز، واجعلي لي فيه سمناً. فغرفت له وجعلت عليه السمن، فأكل الولد. ثم بكى ثانياً، فقالت له أمه: ما يبكيك يا ولدي؟ فقال لها: يا أماه اجعلي لي عليه سكرًا. فقال له الرجل وقد اغتاض منه: ما أنت إلا ولد مشئوم. فقال له الولد: والله ما مشئوم إلا أنت؛ حيث تعبت وسافرت من بلد إلى بلد في طلب الزنا، وأما أنا فبكائي من أجل شيء كان في عيني فأخرجته بالدموع، وأكلتُ بعد ذلك أرزاً وسمناً وسكرًا، وقد اكتفيت؛ فمن المشئوم منّا؟ فلما سمعه الرجل خجل من كلام ذلك الولد الصغير، ثم أدركته الموعظة فتأدّب من وقته وساعته ولم يتعرّض لها بشيء وانصرف إلى بلده، ولم يزل تائباً إلى أن مات.

ثم قال ابن الملك: وأما ابن الخمس سنين، فإنه بلغني أيها الملك أن أربعة من التجار اشتركوا في ألف دينار، وقد خلطوها بينهم وجعلوها في كيس واحد، فذهبوا بها ليشترتوا

بضاعة، فلقوا في طريقهم بستاناً حسناً فدخلوه وتركوا الكيس عند حارسة ذلك البستان، فلما دخلوا تفرجوا في ناحية البستان، فأكلوا وشربوا وانشرحوا، فقال واحد منهم: أنا معي طيب، تعالوا نغسل رءوسنا من هذا الماء الجاري ونتطيّب. قال آخر: نحتاج إلى مشط. قال آخر: نسأل الحارسة لعل أن يكون عندها مشط. فقام واحد منهم إلى الحارسة وقال لها: ادفعي لي الكيس. فقالت له: حتى تحضروا كلكم أو يأمرني رفقاًؤك أن أعطيك إياه. وكان رفقاًؤه في مكان بحيث تراه الحارسة وتسمع كلامهم، فقال الرجل لرفقائه: ما هي راضية أن تعطيني شيئاً. فقالوا لها: أعطيه. فلما سمعت كلامهم أعطته الكيس، فأخذه الرجل وخرج هارباً منهم، فلما أبطأ عليهم جاءوا إلى الحارسة، وقالوا لها: ما لك لم تُعطه المشط؟ قالت لهم: ما طلب مني إلا الكيس، ولم أعطه إياه إلا بإذنكم، وخرج من هنا إلى حال سبيله. فلما سمعوا كلام الحارسة لطموا على وجوههم، وقبضوا عليها بأيديهم وقالوا لها: نحن ما أذنّاك إلا بإعطاء المشط. فقالت لهم: ما ذكر لي مشطاً. فقبضوا عليها، ورفعوها إلى القاضي، فلما حضروا بين يديه قُصُّوا عليه القصة، فألزم الحارسة بالكيس، وألزم بها جماعة من غرمائها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٠٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن القاضي لما ألزم الحارسة بالكيس وألزم بها جماعة من غرمائها، خرجت وهي حيرانة لم تعرف طريقاً، فلقيها غلامٌ له من العمر خمسُ سنين، فلما رآها الغلام وهي حيرانة قال لها: ما لك يا أماه؟ فلم تردَّ عليه جواباً، واستحققرته لصغر سنه، فكررَ عليها الكلام أولاً وثانياً وثالثاً، فقالت له: إن جماعةً دخلوا عليّ البستان ووضعوا عندي كيساً فيه ألف دينار، وشرطوا عليّ ألا أعطي أحداً الكيس إلا بحضرتهم كلهم، ثم دخلوا البستان يتفرجون ويتنزهون فيه، فخرج واحد منهم وقال لي: أعطني الكيس. فقلت له: حتى يحضر رفقاؤك. فقال لي: قد أخذتُ الإذن منهم. فلم أرضَ أن أعطيه الكيس، فصاح على رفقاؤه وقال لهم: ما هي راضية أن تعطيني شيئاً؟ فقالوا لي: أعطيه. وكانوا بالقرب مني، فأعطيته الكيس، فأخذه وخرج إلى حال سبيله، فاستبطأه رفقاؤه فخرجوا إليّ وقالوا: لأي شيء لم تعطه المشط؟ فقلت لهم: ما ذكر لي مشطاً، وما ذكر لي إلا الكيس. فقبضوا عليّ ورفعوني إلى القاضي، وألزموني بالكيس. فقال لها الغلام: أعطيني درهماً آخذ به حلاوة، وأنا أقول لك شيئاً يكون لك فيه الخلاص. فأعطته الحارسة درهماً وقالت له: ما عندك من القول؟ فقال لها الغلام: ارجعي إلى القاضي وقولي له: كان بيني وبينهم أنني لا أعطيهم الكيس إلا بحضرتهم الأربعة. قال: فرجعت الحارسة إلى القاضي وقالت له ما قاله لها الغلام، فقال لهم القاضي: أكان بينكم وبينها هكذا؟ قالوا: نعم. فقال لهم القاضي: أحضروا لي رفيقكم وخذوا الكيس. فخرجت الحارسة سالمة ولم يحصل لها ضرر، وانصرفت إلى حال سبيلها.

فلما سمع الملك كلام ولده والوزراء، ومن حضر ذلك المجلس، قالوا للملك: يا مولانا الملك، إن ابنك هذا أبرع أهل زمانه. فدعوا له وللملك، فضمَّ الملك ولده إلى صدره وقبَّله بين عينيه، وسأله عن قضيته مع الجارية، فحلف ابن الملك بالله العظيم وببنيه الكريم

أنها هي التي راودته عن نفسه، فصَدَّقه الملك في قوله، وقال له: قد حَكَمْتُكَ فيها إنْ شِئْتَ فاقْتُلْها أو فافعل بها ما تشاء. فقال الولد لأبيه: انْفِها من المدينة. وقعد ابن الملك مع والده في أرغد عيش وأهناء، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات. وهذا آخر ما انتهى إلينا من قصة الملك وولده والجارية والوزراء السبعة.

حكاية جودر الصياد وأخويه

وبلغني أيضًا أن رجلًا تاجرًا اسمه عمر، قد خلف من الذرية ثلاثة أولاد: أحدهم يُسَمَّى سالمًا، والأصغر يُسَمَّى جودرًا، والأوسط يُسَمَّى سليمًا، وربَّاهم إلى أن صاروا رجالًا، ولكنه كان يحب جودرًا أكثر من أخويه، فلما تبَيَّنَ لهما أنه يحب جودرًا، أخذتهما الغيرة وكرها جودرًا، فبان لأبيهما أنهما يكرهان أخيهما، وكان والدهم كبير السن، وخاف أنه إذا مات يحصل لجودر مشقة من أخويه، فأحضر جماعة من أهله وأحضر جماعة قسامين من طرف القاضي وجماعة من أهل العلم، وقال: هاتوا لي مالي وقماشِي. فأحضروا له جميع المال والقماش فقال: يا ناس، اقسَموا هذا المال والقماش أربعة أقسام بالموضع الشرعي. فقسَّموه، فأعطى كل ولد قسَمًا، وأخذ هو قسَمًا وقال: هذا مالي وقسمته بينهم، ولم يَبْقَ لهم عندي ولا عند بعضهم شيء، فإذا متُّ لا يقع بينهم اختلاف؛ لأنِّي قسمت بينهم الميراث في حال حياتي، وهذا المال الذي أخذته أنا فإنه يكون لزوجتي أم هذه الأولاد، فتستعين به على معيشتها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٠٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن التاجر لما قسم ماله وقماشه أربعة أقسام، أعطى كل ولد من الأولاد الثلاثة قسماً وأخذ هو القسم الرابع، وقال: هذا القسم يكون لزوجتي أم هذه الأولاد تستعين به على معيشتهم. ثم بعد مدة قليلة مات والدهم، فما أحد رضي بما فعل والدهم عمر، بل طلبوا الزيادة من جودر، وقالوا له: إن مال أبينا عندك. فترافع معهم إلى الحكام، وجاء المسلمون الذين كانوا حاضرين وقت القسمة، وشهدوا بما علموا ومنعهم الحاكم عن بعضهم؛ فخرس جودر جانباً من المال، وخسر إخوته كذلك بسبب النزاع، فتركوه مدةً ثم مكروا به ثانياً، فترافع معهم إلى الحكام فخرسوا جملة من المال أيضاً من أجل الحكام، وما زالوا يطلبون أذيته من ظالم إلى ظالم وهم يخسرون ويخسر حتى أطعموا جميع ما لهم للظالمين، وصار الثلاثة فقراء. ثم جاء أخواه إلى أمهم وضحكا عليها، وأخذوا مالها وضرباها وطرداها، فجاءت إلى ابنها جودر وقالت له: قد فعل أخواك معي كذا وكذا، وأخذوا مالي. وصارت تدعو عليهما، فقال لهما جودر: يا أمي لا تدعي عليهما؛ فالله يجازي كلًّا منهما بعمله، ولكن يا أمي أنا بقيت فقيراً وأخوأي فقيران، والمخاصمة تحتاج لخسارة المال، واختصمتُ أنا وإياهما كثيراً بين يدي الحكام، ولم يفدنا ذلك شيئاً، بل خسرنا جميع ما خلفه لنا والدنا، وهتكنا الناس بسبب الشهادة؛ وهل بسببك أختصم وإياهم، وترافع إلى الحكام؟ فهذا شيء لا يكون، إنما تقعدين عندي والرغيف الذي آكله أخليه لك، وادعي لي والله يرزقني برزقك، واتركيهما يلقيان من الله جزاء فعلهما، وتسلي بقول من قال:

إِنْ يَبْغِ ذُو جَهْلٍ عَلَيْكَ فَخَلِّهِ وَارْقُبْ زَمَانًا لِإِنْتِقَامِ الْبَاغِي
وَتَجَنَّبِ الظُّلْمَ الْوَحِيمَ فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَدُكَ الْبَاغِي

وصار يطيب خاطر أمه حتى رضيت ومكثت عنده، فأخذ له شبكة وصار يذهب إلى البحر والبرك، وإلى كل مكان فيه ماء، وصار يذهب كل يوم إلى جهة، فصار يعمل يومًا بعشرة ويومًا بعشرين ويومًا بثلاثين، ويصرفها على أمه، ويأكل طيبًا، ويشرب طيبًا، ولا صنعة ولا بيع ولا شراء لأخويه، ودخل عليهما الساحق والمالحق والبلاء اللاحق، وقد ضيَّعا الذي أخذاه من أمهما، وصارا من الصعاليك المعاكيس عريانين، فتارةً يأتیان إلى أمهما ويتواضعان لها زيادة، ويشكوان إليها الجوع، وقلب الوالدة رءوف، فتطعمهما عيشًا معفًا، وإن كان هناك طيبخ بائت تقول لهما: كُلاه سريعًا وروحا قبل أن يأتي أخوكما، فإنه ما يهون عليه ويقسو قلبه عليّ وتفضحاني معه. فيأكلان باستعجال ويروحان، فدخل على أمهما يومًا من الأيام، فحطت لهما طيبخًا وعيشًا، فصار يأكلان وإذا بأخيها جودر داخل، فاستحت أمه وخجلت منه، وخافت أن يغضب عليها، وأطرقت برأسها في الأرض حياءً من ولدها، فتبسَّمت في وجوههم وقال: مرحبًا يا أخويّ، نهار مبارك، ماذا جرى حتى زرتما في هذا النهار المبارك؟ واعتنقهما ووادَّهما، وصار يقول: ما كان رجائي أن توحشاني ولا تجيئا عندي، ولا تطلا عليّ ولا على أمكما! فقالا: والله يا أخانا إننا اشتقنا إليك، ولا منعنا إلا الحياء مما جرى بيننا وبينك، ولكن ندمن كثيرًا، وهذا فعل الشيطان لعنه الله تعالى، ولا لنا بركة إلا أنت وأمنّا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٠٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جودراً لما دخل منزله ورأى إخوته رَحَّبَ بهما وقال لهما: ما لي بركة إلا أنتما. فقالت له أمه: يا ولدي بيَّضَ الله وجهك وكثَّرَ الله خيرك، وأنت الأكثر يا ولدي. فقال: مرحباً بكما، أقيما عندي والله كريم والخير عندي كثير. واصطلح معهما وباتا عنده وتعشَّياً معه. وثاني يوم فطراً وجودر حمل الشبكة وراح على باب الفتح وراح أخواه، فغابا إلى الظهر وأتيا، فقَدَّمت لهما أمهم الغداء، وفي المساء أتى أخوهم وجاء باللحم والخضار وصاروا على هذه الحالة مدة شهر، وجودر يصطاد سمكاً ويبيعه ويصرف ثمنه على أمه وأخويه، وهما يأكلان ويبرجسان. فاتفق يوماً من الأيام أن جودر أخذ الشبكة إلى البحر فرماها وجذبها فطلعت فارغة، فطرحها ثانياً فطلعت فارغة، فقال في نفسه: هذا المكان ما فيه سمك. ثم انتقل إلى غيره ورمى فيه الشبكة فطلعت فارغة، ثم انتقل إلى غيره، ولم يزل ينتقل من الصباح إلى المساء ولم يصطد ولا صيرة واحدة، فقال: عجائب! هل السمك فرغ من البحر أو ما السبب؟ ثم حمل الشبكة على ظهره ورجع مغموماً مقهوراً حاملاً همَّ أخويه وأمهم، ولم يدْرِ بأي شيء يعشَّيهم؛ فأقبل على طابونة فرأى الخلق على العيش مزدحمين، وبأيديهم الدراهم ولا يلتفت إليهم الخباز؛ فوقف وتحسَّرَ، فقال له الخباز: مرحباً بك يا جودر، هل تحتاج عيشاً؟ فسكت، فقال له: إن لم يكن معك درهم فخذ كفايتك وعليك مهل. فقال له: أعطني بعشرة أنصاف عيشاً. فقال له: خذ هذه عشرة أنصاف آخر، وفي غدِ هات لي بالعشرين سمكاً. فقال: على الرأس والعين. فأخذ العيش والعشرة أنصاف أخذ بها لحمه وخضاراً وقال: في غد يفرجها المولى. وراح إلى منزله وطبخت أمه الطعام وتعشَّى ونام، وثاني يوم أخذ الشبكة، فقالت له أمه: اقعد افطر. قال: افطري أنتِ وأخوأي. ثم ذهب إلى البحر ورمى الشبكة فيه أولاً وثانياً وثالثاً وتنتقل، وما زال كذلك إلى العصر ولم يقع له شيء، فحمل الشبكة ومشى مقهوراً،

ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)

وطريقه لا يكون إلا على الخباز، فلما وصل جودر رآه الخباز فعدَّ له العيش والفضة، وقال له: تعالَ خذ ورح إنَّ ما كان في اليوم يكون في غد، فأراد أن يعتذر له فقال له: رح ما يحتاج لعذر، لو كنت اصطدت شيئاً كان معك، فلما رأيته فارغاً علمت أنه ما حصل لك شيء، وإن كان في غد لم يحصل لك شيء، فتعالَ خذ عيشاً ولا تستحِ وعليك مهل.



فقال: عجائب! هل السمكُ فرَغَ من البحر أو ما السبب؟

ثم إنه ثالث يوم تبع البرك إلى العصر فلم يرَ فيها شيئاً، فراح إلى الخَبَّاز وأخذ منه العيش والفضة. وما زال على هذه الحالة مدة سبعة أيام، ثم إنه تضايق فقال في نفسه: رح اليوم إلى بركة قارون. ثم إنه أراد أن يرمي الشبكة فلم يشعر إلا وقد أقبل عليه مغربي راكب على بغلة وهو لابس حلة عظيمة، وعلى ظهر البغلة خرج مزركش، وكل ما على البغلة مزركش، فنزل من فوق ظهر البغلة وقال: السلام عليك يا جودر يا ابن عمر. فقال له: وعليك السلام يا سيدي الحاج. فقال له المغربي: يا جودر، إن لي عندك حاجة، فإن طاوعتني تنال خيراً كثيراً، وتكون بسبب ذلك صاحبي، وتقضي لي حوائجي. فقال له: يا سيدي الحاج، قل لي أي شيء في خاطرك، وأنا أطاوعك وما عندي خلاف. فقال له: اقرأ الفاتحة. فقرأها معه، وبعد ذلك أخرج له قيطاناً من حرير، وقال له: كتّفتي وشدّ كتافي شدّاً قوياً، وارمني في البركة، واصبر عليّ قليلاً، فإن رأيتني أخرجتُ يدي من الماء مرتفعةً قبل أن أبان فاطرح أنت الشبكة عليّ واجذبني سريعاً، وإن رأيتني أخرجتُ رجلي فاعلم أنني ميت فاتركني، وخذ البغلة والخرج وامض إلى سوق التجار، تجد يهودياً اسمه شميعة، فأعطه البغلة وهو يعطيك مائة دينار، فخذها واكتم السرّ ورُحْ إلى حال سبيلك. فكتفه كتافاً شديداً فصار يقول له: شدّ الكتاف. ثم إنه قال له: ادفعني إلى أن ترميني في البركة. فدفعه ورماه فغطس، ووقف ينتظره ساعة من الزمان، وإذا بالمغربي خرجت رجلاه، فعلم أنه مات، فأخذ البغلة وتركه وراح إلى سوق التجار، فرأى اليهودي جالساً على كرسي في باب الحاصل، فلما رأى البغلة قال اليهودي: إن الرجل هلك. ثم قال: ما هلكه إلا الطمع. وأخذ منه البغلة وأعطاه مائة دينار، وأوصاه بكتّم السر، فأخذ جودر الدنانير وراح، فأخذ ما يحتاج إليه من العيش من الخباز، وقال له: خذ هذا الدينار. فأخذه وحسب الذي له، وقال له: عندي بعد ذلك عيش يومين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٠٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخباز لما حاسب جودر على ثمن العيش وقال له: بقي لك عندي من الدينار عيش يومين. انتقل من عنده إلى الجزار وأعطاه دينارًا آخر وأخذ اللحم وقال له: خل عندك بقية الدينار تحت الحساب. وأخذ الخضار وراح، فرأى أخويه يطلبان من أمهم شيئًا يأكلانه وهي تقول لهما: اصبراً حتى يأتي أخوكما، فما عندي شيء. فدخل عليهم وقال لهم: خذوا كلوا. فوقعوا على العيش مثل الغيلان، ثم إن جودر أعطى أمه بقية الذهب وقال: خذي يا أمي، وإذا جاء أخواي فأعطيتهما ليشتريا ويأكلا في غيابي. وبات تلك الليلة، ولما أصبح أخذ الشبكة وراح إلى بركة قارون ووقف وأراد أن يطرح الشبكة، وإذا بمغربي آخر أقبل وهو راكب بغلة ومهياً أكثر من الذي مات، ومعه خرج وحقان في الخرج في كل عين منه حقٌّ، وقال: السلام عليك يا جودر. فقال: عليك السلام يا سيدي الحاج. فقال: هل جاءك بالأمس مغربي راكب بغلة مثل هذه البغلة؟ فخاف وأنكر وقال: ما رأيت أحداً. خوفاً أن يقول: راح إلى أين؟ فإن قال له غرق في البركة، ربما يقول أنت غرقت، فما وسعه إلا الإنكار، فقال له: يا مسكين هذا أخي وسبقني. قال: ما معي خبر. قال: أما كتفتّه أنت ورميته في البركة، وقال لك: إن خرجت يداي ارم عليّ الشبكة واسحبني بالعجل، وإن خرجت رجلاي أكون ميتاً، وخذ أنت البغلة وأدّها إلى اليهودي شميعة، وهو يعطيك مائة دينار؟ وقد خرجت رجلاه وأنت أخذت البغلة، وأديتها إلى اليهودي، وأعطاك مائة دينار؟ فقال: حيث إنك تعرف ذلك، فلا شيء تسألني؟ قال: مرادي أن تفعل بي كما فعلت بأخي. وأخرج له قيطاناً من حرير وقال: كتفني وارمني، وإن جرى لي مثل ما جرى لأخي، فخذ البغلة وأدّها إلى اليهودي وخذ منه مائة دينار. فقال له: تقدّم. فتقدّم فكتفّه ودفعه، فوقع في البركة وغطس، فاننظره ساعة فطلعت

رجلاه فقال: مات في داهية إن شاء الله. كل يوم يجيئني المغاربة وأنا أكتفهم ويموتون، ويكفيني من كل ميت مائة دينار. ثم إنه أخذ البغلة، فلما رآه اليهودي قال له: مات الآخر. قال له: تعيش رأسك. قال له: هذا جزاء الطمّاعين. وأخذ البغلة منه وأعطاه مائة دينار، فأخذها وتوجّه إلى أمه، فأعطاه إياها، فقالت له: يا ولدي، من أين لك هذا؟ فأخبرها، فقالت له: ما بقيت تروح بركة قارون، فأني أخاف من المغاربة. فقال لها: يا أمي، أنا لا أرميهم إلا برضاهم، وكيف يكون العمل؟ هذه صنعة يأتينا منها كل يوم مائة دينار، وأرجع سريعاً، فوالله لا أرجع عن ذهابي إلى بركة قارون حتى ينقطع أثر المغاربة ولا يبقى منهم أحد.

ثم إنه في اليوم الثالث راح ووقف، وإذا بمغربي راكب بغلة ومعه خرج، ولكنه مهياً أكثر من الأولين، وقال: السلام عليك يا جودر يا ابن عمر. فقال في نفسه: من أين كلهم يعرفونني؟ ثم ردّ عليه السلام، فقال: هل جاز على هذا المكان مغاربة؟ قال له: اثنان. قال له: أين راحا؟ قال: كتفتّهما ورميتُهما في هذه البركة فغرقا، والعاقبة لك أنت الآخر. فضحك، ثم قال: يا مسكين، كل حي ووعده. ونزل عن البغلة وقال له: يا جودر، اعمل معي كما عملتَ معهما. وأخرج القيطان الحريز، فقال له جودر: أدِرْ يَدَيْكَ حتى أكتفك، فأني مستعجل وراح عليّ الوقت. فأدار له يديه فكثّفه ودفعه، فوقع في البركة ووقف ينتظره، وإذا بالمغربي أخرج له يديه، وقال له: ارم الشبكة يا مسكين. فرمى عليه الشبكة وجذبه، وإذا هو قابض في يديه سمكتين لونهما أحمر مثل المرجان، في كل يد سمكة، وقال له: افتح الحقين. ففتح له الحقين فوضع في كل حقّ سمكةً، وسد عليهما فم الحقين. ثم إنه حضن جودراً وقبّله ذات اليمين وذات الشمال في خديه، وقال له: الله ينجّيك من كل شدة، والله لولا أنك رميتَ عليّ الشبكة وأخرجتني، لكنتُ ما زلت قابضاً على هاتين السمكتين وأنا غاطس في الماء حتى أموت، ولا أقدر أن أخرج من الماء. فقال له: يا سيدي الحاج، بالله عليك أن تخبرني بشأن اللذين غرقاً أولاً، وبحقيقة هاتين السمكتين، وبشأن اليهودي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦١٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جودراً لما سأل المغربي، وقال له: أخبرني عن اللذين غرقاً أولاً. قال له: يا جودر، اعلم أن اللذين غرقاً أولاً أخوأي؛ أحدهما اسمه عبد السلام، والثاني اسمه عبد الأحد، وأنا اسمي عبد الصمد، واليهودي أخونا اسمه عبد الرحيم، وما هو يهودي إنما هو مسلم مالكي المذهب، وكان والدنا علّماً حلّ الرموز، وفتح الكنوز والسحر، وصرنا نعالج حتى خدمتنا مردة الجن والعفاريت، ونحن أربعة إخوة، ووالدنا اسمه عبد الودود، ومات أبونا وخلف لنا شيئاً كثيراً، فقسمنا الذخائر والأموال والأرصاء حتى وصلنا إلى الكتب فقسمناهما، فوقع بيننا اختلاف في كتاب اسمه أساطير الأولين، ليس له مثيل ولا يقدر له أحد على ثمن، ولا يُعادل بجواهر؛ لأنه مذكور فيه سائر الكنوز، وحل الرموز، وكان أبونا يعمل به ونحن نحفظ منه شيئاً قليلاً، وكلُّ منّا غرضه أن يملكه حتى يطلع على ما فيه، فلما وقع الخلاف بيننا، حضر مجلسنا شيخ أبينا الذي كان ربّه وعلمه السحر والكهانة، وكان اسمه الكهين الأبطن، فقال لنا: هاتوا الكتاب. فأعطيناه الكتاب فقال: أنتم أولاد ولدي، ولا يمكن أن أظلم منكم أحداً، فليذهب من أراد أن يأخذ هذا الكتاب إلى معالجة فتح كنز الشمردل، ويأتيني بدائرة الفلك والمكحلة والخاتم والسيف؛ فإن الخاتم له مارد يخدمه اسمه الرعد القاصف، ومن ملك هذا الخاتم لا يقدر عليه ملك ولا سلطان، وإن أراد أن يملك به الأرض بالطول والعرض يقدر على ذلك؛ وأما السيف فإنه لو جُرد على جيش وهزّه حامله لهزّم الجيش، وإن قال له وقت هزّه: اقتل هذا الجيش. فإنه يخرج من ذلك السيف برق من نار، فيقتل جميع الجيش؛ وأما دائرة الفلك، فإن الذي يملكها إن شاء أن ينظر جميع البلاد من المشرق إلى المغرب، فإنه ينظرها ويتفرّج عليها وهو جالس، فأى جهة أرادها يوجهه الدائرة إليها، وينظر في الدائرة، فإنه يرى تلك الجهة وأهلها كأنّ الجميع بين يديه، وإذا غضب على مدينة ووجّه الدائرة إلى

قرص الشمس، وأراد احتراق تلك المدينة فإنها تحترق؛ وأما المكحلة فإن كل مَنْ اكتحل منها يرى كنوز الأرض. ولكن لي عليكم شرط، وهو أن كل مَنْ عجز عن فتح هذا الكنز، ليس له في الكتاب استحقاق، وَمَنْ فتح هذا الكنز وأتاني بهذه الذخائر الأربعة، فإنه يستحق أن يأخذ هذا الكتاب.

فرضينا بالشرط، فقال لنا: يا أولادي، اعلموا أن كنز الشمردل تحت حكم أولاد الملك الأحمر، وأبوكم أخبرني أنه كان عالَجَ فتح ذلك الكنز، فلم يقدر ولكن هرب منه أولاد الملك الأحمر إلى بركة في أرض مصر تُسمَّى بركة قارون، وعصوا في البركة، فلحقهم إلى مصر ولم يقدر عليهم بسبب انسياهم في تلك البركة؛ لأنها مرصودة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦١١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الكهين الأبطن لما أخبر الأولاد بذلك الخبر قال لهم: ثم إنه رجع غلبان، ولم يقدر على فتح كنز الشمردل من أولاد الملك الأحمر، فلما عجز أبوكم عنهم جاءني، وشكا إليّ، فضربتُ له تقويمًا، فرأيت أن هذا الكنز لا يُفتح إلا على وجه غلام من أبناء مصر اسمه جودر بن عمر، فإنه يكون سببًا في قبض أولاد الملك الأحمر، وذلك الغلام يكون صيادًا، والاجتماع به يكون على بركة قارون، ولا ينفك ذلك الرصد إلا إذا كان جودر يكتف صاحب النصيب ويرميه في البركة، فيتحارب مع أولاد الملك الأحمر، وكلُّ من كان له نصيب فإنه يقبض أولاد الملك الأحمر، والذي ليس له نصيب يهلك، وتظهر رجلاه من الماء، والذي يسلم تظهر يداه، فيحتاج أن جودرًا يرمي عليه الشبكة ويخرجه من البركة. فقال إخوتي: نحن نروح ولو هلكنا، وأنا قلت أروح أيضًا، وأما أخونا الذي في هيئة يهودي فإنه قال: أنا ليس لي غرض. فاتفقنا معه على أنه يتوجه إلى مصر في صفة يهودي تاجر، حتى إذا مات منا أحد في البركة يأخذ البغلة والخرج منه ويعطيه مائة دينار، فلما أتاك الأول قتله أولاد الملك الأحمر، وقتلوا أخي الثاني، وأنا لم يقدرُوا عليّ فقبضتهم. فقال: أين الذين قبضتهم؟ فقال: أمّا رأيتم قد حبستهم في الحقلين؟ قال: هذا سمك. قال له المغربي: ليس هذا سمكًا، إنما هم عفاريت بهيئة السمك، ولكن يا جودر اعلم أن فتح الكنز لا يكون إلا على وجهك، فهل تطاوعني وتروح معي إلى مدينة فاس ومكناس، ونفتح الكنز، وأعطيك ما تطلب؟ وأنت بقيت أخي في عهد الله، وترجع إلى عيالك مجبور القلب. فقال له: يا سيدي الحاج، أنا في رقبتني أُمي وأخوأي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦١٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جودراً قال للمغربي: أنا في رقبتني أُمي وأخوأي، وأنا الذي أجري عليهم، وإن رحْتُ معك فَمَن يطعمهم العيش؟ فقال له: هذه حجة بطالة، فإن كان من شأن المصروف، فنحن نعطيك ألف دينار، تعطي أُمك إياها لتصرفها حتى ترجع إلى بلادك، وأنت إن غبت ترجع قبل أربعة أشهر. فلما سمع جودر بالألف دينار قال: هات يا حاج الألف دينار أتركها عند أُمي وأروح معك. فأخرج له الألف دينار، فأخذها وراح إلى أمه، وأخبرها بما جرى بينه وبين المغربي، وقال لها: خذي هذا الألف دينار واصرفي منه عليك وعلى أخوَيَّ، وأنا مسافر مع المغربي إلى الغرب فأغيب أربعة أشهر، ويحصل لي خير كثير، فادعي لي يا والدتي. فقالت له: يا ولدي، توحشني وأخاف عليك. فقال: يا أُمي، ما على مَن يحفظه الله بأُس، والمغربي رجل طيب. وصار يشكر لها حاله، فقالت: الله يعطف قلبه عليك، رح معه يا ولدي لعله يعطيك شيئاً. فودَّع أمه وراح، ولما وصل عند المغربي عبد الصمد قال له: هل شاورت أُمك؟ قال: نعم ودعْتُ لي. فقال له: اركب ورائي. فركب على ظهر البغلة وسافراً من الظهر إلى العصر، فجاء جودر ولم يَرَ مع المغربي شيئاً يُؤكل، فقال: يا سيدي الحاج، لعلك نسيت أن تجيء لنا بشيء نأكله في الطريق؟ فقال: هل أنت جائع؟ قال: نعم. فنزل من فوق ظهر البغلة هو وجودر، ثم قال: نزل الخرج. فنزَّله، ثم قال له: أي شيء تشتهي يا أخي؟ فقال له: أي شيء كان. قال له: بالله عليك أن تقول لي أي شيء تشتهي؟ قال: عيشاً وجبناً. قال: يا مسكين، العيش والجبن ما هو مقامك، فاطلب شيئاً طيباً. قال جودر: أنا عندي في هذه الساعة كل شيء طيب. فقال له: أتحب الفراخ المحمرة؟ قال: نعم. قال: أتحب الأرز بالعسل؟ قال: نعم. قال: أتحب اللون الفلاني واللون الفلاني ... حتى سَمَّى له من الطعام أربعة وعشرين

لونها، ثم قال في باله: هل هو مجنون؟ من أين يجيء لي بالأطعمة التي سَمَّاهَا، وما عنده مطبخ ولا طبَّاخ؟ لكن قل له: يكفي. فقال له: يكفي، هل أنت تشهيني الألوان ولا أنظر شيئاً؟ فقال المغربي: مرحباً بك يا جودر. وحنطاً يده في الخرج، فأخرج صحناً من الذهب فيه فرختان محمرتان سخنتان، ثم حط يده ثاني مرة فأخرج صحناً من الذهب فيه كباب، ولا زال يُخْرِج من الخرج حتى أخرج الأربعة والعشرين لونها التي ذكرها بالتمام والكمال، فبُهِت جودر، فقال له: كُلْ يا مسكين. فقال: يا سيدي، أنت جاعل في هذا الخرج مطبخاً وناساً تطبخ؟ فضحك المغربي وقال: هذا مرصود له خادم، لو نطلب في كل ساعة ألف لون يجيء بها الخادم، ويحضرها في الوقت. فقال: نَعَمْ هذا الخرج.

ثم إنهما أَكَلَا حتى اكتفيا، والذي فضل كباه وردَّ الصحنون فارغاً في الخرج، وحنطاً يده فأخرج إبريقاً فشربا وتوضأ وصلّى العصر، ورد الإبريق في الخرج، ثم إنه حنط فيه الحقين، وحمله على تلك البغلة وركب، وقال: اركب حتى نسافر. ثم إنه قال: يا جودر، هل تعلم ما قطعنا من مصر إلى هنا؟ قال له: والله لا أدري. فقال له: قطعنا مسيرة شهر كامل. قال: وكيف ذلك؟ قال له: يا جودر، اعلم أن البغلة التي تحتنا ماردة من مَرْدَة الجن، تسافر في اليوم مسافة سنة، ولكن من شأن خاطرك مشت على مهلها. ثم ركبوا وسافروا إلى المغرب، فلما أمسيا أخرج من الخرج العشاء، وفي الصباح أخرج الفطور، وما زالا على هذه الحالة مدة أربعة أيام، وهما يسافران إلى نصف الليل، وينزلان فينامان ويسافران في الصباح، وجميع ما يشتهي جودر يطلبه من المغربي يُخْرِجه له من الخرج، وفي اليوم الخامس وصلا إلى فاس ومكناس، ودخلا المدينة، فلما دخلا صار كُلُّ مَنْ قَابِل المغربي يسلم عليه ويقبل يده، وما زال كذلك حتى وصل إلى بابِ فطرقة، وإذا بالباب قد فُتِحَ وبأن منه بنت كأنها القمر، فقال لها: يا رحمة يا بنتي، افتحي لنا القصر. قالت: على الرأس والعين يا أبتى. ودخلت تهزُّ أعطافها، فطار عقل جودر وقال: ما هذه إلا بنت ملك. ثم إن البنت فتحت القصر، فأخذ الخرج من فوق البغلة، وقال لها: انصرف بارك الله فيك. وإذا بالأرض انشقت ونزلت البغلة، ورجعت الأرض كما كانت، فقال جودر: يا ستار، الحمد لله الذي نجَّانا فوق ظهرها. ثم إن المغربي قال: لا تعجب يا جودر، فإنني قلت لك إن البغلة عفريت، لكن اطلع بنا القصر. فلما دخلا ذلك القصر اندهش جودر من كثرة الفرش الفاخر، ومما رأى فيه من التحف وتعليق الجواهر والمعادن، فلما جلسا أمر البنت وقال: يا رحمة، هات البقجة الفلانية. فقامت وأقبلت ببقجة ووضعتها بين يدي أبيها، ففتحها وأخرج منها حلة تساوي ألف دينار، وقال له: البس يا جودر مرحباً بك.

فلبس الحلة وصار كناية عن ملك من ملوك الغرب، ووضع الخرج بين يديه، ثم مدَّ يده فيه، وأخرج منه أصحناً فيها ألوان مختلفة، حتى صارت سفرة فيها أربعون لوناً، فقال: يا مولاي، تقدّم وكُلْ ولا تؤاخذنا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦١٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المغربي لما أدخل جودر القصر مدَّ له سفرة فيها أربعون لوناً، وقال له: تقدِّم كُلِّ ولا تؤاخذنا نحن لا نعرف أي شيء تشتهي من الأطعمة، فقل لنا على ما تشتهي ونحن نحضره إليك من غير تأخير. فقال له: والله يا سيدي الحاج إنني أحب سائر الأطعمة، ولا أكره شيئاً، فلا تسألني عن شيء، فهات جميع ما يخطر ببالك. وناما على الأكل، ثم إنه أقام عنده عشرين يوماً، كل يوم يلبسه حلة والأكل من الخرج، والمغربي لا يشتري شيئاً من اللحم ولا عيشاً ولا يطبخ، ويُخرج كل ما يحتاجه من الخرج حتى أصناف الفاكهة. ثم إن المغربي في اليوم الحادي والعشرين، قال: يا جودر، قم بنا فإن هذا هو اليوم الموعود لفتح كنز الشمردل. فقام معه ومشيا إلى المدينة، ثم خرجا منها، فركب جودر بغلة وركب المغربي بغلة، ولم يزالا مسافرين إلى وقت الظهر، فوصلا إلى نهر ماء جارٍ، فنزل عبد الصمد وقال: انزل يا جودر. فنزل، ثم إن عبد الصمد قال: هيا. وأشار للعبدین بيده، فأخذ البغلتين وراح كل عبد من طريق، ثم غابا قليلاً، وقد أقبل أحدهما بخيمة فنصبها، وأقبل الثاني بفراش وفرشه في الخيمة ووضع في دائرها وسائد ومساند، ثم ذهب واحد منهم وجاء بالحقين اللذين فيهما السمكتان، والثاني جاء بالخرج، فقام المغربي وقال: تعال يا جودر. فأتى وجلس بجانبه، وأخرج المغربي من الخرج أصحن الطعام وتغدياً، وبعد ذلك أخذ الحقين، ثم إنه عزم عليهما فصارا من داخل يقولان: لبيك يا كهين الدنيا ارحمنا. وهما يستغيثان وهو يعزم عليهما حتى تمرَّقَ الحقان فصارا قطعاً، وتطايرت قطعهما، فظهر منهما اثنان مكتئبان يقولان: الأمان يا كهين الدنيا، مرادك أن تعمل فينا أي شيء؟ فقال: مرادي أن أحرقكما، أو أنكما تعاهداني على فتح كنز الشمردل. فقالا: نعاهدك ونفتح لك الكنز، لكن بشرط أن تحضر جودر الصياد: فإن الكنز لا يُفتح إلا على وجهه، ولا يقدر أحد أن يدخل فيه إلا جودر بن عمر.

فقال لهما: الذي تذكرانه قد جئتُ به، وهو ها هنا يسمعكما وينظركما. فعاهداه على فتح الكنز وأطلقهما.

ثم إنه أخرج قسبة وألواحًا من العقيق الأحمر، وجعلها على القسبة، وأخذ مجرة ووضع فيها فحمًا، ونفخها نفخة واحدة فأوقد فيها النار، وأحضر البخور وقال: يا جودر، أنا أتلو العزيمة وألقي البخور، فإذا ابتدأتُ في العزيمة لا أقدر أن أتكلم فتبطل العزيمة، ومرادي أن أعلمك كيف تصنع حتى تبلغ مرادك؟ فقال له: علمني. فقال له: اعلم أنني متى عزمت وألقيت البخور نشف الماء من النهر، وبان لك باب من الذهب قدر باب المدينة بحلقتين من المعدن، فانزل إلى الباب واطرقه طرقة خفيفة واصبر مدة، واطرق الثانية طرقة أثقل من الأولى واصبر مدة، واطرقه ثلاث طرقات متتابعات وراء بعضها؛ فتسمع قائلاً يقول: مَنْ يطرق باب الكنوز، وهو لم يعرف أن يحل الرموز؟ فقل: أنا جودر الصياد بن عمر. فيفتح لك الباب، ويخرج لك شخص بيده سيف، ويقول لك: إن كنتَ ذلك الرجل فمدَّ عنقك حتى أرمي رأسك. فمدَّ له عنقك ولا تخف، فإنه متى رفع يده بالسيف وضربك وقع بين يديك، وبعد مدة تراه شخصًا من غير روح، وأنت لا تتألم بالضربة، ولا يجري عليك شيء، وأما إذا خالفته فإنه يقتلك؛ ثم إنك إذا أبطلتَ رصده بالامتثال، فادخل حتى ترى بابًا آخر فاطرقه، يخرج لك فارس راكب على فرس، وعلى كتفه رمح، فيقول: أي شيء أوصلك إلى هذا المكان الذي لا يدخله أحد من الإنس ولا من الجن؟ ويهزُّ عليك الرمح، فافتح له صدرك فيضربك ويقع في الحال، فتراه جسمًا من غير روح، وإن خالفته قتلك؛ ثم ادخل الباب الثالث يخرج لك آدمي، وفي يده قوس ونشاب، ويرميك بالقوس، فافتح له صدرك ليضربك ويقع قدامك جسمًا من غير روح، وإن خالفته قتلك؛ ثم ادخل الباب الرابع ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦١٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المغربي قال لجودر: ادخل الباب الرابع واطرقه يفتح لك ويخرج لك سَبْعُ عَظِيمِ الخَلْقَةِ، ويهجم عليك ويفتح فمه يريك أنه يقصد أكلك، فلا تَخَفْ ولا تهرب منه، فإذا وصل إليك فأعْطِه يدك، فمتى عَضَّ على يدك فإنه يقع في الحال ولا يصيبك شيء؛ ثم ادخل الباب الخامس يخرج لك عبد أسود ويقول لك: مَنْ أَنْتَ؟ فقل له: أنا جودر. فيقول لك: إِنْ كُنْتَ ذَلِكَ الرجل فافتح الباب السادس. فتَقَدَّمْ إلى الباب وقل: يا عيسى قُلْ لموسى يفتح الباب. فيُفْتَحِ الباب، فادخل تجد ثعبانين؛ أحدهما على الشمال، والآخر على اليمين، كُلُّ واحد منهما يفتح فاه ويهجمان عليك في الحال، فمدَّ إليهما يديك فيعضُّ كُلُّ واحد منهما في يدٍ، وَإِنْ خَالَفتَ قتلاك. ثم ادخل إلى الباب السابع واطرقه تخرج لك أمك، وتقول لك: مرحباً يا بني، تَقَدَّمْ حتى أَسْلَمَ عليك. فقل لها: خليك بعيداً عني واخلمي ثيابك. فتقول لك: يا بني، أنا أمك، ولي عليك حق الرضاعة والتربية كيف تعزيني؟ فقل لها: إِنْ لم تخلمي ثيابك قتلُك. وانظر جهة يمينك تجد سيفاً معلقاً في الحائط فخذ، واسحب عليها وقل لها: اخلمي. فتصير تخادعك، وتتواضع إليك، فلا تشفق عليها، فكلما تخلع لك شيئاً قل لها: اخلمي الباقي. ولم تزل تهددها بالقتل حتى تخلع لك جميع ما عليها وتسقط، وحينئذٍ قد حلت الرموز، وأبطلت الأرصاد، وقد أمنت على نفسك، فادخل تجد الذهب كيماً داخل الكنز، فلا تعتن بشيء منه، وإنما ترى مقصورة في صدر الكنز وعليها ستارة، فاكشف الستارة فإنك ترى الكهين الشمردل راقداً على سرير من الذهب، وعلى رأسه شيء مدور يلمع مثل القمر، فهو دائرة الفلك، وهو مقلد بالسيف، وفي إصبعه خاتم، وفي رقبته سلسلة فيها مكحلة، فهاتِ الأربع ذخائر، وإياك أن تنسى شيئاً مما أخبرتك به، ولا تخالف فتندم ويخشى عليك.

ثم كرَّر عليه الوصية ثانيًا وثالثًا ورابعًا حتى قال: حفظتُ، لكنَّ مَنْ يستطيع أن يواجه هذه الأرصاد التي ذكرتها ويصبر على هذه الأهوال العظيمة؟ فقال له: يا جودر، لا تَحَفْ، إنهم أشباح من غير أرواح. وصار يطمئنُّه، فقال جودر: توكلتُ على الله. ثم إن المغربي عبد الصمد ألقى البخور، وصار يعزم مدة وإذا بالماء قد ذهب، وبانت أرض النهر، وظهر باب الكنز، فنزل إلى الباب وطرقه، فسمع قائلاً يقول: مَنْ يطرق أبواب الكنوز، ولم يعرف أن يحل الرموز؟ فقال: أنا جودر بن عمر. فانفتح الباب وخرج له الشخص وجردَ السيف، وقال له: مدَّ عنقك. فمدَّ عنقه وضربه، ثم وقع، وكذلك الثاني إلى أن أبطل أرصاد السبعة أبواب، وخرجت أمه وقالت له: سلامات يا ولدي. فقال لها: أنت أي شيء؟ قالت: أنا أمك ولي عليك حق الرضاعة والتربية، وحملتك تسعة أشهر يا ولدي. فقال لها: اخلعي ثيابك. فقالت: أنت ولدي وكيف تعرَّيني؟ قال لها: اخلعي ثيابك وإلا أرمي رأسك بهذا السيف. ومدَّ يده فأخذ السيف وشهره عليها، وقال لها: إن لم تخلعي قتلتك. وطال بينها وبينه العلاج، ثم إنه لما أكثر عليها التهديد خلعت شيئاً، فقال: اخلعي الباقي. وعالجها كثيراً حتى خلعت شيئاً آخر، وما زال على هذه الحالة وهي تقول له: يا ولدي خابت فيك التربية. حتى لم يبقَ عليها شيء غير اللباس، فقالت: يا ولدي هل قلبك حجر فتفضحني بكشف العورة؟ يا ولدي، أَمَا هذا حرام؟ فقال: صدقتِ فلا تخلعي اللباس. فلما نطق بهذه الكلمة صاحت وقالت: قد غلط فاضربوه. فنزل عليه ضرب مثل قطر المطر، واجتمعت عليه خدام الكنز، فضربوه علقه لم ينسها في عمره، ودفعوه فرموه خارج باب الكنز، وانغلقت أبواب الكنز كما كانت، فلما رموه خارج الباب أخذه المغربي في الحال، وجرت المياه كما كانت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦١٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جودراً لما ضربه خدام الكنز ورموه خارج الباب وانغلقت الأبواب، وجرى النهر كما كان أولاً، قام عبد الصمد المغربي، وقرأ على جودر حتى أفاق وصحا من سكرته، فقال له: أي شيء عملت يا مسكين؟ فقال له: أبطلت الموانع كلها، ووصلت إلى أمي ووقع بيني وبينها معالجة طويلة، وصارت يا أخي تخلع ثيابها حتى لم يبقَ عليها إلا اللباس. فقالت لي: لا تفضحني، فإن كشف العورة حرام. فتركتُ لها اللباس شفقةً عليها، وإذا بها صاحت وقالت: قد غلط فاضربوه. فخرج لي ناس لا أدري أين كانوا، ثم إنهم ضربوني علقه حتى أشرفت على الموت، ودفعوني ولم أدرِ بعد ذلك ما جرى لي. فقال له: أما قلتُ لك لا تخالف؟ قد أسأتني وأسأت نفسك، فلو خلعتُ لباسها كنّا بلغنا المراد، ولكن حينئذٍ تقيم عندي إلى العام القابل لمثل هذا اليوم. ونادى العبدان في الحال، فحلاً الخيمة وحملها، ثم غابا قليلاً ورجعا بالبغلتين، فركب كل واحدٍ بغلةً ورجعا إلى مدينة فاس، فأقام عنده في أكل طيب، وشرب طيب، وكل يوم يُلبسه حلة فاخرة، إلى أن فرغت السنة وجاء ذلك اليوم، فقال له المغربي: هذا هو اليوم الموعد فامض بنا. قال له: نعم. فأخذه إلى خارج المدينة، فرأيا العبدان بالبغلتين، ثم ركبا إلى أن وصلا عند النهر، فنصب العبدان الخيمة وفرشاهما، وأخرج السفرة فتغديا، وبعد ذلك أخرج القصبة والألواح مثل الأول، وأوقد النار وأحضر له البخور وقال له: يا جودر، مرادي أن أوصيك. فقال له: يا سيدي الحاج، إن كنتُ نسيت العلقه أكون نسيت الوصية. فقال له: هل أنت حافظ الوصية؟ قال: نعم. قال: احفظ روحك، ولا تظن أن المرأة أمك، وإنما هي رصد في صورة أمك، ومرادها أن تغلطك، وإن كنت أول مرة طلعت حياً فإنك في هذه المرة أن غلطت يرمونك مقتولاً. قال: إن غلطت أستحق أن يحرقوني.

ثم إن المغربي وضع البخور وعزم فنشف النهر، فتقدّم جودر إلى الباب وطرقه فانفتح، وأبطل الأرصاد السبعة إلى أن وصل إلى أمه، فقالت له: مرحباً يا ولدي. فقال لها: من أين أنا ولدك يا ملعونة؟ اخلعي. فجعلت تخادعه، وتخلع شيئاً بعد شيء حتى لم يبقَ غير اللباس. فقال: اخلعي يا ملعونة. فخلعت اللباس، وصارت شبّحاً بلا روح، فدخل ورأى الذهب كيماًناً، فلم يعتنِ بشيء، ثم أتى المقصورة ورأى الكهين الشمردل راقداً متقلداً بالسيف، والخاتم في أصبعه، والمكحلة على صدره، ورأى دائرة الفلك فوق رأسه، فتقدّم وفكّ السيف وأخذ الخاتم ودائرة الفلك والمكحلة وخرج. وإذا بنوبة دقّت له وصار الخدام ينادون: هنيئ بما أعطيت يا جودر. ولم تزل النوبة تدق إلى أن خرج من الكنز، ووصل إلى المغربي، فأبطل العزيمة والبخور، وقام وحضنه وسلّم عليه، وأعطاه جودر الأربع ذخائر، فأخذها وصاح على العبدین، فأخذوا الخيمة وردّوها ورجعا بالبغلتين فركباهما، ودخل مدينة فاس، فأحضر الخرج وجعل يطلع منه الصحون، وفيها الألوان وكملت قدامه سفرة، وقال: يا أخي يا جودر، كُلْ. فأكل حتى اكتفى وفرغ بقية الأطعمة في صحون غيرها، ورد الفوارغ في الخرج.

ثم إن المغربي عبد الصمد قال: يا جودر، أنت فارقت أرضك وبلادك من أجلنا، وقضيت حاجتنا، وصار لك علينا أمانة، فتمنّ ما تطلب، فإن الله تعالى أعطاك، ونحن السبب، فاطلب مرادك ولا تستحِ فإنك تستحق. فقال: يا سيدي، تمنيتُ على الله، ثم عليك، أن تعطيني هذا الخرج. قال: هات الخرج. فجاء به، قال: خذه فإنه حقك، ولو كنت تمنيتُ غيره لأعطيتك إياه، ولكن يا مسكين هذا ما يفيدك غير الأكل، وأنت تعبت معنا ونحن وعدناك أن نُرجعك إلى بلادك مجبور الخاطر، والخرج هذا تأكل منه، ونعطيك خرجاً آخر ملائناً من الذهب والجواهر، ونوصلك إلى بلادك فتصير تاجراً، واكسُ نفسك وعيالك، ولا تحتاج إلى مصروف، وكلُّ أنت وعيالك من هذا الخرج؛ وكيفية العمل به أنك تمد يدك فيه وتقول: بحق ما عليك من الأسماء العظام يا خادم هذا الخرج، أن تأتيني باللون الفلاني. فإنه يأتيك بما تطلبه، ولو طلبت كلَّ يوم ألف لون. ثم إنه أحضر عبداً ومعه بغلة، وملاً به خرجاً عيناً بالذهب، وعيناً بالجواهر والمعادن، وقال له: اركب هذه البغلة والعبد يمشي قدامك، فإنه يعرفك الطريق إلى أن يوصلك إلى باب دارك، فإذا وصلت فخذ الخرجين وأعطه البغلة فإنه يأتي بها، ولا تُظهر أحداً على سرك، واستودعناك الله. فقال له: كثر الله خيرك. وحطّ الخرجين على ظهر البغلة وركب، والعبد مشى قدامه، وصارت البغلة تتبع العبد ذلك النهار وطول الليل، وثاني يوم في الصباح دخل من باب

النصر، فرأى أمه قاعدة تقول: شيئاً لله. فطار عقله، ونزل من فوق ظهر البغلة، ورمى روحه عليها، فلما رأته بكت، ثم إنه ركبها ظهر البغلة، ومشى في ركابها إلى أن وصل إلى البيت، فنزل أمه وأخذ الخرجين، وترك البغلة للعبد، فأخذها وراح لسيدته لأن العبد شيطان والبغلة شيطان.

وأما ما كان من جودر، فإنه صعب عليه كون أمه تسأل، فلما دخل البيت قال لها: يا أمي، هل أخوأي طيبان؟ قالت: طيبان. قال: لأي شيء تسألين في الطريق؟ قالت: يا ابني من جوعي. قال: أنا أعطيتك قبل ما أسافر مائة دينار في أول يوم، ومائة دينار ثاني يوم، وأعطيتك ألف دينار يوم أن سافرت! فقالت له: يا ولدي، قد مكرا بي وأخذها مني. وقال: مرادنا أن نشترى بها سبباً. فأخذها وطرداني، فصرت أسأل في الطريق من شدة الجوع. فقال: يا أمي، ما عليك بأس حيث جئت، فلا تحملي همّاً أبداً؛ هذا خرج ملآن ذهباً وجواهر والخير كثير. فقالت له: يا ولدي، أنت مسعد، الله يرضى عليك ويزيدك من فضله، قم يا بني هات لنا عيشاً، فإنني بائئة بشدة الجوع من غير عشاء. فضحك وقال لها: مرحباً بك يا أمي، فاطلبي أي شيء تأكلينه وأنا أحضره لك في هذه الساعة، ولا أحتاج لشرائه من السوق ولا لمن يطبخ. فقالت: يا ولدي، ما أنا ناظرة معك شيئاً؟ فقال: معي في الخرج من جميع الألوان. فقالت: يا ولدي كل شيء حضر يسد. قال: صدقت، فعند عدم الموجود يقنع الإنسان بأقل الشيء، وأما إذا كان الموجود حاضراً؛ فإن الإنسان يشتهي أن يأكل من الشيء الطيب، وأنا عندي الموجود، فاطلبي ما تشتهين. قالت له: يا ولدي عيشاً سخناً وقطعة جبن. فقال: يا أمي، ما هذا من مقامك؟ فقالت له: أنت تعرف مقامي، فالذي من مقامي أطعمني منه. فقال: يا أمي، أنت من مقامك اللحم المحمّر، والفراخ المحمرة، والأرز المفلفل، ومن مقامك المنبار المحشي، والقرع المحشي، والخروف المحشي، والضلع المحشي، والكنافة بالمكسرات والعسل النحل والسكر والقطايف والبقلوة.

فظنت أمه أنه يضحك عليها ويسخر منها، فقالت له: يوه يوه، أي شيء جرى لك؟ هل أنت تحلم وإلا جننت؟ فقال لها: من أين علمت أني جننت؟ قالت له: لأنك تذكر لي جميع الألوان الفاخرة، فمن يقدر على ثمنها؟ ومن يعرف أن يطبخها؟ فقال لها: وحياتي لا بد أن أطعمك من جميع الذي ذكرته لك في هذه الساعة. فقالت له: ما أنا ناظرة شيئاً. فقال لها: هاتي الخرج. فجاءت له بالخرج وجسته فرأته فارغاً، وقدمته إليه، فصار يمد يديه، ويخرج صحنوناً ملأته، حتى إنه أخرج لها جميع ما ذكره، فقالت له أمه: يا ولدي، إن الخرج صغير وكان فارغاً وليس فيه شيء، وقد أخرجت منه هذا كله! فهذه الصحون

أين كانت؟ فقال لها: يا أمي، اعلمي أن هذا الخرج أعطانيه المغربي وهو مرصود، وله خادم إذا أراد الإنسان شيئاً وتلا عليه الأسماء وقال: يا خادم هذا الخرج هات لي اللون الفلاني؛ فإنه يحضره. فقالت له أمه: هل أمد يدي وأطلب منه؟ قال: مدي يدك. فمدت يدها وقالت: بحق ما عليك من الأسماء يا خادم هذا الخرج أن تجيء لي بضلع محشي. فرأت الصحن صار في الخرج، فمدت يدها فأخذته، فوجدت فيه ضلعاً محشياً نفيساً، ثم طلبت العيش، وطلبت كل شيء أرادته من أنواع الطعام، فقال لها: يا أمي، بعد أن تفرغي من الأكل أفرغي بقية الأطعمة في صحن غير هذه الصحن، وأرجعي الفوارغ في الخرج؛ فإن الرصد على هذه الحالة، واحفظي الخرج. فنقلت الخرج وحفظته وقال لها: يا أمي، اكتمي السر وأبقيه عندك، وكلما احتجتي لشيء أخرجه من الخرج وتصدّقي، وأطعمي أخويّ، سواء كان في حضوري أو في غيابي.

وجعل يأكل هو وإياها، وإذا بأخويه يدخلان عليه، وكان بلغهم الخبر من رجل من أولاد حارته وقال لهم: أحوكم أتى وهو راكب على بغلة وقدامه عبد، وعليه حلة ليس لها نظير. فقالا لبعضهما: يا ليتنا ما كنا شوّشنا على أمانا، لا بد أنها تخبره بما عملنا فيها، يا فضيحتنا منه. فقال واحد منهما: أمانا شفيقة، فإن أخبرته، فإن أخانا أشفق منها علينا، وإذا اعتذرنا إليه يقبل عذرنا. ثم دخلاً عليه فقام لهما على الأقدام، وسلّم عليهما غاية السلام، وقال لهما: اقعدا وكُلا. فقعدا وأكلا وكانا ضعيفين من الجوع، فما زالا يأكلان حتى شبعوا، فقال لهما جودر: يا أخويّ، خذاً بقية الطعام، وفرّقاها على الفقراء والمساكين. فقالا له: يا أخانا، خلّه لنتعشى به. فقال لهما: وقت العشاء يأتيكما أكثر منه. فأخرجاً بقية الأطعمة، وصار كل فقير جاز عليهما يقولان له: خذ وكُل. حتى لم يبق شيء، ثم رداً الصحن، فقالا لأمه: حطّيهما في الخرج. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦١٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن جودراً لما خلص أخواه من الغداء، قال لأمه: حطي الصحون في الخرج. وعند المساء دخل القاعة، وأخرج من الخرج سماتاً أربعين لوناً وطلع، فلما جلس بين أخويه قال لأمه: هاتي العشاء. فلما دخلت رأت الصحون ممتلئة، فحطت السفرة، ونقلت الصحون شيئاً بعد شيء حتى كملت الأربعين صحناً، فتعشوا، وبعد العشاء قال: خذوا وأطعموا الفقراء والمساكين. فأخذوا بقية الأطعمة وفرّقوها، وبعد العشاء أخرج لهم حلويات فأكلوا منها، والذي فضل منهم قال: أطعموه للجيران. وفي ثاني يوم الفطور كذلك، وما زالوا على هذه الحالة مدة عشرة أيام، ثم قال سالم لسليم: ما سبب هذا الأمر، إن أخانا يُخرج لنا ضيافة في الصباح، وضيافة في الظهر، وضيافة في المغرب، وفي آخر الليل يُخرج حلويات، وكل شيء فضل يفرّقه على الفقراء، وهذا فعل السلاطين، ومن أين أتته هذه السعادة؟ ألا تسأل عن هذه الأطعمة المختلفة وعن هذه الحلويات؟ وكل شيء فضل يفرقه على الفقراء والمساكين، ولا نراه يشتري شيئاً أبداً، ولا يوقد ناراً، وليس له مطبخ ولا طبّاخ! فقال أخوه: والله لا أدري، ولكن هل تعرف مَنْ يخبرنا بحقيقة هذا الأمر؟ قال له: لا يخبرنا إلا أمانة. فدبّرَا لهما حيلة ودخلا على أمهما في غياب أخيهما، وقالا: يا أمانة نحن جائعان. فقالت لهما: أبشّرا. ودخلت القاعة فطلبت من خادم الخرج، وأخرجت لهما أطعمة سخنة، فقالا: يا أمانة، هذا الطعام سخن، وأنت لم تطبخي ولم تنفخي! فقالت لهما: إنها من الخرج. فقالا لها: أي شيء هذا الخرج؟ فقالت لهما: إن الخرج مرصود، والطلب من الرصد. وأخبرتتهما بالخبر، وقالت لهما: اكتما السر. فقالا لها: السر مكتوم يا أمانة، ولكن علمينا كيفية ذلك. فعلمتُهما وصارَا يمدان أيديهما ويخرجان الشيء الذي يطلبانه، وأخوهما ما عنده خبر بذلك. فلما علما بصفة الخرج، قال سالم لسليم: يا أخي، إلى متى ونحن عند جودر في صفة الخدامين، ونأكل صدقته؟

ألا نعمل عليه حيلة ونأخذ هذا الخرج ونفوز به؟ فقال: كيف تكون الحيلة؟ قال: نبيع أخانا لرئيس بحر السويس. فقال له: وكيف نصنع حتى نبيعه؟ فقال: أروح أنا وأنت ذلك الرئيس ونعزمه مع اثنين من جماعته، والذي أقوله لجودر تصدقني عليه، وآخر الليل أريك ما أصنع.

ثم اتفقا على بيع أخيهما، وراحا بيت رئيس بحر السويس ودخل سالم وسليم على الرئيس، وقالوا له: يا رئيس، جئناك في حاجة تسرك. فقال: خيرًا؟ قالوا له: نحن أخوان، ولنا أخ ثالث معكوس لا خير فيه، ومات أبونا، وخلف لنا جانبًا من المال، ثم إننا قسمنا المال وأخذ هو ما نابه من الميراث، فصرفه في الفسق والفساد، ولما افتقر تسلط علينا وصار يشكونا إلى الظلّمة، ويقول: أنتما أخذتما مالي، ومال أبي. وبقينا نترافع إلى الحكام وخسرنا المال، وصبر علينا مدة، واشتكانا ثانيًا حتى أفقرنا، ولم يرجع عنا وقد قلقنا منه، والمراد أنك تشتريه منا. فقال لهما: هل تقدران أن تحتالاً عليه وتأتياني به إلى هنا، وأنا أرسله سريعًا إلى البحر؟ فقالا: ما نقدر أن نجيء به، ولكن أنت تكون ضيفنا، وهات معك اثنين من غير زيادة، فلما ينام نتعاون عليه نحن الخمسة فنقبضه ونجعل في فمه العقلة، وتأخذه تحت الليل، ونخرج به من البيت، وافعل فيه ما شئت. فقال لهما: سمعًا وطاعة، أتبيعانه بأربعين دينارًا؟ فقالا له: نعم، وبعد العشاء تأتي الحارة الفلانية، فتجد واحدًا منّا ينتظركم. فقال لهما: روحا.

فقصدا جودرًا وصبرا ساعة، ثم تقدّم إليه سالم وقبّل يده، فقال له: ما لك يا أخي؟ فقال له: أعلم أن لي صاحبًا، وعزمني مرات عديدة في بيته في غيابك، وله عليّ ألف جميلة، ودائمًا يكرمني بعلم أخي، فسلمت عليه اليوم فعزمني، فقلت له: أنا ما أقدر أن أفارق أخي. فقال: هاته معك. فقلت: لا يرضى بذلك، ولكن إن كنت تضيفنا أنت وإخوتك. وكان أخواه جالسين عنده فعزمتهم، وقد ظننت أنني أعزمهم ويمتنعون، فلما عزمته هو وأخويه، رضي وقال: انتظرني على باب الزاوية، وأنا أجيء بإخوتي. فأنا خائف أن يجيء ومستح منكم، فهل تجبر خاطري وتضيفهم في هذه الليلة؟ وأنت خيرك كثير يا أخي، وإن كنت لم ترض، فأذن لي أن أدخلهم بيت الجيران. فقال له: لأي شيء تدخلهم بيت الجيران؟ فهل بيتنا ضيقًا وما عندنا شيء نعشيهم به؟ عيب عليك أن تشاورني، ما لك إلا أطعمة طيبة وحلويات إلى أن يفضل عنهم، وإن جئت بناس وكنت أنا غائبًا، فاطلب من أمك تخرج لك أطعمة بزيادة. رُح هاتهم حلّت علينا البركات. فقبّل يده وراح، فقعد على باب الزاوية لبعد العشاء، وإذا بهم قد أقبلوا عليه، فأخذهم ودخل بهم البيت، فلما رآهم

جودر قال لهم: مرحباً بكم. وأجلسهم، وعمل معهم صحبة، وهو لا يعلم ما في الغيب منهم. ثم إنه طلب العشاء من أمه، فجعلت تُخرج من الخرج وهو يقول: هات اللون الفلاني. حتى صار قدامهم أربعون لوناً، فأكلوا حتى اكتفوا، ورفعت السفرة، والبحرية يظنون أن هذا الإكرام من عند سالم، فلما مضى ثلث الليل أخرج لهم الحلويات، وسالم هو الذي يخدمهم، وجودر وسليم قاعدان إلى أن طلبوا المنام، فقام جودر ونام وناموا حتى غفل، فقاموا وتعاونوا عليه، فلم يَفُقْ إلا والعقلة في فمه، وكتفوه وحملوه، وخرجوا به من القصر تحت الليل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦١٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جودراً لما أخذه وحملوه وخرجوا به من القصر تحت الليل، أرسلوه إلى السويس، وحطوا في رجله القيد، وأقام يخدم وهو ساكت، ولم يزل يخدم خدمة الأسارى والعبيد سنة كاملة.

هذا ما كان من أمر جودر، وأما ما كان من أمر أخويه، فإنهما لما أصبحا دخلا على أمهما وقالا لها: يا أمنا، إن أخانا جودر لم يستيقظ. فقالت لهما: أيقظاه. قالا لها: أين هو راقدا؟ قالت لهما: عند الضيوف. قالا: لعله راح مع الضيوف ونحن نائمان يا أمي، كأن أخانا ذاق الغربة، ورغب في دخول الكنوز، وقد سمعناه يتكلم مع المغاربة، فيقولون له: نأخذك معنا ونفتح لك الكنز. فقالت: هل اجتمع مع المغاربة؟ قالا لها: أما كانوا ضيوفاً عندنا؟ قالت: لعله راح معهم، ولكن الله يرشد طريقه، هذا مسعد لا بد أن يأتي بخير كثير. وبكت وعزَّ عليها فراقه، فقالا لها: يا ملعونة، أتحبين جودراً كل هذه المحبة، ونحن إن غبنا أو حضرنا فلا تفرحي بنا، ولا تحزني علينا، أما نحن ولدناك كما أن جودراً ابنك؟ فقالت: أنتما ولداي، ولكن أنتما شقيان، ولا لكما عليَّ فضل، ومن يوم مات أبوكما ما رأيتمكما خيراً، وأما جودر فرأيتُ منه خيراً كثيراً وجبر خاطري وأكرمني، فيحق لي أن أبكي عليه؛ لأن خيره عليَّ وعليكما.

فلما سمعا هذا الكلام شتماها وضرباها، ودخلا وصارا يفتشان على الخرج حتى عثرا به، وأخذوا الجواهر من العين الأولى، والذهب من العين الثانية، والخرج المرصودة، فقالا لها: هذا مال أبيينا. فقالت: لا والله إنما هو مال أخيكما جودر، جاء به من بلاد المغاربة. فقالا لها: كذبت، بل هذا مال أبيينا نتصرف فيه. فقسماه بينهما، ووقع الاختلاف بينهما في الخرج المرصود، فقال سالم: أنا أخذه. وقال سليم: أنا أخذه. ووقعت بينهما المعاندة، فقالت أمهما: يا ولديَّ، الخرج الذي فيه الجواهر والذهب قسمتماه، وهذا لا

ينقسم ولا يعادل بمال، وإن انقطع قطعتين بطل رصده، ولكن اتركاه عندي، وأنا أخرج لكما ما تأكلانه في كل وقت، وأرضى بينكما باللقمة، وإن كسوتماني شيئاً من فضلكما، وكل منكما يجعل له معاملة مع الناس، وأنتما ولدائي وأنا أمكما، وخلصونا على حالنا، ربما يأتي أخوكما خوف الفضيحة. فما قبلا كلامها وباتا يختصمان تلك الليلة، فسمعهما رجل قواص من أعوان الملك كان معزوماً في بيت بجانب بيت جودر طاقتة مفتوحة، فطلَّ القواص من الطاقة، وسمع جميع الخصام وما قالوه من الكلام والقسمة، فلما أصبح الصباح دخل ذلك الرجل القواص على الملك — وكان اسمه شمس الدولة، وكان ملك مصر في ذلك العصر — فلما دخل عليه القواص أخبره بما قد سمعه، فأرسل الملك إلى أخوي جودر وجاء بهما ورماهما تحت العذاب، فأقرَّ وأخذ الخرجين منهما، ووضعهما في السجن. ثم إنه عيَّن إلى أم جودر من الجرايات في كل يوم ما يكفيها.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر جودر، فإنه أقام سنة كاملة يخدم في السويس، وبعد السنة كانوا في المركب، فخرج عليهم ريح رمى المركب التي هم فيها على جبلٍ فانكسرت، وغرق جميع ما فيها، ولم يحصل البر إلا جودر، والبقية ماتوا، فلما حصل البر سافر حتى وصل إلى نجع عرب، فسأله عن حاله، فأخبرهم أنه كان بحريراً في مركب، وحكى لهم قصته، وكان في النجع رجل تاجر من أهل جدة فحنَّ عليه، وقال له: تخدم عندنا يا مصري، وأنا أكسوك وآخذك معي إلى جدة؟ فخدم عنده وسافر معه إلى أن وصلا إلى جدة، فأكرمه كثيراً. ثم إن سيده التاجر طلب الحج، فأخذه معه إلى مكة، فلما دخلها راح جودر ليطوف في الحرم، فبينما هو يطوف وإذا هو بصاحبه المغربي عبد الصمد يطوف. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦١٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جودراً لما كان ماشياً بالطواف، وإذا هو بصاحبه المغربي عبد الصمد يطوف، فلما رآه سلّم عليه وسأله عن حاله فبكى، ثم أخبره بما جرى له، فأخذه معه إلى أن دخل منزله وأكرمه وألبسه حلة ليس لها نظير، وقال له: زال عنك الشر يا جودر. وضرب له تخت رمل، فبان له الذي جرى لأخويه، فقال له: اعلم يا جودر أن أخويك جرى لهما كذا وكذا، وهما محبوبان في سجن ملك مصر، ولكن مرحباً بك حتى تقضي مناسكك، ولا يكون إلا خيراً. فقال له: ائذن لي يا سيدي حتى أروح أخذ خاطر التاجر الذي أنا عنده وأجيء إليك. فقال: هل عليك مال؟ قال: لا. فقال: رح خذ بخاطره وتعال في الحال، فإن العيش له حق عند أولاد الحلال. فراح وأخذ بخاطر التاجر وقال له: إني اجتمعتُ على أخي. فقال له: رح هاته ونعمل له ضيافة. فقال له: ما يحتاج، فإنه من أصحاب النعم، وعنده خدم كثير. فأعطاه عشرين ديناراً وقال له: أبرئ ذمتي. فودّعه وخرج من عنده، فرأى رجلاً فقيراً فأعطاه العشرين ديناراً. ثم إنه ذهب إلى عبد الصمد المغربي فأقام عنده حتى قضيا مناسك الحج، وأعطاه الخاتم الذي أخرجه من كنز الشمردل، وقال له: خذ هذا الخاتم، فإنه يبلغك مرادك؛ لأن له خادماً اسمه الرعد القاصف، فجميع ما تحتاج إليه من حوائج الدنيا فادعك الخاتم يظهر لك الخادم، وجميع ما تأمره به يفعله لك. ودعكه قدامه فظهر له الخادم، ونادى: لبيك يا سيدي، أي شيء تطلب فتعطى، فهل تعمّر مدينة خربة أو تخرب مدينة عامرة، أو تقتل ملكاً، أو تكسر عسكراً؟ فقال المغربي: يا رعد، هذا صار سيدك فاستوص به. ثم صرفه وقال: ادعك الخاتم يحضر بين يديك خادمه، فمُرّه بما في مرادك، فإنه لا يخالفك، وامض إلى بلدك واحتفظ عليه، فإنك تكيد به أعداءك، ولا تجهل مقدار هذا الخاتم. فقال له: يا سيدي، عن إذنك أسير على بلادي. قال له: ادعك الخاتم يظهر لك الخادم، فاركب على ظهره، وإن قلت له أوصلني في هذا اليوم إلى بلادي فلا يخالف أمرك.

ثم ودَّعَ جودر عبد الصمد ودعك الخاتم، فحضر له الرعد القاصف، وقال له: لبيك اطلب تُعْطَ. فقال له: أوصلني إلى مصر في هذا اليوم. فقال له: لك ذلك. وحمله وطار به من وقت الظهر إلى نصف الليل، ثم نزل به في وسع بيت أمه وانصرف، فدخل على أمه، فلما رآته قامت وبكت وسلَّمت عليه، وأخبرته بما جرى لأخويه من الملك، وكيف ضربهما وأخذ الخرج المرصود، والخرج الذهب والجواهر؛ فلما سمع جودر ذلك لم يهن عليه أخواه، فقال لأمه: لا تحزني على ما فاتك، ففي هذه الساعة أريك ما أصنع، وأجيء بأخوي. ثم إنه دعك الخاتم فحضر له الخادم وقال: لبيك، اطلب تُعْطَ. فقال له: أمرتك أن تجيء لي بأخوي من سجن الملك. فنزل إلى الأرض ولم يخرج إلا من وسط السجن، وكان سالم وسليم في أشد ضيق وكرب عظيم من ألم السجن، وصارا يتمنيان الموت، وأحدهما يقول للآخر: والله يا أخي قد طالت علينا المشقة، وإلى متى ونحن في هذا السجن؟ فالموت فيه راحة لنا. فبينما هما كذلك وإذا بالأرض قد انشقت وخرج لهما الرعد القاصف، وحمل الاثنين ونزل بهما في الأرض، فغشي عليهما من شدة الخوف، فلما أفاقا وجدَّا أنفسهما في بيتهما، ورأيا أخاهما جودر جالساً وأمه في جانبه، فقال لهما: سلامات يا أخوي، آنستما. فطأطأ وجهيهما في الأرض، وصارا يبكيان، فقال لهما: لا تبكيا، فالشيطان والطمع ألجأكما إلى ذلك، وكيف تبييعاني؟ ولكني أتسلى بيوسف، فإنه فعل به إخوته أبلغ من فعلكم معي حيث رموه في الجب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦١٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جودراً قال لأخويه: كيف فعلتما معي هذا الأمر؟ ولكن توبا إلى الله واستغفراه فيغفر لكما وهو الغفور الرحيم، وقد عفوت عنكما ومرحباً بكما، ولا بأس عليكم. وجعل يأخذ بخواطرها حتى طيَّبَ قلوبهما، وصار يحكي لهما جميع ما قاساه في السويس، إلى أن اجتمع بالشيخ عبد الصمد وأخبرهما بالخاتم، فقالا: يا أخانا لا تؤاخذنا في هذه المرة، إن عدنا لما كنا فيه فافعل بنا مرادك. فقال: لا بأس عليكم، ولكن أخبراني بما فعل بكما الملك. فقال: ضربنا وهددنا وأخذ الخرجين منا. فقال: أما يبالي؟ ودعك الخاتم فحضر له الخادم، فلما رآه أخواه خافا منه، وظنَّا أنه يأمر الخادم بقتلهما، فذهبا إلى أمهما وصارا يقولان: يا أمنا، نحن في عرضك يا أمنا اشفعي فينا. فقالت لهما: يا ولديَّ لا تخافا. ثم إنه قال للخادم: أمرتك أن تأتيني بجميع ما في خزانة الملك من الجواهر وغيرها، ولا تُبَقِّ فيها شيئاً، وتأتي بالخرج المرصود، وخرج الجواهر اللذين أخذهما الملك من أخويَّ. فقال: السمع والطاعة. وذهب في الحال وجمع ما في الخزانة وجاء بالخرجين بأمانتهما، ووضع جميع ما كان في الخزانة قدام جودر، وقال: يا سيدي، ما أبقيت في الخزانة شيئاً. فأمر أمه أن تحفظ خرج الجواهر وحط الخرج المرصود قدامه، وقال للخادم: أمرتك أن تبني لي في هذه الليلة قصرًا عاليًا، وتزوجه بماء الذهب، وتفرشه فرشًا فاخرًا، ولا يطلع النهار إلا وأنت خالص من جميعه. فقال له: لك ذلك. ونزل في الأرض، وبعد ذلك أخرج جودر الأطعمة وأكلوا وانبسطوا وناموا.

وأما ما كان من أمر الخادم، فإنه جمع أعوانه وأمر ببناء القصر، فصار البعض منهم يقطع الأحجار والبعض يبني والبعض يُبَيِّضُ، والبعض ينقش والبعض يفرش، فما طلع النهار حتى تم انتظام القصر، ثم طلع الخادم إلى جودر، وقال: يا سيدي، إن القصر كمل وتم نظامه، فإن كنتَ تطلع تتفرج عليه فاطلع. فطلع هو وأمه وأخواه فرأوا

هذا القصر ليس له نظير، يحير العقول من حسن نظامه، ففرح به جودر وكان على قارعة الطريق، ومع ذلك لم يتكلف عليه شيء، فقال لأمه: هل تسكنين في هذا القصر؟ فقالت: يا ولدي، أسكن. ودعت له، فدعك الخاتم وإذا بالخادم يقول: لبيك. فقال له: أمرتك أن تأتيني بأربعين جارية بيض ملاح، وأربعين جارية سود، وأربعين مملوكًا، وأربعين عبدًا. فقال: لك ذلك. وذهب مع أربعين من أعوانه إلى بلاد الهند والسند والعجم، وصاروا كلما رأوا بنتًا جميلة يخطفونها أو غلامًا يخطفونه، وأنفذ أربعين؛ فجاءوا بجوار سود ظراف وأربعين جاءوا بعبيد، وأتى الجميع دار جودر فملئوها، ثم عرضهم على جودر فأعجبوه، فقال: هات لكل شخص حلة من أفخر الملبوس. قال: حاضر. وقال: هات حلة تلبسها أُمي، وحلة ألبسها أنا. فأتى بالجميع، وألبس الجواري، وقال لهم: هذه سيدتكم فقبّلوا يدها ولا تخالفوها، واخدموها بيضًا وسودًا. ولبس الممالك وقبّلوا يد جودر، ولبس أخواه، وصار جودر كناية عن ملك وأخواه مثل الوزراء، وكان بيته واسعًا فأسكن سالمًا وجواريه في جهة، وسليمًا وجواريه في جهة، وسكن هو وأمه في القصر الجديد، وصار كل منهم في محله مثل السلطان.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر خازن دار الملك، فإنه أراد أن يأخذ بعض مصالح من الخزانة، فدخل فلم يرَ فيها شيئًا، بل وجدها كقول من قال:

كَانَتْ خَلِيَّاتُ نَحْلِ وَهِيَ عَامِرَةٌ لَمَّا خَلَا نَحْلُهَا صَارَتْ خَلِيَّاتٍ

فصاح صيحة عظيمة ووقع مغشيًا عليه، فلما أفاق خرج من الخزانة وترك بابها مفتوحًا، ودخل على الملك شمس الدولة وقال: يا أمير المؤمنين، الذي نعلمك به أن الخزانة فرغت في هذه الليلة. فقال الملك: ما صنعت بأموالي التي في خزانتي؟ فقال: والله ما صنعتُ فيها شيئًا، ولا أدري ما سبب فراغها، بالأمس دخلتها فرأيتها ممتلئة، واليوم دخلتها فرأيتها فارغة ليس فيها شيء، والأبواب مغلقة ولا نُقبت، ولا كُسرت ضببتها، ولم يدخلها سارق. فقال له: هل راح منها الخرجان؟ فقال: نعم. فطار عقله من رأسه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٢٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن خازن دار الملك لما دخل عليه وأعلمه أن ما في الخزانة ضاع، وكذلك الخرجان، طار عقله من رأسه، وقام على قدميه، ثم إنه قال للخازن دار: امض قدامي. فمضى وتبعه الملك حتى أتيا الخزانة، فلم يجد فيها شيئاً، فانقهر الملك وقال: مَنْ سطا على خزانتي ولم يخف من سطوتي؟ وغضب غضباً شديداً، ثم خرج ونصف الديوان، فجاءت أكابر العساكر وصار كلُّ منهم يظن أن الملك غضبان عليه فقال: يا عساكر، اعلّموا أن خزانتي انتهبت في هذه الليلة، ولم أعلم مَنْ فعل هذه الفعل وسطاً عليّ، ولم يخف مني؟ فقالوا: وكيف ذلك؟ فقال: اسألوا الخازن دار. فسأله، قال الخازن دار: بالأمس كانت ممثلة، واليوم دخلتها فرأيتها فارغة، ولم تنقب ولم يكسر بابها. فتعجّب جميع العسكر من هذا الكلام، فلم يحصل رد الجواب من العسكر إلا والقواص الذي نَمَّ سابقاً على سليم وسالم داخل على الملك، وقال: يا ملك الزمان، طول الليل، وأنا أتفرج على بنائين يبنون، فلما طلع النهار رأيت قصرًا مبنياً ليس له نظير، فسألتُ فقيلاً لي: إن جودراً أتى وبنى هذا القصر وعنده ممالك وعبيد، وجاء بأموال كثيرة، وخلص أخويه من السجن وهو في داره كأنه سلطان. فقال الملك: انظروا السجن. فنظروه فلم يروا سالماً وسليماً، فرجعوا وأعلموه بما جرى، فقال الملك: بان غريمي، فالذي خلّص سالماً وسليماً من السجن هو الذي أخذ مالي. فقال الوزير: يا سيدي، مَنْ هو؟ قال: أخوهم جودر، وأخذ الخرجين، ولكن يا وزير، أرسل لهم أميراً بخمسين رجلاً يقبضون عليه وعلى أخويه، ويضعون الختم على جميع ماله، ويأتوني به حتى أشنقهم. وقد غضب غضباً شديداً وقال: هيا بالعجل ابعث لهم أميراً يأتيني بهم لأقتلهم. فقال له الوزير: احلم، فإن الله حليم لا يعجل على عبده إذا عصاه، فإن الذي يكون بنى قصرًا في ليلة واحدة، كما قالوا لم يقس عليه أحد في الدنيا، وإنني أخاف على الأمير أن يجري له مشقة من جودر، فاصبر حتى أدبر لك تدبيراً

وتنظر حقيقة الأمر، والذي في مرادك أنت لاحقه يا ملك الزمان. فقال الملك: دبّر لي تدبيرًا يا وزير. قال له: أرسل له الأمير واعزمه، ثم إنني أتقيّد لك به، وأظهر له الود وأسأله عن حاله، وبعد ذلك ننظر إن كان عزمه شديدًا نحتال عليه، وإن كان عزمه ضعيفًا فاقبض عليه وافعل به مرادك. فقال الملك: أرسل اعزمه. فأمر أميرًا اسمه الأمير عثمان أن يروح إلى جودر ويعزمه ويقول له: الملك يدعوك للضيافة. وقال له الملك: لا تجيء إلا به.



فوصل الأمير عثمان إلى قصر جودر ومعه خمسون رجلًا.

وكان ذلك الأمير أحمقًا متكبرًا في نفسه، فلما نزل رأى قدام باب القصر طواشيًا جالسًا على كرسي في باب القصر، فلما وصل الأمير عثمان إلى القصر لم يقم له، وكأنه لم يكن مُقبِلًا عليه أحد، ومع ذلك كان مع الأمير عثمان خمسون رجلًا، فوصل الأمير عثمان وقال له: يا عبد، أين سيدك؟ قال: في القصر. وصار يكلمه وهو متكئ، فغضب الأمير عثمان وقال له: يا عبد النحس، أَمَا تستحي مني وأنا أكلّمك وأنت مضطجع مثل العلوق؟ فقال له: امش لا تكن كثير الكلام. فما سمع منه هذا الكلام حتى امتزج بالغضب وسحب الدبوس وأراد أن يضرب الطواشي ولم يعلم أنه شيطان، فلما رآه سحب الدبوس قام واندفع عليه، وأخذ منه الدبوس وضربه به أربع ضربات، فلما رآه الخمسون رجلًا صعب عليهم ضرب سيدهم، فسحبوا السيوف وأرادوا أن يقتلوا العبد، فقال لهم: أّسحبون السيوف يا كلاب؟ وقام عليهم وصار كلُّ مَنْ لطشه دبوسًا يهشمه، ويُغرِقُه في الدم، فانهزموا قدامه، وما زالوا هاربين وهو يضربهم إلى أن بعدوا عن باب القصر، ورجع وجلس على كرسيه ولم يبال بأحد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٢١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الطواشي لما شتَّت الأمير عثمان تابع الملك وجماعته إلى أن أبعدهم عن باب دار جودر، رجع وجلس على الكرسي عند باب القصر ولم يبال بأحد. وأما ما كان من أمر الأمير عثمان وجماعته، فإنهم رجعوا منهزمين مضروبين إلى أن وقفوا قدام الملك شمس الدولة، وأخبروه بما جرى لهم، وقال الأمير عثمان للملك: يا ملك الزمان، لما وصلت إلى باب القصر رأيت طواشيًا جالسًا في الباب على كرسي من الذهب، وهو متكبر، فلما رأيته مقبلًا عليه اضطجع بعد أن كان جالسًا واحتقروني ولم يقيم لي، فصرْتُ أكلمه فيجيبني وهو مضطجع، فأخذتني الحدة وسحبت عليه الدبوس وأردت ضربه، فأخذ الدبوس مني وضربني به وضرب جماعتي وبطحهم، فهربنا من قدامه ولم نقدر عليه. فحصل للملك غيظ وقال: ينزل إليه مائة رجل. فنزلوا إليه وأقبلوا عليه، فقام لهم بالدبوس، وما زال يضرب فيهم حتى هربوا من قدامه، ورجع وجلس على الكرسي، فرجع المائة رجل، ولما وصلوا إلى الملك أخبروه وقالوا له: يا ملك الزمان، هربنا من قدامه خوفًا منه. فقال الملك: تنزل مائتان. فنزلوا فكسرهم، ثم رجعوا، فقال الملك للوزير: ألزمتك أيها الوزير أن تنزل بخمسائة رجل وتأتيني بهذا الطواشي سريعًا، وتأتي بسيد جودر وأخويه. فقال له: يا ملك الزمان، لا أحتاج لعسكر بل أروح إليه وحدي من غير السلاح. فقال له: رح وافعل الذي تراه مناسبًا. فرمى الوزير السلاح ولبس حلة بيضاء، وأخذ في يده سبحة، ومشى وحده من غير ثانٍ حتى وصل إلى قصر جودر، فرأى العبد جالسًا، فلما رآه أقبل عليه من غير سلاح وجلس جنبه بأدب، ثم قال: السلام عليكم. فقال: وعليكم السلام يا أنسي، ما تريده؟ فلما سمعه يقول: يا أنسي. علم أنه من الجن، فارتعش من خوفه فقال له: يا سيدي، هل سيدك جودر هنا؟ قال: نعم في القصر. فقال

له: يا سيدي، اذهب إليه وقل له: إن الملك شمس الدولة يدعوك، وعامل لك ضيافة ويُقرِّئك السلام ويقول لك: شرف منزله وكل ضيافته. فقال له: قف أنت هنا حتى أשאوره.

فوقف الوزير مؤدبًا وطلع المارد القصر وقال لجودر: اعلم يا سيدي أن الملك أرسل إليك أميرًا فضربته، وكان معه خمسون رجلًا فهزمتهم، ثم إنه أرسل مائة رجل فضربتهم، ثم أرسل مئتا رجل فهزمتهم، ثم أرسل إليك الوزير من غير سلاح يدعوك إليه لتأكل من ضيافته، فماذا تقول؟ فقال له: رح هات الوزير إلى هنا. فنزل من القصر وقال له: يا وزير، كلّم سيدي. فقال: على الرأس. ثم إنه طلع ودخل على جودر، فرآه أعظم من الملك، جالسًا على فراش لا يقدر الملك أن يفرش مثله، وتحير فكره من حسن القصر، ومن نقشه وفرشه، حتى كأن الوزير بالنسبة إليه فقير، فقَبَّل الأرض ودعا له، فقال له: ما شأنك أيها الوزير؟ فقال له: يا سيدي، إن الملك شمس الدولة حبيبك يُقرِّئك السلام، ومشتاق إلى النظر لوجهك، وقد عمل لك ضيافة فهل تجبر خاطره؟ فقال جودر: حيث كان حبيبي فسَلِّم عليه، وقل له يجيء هو عندي. فقال له: على الرأس. ثم أخرج الخاتم ودعكه، فحضر الخادم فقال له: هات لي حلة من خيار الملبوس. فأحضر له حلة فقال: البس هذه يا وزير. فلبسها، ثم قال له: رح أَعْلِم الملك بما قلته. فنزل لابسًا تلك الحلة التي لم يلبس مثلها، ثم دخل على الملك، وأخبره بحال جودر وشكر القصر وما فيه، وقال: إن جودرًا عزمك. فقال: قوموا يا عسكر. فقاموا كلهم على الأقدام، وقال: اركبوا خيلكم وهاتوا لي جوادي حتى نروح إلى جودر. ثم إن الملك ركب وأخذ العساكر وتوجهوا إلى بيت جودر، وأما جودر فإنه قال للمارد: مرادي أن تجيء لنا من أعوانك بعفاريت في صفة الإنس يكونون عسكرًا، ويقفون في ساحة البيت حتى يراهم الملك فيُرْعِبونه ويُفْزِعونه، فيرتجف قلبه، ويعلم أن سطوتي أعظم من سطوته. فأحضر مائتين في صفة عسكر متقلّدين بالسلاح الفاخر وهم شداد غلاظ، فلما وصل الملك رأى القوم الشداد الغلاظ فخاف قلبه منهم، ثم إنه طلع القصر ودخل على جودر، فرآه جالسًا جلسة لم يجلسها ملك ولا سلطان، فسَلِّم عليه وتمنّى بين يديه وجودر لم يقم له، ولم يعمل له مقامًا، ولم يقل له اجلس، بل تركه واقفًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٢٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جودراً لما دخل عليه الملك لم يقم له ولم يعتبره ولم يقل له اجلس، بل تركه واقفاً حتى داخله الخوف، فصار لا يقدر أن يجلس ولا أن يخرج، وصار يقول في نفسه: لو كان خائفاً مني ما كان تركني عن باله، وربما يؤذيني بسبب ما فعلتُ مع أخويهِ. ثم إن جودراً قال: يا ملك الزمان، ليس شأن مثلكم أن يظلم الناس ويأخذ أموالهم. فقال له: يا سيدي، لا تؤاخذني؛ فإن الطمع أحوجني إلى ذلك ونفذ القضاء، ولولا الذنب ما كانت المغفرة. وصار يعتذر إليه على ما سلف منه، ويطلب منه العفو والسماح، حتى من جملة الاعتذار أنشده هذا الشعر:

يَا أَصِيلَ الْجُدُودِ سَمَحَ السَّجَايَا لَا تَلُمْنِي فِيمَا تَحَصَّلَ مِنِّي
إِنْ تَكُنْ ظَالِمًا فَعَنَّاكَ عَفُونًا أَوْ أَكُنْ ظَالِمًا فَعَفُوكَ عَنِّي

وما زال يتواضع بين يديه حتى قال له: عفا الله عنك. وأمره بالجلوس فجلس وخلع عليه ثياب الأمان، وأمر أخويه بمد السماط، وبعد أن أكلوا كسا جماعة الملك وأكرمهم، وبعد ذلك أمر الملك بالسير فخرج من بيت جودر، وصار كل يوم يأتي إلى بيت جودر، ولا ينصب الديوان إلا في بيت جودر، وزادت بينهما العشرة والمحبة. ثم إنهم قاموا على هذه الحالة مدة، وبعد ذلك خلا بوزيره وقال له: يا وزير، أنا خائف أن يقتلني جودر ويأخذ الملك مني. فقال له: يا ملك الزمان، أما من قضية أخذ الملك فلا تخف، فإن حالة جودر التي هو فيها أعظم من حالة الملك، وأخذ الملك حطة في قدره، فإن كنت خائفاً أن يقتلك فإن لك بنتاً فزوّجها له وتصير أنت وإياه حالة واحدة. فقال له: يا وزير، أنت تكون واسطة بيني وبينه. فقال له: اعزمه عندك، ثم إننا نسهر في قاعة، ومُرْ بنتك أن تتزيّن

بأفخر زينة، وتمر عليه من باب القاعة، فإنه متى رآها عشقها، فإذا فهمنا منه ذلك فأنا أميل عليه وأخبره أنها ابنتك، وأدخل وأخرج معه في الكلام بحيث إنه لم يكن عندك خبر بشيء من ذلك، حتى يخطبها منك، ومتى زوّجته البنت صرت أنت وإياه شيئاً واحداً، وتأمين منه، وإن مات تَرث منه الكثير. فقال له: صدقت يا وزير. وعمل الضيافة وعزمه، فجاء إلى سراية السلطان، وقعدوا في القاعة في أنس زائد إلى آخر النهار، وكان الملك أرسل إلى زوجته أن تزيّن البنت بأفخر زينة، وتمر بها على باب القاعة، فعملت كما قال ومَرَّت بالبنت، فنظرها جودر، وكانت ذات حُسْن وجمال وليس لها نظير، فلما حَقَّق جودر النظر فيها قال: أه. وتفككت أعضاؤه واشتدَّ به العشق والغرام، وأخذهُ الوجد والهيام، واصفرَّ لونه، فقال له الوزير: لا بأس عليك يا سيدي، ما لي أراك متغيّراً متوجّعاً؟ فقال: يا وزير، هذه البنت بنت مَنْ؟ فإنها سلبتني وأخذت عقلي. فقال: هذه بنت حبيبك الملك، فإن كانت أعجبتك أنا أتكلم مع الملك يزوّجك إياها. فقال: يا وزير، كلّمه وأنا وحياتي أعطيك ما تطلب، وأعطي الملك ما يطلبه في مهرها، ونصير أحباباً وأصهاراً. فقال له الوزير: لا بد من حصول غرضك. ثم إن الوزير حدّث الملك سرّاً، وقال له: يا ملك الزمان، إن جودراً حبيبك يريد القرب منك، وقد توسّلَ بي إليك أن تزوّجه ابنتك السيدة آسية، فلا تخيبنني وأقبل سياقي، ومهما تطلبه في مهرها يدفعه. فقال الملك: المهر قد وصلني، والبنت جارية في خدمته، وأنا أزوّجه إياها، وله الفضل في القبول. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٢٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شمس الدولة لما قال له وزيره: إن جودراً يريد القرب منك بتزويجه ابنتك. قال له: المهر قد وصلني، والبنت جارية في خدمته، وله الفضل في القبول. وباتوا تلك الليلة، ثم أصبح الملك فنصب ديواناً، وأحضر فيه الخاص والعام، وحضر شيخ الإسلام، وجودر خطب البنت، وقال الملك: المهر قد وصل. وكتبوا الكتاب فأرسل جودر بإحضار الخرج الذي فيه الجواهر، وأعطاهها للملك في مهر البنت، ودُقَّتِ الطبول وغنت الزمور وانتظمت عقود الفرح ودخل على البنت، وصار هو والملك شيئاً واحداً، وأقاما مع بعضهما مدة من الأيام، ثم مات الملك فصارت العساكر تطلب جودراً للسلطنة، ولم يزالوا يرغبونه وهو يمتنع منهم حتى رضي فجعلوه سلطاناً، فأمر ببناء جامع على قبر الملك شمس الدولة، ورتب له الأوقاف وهو في خط البندقانيين. وكان بيت جودر في حارة اليمانية، فلما تسلطن بنى أبنية وجامعاً، وقد سُمِّيت الحارة به وصار اسمها الجودرية، وأقام ملكاً مدة وجعل أخويه وزيرين، سالماً وزير ميمينته، وسليماً وزير ميسرته، فأقاموا عاماً واحداً من غير زيادة، ثم إن سالماً قال لسليم: يا أخي إلى متى هذا الحال؟ فهل نقضي عمرنا كله ونحن خادمان لجودر؟ ولا نفرح بسيادة ولا سعادة ما دام جودر حياً. قال: وكيف نصنع حتى نقتله ونأخذ منه الخاتم والخرج؟ فقال سليم لسالم: أنت أعرف مني، فدبّر لنا حيلة لعلنا نقله بها. فقال: إذا دبّرت لك حيلة على قتله، هل ترضى أن أكون أنا سلطاناً وأنت وزير ميمنة، ويكون الخاتم لي والخرج لك؟ قال: رضيت. فاتفقا على قتل جودر من شأن حب الدنيا والرئاسة.

ثم إن سليماً وسالماً دبّرا حيلة لجودر وقالوا له: يا أخانا، إن مرادنا أن نفتخر بك، فتدخل بيوتنا وتأكل ضيافتنا وتجبر خاطرنا. وصار يخادعانه ويقولان له: اجبر خاطرنا وكلّ ضيافتنا. فقال: لا بأس، فالضيافة في بيت من فيكم؟ قال سالم: في بيتي، وبعدما

تأكل ضيافتي تأكل ضيافة أخي. قال: لا بأس. وذهب مع سليم إلى بيته، فوضع له الضيافة وحط فيها السم، فلما أكل تفتّت لحمه مع عظمه، فقام سالم ليأخذ الخاتم من إصبعه، فعصى منه فقطع إصبعه بالسكين، ثم إنه دك الخاتم فحضر له المارد وقال: لبيك فاطلب ما تريد. فقال له: امسك أخي واقتله، واحمل الاثنين المسموم والمقتول وارمهما قدام العسكر، فأخذ سليماً وقتله، وحمل الاثنين وخرج بهما ورماهما قدام أكابر العسكر، وكانوا جالسين على السفرة في مقعد البيت يأكلون، فلما نظروا جودراً وسليماً مقتولين، رفعوا أيديهم من الطعام وأزعجهم الخوف، وقالوا للمارد: مَنْ فعل بالملك والوزير هذه الفِعال؟ فقال لهم: أخوهم سالم. وإذا بسالم أقبل عليهم وقال: يا عسكر، كُلُوا وانبسطوا، فإنني ملكت الخاتم من أخي جودر، وهذا المارد خادم الخاتم قدامكم وأمرته بقتل أخي سليم حتى لا ينازعني في الملك؛ لأنه خائن وأنا أخاف أن يخونني، وهذا جودر صار مقتولاً، وأنا بقيت سلطاناً عليكم، هل ترضون بي؟ وإلا أدعك الخاتم فيقتلكم خادمه كباراً وصغاراً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٢٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن سألما لما قال للعسكر: هل ترضون بي عليكم سلطاناً؟ وألا أدعك الخاتم فيقتلكم كباراً وصغاراً. قالوا له: رضينا بك ملكاً وسلطاناً. ثم أمر بدفن أخويه ونصب الديوان وذهب ناس في تلك الجنازة وناس مشوا قدامه بالموكب، ولما وصلوا إلى الديوان، جلس على الكرسي، وبايعوه على الملك وبعد ذلك قال: أريد أن أكتب كتابي على زوجة أخي. فقالوا له: حتى تنقضي العدة. فقال لهم: أنا لا أعرف عدة ولا غيرها، وحياء رأسي لا بد أن أدخل عليها في هذه الليلة. فكتبوا له الكتاب وأرسلوا أعلموا زوجة جودر بنت الملك شمس الدولة، فقالت: دعوه ليدخل. فلما دخل عليها أظهرت له الفرح، وأخذته بالترحيب، وحطت له السم في الماء فأهلكته، ثم إنها أخذت الخاتم وكسرتة حتى لا يملكه أحد وشقَّت الخرج، ثم أرسلت أخبرت شيخ الإسلام وأرسلت تقول لهم: اختاروا لكم ملكاً يكون عليكم سلطاناً. وهذا ما انتهى إلينا من حكاية جودر بالتمام والكمال.

حكاية عجيب وغريب

وبلغني أيضاً أنه كان في قديم الزمان ملك من الملوك العظام يقال له الملك كندمر، وكان ملكاً شجاعاً وقرماً مناعاً، ولكنه شيخ هَرم كبير، وقد رزقه الله تعالى في حال هرمه ولداً ذكراً، فسماه عجيباً لحُسْنه وجماله، وسلَّمه إلى القوابل والمرضعات والجواري والسراري حتى نشأ وكبر، حتى بلغ من العمر سبع سنين من الأعوام على التمام، فرتَّب له أبوه كاهناً من أهل ملته ودينه، فعَلَّمه شريعتهم وكفرهم وما يحتاج إليه في مدة ثلاث سنين كوامل، إلى أن مهر وقويت عزمته وصحت فكرته، وصار عارفاً فصيحاً فيلسوفاً موصوفاً، يناظر العلماء ويجالس الحكماء، فلما رأى أبوه ذلك منه أعجبه، ثم علَّمه ركوب الخيل والطعن



كان في قديم الزمان ملكًا شجاعًا وقَزْمًا مَنًّا، ولكنه شيخٌ هَرِمٌ كبير.

بالرمح والضرب بالسيف إلى أن صار فارسًا شجاعًا، فما تَمَّ عمره عشر سنين حتى فاق أهل زمانه في جميع الأشياء، وعرف أبواب الحرب، فصار جَبَّارًا عنيدًا وشيطانًا مريدًا، وكان إذا ركب للصيد والقنص يركب في ألف فارس، ويشنُّ الغارات على الفوارس، ويقطع الطرق ويسبي بنات الملوك والسادات، وكثرت فيه لأبيهِ الشكايات، فصاح الملك على خمسة من العبيد، فحضروا فقال لهم: امسكوا هذا الكلب. فهجم الغلمان على عجيب، وكتَّفوه

وأمرهم بضربه فضربه حتى غاب عن الوجود، وسجنه في قاعة لا يعرف فيها السماء من الأرض ولا الطول من العرض، فمكث ليلة محبوباً، فتقدّم الأمراء إلى الملك وقبّلوا الأرض بين يديه، وشفّعوا في عجيب فأطلقه، فصبر عجيب على أبيه عشرة أيام ودخل عليه في الليل وهو نائم وضربه فرمى عنقه، فلما طلع النهار ركب عجيب على كرسي مملكة أبيه، وأمر رجاله أن يقفوا بين يديه، ويلبسوا البولد، ويسحبوا سيوفهم، وأوقفهم ميمنة وميسرة، فلما دخل الأمراء والمقدمون وجدوا ملكهم مقتولاً وابنه جالساً على كرسي مملكته، فتحيرت عقولهم، فقال لهم عجيب: يا قوم، لقد رأيتم ما حصل للملكم، فمن أطاعني أكرمته، ومن خالفني فعلت به مثله.

فلما سمعوا كلامه خافوا منه أن يبطش بهم، فقالوا له: أنت ملكنا وابن ملكنا. وقبّلوا الأرض بين يديه، فشكرهم وفرح بهم وأمر بإخراج المال والقماش، ثم إنه خلع عليهم الخلع السنية وغمرهم بالمال، فحبوه كلهم وأطاعوه، وخلع على النواب ومشايخ العربان، العاصي والطائع، فدانت له البلاد وأطاعته العباد، وحكم وأمر ونهى مدة خمسة أشهر، ثم رأى في منامه رؤيا، فانتبه فزعاً مرعوباً ولم يأخذه منام حتى أصبح الصباح، فجلس على الكرسي ووقفت الجنود بين يديه ميمنة وميسرة، ثم دعا بالمعبرين والمنجمين، فقال لهم: فسّروا لي هذا المنام. فقالوا له: وما المنام الذي رأيته أيها الملك؟ فقال: رأيت كأن والدي قدامي وانكشف إحليله، وخرج منه شيء قدر النحلة، فكبر حتى صار كالسبع العظيم بمخالب مثل الخناجر وقد خفت منه، فبينما أنا باهت فيه إذ همّ عليّ وضربني بمخالبه، فشقّ بطني، فانتبهت فزعاً مرعوباً. فنظر المعبرون إلى بعضهم وتفكروا في رد الجواب ثم قالوا: أيها الملك العظيم، هذا المنام يدل على مولود لك من أبيك، وتقع العداوة بينك وبينه ويظهر عليك، فخذْ حذرك منه بسبب هذا المنام.

فلما سمع عجيب كلام المعبرين قال: ليس لي أخ أخاف منه، فقولكم هذا كذب. فقالوا له: ما أخبرنا إلا بما علمنا. فنفر فيهم وضربهم وقام ودخل قصر أبيه واختبر سراري أبيه، فوجد فيهن جارية لها سبعة أشهر، فأمر عبيدين من عبيده وقال لهما: خذا هذه الجارية وامضيا بها إلى البحر وغرّقاها. فأخذاها من يدها وذهبا بها إلى البحر، وأرادا أن يغرقاها، فنظرا إليها فوجداها بديعة الحسن والجمال، فقالا: لأي شيء نغرق هذه الجارية؟ وإنما نأخذها إلى الغابة ونعيش بها في تعريض عجيب. فأخذاها وسارا أياماً وليالي حتى بعدا عن الديار، فتوجّها بها إلى غابة كثيرة الأشجار والأثمار والأنهار، واتفق رأيهما على أن يقضوا غرضهما منها، وصار كل واحد منهما يقول: أنا أفعل قبلك. واختلفا مع بعضهما،

فطلع عليهما ناس من السودان، فسلوا سيوفهم وحملوا على بعضهم، واشتدَّ بينهم القتال والحرب والطعان، ولم يزالوا يحاربون العبدین حتى قتلوهما في أسرع من طرفة العين، وصارت الجارية تدور وحدها في الغابة وتأكل من أثمارها وتشرب من أنهارها، ولم تزل على هذه الحالة حتى وضعت غلاماً أسمر نظيفاً ظريفاً، وسمته الغريب لغُربته، وقطعت سُرَّته ولَفَّتْه في بعض ثيابها، وصارت تُرْضِعُه وهي حزينَة القلب والفؤاد على ما كانت فيه من العز والدلال. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٢٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية صارت مُقيمة في الغابة وهي حزينة القلب والفؤاد، وصارت تُرضع ولدها مع ما حصل لها من غاية الحزن والخوف من وحدتها، فبينما هي في بعض الأيام على تلك الحالة، وإذا هي بفارسان ورجال مشاة ومعهم بزة وكلاب صيد، وقد حَمَلُوا خيولهم من كركي وبلشون ووز عراقي وغطاس وطيء ماء، ووحوش وأرانب وغزلان وبقر وحش، وفراخ النعام وتفه وذئاب وسباع، ثم دخل هؤلاء العربان في تلك الغابة، فوجدوا الجارية وابنها في حجرها تُرضعه، فتقربوا منها وقالوا لها: هل أنت إنسية أو جنية؟ قالت: إنسية يا سادات العرب. فأَعْلَمُوا أميرهم وكان اسمه مرداساً سيد بني قحطان، وقد خرج إلى الصيد في خمسمائة أمير من قومه وبني عمه، فلم يزالوا يصطادون حتى وصلوا إلى الجارية ونظروها، وأعلمتهم بما جرى من أوله إلى آخره، فتعجبَ الملك من أمرها وصاح على قومه وبني عمه، فلم يزالوا يصطادون حتى وصلوا إلى بني قحطان، فأخذها وأفردها بمحل ووكَّلَ بها خمس جوارٍ من أجل الخدمة، وقد أَحَبَّها حبًّا شديداً، وقد دخل عليها وواقعها فحملت على الدم، ولما انقضت شهورها وضعت غلاماً ذكراً فَسَمَّته ساهيم الليل، فتربَّى بين القوابل مع أخيه حتى نشأ ومهر في حجر الأمير مرداس، فسَلَّمهما إلى فقيه فعَلَّمهما أمر دينهما، وبعد ذلك سَلَّمهما إلى شجاع العرب فعَلَّمهما طعن الرمح وضرب السيف ورمي النشاب، فما كَمَلَا خمس عشرة سنة حتى تعلَّمَا ما يحتاجان إليه، وفاقا على كل شجيع في الحي، فكان غريب يحمل على ألف فارس وكذا أخوه ساهيم الليل.

وكان لمرداس أعداء كثيرة، وكانت عربيه أشجع العرب، فكلهم أبطال فرسان لا يُصْطَلَى لهم بنار، وكان بجواره أمير من أمراء العرب يقال له حسان بن ثابت، وهو

صديقه، وقد خطب كريمة من قومه، فدعا جميع أصحابه ومن جملتهم مرداس سيد بني قحطان، فأجاب وأخذ معه من قومه ثلاثمائة فارس، وترك أربعمائة فارس لحفظ الحريم، وسار حتى وصل إلى حسان، فتلقاه وأجلسه في أحسن مكان، وجاءت كل الفرسان لأجل العُرس، وعمل لهم الولائم وفرح بعمره، وانصرف العربان إلى منزلهم، فلما وصل مرداس إلى حيه رأى قتيلين مطروحين، والطير حائم عليهما يميناً وشمالاً، فارتجف قلبه ودخل الحي فتلقاه غريب وهو متدرّع بالزرد وهنّاه بالسلامة، فقال مرداس: ما هذا الحال يا غريب؟ قال: هجم علينا الحمل بن ماجد وقومه في خمسمائة فارس. وكان السبب في هذه الواقعة أن الأمير مرداس كان له بنت تُسمّى مهديّة، ما رأى الرائي أحسن منها، فسمع بها الحمل سيد بني نبهان، فركب في خمسمائة فارس وتوجه إلى مرداس وخطب مهديّة، فلم يقبله ورّده خائباً، فصار الحمل يرصد مرداساً حتى غاب وعزمه حسان، فركب في أبطاله وهجم على بني قحطان، فقتل جماعة من الفرسان، وهرب بقية الأبطال في الجبال، وكان غريب وأخوه قد ركبا في مائة خيال وخرجا للصيد والقنص، فما رجعا حتى انتصف النهار، فوجدّا الحمل وقومه ملكوا الحي وما فيه، وأخذوا بنات الحي وأخذ مهديّة بنت مرداس وساقها مع السبي، فلما نظر غريب إلى هذا الحال، غاب عن الصواب وصاح على أخيه سهيم الليل وقال: يا بن الملعونة، نهبوا حيّنا، وأخذوا حريمنا، فدونك والأعداء وخلص السبي والحريم. فحمل سهيم وغريب بالمائة فارس على الأعداء، ولم يزد غريب إلا غيظاً، وصار يحصد الرءوس ويسقي الأبطال من المنون كئوساً، حتى وصل الحمل ونظر إلى مهديّة وهي مسبية، فحمل على الحمل وطعنه، وعن جواده قلبه، فما جاء وقت العصر حتى قتل أكثر الأعداء، وانهزم الباقون، وخلّص غريب السبي، ورجع إلى البيوت ورأس الحمل على رمحه، وهو ينشد هذه الأبيات:

وَجِئُ الْأَرْضُ تَقَرُّعُ مِنْ خِيَالِي	أَنَا الْمَعْرُوفُ فِي يَوْمِ الْمَجَالِ
تَبَادَرَتِ الْمَنِيَّةُ مِنْ شِمَالِي	وَلِي سَيْفٌ إِذَا هَزَّتْ يَمِينِي
يَرَوْنَ فِيهِ سِنَانًا كَالْهَلَالِ	وَلِي رُمْحٌ إِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِ
وَلَا أَخْشَى إِذَا قَلَّتْ رِجَالِي	وَأَدْعَى بِالْغَرِيبِ شَجِيعُ قَوْمِي

فما فرغ غريب من شعره حتى وصل مرداس، ونظر القتلى مطروحين والطير حائم عليهم يميناً وشمالاً، فطار عقله وارتجف قلبه، فسلاه غريب وهنّاه بالسلامة، وأخبره بجميع ما جرى للحي بعد غيابه، فشكره مرداس على ما فعل وقال: ما خابت التربية

فيك يا غريب. ونزل مرداس في سراقه، ووقفت الرجال حوله وصار أهل الحي يثنون على غريب ويقولون: يا أميرنا، لولا غريب ما سلم أحد من الحي. فشكره مرداس على ما فعل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٢٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مرداسًا لما رجع إلى حيّه وأقبل عليه رجاله، أثنوا على غريب، فشكره مرداس على فعله، ولما نظر غريب الحمل سبى مهدية خلّصها منه وقتله، فرمت غريبًا بسهام لحظها، فوقع في شَرَك هواها، وصار قلبه لا ينساها، وغرق في العشق والغرام، وفارقه لذيق المنام، ولم يلتذ بشراب ولا طعام، وصار يركض جواده ويصعد الجبال وينشد الأشعار، ويرجع آخر النهار وقد لاح عليه آثار العشق والهيام، فأفشى سره لبعض أصحابه، فشاع في الحي جميعه حتى وصل إلى مرداس، فبرق ورعد، وقام وقعد، وشخر ونخر، وسبّ الشمس والقمر، وقال: هذا جزاء مَنْ يربي أولاد الزنا، ولكن إن لم أقتل غريبًا ركبني العار. ثم إنه استشار رجلًا من عقلاء قومه في قتل غريب وأظهر سرّه عليه، فقال له: يا أمير، إنه بالأمس خلّص بنتك من السبي، فإن كان لا بد من قتله فاجعله على يد غيرك، حتى لا يشك أحد فيك. فقال مرداس: دبّر لي حيلة في قتله، فما أعرف قتله إلا منك. فقال: يا أمير، ارصده حتى يخرج إلى الصيد والقنص، وخذ معك مائة خيَال، واكمن له في المغارة وغافله حتى ينتهي، فاحملوا عليه وقطّعوه، وحينئذ تبرأ من عاره. فقال مرداس: هذا هو الصواب.

واختار مرداس من قومه مائة وخمسين فارسًا عمالقة شداد، وأوصاهم وحرّضهم على قتل غريب، ولم يزل يرقبه حتى خرج غريب ليصطاد وقد بعد في الأودية والجبال، فذهب بفرسانه الأنجاس، وكمنوا لغريب في طريقه حتى يرجع من الصيد فيخرجون عليه ليقنطروه. فبينما مرداس وقومه كامنون بين الأشجار، وإذا بخمسمائة من العمالقة هجموا عليهم فقتلوا منهم ستين وأسروا التسعين وكتفوا مرداسًا، وكان السبب في ذلك أنه لما قُتل الحمل وقومه انهزم الباقون، ولم يزالوا في هزيمتهم حتى وصلوا إلى أخيه وأعلموه بما جرى، فقامت قيامته وجمع العمالقة واختار منهم خمسمائة فارس، طول

كل واحد منهم خمسون ذراعاً، وتوجه لطلب ثأر أخيه، فوقع بمرداس هو وأبطاله، وجرى بينهم ما جرى. فلما أسروا مرداس وقومه، نزل أخو الحمل وقومه وأمرهم بالراحة وقال: يا قوم، إن الأصنام هَوْنَتْ علينا أخذ الثأر، فاحتفظوا على مرداس وقومه حتى أمضي بهم وأقتلهم أشنع قتلة. فنظر مرداس روحه مربوطاً، وندم على ما فعل وقال: هذا جزاء البغي. ونام القوم فرحانين بالنصر، ومرداس وأصحابه مربوطون، وقد يؤسوا من الحياة وأيقنوا بالوفاة.

هذا ما كان من أمر مرداس، وأما سهيم الليل فإنه دخل على أخته مهدية وهو مجروح، فقامت له وقبَلَتْ يديه وقالت له: لا شُلْتُ يداك ولا شمتت عداك، فلولا أنت وغريب ما خلصنا من السبي والأعداء، واعلم يا أخي أن أباك ركب في مائة وخمسين فارساً وهو يريد قتل غريب، وقد علمت أن غريباً خسارة في القتل؛ لأنه صان عرضكم وخلَصَ أموالكم. فلما سمع سهيم هذا الكلام صار الضياء في وجهه ظلاماً، ولبس آلة حربه وركب جواده، وطلب المكان الذي يصطاد فيه أخوه، فوجده اصطاد شيئاً كثيراً، فتقدَّم إليه وسلَّم عليه وقال: يا أخي، هل تشرح ولا تُعلمني؟ فقال غريب: والله ما منعني من ذلك إلا أنني رأيتك مجروحاً، فقصدت راحتك. فقال سهيم: يا أخي، خذ حذرک من أبي. ثم حكى له ما جرى وأنه خرج في مائة وخمسين فارساً يريدون قتله، قال له غريب: الله يرمي كيده في نحره. ورجع غريب وسهيم طالبين الديار، فأمسى عليهما المساء وسارا على ظهور الخيل حتى وصلا الوادي الذي فيه القوم، وسمعا صهيل الخيل في ظلام الليل، فقال سهيم: يا أخي، هذا أبي وقومه كامنون في هذا الوادي، فتنحَّ بنا عن هذا الوادي. وكان غريب قد نزل عن جواده وألقى لجامه لأخيه وقال له: قف مكانك حتى أعود إليك. وسار غريب حتى رأى القوم، فلم يجدهم من حيَّهم، وسمعهم يذكرون مرداساً ويقولون: ما نقتله إلا في أرضنا. فعرف أن مرداساً عمه مربوطاً معهم فقال: وحياة مهدية ما أروح حتى أخلص أباهما ولا أشوش عليها. ولم يزل يفتش على مرداس حتى وقع به وهو مربوط في الحبال، فقع بجانبه وقال له: سلامتك يا عمي من هذا الذل والاعتقال. فلما نظر مرداس غريباً خرج عقله وقال: يا ولدي، أنا في جيرتك، فخلَّصني بحق التربية. فقال له غريب: إذا خلَّصْتُكَ تعطيني مهدية؟ فقال له: يا ولدي، وحق ما أعتقد هي لك على طول الزمان. فحلَّه وقال له: امض نحو الخيل، فإن ولدك سهيم هناك. فعند ذلك انسلَّ مرداس حتى وصل إلى ولده سهيم، ففرح به وهنَّاهُ بالسلامة، ولم يزل غريب يحل واحداً بعد واحد حتى حل التسعين فارساً، وصار الكل بعيداً عن الأعداء، وأرسل غريب

إليهم العدد والخيول وقال لهم: اركبوا وتفرجوا حول الأعداء وصيحوا، ويكون صياحكم: يا آل قحطان. وإذا صحا القوم فابعدوا عنهم وتفرّقوا حولهم. وصبر غريب إلى الثلث الأخير من الليل وصاح: يا آل قحطان. وصاح قومه كذلك: يا آل قحطان. صيحة واحدة، فجاءت بهم الجبال حتى تخيل للأعداء أن القوم قد هجموا عليهم، فخطفوا سلاحهم جميعاً ووقعوا في بعضهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٢٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن القوم لما انتبهوا من منامهم وسمعوا غريباً وقومه يصيحون ويقولون: يا آل قحطان. تخيل لهم أن آل قحطان هجموا عليهم، فحملوا سلاحهم ووقعوا في بعضهم قتلاً، فتأخَّرَ غريب وقومه، ولم تزل الأعداء يقتلون بعضهم إلى أن طلع النهار، فحمل غريب ومرداس والتسعون بطلاً على بقية الأعداء، فقتلوا منهم جملة وانهزم الباقون، وأخذ بنو قحطان الخيل الشاردة والعدد المهيأة وتوجهوا إلى حيَّهم، وما صدق مرداس أنه تخلص من الأعداء. ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى حيَّهم، فلاقاهم المقيمون وفرحوا بسلامتهم، ونزلوا في خيامهم ونزل غريب في خيمته، واجتمعت عليه شباب الحي وحيَّاه الكبار والصغار، فلما نظر مرداس إلى غريب والشباب حوله، بغضه أكثر من الأول، والتفت إلى عشيرته وقال: قد زاد بُغْضُ غريب في قلبي، وما غَمَنِي إلا اجتماع هؤلاء حوله، وفي غدٍ يطلب مني مهدية. فقال له المشير: يا أمير، اطلب منه ما لا يقدر عليه. ففرح مرداس وبات إلى الصباح، فجلس في مرتبته ودارت العرب حوله، وجاء غريب برجاله والشباب حوله، فأقبل على مرداس وقبَّل الأرض بين يديه، ففرح به وقام إليه وأجلسه بجانبه، فقال غريب: يا عم، قد وعدتني وعداً فأنجِزْه. فقال مرداس: يا ولدي، هي لك على طول المدى، ولكن أنت قليل المال. فقال غريب: يا عم، اطلب ما شئتَ حتى أُعِيرَ على أمراء العرب في مواطنهم، وعلى الملوك في مدائنهم، وأجِءْ لك بمالٍ يسدُّ الخافقين. فقال مرداس: يا ولدي، إني حلفت بجميع الأصنام أني لا أعطي مهدية إلا لمن يأخذ لي ثأري، ويكشف عني عاري. فقال غريب: قل لي يا عم ثأرك عند مَنْ مِنَ الملوك، حتى أسير إليه وأكسر تخته على رأسه؟ فقال مرداس: يا ولدي، قد كان لي ولد بطل من الأبطال، فخرج في مائة بطل لطلب الصيد والقنص، فسار من وادٍ إلى وادٍ، وقد بعد بين الجبال حتى وصل وادي الأزهار، وقصر حام بن شيث بن شداد بن خلد، وذلك

المكان يا ولدي ساكن فيه رجل أسود طويل، طوله سبعون ذراعاً يقاتل بالأشجار، فيقتلع الشجرة من الأرض ويقاتل بها، فلما وصل ولدي إلى ذلك الوادي، خرج عليه هذا الجبار فأهلكه هو والمائة فارس، فما سلم منهم إلا ثلاثة أبطال أتوا أخبرونا بما جرى، فجمعتُ الأبطال وسرتُ لقتاله فما قدرنا عليه، وأنا مقهور على ثأر ولدي، وقد حلفتُ أني لا أزوج ابنتي إلا لمن يأخذ ثأر ولدي.

فلما سمع غريب كلام مرداس قال: يا عم، أنا أسير إلى هذا العملاق وأخذ ثأر ولدك بعون الله تعالى. قال مرداس: يا غريب، إن ظفرتَ به تغنم منه ذخائر وأموالاً لا تأكلها نيران. فقال غريب: اشهد لي بالزواج حتى يقوى قلبي وأسير في طلب رزقي. فاعترف وأشهد كبار الحي، وانصرف غريب وهو فرحان ببلوغ الآمال، ودخل على أمه وأخبرها بما تمَّ له، فقالت له: يا ولدي، اعلم أن مرداساً يبغضك، وما بعثك لذلك الجبل إلا ليعدمني حسك، فخذني معك وارحل من ديار هذا الظالم. قال غريب: يا أمي، لا أرحل حتى أبلغ أملي وأقهر عدوي. وبات غريب حتى أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، فما ركب جواده حتى أقبل أصحابه الشباب، وكانوا مائتاً فارس شداد وهم غارقون في السلاح، وصاحوا على غريب وقالوا له: سر بنا نعاونك ونؤانسك في طريقك. ففرح غريب بهم وقال لهم: جزاكم الله عناً خيراً. وقال لهم: سيروا يا أصحابي. فسار غريب بأصحابه أول يوم وثاني يوم، ثم نزلوا عند المساء تحت جبل شامخ، وعلقوا على خيولهم، فغاب غريب يتمشى في ذلك الجبل حتى وصل إلى مغار، فطلع منه نور، فسار غريب إلى صدر المغار فوجد شيئاً له من العمر ثلاثمائة وأربعون سنة، حاجباه غطياً عينييه، وشاربه غطى فمه، فلما نظر غريب إلى ذلك الشيخ هابه واستعظم خلقته، فقال له الشيخ: كأنتك من الكفار يا ولدي، الذين يعبدون الأحجار دون الملك الجبار، خالق الليل والنهار والفلك الدوار؟

فلما سمع غريب كلام الشيخ ارتعدت فرائضه وقال: يا شيخ، أين يكون هذا الرب حتى أعبده وأتملى برؤيته؟ قال الشيخ: يا ولدي، هذا الرب العظيم لا ينظره أحد في الدنيا، وهو يرى ولا يرى، وهو بالمنظر الأعلى، وهو حاضر في كل مكان بآثار صنعه، ومكوّن الأكوان ومدبّر الزمان، خلق الإنس والجنان، وبعث الأنبياء لهداية الخلق إلى طريق الصواب، فمن أطاعه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار. فقال غريب: يا عم، فما يقول من يعبد هذا الرب العظيم الذي هو على كل شيء قدير؟ قال الشيخ: يا ابني، إني من قوم عاد الذين طغوا في البلاد فكفروا، فأرسل الله إليهم نبياً اسمه هود فكذبوه، فأهلكهم بالريح العقيم، وكنتُ أنا آمنْتُ مع جماعة من قومي، فسلمنا من العذاب، وحضرتُ قوم

ثمود وما جرى لهم مع نبيهم صالح، وأرسل الله تعالى بعد صالح نبياً اسمه إبراهيم الخليل إلى نمرود بن كنعان، وجرى له معه ما جرى، ومات قومي الذين آمنوا، فصرت أعبد الله في هذا المغار، والله تعالى يرزقني من حيث لا أحتسب. فقال غريب: يا عم، ماذا أقول حتى أصير من حزب هذا الرب العظيم؟ قال له الشيخ: قل: لا إله إلا الله، إبراهيم خليل الله. فأسلم غريب قلباً ولساناً، فقال له الشيخ: ثبتت في قلبك حلاوة الإسلام والإيمان. ثم علمه شيئاً من الفرائض وشيئاً من الصحف، وقال له: ما اسمك؟ قال: اسمي غريب. قال له الشيخ: وأين تقصد يا غريب؟ فحكى له ما جرى من أوله إلى آخره حتى وصل إلى حديث غول الجبل الذي جاء في طلبه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٢٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما أسلم وحكى للشيخ جميع ما جرى له من أوله إلى آخره، حتى وصل إلى حديث غول الجبل الذي جاء في طلبه، قال له: يا غريب، هل أنت مجنون تسير إلى غول الجبل وحدك؟ فقال له: يا مولاي، معي مائتا فارس. فقال له الشيخ: يا غريب، ولو كان معك عشرة آلاف فارس ما تقدر عليه، فإن اسمه الغول، يأكل الناس، نسأل الله السلامة، وهو من أولاد حام، وأبوه هندي الذي عمر الهند وسُمِّي به، وقد خَلَفَه وسمَّاه سعدان الغول، فكان يا ولدي جبَّارًا وشيطانًا مريدًا، ما له مأكول إلا ابن آدم، فنهاه أبوه قبل موته عن ذلك، فما انتهى وزاد في الطغيان، فطرده أبوه بعد ذلك ونفاه من بلاد الهند بعد حروب وتعب عظيم، فجاء إلى هذه الأرض وتحصَّن بها وسكن فيها، وصار يقطع الطرق على الرائح والجائي، ويرجع إلى مسكنه بهذا الوادي، ورُزِقَ بخمسة أولاد غِلَظَ شداد، يحمل أحدهم على ألف بطل، وقد جمع أموالًا وغنائم وخيلًا وجمالًا وبقرةً وغنمًا قد سَدَّتِ الوادي، وأنا خائف عليك منه، فاسأل الله تعالى أن ينصرَكَ عليه بكلمة التوحيد، فإذا حملت على الكفار فقل: الله أكبر. فإنها تخذل مَنْ كفر.

ثم إن الشيخ أعطى غريبًا عامودًا من بولاد، وزنه مائة رطل، وفيه عشر حلقات، إذا هَزَّ حامله طنَّتْ حلقاته مثل الرعد، وأعطاه سيفًا مجوهرًا من صاعقة، طوله ثلاثة أذرع، وعرضه ثلاثة أشبار، إذا ضرب به صخرة قَدَّها نصفين، وأعطاه درعًا وترسًا ومصحفًا وقال له: سِرْ إلى قومك واعرض عليهم الإسلام. فخرج غريب وهو فرحان بالإسلام، وسار حتى وصل إلى قومه، فتلقَّوه بالسلاام وقالوا له: ما أبطأك عنا؟ فحكى لهم جميع ما جرى له من أوله إلى آخره، وعرض عليهم الإسلام، فأسلموا جميعًا وباتوا إلى الصباح. فركب غريب وأتى الشيخ يودِّعه، فودَّعه وخرج وسار حتى وصل إلى قومه، وإذا بفارس وهو في الحديد غاطس لم يظهر منه غير آماق البصر، فحمل على غريب وقال له: اخلع ما

عليك يا قطاعة العرب، وإلا ريمتك بالعطب. فحمل غريب عليه وجرى بينهم حرب يشيب المولود، ويذيب من هوله الحجر الجلمود، فكشف البدوي البرقع فإذا هو سهيم الليل أخو غريب من أمه ابن مرداس، وسبب خروجه وإتيانه إلى ذلك المحل، أن غريباً لما سار إلى غول الجبل كان سهيم غائباً، فلما رجع لم ينظر غريباً فدخل على أمه فوجدها تبكي، فسألها عن سبب بكائها، فأخبرته بما جرى من سفر أخيه، فما تمهلّ على نفسه ليستريح، فلبس آلة حربته وركب جواده وسار حتى وصل إلى أخيه، وجرى بينهما ما جرى. فلما كشف سهيم وجهه عرفه غريب وسلّم عليه وقال: ما حملك على هذا؟ قال له: حتى عرفت طبقتي معك في الميدان، وقدرتي في الضرب والطعان. وسارا فعرض غريب على سهيم الإسلام فأسلم، ولم يزلوا سائرين حتى أشرفوا على الوادي، فلما نظر غول الجبل غبار القوم قال: يا أولادي، اركبوا واثبتوني بهذه الغنيمة. فركبت الخمسة وساروا نحوهم، فلما رأى غريب الخمسة العمالقة قد هجموا عليهم، لكز جواده وقال: مَنْ أنتم؟ وما جنسكم؟ وما تريدون؟ فتقدّم فلحون بن سعدان غول الجبل، وهو أكبر أولاده، وقال: انزلوا عن خيولكم، وكنّفوا بعضكم حتى نسوقكم إلى أبينا يشوي بعضكم ويطبّخ بعضكم، فإن له زماناً طويلاً ما أكل آدمياً.

فلما سمع غريب هذا الكلام حمل على فلحون، وهزّ العمود حتى طنت حلقاته مثل الرعد القاصف، فاندھش فلحون فضربه غريب بالعمود، وكانت ضربته خفيفة وقد وقعت بين أكتافه، فسقط مثل النخلة السحوق، فنزل سهيم وبعض القوم على فلحون وكنّفوه. ثم إنهم وضعوا في رقبتهم حبلاً وسحبوه مثل البقرة، فلما رأى إخوته أخاهم أسيراً حملوا على غريب، فأسر منهم أربعة والخامس فرّ هارباً حتى دخل على أبيه، فقال له أبوه: ما وراءك؟ وأين إخوتك؟ فقال له: أسرهم صبي ما خط عذاره، طوله أربعون ذراعاً. فلما سمع غول الجبل كلام ابنه قال: لا طرحت الشمس فيكم من بركة. ثم إنه نزل من الحصن واقتلع شجرة عظيمة، وطلب غريب وقومه وهو راجل على قدميه؛ لأن الخيل لم تحمله لعظم جثته، وتبعه ابنه وساراً حتى أشرفا على غريب، وحمل على القوم من غير كلام، وضرب بالشجرة فهشّم خمسة رجال، وحمل على سهيم وضربه بشجرة فزاغ عنها وراحت خالية، فغضب الغول ورمى الشجرة من يده، وانقضّ على سهيم فخطفه مثل ما يخطف الباشق العصفور، فلما نظر غريب إلى أخيه وهو في يد الغول، صاح وقال: الله أكبر يا جاه إبراهيم الخليل ومحمد ﷺ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٢٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما نظر أخاه وهو أسير في يد الغول صاح وقال: الله أكبر يا جاه إبراهيم الخليل ومحمد ﷺ. ووجه جواده إلى غول الجبل، وهزّ العمود فطنت حلقاته وصاح: الله أكبر. وضرب غريب الغول بالعامود على صف أضلّاعه، فوقع في الأرض مغشيًا عليه، وانفلت سهيم من يديه، فما أفاق الغول إلا وهو مكتّف مقيد، فلما نظره ابنه وهو أسير ولّى هاربًا، فساق غريب جواده خلفه ثم ضربه بالعامود بين أكتافه فوقع عن جواده، فكتّفه عند إخوته وأبيه وأوثقوهم بالحبال وسحبوهم مثل الجمال، وساروا حتى وصلوا إلى الحصن، فوجدوه ملأًا بالخيرات والأموال والتحف، ووجد ألفًا ومائتي أعجمي مربوطين مقيدّين، فقعد غريب على كرسي غول الجبل، وكان أصله لصاص بن شيث بن شداد بن عاد، وأوقف سهيمًا أخاه على يمينه، ووقف أصحابه ميمنة وميسرة، وبعد ذلك أمر بإحضار غول الجبل وقال له: كيف رأيت روحك يا ملعون؟ فقال له: يا سيدي، في أقبح حال من الذل والخبال، أنا وأولادي مربوطون في الحبال مثل الجمال. فقال غريب: أريد أن تدخلوا في ديني وهو دين الإسلام، وتوحّدوا الملك العلّام، خالق الضياء والظلام، وخالق كل شيء، لا إله إلا هو الملك الديان، وتقرّوا بنبوة الخليل إبراهيم عليه السلام. فأسلم غول الجبل وأولاده وحسن إسلامهم، فأمر بحلّهم فحلّوهم من الرباط، فبكى سعدان الغول وأقبل على أقدام غريب يقبلها، وكذلك أولاده، فمَنعهم من ذلك فوقفوا مع الواقفين، فقال غريب: يا سعدان. فقال: لبيك يا مولاي. فقال: ما شأن هؤلاء الأعجام؟ فقال: يا مولانا هذا صيدي من بلاد العجم، وليسوا وحدهم. قال غريب: ومَن معهم؟ قال: يا سيدي، معهم بنت الملك سابور ملك العجم، واسمها فخرتاج، ومعها مائة جارية كأنهن الأقمار.

فلما سمع غريب كلام سعدان تعجّب وقال: كيف وصلتَ إلى هؤلاء؟ فقال: يا أمير، سرحت أنا وأولادي وخمسة عبيد من عبيدي، فما وجدنا في طريقنا صيداً، فتفرّقنا في البراري والقفار فما وجدنا روحنا إلا في بلاد العجم، ونحن ندور على غنيمة نأخذها ولا نرجع خائبين، فلاحت لنا غيرة فأرسلنا عبداً من عبيدنا ليعرف الحقيقة، فغاب ساعة ثم عاد وقال: يا مولاي، هذه الملكة فخرتاج بنت الملك سابور ملك العجم والترك والديلم، ومعها ألفا فارس وهم سائرون. فقلت للعبد: بُشِّرْتَ بالخير، فليس غنيمة أعظم من هذه الغنيمة. ثم حملت أنا وأولادي على الأعجام، فقتلنا منهم ثلاثمائة فارس، وأسرنّا ألفين ومائتين، وغنمنا بنت سابور وما معها من التحف والأموال، وجئنا بهم إلى هذا الحصن. فلما سمع غريب كلام سعدان قال: هل فعلت بالملكة فخرتاج معصية؟ قال: لا وحيات رأسك وحق هذا الدين الذي دخلتُ فيه. فقال غريب: قد فعلت حسناً يا سعدان؛ لأن أباها ملك الدنيا، ولا بد أن يجزّد العساكر خلفها، ويخرب ديار الذين أخذوها، ومَنْ لا يدري العواقب، ما الدهر له بصاحب. وأين هذه الجارية يا سعدان؟ فقال: قد أفردتُ لها قصرًا هي وجواريها. فقال: أرني مكانها. فقال: سمعًا وطاعة.

فقام غريب وسعدان الغول يمشيان حتى وصلا إلى قصر الملكة فخرتاج، فوجداها حزينة ذليلة تبكي بعد العزّ والدلال، فلما نظرهما غريب ظنَّ أن القمر منه قريب، فعظّم الله السميع العليم، ونظرت فخرتاج إلى غريب فوجدته فارساً صنديداً، والشجاعة تلوح بين عينيه تشهد له لا عليه، فقامت له وقبّلت يديه، وبعد يديه انكبّت على رجليه، وقالت له: يا بطل الزمان، أنا في جيرتك، فأجّرني من هذا الغول، فأنا خائفة أن يزيل بكارتني، وبعد ذلك يأكلني، فخذني أخدم جواريك. فقال غريب: لك الأمان حتى تصلي إلى أبيك ومحل عذك. فدعت له بالبقاء وعز الارتقاء، فأمر غريب بحل الأعجام فحلوهم، والتفت إلى فخرتاج وقال لها: ما الذي أخرجك من قصرك إلى هذه البراري والقفار حتى أخذك قطاع الطريق؟ فقالت له: يا مولاي، إن أبي وأهل مملكته وبلاد الترك والديلم والمجوس يعبدون النار دون الملك الجبار، وعندنا في مملكتنا دير اسمه دير النار، وفي كل عيد تجتمع فيه بنات المجوس وعباد النار، ويسيرون فيه شهرًا مدة عيدهم، ثم يعودون إلى بلادهم، فخرجت أنا وجواري على العادة، وأرسل معي أبي ألفي فارس يحفظونني، فخرج علينا هذا الغول فقتل بعضنا وأسر الباقي وحبسنا في هذا الحصن، وهذا ما جرى يا بطل الشجعان، كفك الله نوائب الزمان. فقال غريب: لا تخافي، فأنا أوصلك إلى قصرك ومحل عذك. فدعت له وقبّلت يديه ورجليه، ثم خرج من عندها وأمر بإكرامها، وبات تلك

الليلة حتى أصبح الصباح، فقام وتوضأ وصلى ركعتين على ملة أبينا الخليل إبراهيم عليه السلام، وكذا الغول وأولاده وجماعة غريب كلهم صلُّوا خلفه، ثم التفت غريب إلى سعدان وقال له: يا سعدان، أما تفرّجني على وادي الأزهار؟ قال: نعم يا مولاي. فقام سعدان وأولاده وغريب والملكة فخرتاج وجواريها وخرج الجميع، فأمر سعدان عبيده وجواريه أن يذبحوا ويطبخوا الغداء ويقدّموه بين الأشجار، وكان عنده مائة وخمسون جارية وألف عبد يرعون الجمال والبقر والغنم، وسار غريب والقوم معه إلى وادي الأزهار، فلما رآه وجد شيئاً صنوائاً وغير صنوان، وأطياراً تغرّد بالألحان على الأغصان، والهزار يرجع بأنغام الألحان، والقمري قد ملأً بصوته الأمكنة خلقة الرحمن. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٣٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا توجه هو وقومه والغول وقومه إلى وادي الأزهار، رأى فيه الطيور ومن جملتها القمري ملأ بصوته الأمكنة خلقة الرحمن، والبلبل يغرد بحسن صوته كالإنسان، والشجر يكلُّ عن وصفه اللسان، والفاخت أضى بصوته يهيم الإنسان، والمطوق تجاوبه الدرة بأفصح لسان، والأشجار المثمرة من كل فاكهة زوجان، والرمان حامض وحلو على الأفنان، والمشمش لوزي وكافوري ولوز خراسان، والبرقوق يختلط بأشجار أغصان البان، والنانج كأنه مشاعل النيران، والكباد مالت به الأغصان، والليمون دواء لكل قرقان، والحامض يشفي من علة اليرقان، والبلح على أمه أحمر وأصفر صنَّع الله العظيم الشأن، وفي مثل هذا المكان يقول الشاعر الولهان:

وَإِذَا تَرَنَّمَ طَيْرُهُ بِغَدِيرِهِ يَشْتَاقُهُ الْوُلْهَانُ فِي الْأَسْحَارِ
فَكَأَنَّهُ الْفِرْدَوْسُ فِي نَفْحَاتِهِ ظِلٌّ وَفَاكِهَةٌ وَمَاءٌ جَارٍ

فأعجب غريبًا هذا الوادي، فأمر أن ينصبوا فيه سرادق فخرتاج الكسروية، فنصبوه بين الأشجار وفرشوه بالفرش الفاخر، وقعد غريب وجاءهم الطعام، فأكلوا حتى اكتفوا، ثم قال غريب: يا سعدان. قال: لبيك يا مولاي. قال: هل عندك شيء من الخمر؟ قال: نعم، عندي صهريج ملائ بالعتيق. فقال: اتتنا بشيء منه. فأرسل عشرة من العبيد فجاءوا من الخمر بشيء كثير، فأكلوا وشربوا واستلذوا وطربوا، وطرب غريب وتذكَّر مهدية، فأنشد هذه الأبيات:

تَذَكَّرْتُ أَيَّامَ الْوَصَالِ بِقُرْبِكُمْ فَهَيَّجَ قَلْبِي بِالْغَرَامِ لَهَيْبِ
فَوَاللَّهِ مَا فَارَقْتُكُمْ بِإِرَادَتِي وَلَكِنْ تَصْرِيفَ الزَّمَانِ غَرِيبِ
سَلَامٌ وَتَسْلِيمٌ وَأَلْفُ تَحِيَّةٍ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي مُدْنِفٌ وَكَثِيبِ

ولم يزالوا يأكلون ويشربون ويتفرجون ثلاثة أيام، ثم رجعوا إلى الحصن، ودعا غريب بسهيم أخيه فحضر، فقال له: خذ معك مائة فارس وسر إلى أبيك وأمك وقومك بني قحطان، فأَتِ بهم إلى هذا المكان ليعيشوا فيه بقية الزمان، وأنا أسير إلى بلاد العجم بالملكة فخرتاج إلى أبيها، وأنت يا سعدان أَقِمْ أنت وأولادك في هذا الحصن حتى نعود إليك. قال له: وَلِمَ لَمْ تأخذني معك إلى بلاد العجم؟ قال له: لأنك أسرْتَ بنت سابور ملك العجم، وإن وقعت عينه عليك أكل من لحمك وشرب من دمك. فلما سمع غول الجبل ذلك ضحك ضحكاً عالياً مثل الرعد القاصف وقال: يا مولاي وحياة رأسك، لو تجتمع عليَّ العجم والدليم لأسقيتهم شرابَ العدم. فقال غريب: أنت كما تقول، ولكن اقعد في حصنك حتى أعود إليك. فقال: سمعاً وطاعة. فرحل سهيم، وتوجَّه هو إلى بلاد العجم، ومعه قومه من بني قحطان، ومعه الملكة فخرتاج وقومها، وساروا قاصدين مدائن سابور ملك العجم. هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر الملك سابور، فإنه انتظر مجيء ابنته من دير النار فما عادت وفات الميعاد، فالتهبت في قلبه النار، وكان له أربعون وزيراً، وكان أكبرهم وأعرفهم وأعلمهم وزيراً اسمه ديدان، فقال له الملك: يا وزير، إن ابنتي أبطأت ولم يجئنا خبر عنها، وقد فات ميعاد مجيئها، فأرسلُ ساعياً إلى دير النار ليتحقق الأخبار. فقال: سمعاً وطاعة. ثم خرج الوزير ونادى مقدم السعادة وقال له: سر من وقتك إلى دير النار. فخرج وسافر حتى وصل إلى دير النار، وسأل الرهبان عن بنت الملك فقالوا: ما رأيناها في هذا العام. فعاد على إثره حتى وصل إلى مدينة إسبانيير ودخل على الوزير وأعلمه بما كان؛ فدخل الوزير على الملك سابور وأعلمه، فقامت قيامته ورمى تاجه في الأرض، ومنتف لحيته، ووقع على الأرض مغشياً عليه، فرشوا عليه الماء فأفاق وهو باكي العين، حزين القلب، فأنشد قول الشاعر:

وَلَمَّا دَعَوْتُ الصَّبْرَ بَعْدَكَ وَالْبُكَاءَ أَجَابَ الْبُكَاءُ طَوْعاً وَلَمْ يُجِبِ الصَّبْرُ
وَإِنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ تَفَرِّقُ بَيْنَنَا لَتَقْتُلُنَا بِالْعَدْرِ يَا حَبْدَا الْعَدْرِ

ثم دعا الملك بعشرة قواد وأمرهم أن يركبوا بعشرة آلاف فارس، وكل قائد يتوجه إلى إقليم ليفتشوا على الملكة فخرتاج، فركبوا وتوجه كل قائد وجماعته إلى إقليم، وأما أم فخرتاج فإنها لبست هي وجواربها السوداء، وفرشوا الرماد، وقعدوا في البكاء والعديد. هذا ما جرى لهؤلاء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٣١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك سابور أرسل عسكره يفتشون على بنته، ولبست أمها وجواربها السوداء. وأما ما كان من أمر غريب وما جرى له في طريقه من الأمر العجيب، فإنه سار عشرة أيام، وفي اليوم الحادي عشر ظهرت له غبرة وارتفعت إلى عنان السماء، فدعا غريب بالأمير الذي يحكم على العجم، فحضر فقال له: تحقّق لنا خبر هذا الغبار الذي ظهر. فقال: سمعًا وطاعة. ثم ساق جواده حتى دخل تحت الغبار فنظر القوم وسألهم، فقال واحد منهم: نحن من بني هطال، وأميرنا الصمصام بن الجراح، ونحن دائرون على شيء ننهبه، وقومنا خمسة آلاف فارس. فرجع العجمي مسرعًا بجواده حتى وصل إلى غريب وأخبره بالأمر، فصاح غريب على رجال بني قحطان وعلى العجم وقال: احملوا سلاحكم. فحملوه وساروا، فقابلتهم العربان وهم ينادون: الغنيمة! الغنيمة! فصاح غريب وقال: أخزاكم الله يا كلاب العرب. ثم حمل وصدمهم صدمةً بطلٍ صنيدي وهو يقول: الله أكبر، يا لدين إبراهيم الخليل عليه السلام. ووقع بينهم القتال، وعظم النزال، ودار السيف وكثر القيل والقال، ولم يزالوا في حرب حتى ولّى النهار وأقبل الظلام، فانفصلوا من بعضهم وتفقد غريب القوم، فوجد المقتول من بني قحطان خمسة رجال، ومن العجم ثلاثة وسبعين، ومن قوم الصمصام ما يزيد على خمسمائة فارس. ثم نزل الصمصام، ولم يطب له طعام ولا منام، ثم قال لقومه: عمري ما رأيت مثل قتال هذا الصبي؛ لأنه تارة يقاتل بالسيف وتارة بالعامود، ولكني أبرز له غدًا في حومة الميدان، وأطلبه إلى مقام الضرب والطعان، وأقطع هؤلاء العربان.

أما غريب فإنه لما رجع إلى قومه لاقته الملكة فخرتاج باكيةً مرعوبةً من هول ما جرى، وقبّلت رجله في الركاب وقالت له: لا شلّت يداك ولا شمتت عداك يا فارس الزمان، والحمد لله الذي سلّمك في هذا النهار، واعلم أنني خائفة عليك من هذه العربان. فلما سمع

غريب كلامها ضحك في وجهها وطَيَّب قلبها وطَمَّنْها وقال لها: لا تخافي يا ملكة، فلو كانت الأعداء ملء هذه البدياء؛ لأفنيتهم بقوة العليِّ الأعلى. فشكرته ودعت له بالنصر على الأعداء. ثم إنها انصرفت إلى جواريتها، ونزل غريب فغسل يديه وما عليه من دم الكفار، وباتوا يتحارسون إلى الصباح، ثم ركب الفريقان وطلبوا الميدان ومقام الحرب والطعان، فكان السابق للميدان غريب، فساق جواده حتى قرب من الكفار وصاح: هل من مبارز يخرج لي غير كسلان؟ فبرز إليه عملاق من العمالقة الشداد من نسل قوم عاد، ثم حمل على غريب وقال: يا قطاعة العرب، خذ ما جاءك وأبشِّرْ بالهلاك. وكان معه دبوس حديد وزنه عشرون رطلاً، فرفع يده وضرب غريباً، فزاع عنه فغاص الدبوس في الأرض ذراعاً، وقد انثنى العملاق مع الضربة، فضربه غريب بالعامود الحديد، فشَقَّ جبهته فخرَّ صريعاً وعَجَلَ الله بروحه إلى النار.

ثم إن غريباً صال وجال وطلب البراز، فبرز له ثانٍ فقتله، وثالثٌ وعاشِرٌ، وكلُّ مَنْ برز له قتله، فلما نظر الكفار إلى قتال غريب وضربه، زاغوا منه وتأخروا عنه، ونظر أميرهم إليهم وقال: لا بَارَكَ الله فيكم، أنا أبرز له. فلبس آلة حربه وساق جواده حتى ساوى غريباً في حومة الميدان وقال له: ويلك يا كلب العرب، هل بلغ من قدرك أن تبارزني في الميدان وتقتل رجالي؟ فجأوبه غريب وقال: دونك والقتال، وخذ ثأر مَنْ قُتِلَ من الفرسان. فحمل الصمصام على غريب، فتلقاه بصدر رحيب وقلب عجيب، فتضارب الاثنان بالعمودين حتى حَيَّرَا الفريقين ورمقتهم كلُّ عين، وقد جالا في الميدان وضربا بعضهما ضربتين؛ فأما غريب فإنه خَيَّبَ ضربة الصمصام في الحرب والاصطدام، وأما الصمصام فسقطت عليه ضربة غريب فخسفت صدره وأوقعته في الأرض قتيلًا، فحمل قومه على غريب حملة واحدة، وحمل غريب عليهم وصاح: الله أكبر، فَتَحَ ونَصَرَ وخَذَلَ مَنْ كفر بدين إبراهيم الخليل عليه السلام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٣٢

قال: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما حمل عليه قوم الصمصام حملة واحدة، حمل عليهم وصاح: الله أكبر، فَتَحَ وَنَصَرَ وَخَذَلَ مَنْ كَفَرَ. فلما سمع الكفار ذِكْرَ الملك الجَبَّارِ الواحد القَهَّارِ الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، نظر بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا الكلام الذي أَرعد فرائضنا وأضعف هممنا وقَصَّر أعمارنا، فما سمعنا في عمرنا أَطيبَ من هذا الكلام. ثم إنهم قالوا لبعضهم: ارجعوا عن القتال حتى نسأل عن هذا الكلام. فرجعوا عن القتال ونزلوا عن الخيول، واجتمع كبارهم وتشاوروا وطلبوا المسير إلى غريب وقالوا: يمضي إليه منّا عشرة. واختاروا عشرة من خيارهم فتوجهوا إلى خيام غريب، وأما غريب وقومه فإنهم نزلوا في خيامهم وتعجبوا من رجوع القوم عن الحرب. فبينما هم كذلك وإذا بالعشرة رجال قد أقبلوا وطلبوا الحضور بين يدي غريب، وقَبَلُوا الأرض ودعوا له بالعز والبقاء، فقال لهم: ما لكم رجعتُم عن القتال؟ فقالوا: يا مولانا، أَرعبتنا بالكلام الذي صَحَّتْ به علينا؟ فقال لهم: ما تعبدون من المصائب؟ فقالوا: نعبد وُدًّا وسوَاءًا ويغوث أرباب قوم نوح. قال غريب: إِنَّا لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ وَرَازِقَ كُلِّ حَيٍّ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَرَسَى الْجِبَالَ، وَأَنْبَعَ الْمَاءَ مِنَ الْأَحْجَارِ، وَأَنْبَتَ الْأَشْجَارَ وَرَزَقَ الْوَحْشَ فِي الْقَفَارِ، فَهُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. فلما سمع القوم كلام غريب، انشرفت صدورهم بكلمة التوحيد وقالوا: إِنَّ هَذَا إِلَهُ رَبِّ عَظِيمٍ، رَاحِمٌ رَحِيمٌ. ثم قالوا: فما نقول حتى نصير مسلمين؟ قال غريب: قولوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ. فَأَسْلَمَ الْعَشِيرَةُ إِسْلَامًا صَاحِحًا. ثم قال غريب: إِنَّ دَلِيلَ حُلَاوَةِ الْإِسْلَامِ فِي قُلُوبِكُمْ أَنْ تَمْضُوا إِلَى قَوْمِكُمْ وَتَعْرِضُوا عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، فَإِنْ أَسْلَمُوا أَسْلَمُوا، وَإِنْ أَبَوْا نَحْرَقَهُمُ بِالنَّارِ. فَسَارَ الْعَشِيرَةُ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَعَرَضُوا عَلَيْهِمُ دِينَ الْإِسْلَامِ وَشَرَحُوا لَهُمْ طَرِيقَ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ، فَأَسْلَمُوا قَلْبًا وَلِسَانًا، وَسَعَوْا عَلَى الْأَقْدَامِ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى غَرِيبٍ وَقَبَلُوا الْأَرْضَ بَيْنَ

يديه، ودَعَوْا له بالعز وعلو الدرجات وقالوا: يا مولانا، نحن صرنا عبيدك، فمُرنا بما تريد، فإننا لك سامعون مطيعون، وما بقينا نفارقك؛ لأن الله هدانا على يدك. فجازاهم خيراً وقال لهم: امضوا إلى منازلكم وارتحلوا بأموالكم وأولادكم، واسبقونا على وادي الأزهار، وحصن صاصا بن شيث، حتى أشييع فخرتاج بنت الملك سابور ملك العجم وأعود إليكم. فقالوا: سمعاً وطاعةً.

ثم إنهم رحلوا من وقتهم وقصدوا حيّهم وهم فَرَحون بالإسلام، وعرضوا الإسلام على عيالهم وأولادهم فأسلموا، ثم هَدُوا بيوتهم وأخذوا أموالهم ومواشيهم ورحلوا إلى وادي الأزهار، فخرج غول الجبل وأولاده واستقبل القوم، فكان غريب أوصاهم وقال لهم: إذا خرج إليكم غول الجبل وأراد أن يبطش بكم، فاذكروا الله تعالى خالق كل شيء، فإنه متى سمع ذِكر الله تعالى يرجع عن القتال ويلقاكم بالترحيب. فلما خرج غول الجبل بأولاده وأراد أن يبطش بهم، أعلنوا بِذِكر الله تعالى، فتلقاهم بأحسن ملتقى، وسألهم عن حالهم، فأخبروه بما جرى لهم مع غريب، ففرح بهم سعدان وأنزلهم وغمرهم بالإحسان.

هذا ما جرى لهم، وأما غريب فإنه رحل بالملكة فخرتاج وتوجّه إلى مدينة إسبانيّر، فسار خمسة أيام، وفي اليوم السادس ظهر له غبار، فأرسل رجلاً من الأعجام يتحقّق له الأخبار، فسار إليه ثم عاد أسرع من الطير إذا طار، وقال: يا مولاي، هذا غبار ألف فارس من أصحابنا الذين أرسلهم الملك يفتّشون على الملكة فخرتاج. فلما بلغ غريب ذلك، أمر أصحابه بالنزول وأن يضربوا الخيام، فنزلوا وضربوا خيامهم حتى وصل إليهم القادمون، فتلقاهم رجال الملكة فخرتاج وأخبروا طومان الحاكم عليهم، وأعلموه بالملكة فخرتاج. فلما سمع طومان بذكر الملك غريب دخل عليه وقبّل الأرض بين يديه، وسأله عن حال الملكة، فأرسله إلى خيمتها، فدخل عليها وقبّل يديها ورجليها وأخبرها بما جرى لأبيها وأمها، فأخبرته بجميع ما جرى لها، وكيف خلّصها غريب من غول الجبل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٣٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة فخرتاج لما حكّت لطومان جميع ما حصل لها من غول الجبل وأسرها، وكيف خلّصها غريب وإلا كان أكلها، قالت: فواجب على أبي أن يعطيه نصف ملكه. ثم إنه قام طومان وقبّل يدي غريب ورجليه، وشكر إحسانه وقال: عن إذنك يا مولاي، هل أرجع إلى مدينة إسبانير فأبشّر الملك؟ فقال له: توجّه وخذ منه البشارة. فسار طومان ورحل غريب بعده. فأما طومان فإنه جدّ في السير حتى أشرف على إسبانير المدائن، فطلع القصر وقبّل الأرض قدام الملك سابور، فقال الملك: ما الخبر يا بشير الخير؟ فقال له طومان: ما أقول لك حتى تعطيني بشارتي. فقال له الملك: بشّرني حتى أرضيك. فقال: يا ملك الزمان، أبشّر بالملكة فخرتاج. فلما سمع سابور ذكر ابنته وقع مغشياً عليه، فرشوا عليه ماء الورد فأفاق وصاح على طومان وقال له: تقرب إليّ وبشّرني. فتقدّم وشرح له ما جرى للملكة فخرتاج، فلما سمع الملك ذلك الكلام خبط كفّه على بعضهما وقال: مسكينة يا فخرتاج. ثم إنه أمر لطومان بعشرة آلاف دينار، وأنعم عليه بمدينة أصبهان وأعمالها، ثم صاح على أمرائه وقال: اركبوا بأجمعكم حتى نلاقي الملكة فخرتاج. ودخل الخادم الخاص أعلم أمها وكامل الحريم، ففرحن بذلك وخلعت أمها على الخادم خلعة وأعطته ألف دينار، وسمع أهل المدينة بذلك فزينوا الأسواق والبيوت، وركب الملك طومان وساروا حتى رأوا غريباً، فترجّل الملك سابور ومشى خطوات ليستقبل غريباً، وترجّل غريب ومشى إليه واعتنقاً وسلّماً على بعضهما، وانكبّ سابور على يدي غريب فقبّلهما وشكر إحسانه، ونصبوا الخيام قبال الخيام، ودخل سابور على ابنته، فقامت له واعتنقته وصارت تحدّثه بما جرى لها، وكيف خلّصها غريب من قبضة غول الجبل، فقال لها أبوها: وحياتك يا سيدة الملاح إنني أعطيه حتى أغمره بالعطاء. فقالت له: صاهره

يا أبتى حتى يكون لك عوناً على الأعداء، فإنه شجاع. وما قالت هذا الكلام إلا لأن قلبها تعلّق بغريب، فقال: يا بنتي، أما تعلمين أن الملك خردشاه رمى الديباج، ووهب مائة ألف دينار، وهو ملك شيراز وأعمالها، وهو صاحب ملك وجنود وعساكر. فلما سمعت فخرتاج كلام أبيها قالت: يا أبتى، ما أريد ما ذكرت لي، وإن أكرهتني على ما لا أريد قتلتُ روحي. فخرج الملك وتوجّه إلى غريب فقام له، وجلس سابور وصار لا يشبع نظره من غريب، وقال في نفسه: والله إن ابنتي معذورة حيث حبّت هذا البدوي.

ثم حضر الطعام، فأكلوا وباتوا، ثم أصبحوا سائرين إلى أن وصلوا إلى المدينة، ودخل الملك وغريب ركابه في ركابه، وكان لهم يوم عظيم، ودخلت فخرتاج قصرها ومحل عزّها، وتلقّتها أمها وجواريتها وقُمنَ بالفرح والزعزعة، وجلس الملك سابور على كرسي مملكته، وأجلس غريباً على يمينه، ووقف الملوك والحجّاب والأمراء والنوّاب والوزراء ميمنة وميسرة، وقد هنّئوا الملك بابنته، فقال الملك لأرباب دولته: مَنْ أَحَبَّنِي يخلع على غريب. فوقع عليه خلع مثل المطر، وأقام غريب في الضيافة عشرة أيام، ثم أراد المسير فخلع عليه الملك وحلف بدينه أنه لا يرحل إلا بعد شهر، فقال غريب: يا ملك، إني خطبت بنتاً من بنات العرب، وأريد أن أدخل عليها. فقال الملك: أيتهما أحسن، أمخطوبتك أم فخرتاج؟ فقال غريب: يا ملك الزمان، أين العبد من المولى؟ فقال الملك: فخرتاج صارت جاريتك؛ لأنك خلّصتها من مخالب الغول، وما لها بعل سواك. فقام غريب وقبّل الأرض وقال: يا ملك الزمان، أنت ملك وأنا رجل فقير، وربما تطلب مهراً ثقيلاً. فقال له الملك سابور: يا ولدي، اعلم أن الملك خردشاه صاحب شيراز وأعمالها خطبها وجعل لها مائة ألف دينار، وأنا قد اخترتك دون الناس أجمعين، وقد جعلتك سيف مملكتي وترس نقمتي. ثم التفت لكبراء قومه وقال: اشهدوا عليّ يا أهل مملكتي أنني زوّجت ابنتي فخرتاج لولدي غريب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٣٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك سابور ملك العجم قال لكبراء قومه: اشهدوا عليّ أنني زوّجتُ ابنتي فخرتاج لولدي غريب. فعند ذلك صافحه وصارت زوجته، فقال له غريب: اشترط عليّ مهراً أحمله إليك، فإن عندي في حصن صاصا مالاً ونخائر لا تُحصى. فقال سابور: يا ولدي، ما أريد منك مالاً ولا نخائر، ولا أخذ مهرها إلا رأس الجمرقان ملك الدشت ومدينة الأهواز. فقال: يا ملك الزمان، سوف أمضي وأجيء بقومي وأسير لعدوي وأخرب دياره. فجازاه الملك خيراً، وانفضّ القوم والأكابر، وظنّ الملك أن غريباً إذا توجّه إلى الجمرقان ملك الدشت لا يعود أبداً. فلما أصبح الصباح ركب الملك وركب غريب وأمر العسكر بالركوب، فركبوا ونزلوا الميدان، فقال لهم الملك: العبوا بالرماح وفرّحوا قلبي. فلعب أبطال العجم مع بعضهم، ثم قال غريب: يا ملك الزمان، مرادي أن ألعب مع فرسان العجم على شرط. فقال له: وما شرطك؟ قال له: ألبس ثوباً رقيقاً على بدني، وأخذ رمحاً بلا سنان، وأجعل عليه خرقة مغموسة بالزعفران، ويبرز لي كل شجاع ويظل رمحه بسنان، فإن غلبني فقد وهبته روحي، وإن غلبته علّمتُ عليه في صدره، فيخرج من الميدان. فصاح الملك على نقيب الجيش أن يقدّم أبطال العجم، فانتخب ألفاً ومائتين من ملوك العجم واختارهم أبطالاً شجعاناً، وقال لهم الملك بلسان العجم: كلُّ من قتل هذا البدوي يتمنى عليّ حتى أرضيه. فتسابقوا إلى غريب وحملوا عليه، وقد بان الحق من الباطل والجد من المزاح، وقال: توكلّتُ على الله إله إبراهيم الخليل، وإله كل شيء قدير، الذي لا يخفى عليه شيء، وهو الواحد القهّار الذي لا تدرکه الأبصار. فبرز له عملاق من أبطال العجم، فما أمهله في الثبات قدامه حتى علّم عليه وملأ صدره بالزعفران، ولما ولّى لطشه غريب بالرمح على رقبتة فوق في الأرض وحمله غلमानه من الميدان، فبرز له ثائن فعلم عليه، وثالثٌ ورابعٌ وخامسٌ، ولم يزل يبرز له بطل بعد بطل، حتى علّم على الجميع

ونصره الله تعالى عليهم، وطلعوا من الميدان وقُدِّمَ لهم الطعام، فأكلوا وأحضروا الشراب وشربوا، فشرب غريب وطاش عقله، فقام يزيل ضرورة وأراد أن يعود فتاةً ودخل في قصر فخرتاج، فلما رآته خرج عقلها وصاحت على جواريتها وقالت: اخرجن إلى مواضعكن. فتفرقن وتوجَّهنَ إلى مواضعهن، ثم قامت وقبَّلت يد غريب وقالت: مرحبًا بسيدي الذي أعتقني من الغول، فأنا جاريك على الدوام. وجذبتَه إلى فراشها واعتنقته، فاشتدت شهوته وافتضحها وبات عندها إلى الصباح.

هذا ما جرى، والملك يظن أن غريبًا مضى، فلما أصبح الصباح دخل على الملك، فقام له وأجلسه بجانبه، ثم دخل الملوك وقبَّلوا الأرض ووقفوا ميمنة وميسرة، وصاروا يتحدثون في شجاعة غريب ويقولون: سبحان مَنْ أعطاه الشجاعة على صِغَر سنه. فبينما هم في الكلام إذ نظروا من شبك القصر غبار خيل مُقبِلة، فصاح الملك على السعاة وقال: يليكم، اثنتوني بخبر هذا الغبار. فسار فارس منهم حتى كشف الغبار وعاد وقال: أيها الملك، وجدنا تحت الغبار مائة فارس من الفرسان، أميرهم يقال له سهيم الليل. فلما سمع غريب هذا الكلام قال: يا مولاي، هذا أخي، كنت بعثته في حاجة وأنا خارج لألقيه. ثم ركب غريب في قومه المائة فارس من بني قحطان، وركب معه ألف من العجم، وسار في موكب عظيم، ولا عظمة إلا لله، ولم يزل غريب سائرًا حتى وصل إليه، فترجَّل الاثنان واعتنقا ثم ركبا، فقال غريب: يا أخي، هل أوصلت قومك إلى حصن صاصا ووادي الأزهار؟ فقال: يا أخي، إن الكلب الغدَّار لما سمع أنك ملكت حصن غول الجبل، زاد به الضجر وقال: إن لم أرحل من هذه الديار يجيء غريب فيأخذ بنتي مهدية بلا صداق. ثم أخذ بنته وأخذ قومه وعياله وماله وقصد أرض العراق، ودخل الكوفة واحتمى بالملك عجيب، وهو طالب أن يعطيه ابنته مهدية. فلما سمع غريب كلام أخيه سهيم الليل كادت روحه أن تزهق من القهر وقال: وحق دين الإسلام، دين الخليل إبراهيم، وحق الرب العظيم، لأسيرنَ إلى أرض العراق، وأقيم الحرب فيها على ساق. ودخل المدينة وطلع غريب وأخوه سهيم الليل إلى قصر الملك وقبَّلوا الأرض، فقام الملك لغريب وسلَّم على سهيم، ثم إن غريبًا أخبر الملك بما جرى، فأمر له بعشرة قوَّاد، مع كل قائد عشرة آلاف فارس من شجعان العرب والعجم، فجَهَّزوا حالهم في ثلاثة أيام، ثم رحل غريب وسار حتى وصل إلى حصن صاصا، فخرج له غول الجبل وأولاده ولاقوا غريبًا، ثم ترجَّل سعدان وأولاده وقبَّلوا أقدام غريب في الركاب، وحكى لغول الجبل ما جرى، فقال: يا مولاي، اقعد في حصنك وأنا أسير بأولادي وأجنادي نحو العراق وأخرب مدينة الرستاق، وأجيء بجميع جنودها مربوطين بين يديك

في أشد الوثاق. فشكره غريب وقال: يا سعدان، نسير كلنا. فجَهَّزَ حاله وفعل ما أمره، وساروا كلهم وتركوا في الحصن ألف فارس يحفظونه ورحلوا قاصدين العراق. هذا ما كان من أمر غريب، وأما ما كان من أمر مرداس، فإنه سار بقومه حتى وصل أرض العراق، وأخذ معه هدية حسنة، ومضى بها إلى الكوفة وأحضرها قدام عجيب، ثم قَبَّلَ الأرض ودعا له بدعاء الملوك وقال: يا سيدي، إني أتيتُ مستجيرًا بك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٣٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مرداسًا لما طلع بين يدي عجيب قال له: إني أتيت مستجيرًا بك. فقال: مَنْ ظَلَمَكَ حتى أجيرك منه؟ ولو كان سابورًا ملك العجم والترك والديلم. فقال مرداس: يا ملك الزمان، ما ظلمني إلا صبي ربَّيته في حجري، وقد وجدته في حجر أمه في وادٍ، فتزوَّجتُ بأمه فجاءت مني بولد فسَمَّيته سهيم الليل وولدها اسمه غريب، فنشأ في حجري وطلع صاعقة محرقة وداهية عظيمة، فقتل حَسَّان سيد بني نهان، وأفنى الرجال وقهر الفرسان، وعندي بنت ما تصلح إلا لك، وقد طلبها مني فطلبت منه رأس غول الجبل، فسار له وبارزه وأسرّه وصار من جملة رجاله، وسمعتُ أنه أسلَمَ وصار يدعو الناس إلى دينه، وخلَّصَ بنت سابور من الغول وملك حصن صاصا بن شيث بن شداد بن عاد، وفيه ذخائر الأولين والآخرين وكنوز السابقين، وقد سار يشيع بنت سابور وما يرجع إلا بأموال العجم. فلما سمع عجيب كلام مرداس اصفَرَّ لونه وتغيَّرَ حاله وأيقن بهلاك نفسه، وقال: يا مرداس، وهل أم هذا الصبي عندك أو عنده؟ قال: عندي في خيامي. قال: فما اسمها؟ قال: اسمها نصره. قال: هي إياها. فأرسل أحضرها فنظر عجيب إليها فعرفها فقال: يا ملعونة، أين العبدان اللذان أرسلتهما معك؟ قالت: قتَلَا بعضهما على شأني. فسَلَّ عجيب سيفه وضربها فشَقَّها نصفين وسحبوها ورموها، ودخل في قلبه الوسواس فقال: يا مرداس، زوَّجني بنتك. فقال مرداس: هي من بعض جواريك، وقد زوَّجْتُك بها وأنا عبدك. فقال عجيب: مرادي أن أنظر إلى ابن الزانية غريب حتى أهلكه وأذيقه أصناف العذاب. وأمر لمرداس بثلاثين ألف دينار مهر ابنته، ومائة شقة من الحرير منسوجة بطراز الذهب مزركشة، ومائة مقطع بحاشية ومناديل وأطواق ذهب، ثم خرج مرداس بهذا المهر العظيم، فاجتهد في جهاز مهديّة.

هذا ما جرى لهؤلاء، وأما ما كان من أمر غريب، فإنه سار حتى وصل إلى جزيرة، وهي أول بلاد العراق، وهي مدينة حصينة منيعة، فأمر غريب بالنزول عليها، فلما نظر أهل المدينة نزول العسكر عليهم، أغلقوا الأبواب وحصّنوا الأسوار وطلعوا الملك فأعلموه، فنظر من شرفات القصر فوجد عسكرًا جرارًا وكلهم أعجام فقال: يا قوم، ما يريدون هؤلاء الأعجام؟ فقالوا: لا ندري. وكان الملك اسمه الدامغ؛ لأنه كان يدمغ الأبطال في حومة الميدان، وكان من جملة أعوانه رجل شاطر كأنه شعلة نار اسمه سبع القفار، فدعاه الملك وقال له: امض إلى هذا العسكر وانظر أخبارهم وما يريدون منّا وارجع عاجلاً. فخرج سبع القفار كأنه الريح إذا سار حتى وصل إلى خيام غريب، فقام جماعة من العرب فقالوا: من أنت وما تريد؟ فقال: أنا قاصد ورسول من عند صاحب المدينة إلى صاحبكم. فأخذوه وشقوا به الخيام والمضارب والأعلام حتى وصلوا به إلى سرادق غريب، فدخلوا على غريب وأعلموه به فقال: اتتوني به. فأتوا به، فلما دخل قَبْلَ الأرض ودعا له بدوام العز والبقاء، قال له غريب: ما حاجتك؟ قال: أنا رسول صاحب مدينة الجزيرة الدامغ أخو الملك كندمر صاحب مدينة الكوفة وأرض العراق. فلما سمع غريب كلام الرسول جرت دموعه مدرارًا، ونظر إلى الرسول وقال: ما اسمك؟ قال: اسمي سبع القفار. فقال له: امض إلى مولاك وقل له: إن صاحب هذه الخيام اسمه غريب بن كندمر صاحب الكوفة الذي قتله ابنه، وقد أتى إلى أخذ الثأر من عجيب الكلب الغدار. فخرج الرسول حتى وصل إلى الملك الدامغ وهو فرحان، ثم قَبْلَ الأرض، فقال الملك: ما وراءك يا سبع القفار؟ فقال: يا مولاي، إن صاحب هذا العسكر ابن أخيك. ثم حكى له جميع الكلام، فظن أنه في المنام وقال: يا سبع القفار. فقال له: نعم يا ملك. قال له: هل الذي قُلْتَهُ حق؟ قال له: وحياة رأسك إنه حق. فعند ذلك أمر كبار قومه بالركوب، فركبوا وركب الملك وساروا حتى وصلوا إلى الخيام، فلما علم غريب بحضور الملك الدامغ، خرج إليه ولقاه واعتنق الاثنان وسلّمًا على بعضهما، ورجع غريب بالملك إلى الخيام، وجلسا على مراتب العز، وفرح الدامغ بغريب ابن أخيه. ثم التفت الملك الدامغ إلى غريب وقال له: إن في قلبي حسرة من ثأر أبيك، وما لي قدرة على الكلب أخيك؛ لأن عسكره كثير وعسكري قليل. فقال غريب: يا عم، ها أنا قد أتيتُ أخذ الثأر وأزيل العار وأخلي منه الديار. فقال الدامغ: يا ابن أخي، إن لك ثأرين؛ ثأر أبيك، وثأر أمك. فقال غريب: ما بال أمي؟ قال: قتلها عجيب أخوك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٣٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما سمع كلام عمه الدامغ حين قال له: إن أمك قتلها عجيب أخوك. قال غريب: يا عم، وما سبب قتلها؟ فحكى له ما جرى لأمه، وكيف زوّج مرداس بنته بعجيب وهو يريد أن يدخل عليها؛ فلما سمع غريب كلام عمه، طار عقله من رأسه وغشي عليه حتى كاد أن يهلك، فلما صحا من غشيته صاح في عسكره وقال: اركبوا. فقال الدامغ: يا ابن أخي، اصبر حتى أهين حالي وأركب في رجالي وأسير معك في ركابك. فقال: يا عم، ما بقي لي صبر، فجهّز حالك والحقني في الكوفة. ثم إن غريبًا سار حتى وصل إلى مدينة بابل وقد ارتعب أهلها، وكان فيها ملك اسمه جمك، وكان تحت يده عشرون ألف فارس، واجتمع عنده من القرى خمسون ألف فارس، وضربوا الخيام قبال بابل، ثم كتب غريب كتابًا وأرسله لصاحب بابل، فسار الرسول فلما وصل إلى المدينة صاح وقال: إني رسول. فسار بواب الباب متوجّهًا إلى الملك جمك وأخبره بالرسول، فقال: ائتني به. فخرج وأتى بالرسول بين يديه، فقَبِلَ الأرض وأعطى جمكًا الكتاب، ففكَّه وقرأه فإذا فيه: «الحمد لله رب العالمين، رب كل شيء ورازق كل حي وهو على كل شيء قدير، من عند غريب ابن الملك كندمر صاحب العراق وأرض الكوفة إلى جمك، فساعة وصول الكتاب إليك لا يكون جوابك إلا أن تكسر الأصنام، وتوحّد الملك العلّام، خالق النور والظلام، وخالق كل شيء وهو على كل شيء قدير، وإن لم تفعل ما أمرتك به جعلت اليوم عليك أشأم الأيام، والسلام على من اتَّبَعَ الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى، رب الآخرة والأولى، الذي يقول للشيء كن فيكون.»

فلما قرأ الكتاب، ازرقَّت عيناه واصفرَّ وجهه وصاح على الرسول وقال له: امض إلى صاحبك وقل له: غدًا عند الصباح يكون الحرب والكفاح وبيان الجحاح. فمضى الرسول وأعلم غريبًا بما كان، فأمر غريب قومه بأخذ الأهبة للقتال، ثم أمر جمك بنصب الخيام قبال

خيام غريب، وخرج عساكر مثل البحر الزاخر وباتوا على نية القتال، فلما أصبح الصباح ركبت الطائفتان واصطفتا صفوفاً، ودقوا الكاسات ورمحوا على الصافنات، فملئوا الأرض والفلوات، وتقدّمت الأبطال، وكان أول من برز إلى ميدان الحرب والنزال غول الجبل، وعلى كتفه شجرة هائلة، فصاح بين الفريقين وقال: أنا سعدان الغول. ونادى: هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ لا يأتني كسلان ولا عاجز؟ ثم صاح على أولاده: يا ويلكم، فائتوني بالحطب والنار لأنني جائع. فصاحوا على عبيدهم، فجمعوا الحطب وأشعلوا النار في وسط الميدان، فبرز له رجل من الكفار عملاق من العمالقة العتاة، وعلى كتفه عمود مثل صاري مركب، فحمل على سعدان وقال: يا ويلك يا سعدان. فلما سمع كلام العملاق، ساءت منه الأخلاق، ولف الشجرة فزمرت في الهواء وضرب بها العملاق، فلقى الضربة بالعمود، فنزلت الشجرة بثقلها مع عمود العملاق على دماغه فهشمته ووقع كالنخلة السحوق، فصاح سعدان على عبيده وقال: اسحبوا هذا العجل السمين واشووه سريعاً. فأسرعوا وسلخوا العملاق وشووه وقدّموه لسعدان الغول، فأكله ورمش عظامه، فلما نظر الكفار إلى فعل سعدان بصاحبهم، اقشعرت جلودهم وأبدانهم، وانعكست أحوالهم، وتغيّرت ألوانهم، وقالوا لبعضهم: كلٌّ من خرج لهذا الغول أكله ورمش عظامه وأعدمه نسيم الدنيا. فتوقفوا عن القتال وقد فزعوا من الغول وأولاده، ثم ولّوا هاربين وإلى بلدهم قاصدين.

فعند ذلك صاح غريب على قومه وقال: عليكم بالمنهزمين. فحمل العجم والعرب على ملك بابل وقومه، وأوقعوا فيهم ضربَ السيف حتى قتلوا منهم عشرين ألفاً وأزيد، وازدحموا في الباب فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ولم يقدروا على غلق الباب، فهجمت عليهم العرب والعجم، وأخذ سعدان عموداً من بعض القتلى وهزه قدام القوم ونزل به في الميدان، ثم هجم على قصر الملك جمك فواجهه وضربه بالعمود فوقع على الأرض مغشياً عليه، وحمل سعدان على من في القصر فجعلهم هشيماً، فعند ذلك صاحوا: الأمان الأمان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٣٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن سعدان الغول لما هجم على قصر الملك جمك وهشَّم من فيه صاحوا: الأمان الأمان. فقال لهم سعدان: كتّفوا ملككم. فكتّفوه وحملوه وساقهم سعدان قدامه مثل الغنم، بعد فناء أكثر أهل المدينة بسيف عسكر غريب، وأوقفهم قدام غريب، فلما أفاق جمك ملك بابل من غشيته وجد نفسه مربوطاً، والغول يقول: الليلة أتعشى بهذا الملك جمك. فلما سمعه التفت إلى غريب وقال له: أنا في جيرتك. قال غريب: أسلم تسلم من الغول ومن عذاب الحي الذي لا يزول. فأسلم جمك قلباً ولساناً، فأمر غريب بحل كتافه، ثم عرض الإسلام على قومه فأسلموا جميعاً، وقد وقفوا في خدمة غريب، ودخل جمك مدينته وأخرج الطعام والشراب وباتوا على بابل حتى أصبح الصباح، فأمر غريب بالرحيل وساروا حتى وصلوا إلى ميفارقين، فرأوا خالية من أهلها، وكان أصحابها قد سمعوا ما جرى لبابل، فأخلّوا الديار وساروا حتى وصلوا إلى مدينة الكوفة، فأخبروا عجبياً بما جرى، فقامت قيامته وجمع أبطاله وأخبرهم بقدوم غريب، وأمرهم أن يأخذوا الأهبة لقتال أخيه، وقد أحصى قومه فكانوا ثلاثين ألف فارس وعشرة آلاف راجل، ثم طلب غيرهم للحضور؛ فحضر له خمسون ألفاً من فارس وراجل، ثم ركب في عسكر جرّار وسار خمسة أيام، فوجد عسكر أخيه نازلاً بالموصل، فنصب خيامه قبال خيامهم، ثم كتب غريب كتاباً والتفت إلى رجاله وقال: من فيكم يوصل هذا الكتاب إلى عجيب؟ فوثب سهيم قائماً وقال: يا ملك الزمان، أنا أروح بكتابك وأجيء بجوابك. فأعطاه الكتاب وسار به حتى وصل إلى سرادق عجيب، فأخبروا عجبياً به، فقال: ائتوني به. فلما أحضروه بين يديه قال له: من أين جيئت؟ قال: جيئتُ من عند ملك العجم والعرب، صهر كسرى ملك الدنيا، وقد أرسل إليك كتاباً قرّدتُ جوابه. فقال له عجيب: هات الكتاب. فأعطاه إياه ففكّه وقرأه فوجد فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على الخليل إبراهيم، أما

بعدُ؛ فساعة وصول الكتاب إليك توحد الملك الوهاب، مسبب الأسباب، ومسير السحاب، وتترك عبادة الأصنام، فإن أسلمت كنت أخي والحاكم علينا، وأترك لك ذنب أبي وأمي، ولا أؤاخذك بما فعلت، وإن لم تفعل ما أمرتك به قطعْتُ عنقك وأخربتُ ديارك وعجلت عليك، وقد نصحتك والسلام على من اتبع الهدى، وأطاع الملك الأعلى.»

فلما قرأ عجيب كلام غريب وفهم ما فيه من التهديد، صارت عيناه في أم رأسه، وقرش على أضراسه واشتد غضبه، ثم مزق الكتاب ورماه، فصعب على سهيم فصاح على عجيب وقال له: شلَّ الله يدك بما فعلت. فصاح عجيب على قومه وقال: امسكوا هذا الكلب وقطعوه بسيوفكم. فجمعوا على سهيم، فسحب سهيم سيفه وبطش بهم، فقتل منهم ما يزيد على خمسين بطلاً، ومرق سهيم حتى وصل إلى أخيه وهو غاطس في الدم، فقال له غريب: أي شيء هذا الحال يا سهيم؟ فحكى له ما جرى، فصاح غريب: الله أكبر. وامتزج بالغضب، ودق طبل الحرب، وركب الأبطال، واصطف الرجال، واجتمع الأقران ورقصوا الخيل في المجال، ولبس الرجال الحديد والزرر النضيد، وتقلدوا بالسيوف، واعتقلوا الرماح الطوال، وركب عجيب بقومه وحملت الأمم على الأمم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٣٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما ركب هو وقومه وركب عجيب هو وقومه، حملت الأمم على الأمم، وحكم قاضي الحرب وفي حكمه ظلم وختم على فمه ولم يتكلم، وجرى الدم وانسجم، ونقش على الأرض طرازًا محكمًا، وشابت الأمم واشتد الحرب واحتدم، وزلّت القدم، وثبت الشجاع واقتحم، وولّى الجبان وانهزم، ولم يزالوا في حرب و قتال، حتى ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار، فدقوا كئوس الانفصال وانفرك بعضهم عن بعض، ورجعت كل طائفة إلى خيامها وباتوا. فلما أصبح الصباح، دقوا كئوس الحرب والكفاح، وقد لبسوا آلة الحرب وتقلّدوا بالسيوف الملاح، واعتقلوا سمر الرماح، وركبوا الجرد القداح، ونادوا: اليوم لا براح. واصطف العساكر مثل البحر الزاخر، فكان أول من فتح باب الحرب سهيم، فساق جواده بين الصفين، ولعب بالسيوفين والرمحين، وقلب أبوابًا في الحرب حتى حَيَّرَ أولي الألباب، ثم نادى: هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ لا يأتني كسلان ولا عاجز؟ فبرز له فارس من الكفار، كأنه شعلة من نار، فما أمهله سهيم في الثبات قدامه حتى طعنه فألقاه؛ فبرز له الثاني فقتله، والثالث فمزّقه، والرابع فأهلكه، ولم يزل كلٌّ من برز له قتله إلى نصف النهار، حتى قتل مائتي بطل، فعند ذلك صاح عجيب في قومه وأمرهم بالحملة، فحمل الأبطال على الأبطال، وعظم النزال، وكثر القيل والقال، ورنّت السيوف الصقال، وفتكت الرجال بالرجال، وصاروا في أنحس حال، وجرى الدم وسال، وصارت الجماجم للخيول نعال، ولم يزالوا في ضرب شديد حتى ولى النهار، وأقبل الليل بالاعتكار، وانفصلوا من بعضهم، ومضوا إلى خيامهم، وباتوا إلى الصباح. ثم ركب الطائفتان وطلبوا الحرب والكفاح، وانتظر المسلمون غريبًا يركب تحت الأعلام على جري عادته فما ركب، فذهب عبد سهيم إلى سرادق أخيه فلم يجده، فسأل الفراشين

فقالوا: ما لنا به علم. فاغتمَّ غمًّا شديدًا، وخرج وأعلم العسكر، فامتنعوا من الحرب وقالوا: إنْ غاب غريب يَهْلِكنا عدوُّه.

وكان لغياب غريب أمر عجيب نذكره على الترتيب؛ وهو أنه لما رجع عجيب من حرب أخيه غريب، دعا رجلًا من أعوانه يقال له سيَّار، وقال له: يا سيَّار، ما أدخَرْتُكَ إلا لمثل هذا اليوم، وقد أمرتك أن تدخل عسكر غريب، وتصل إلى سرادق الملك، وتجيء بغريب وتريني شطارتك. فقال: سمعًا وطاعة. ثم إن سيَّارًا سار حتى تمكَّن من سرادق غريب، وقد أظلم الليل وانصرف كل إنسان إلى مرقده، هذا كله وسيَّار واقف بسبب الخدمة، فعضط غريب فطلب الماء من سيَّار، فقَدَّمَ له كوز ماء وشغله بالبنج، فما فرغ غريب من الشرب حتى سبقت رأسه رجله، فلَقَّه في ردائه وحمله وسار به حتى دخل خيام عجيب، ثم وقف بين يديه ورماه قدامه، فقال له: ما هذا يا سيَّار؟ قال له: هذا أخوك غريب. ففرح عجيب وقال له: باركت فيك الأصنام حلَّة ونَبَّهه. فنشقه بالخل فأفاق، وفتح عينيه فوجد نفسه مربوطًا، وهو في خيمة غير خيمته، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فصاح عليه أخوه وقال له: أتجرؤ عليَّ يا كلب وتطلب قتلي وتطالبني بثأر أبيك وأمك؟ فأنا اليوم ألحقك بهما وأريح الدنيا منك. فقال له غريب: يا كلب الكفار، سوف تنظر من تدور عليه الدوائر، ويقهره الملك القاهر، العالم بما في السرائر، الذي يترك في جهنم معذبًا جائرًا، فارحم نفسك وقل معي: لا إله إلا الله، إبراهيم خليل الله. فلما سمع عجيب كلام غريب، شخر وسبَّ إلهه الحجر، وأمر بإحضار السيَّاف ونطع الدم، فنهض الوزير وقبَّل الأرض، وكان مسلمًا في الباطن كافرًا في الظاهر وقال: يا ملك، أمهل لا تعجل حتى نعرف الغالب من المغلوب، فإن كُنَّا غالبين فنحن متمكِّنون من قتله، وإن كُنَّا مغلوبين يكون إبقاؤه في أيدينا قوة لنا. فقال الأمراء: صدق الوزير. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٣٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عجيبًا لما أراد قتل غريب نهض الوزير وقال: لا تعجل، فإننا متمكّنون من قتله. فأمر عجيب لأخيه بقيدتين وغلّين وجعله في خيمته وحرّس عليه ألف بطل شدادًا، وأصبح قوم غريب فاقدتين ملكهم فلم يجدوه، فلما أصبح الصباح صاروا غنمًا من غير راع، فصاح سعدان الغول وقال: يا قوم، لبسوا آلة حربكم وتوكلوا على ربكم، يدفع عنكم. فركب العرب والعجم خيولهم بعد أن لبسوا الحديد، وتسربلوا بالزرد النضيد، وبرزت السادات، وتقدّم أصحاب الرايات، فعند ذلك برز غول الجبل وعلى كتفه عمود وزنه مائتا رطل، فجال وصال وقال: يا عبدة الأصنام، ابرزوا اليوم فإنه يوم الاصطدام، من عرفني فقد اكتفى شري، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسه، أن سعدان غلام الملك غريب، هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ لا يأتني اليوم جبان ولا عاجز؟ فبرز له بطل من الكفار، كأنه شعلة من نار، فحمل على سعدان فتلّقاه سعدان وضربه بالعمود، فكسر أضلّاعه ووقع على الأرض ليس فيه روح، فصاح على أولاده وعبيده وقال لهم: أشعلوا النار فكلّ من وقع من الكفار اشووه وأصلحوا شأنه ونصّجوه بالنار، وقدّموه إليّ حتى أتغدى به. ففعلوا ما أمرهم به وأطلقوا النار في وسط الميدان، وطرحوا ذلك المقتول في النار حتى استوى، فقدّموه لسعدان، فنهش لحمه ومرمش عظمه، فلما نظر الكفار ما فعل غول الجبل، فزعوا فزعًا شديدًا، فصاح عجيب على قومه وقال: ويلكم، فاحملوا على هذا الغول واضربوه بسيوفكم وقطّعوه. فحمل عشرون ألفًا على سعدان ودارت حوله الرجال، ورشقوه بالنبال والنشاب، فصار فيه أربعة وعشرون جرحًا، وجرى دمه على الأرض وصار وحده، فعند ذلك حملت أبطال المسلمين على المشركين، واستغاثوا برب العالمين، ولم يزلوا في حرب وقتال حتى فرغ النهار، فافترقوا من بعضهم وقد أسر سعدان وهو مثل السكران من نزيف الدم، وشدوا وثاقه وأضافوه إلى غريب. فلما نظر غريب إلى

سعدان وهو أسير قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقال له: يا سعدان، ما هذا الحال؟ فقال: يا مولاي، حكم الله سبحانه وتعالى بالشدة والفرج، ولا بد من هذا وهذا. قال: صدقت يا سعدان. وبات عجيب وهو فرحان وقال لقومه: اركبوا غداً واهجموا على عسكر المسلمين حتى لا يبقى منهم بقية. فقالوا: سمعاً وطاعةً.

وأما ما كان من أمر المسلمين، فإنهم باتوا وهم منهزمون باكون على ملكهم وعلى سعدان، فقال لهم سهيم: يا قوم، لا تهتموا، ففرج الله تعالى قريب. ثم صبر سهيم إلى نصف الليل، وتوجّه إلى عسكر عجيب، ولم يزل يخترق المضارب والخيام حتى وجد عجيباً جالساً على سرير عزّه والملوك حوله، كلُّ هذا وسهيم في صفة فراش، وتقدّم إلى الشمع الموقود وقطف زهرته وأشعله بالبنج الطيار، وخرج منه خارج السرادق، وصبر ساعة حتى طلع دخان البنج على عجيب وملوكه، فوقعوا على الأرض كأنهم موتى، فتركهم سهيم وأتى إلى خيمة السجن، فوجد فيها غريباً وسعدان، ووجد عليها ألف بطل وقد غلبهم النعاس، فصاح عليهم سهيم وقال: ويلكم لا تناموا واحتفظوا على غريمكم وأوقدوا المشاعل. ثم أخذ سهيم مشعلاً وأشعله بالحطب وملأه بنجاً، ودار حول الخيمة، فطلع دخان البنج ودخل في خياشيمهم، فرقدوا جميعهم وتبنج جميع العسكر من دخان البنج فرقدوا، وكان مع سهيم الليل الخلُّ في إسفنجة، فنشقهما حتى أفاقا وقد حلّهما من السلاسل والأغلال، فنظرا إلى سهيم ودعوا له وفرحاً به، ثم خرجوا وحملوا جميع السلاح من الحراس، وقال لهم: امضوا إلى عسكركم. فساروا ودخل سهيم إلى سرادق عجيب ولفه في برده وحمله وسار قاصداً خيام المسلمين، وقد ستر عليه الرب الرحيم حتى وصل إلى سرادق غريب وحلّ البردة، فنظر غريب إلى ما في البردة فوجده أخاه عجيباً وهو مكتّف، فصاح: الله أكبر، فتح ونصر. ودعا غريب لسهيم وقال: يا سهيم نبّهه. فتقدّم وأعطاه الخلّ من الكندز، فأفاق من البنج وفتح عينيه، فوجد روحه مكتفاً مقيداً، فأطرق رأسه إلى الأرض. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٤٠

قال: بلغني أيها الملك السعيد، أن عجبياً لما قبضه سهيم وبَنَّجَه، جاء به عند أخيه غريب ونَبَّهه، ففتح عينيه فوجد نفسه مكتفًا مقيِّدًا، فأطرق رأسه إلى الأرض، فقال له: يا ملعون، ارفع رأسك. فرفع رأسه فوجد نفسه بين عجم وعرب، وأخوه جالس على سرير ملكه ومحل عزّه، فسكت ولم يتكلم، فصاح غريب وقال: أعروا هذا الكلب. فأعروه ونزلوا عليه بالسياط حتى أضعفوا جسمه وأخمدوا حسه، وحرس عليه مائة فارس، فلما فرغ غريب من عذاب أخيه، سمعوا التهليل والتكبير في خيام الكفار، وكان السبب في ذلك أن الملك الدامغ عم غريب، لما رحل غريب من عنده من الجزيرة أقام بعد رحيله عشرة أيام، ثم ارتحل بعشرين ألف فارس، وسار حتى صار قريباً من الواقعة، فأرسل ساعي ركابه يكشف له الأخبار، فغاب يوماً ثم عاد وأخبر الملك الدامغ بما جرى لغريب مع أخيه، فصبر حتى أقبل الليل ثم كَبَّرَ على الكفار ووضع فيهم الصارم، فسمع غريب وقومه التكبير، فصاح غريب على أخيه سهيم الليل وقال له: اكشف لنا خبر هذا العسكر، وما سبب هذا التكبير؟ فذهب سهيم حتى قرب من الواقعة وسأل الغلمان، فأخبروه أن الملك الدامغ عم غريب وصل في عشرين ألف فارس وقال: وحقّ الخليل إبراهيم ما أترك ابن أخي، بل أعمل عمل الشجعان، وأردع القوم الكافرين، وأرضي الملك الجبار. ثم هجم بقومه في ظلام الليل على القوم الكفرة، فرجع سهيم إلى أخيه غريب وأخبره بما عمل عمه، فصاح على قومه وقال لهم: احملوا سلاحكم واركبوا خيولكم وساعدوا عمي. فركب العسكر وهجموا على الكفار ووضعوا فيهم الصارم البتار، فما أصبح الصباح حتى قتلوا من الكفار نحو خمسين ألفاً، وأسروا نحو ثلاثين ألفاً، وانهزم باقيهم في الأرض طولاً وعرضاً، ورجع المسلمون مؤيِّدين منصورين، وركب غريب ولاقى عمه الدامغ وسلَّم عليه وشكره على فعله، وقال الدامغ: يا ترى هذا الكلب وقع في هذه الواقعة؟ فقال غريب: يا عم، طبَّ نفساً

وَقَرَّ عَيْنًا، وَاَعْلَمَ أَنَّهُ عِنْدِي مَرْبُوطٌ. فَفَرَحَ الدَّامِغُ فَرَحًا شَدِيدًا، وَدَخَلُوا الْخِيَامَ وَتَرَجَّلَ الْمَلِكُ وَدَخَلَ السَّرَادِقَ فَمَا وَجَدَا عَجِيْبًا، فَصَاحَ غَرِيبٌ وَقَالَ: يَا جَاهُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ قَالَ: يَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَا أَشْنَعَهُ! وَصَاحَ عَلَى الْفَرَّاشِينَ وَقَالَ: يَا وَيْلَكُمْ أَيْنَ غَرِيبِي؟ فَقَالُوا: لَمَّا رَكِبْتَ وَسَرْنَا حَوْلَكَ لَمْ تَأْمُرْنَا بِسَجْنِهِ. فَقَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. فَقَالَ لَهُ عَمَهُ: لَا تَعْجَلْ وَلَا تَحْمِلْ هَمًّا، فَأَيْنَ يَرُوحُ وَنَحْنُ لَهُ فِي الطَّلَبِ؟ وَكَانَ السَّبَبُ فِي هُرُوبِ عَجِيْبٍ غَلَامُهُ سَيَّارٌ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي الْعَسْكَرِ كَامِنًا، فَمَا صَدَقَ بِرُكُوبِ غَرِيبٍ وَمَا تَرَكَ فِي الْخِيَامِ مَنْ يَحْرُسُ غَرِيبَهُ، فَصَبَرَ وَأَخَذَ عَجِيْبًا وَحَمَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَتَوَجَّهَ إِلَى الْبَرِّ وَعَجِيْبٌ مَدْهُوشٌ مِنْ أَلَمِ الْعَذَابِ، ثُمَّ سَارَ بِهِ يَجِدُّ السَّيْرَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى ثَانِي يَوْمٍ حَتَّى وَصَلَ بِهِ إِلَى عَيْنِ مَاءٍ عِنْدَ شَجَرَةٍ تَفَاحٍ، فَنَزَّلَهُ عَنْ ظَهْرِهِ وَغَسَلَ وَجْهَهُ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَوَجَدَ سَيَّارًا، فَقَالَ لَهُ: يَا سَيَّارُ، رَحَ بِي الْكُوفَةُ حَتَّى أَفِيْقَ وَأَجْمَعَ الْفَرَسَانَ وَالْجِيُوشَ وَالْعَسَاكِرَ وَأَقْهَرُ بِهَا عَدُوِّي، وَاعْلَمْ يَا سَيَّارُ أَنِّي جُوعَانٌ. فَنَهَضَ سَيَّارٌ إِلَى الْغَابَةِ وَاصْطَادَ فَرَخَ نَعَامٍ، وَأَتَى بِهِ مَوْلَاهُ وَذَبَحَهُ وَقَطَعَهُ، وَجَمَعَ الْحَطَبَ وَقَدَحَ الزَّنَادَ وَأَشْعَلَ النَّارَ وَشَوَاهُ، وَأَطْعَمَهُ وَسَقَاهُ مِنَ الْعَيْنِ، فَزِدَّتْ رُوحَهُ، وَمَضَى سَيَّارٌ إِلَى بَعْضِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَسَرَقَ مِنْهُمْ جَوَادًا وَأَتَى بِهِ عَجِيْبًا، فَأَرْكَبَهُ وَقَصَدَ بِهِ الْكُوفَةَ، فَسَارَا أَيَّامًا حَتَّى وَصَلَا قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَخَرَجَ النَّائِبُ لِلْمُلْتَقَى الْمَلِكِ عَجِيْبٌ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَوَجَدَهُ ضَعِيفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَذَّبَهُ إِيَّاهُ أَخُوهُ، فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ وَدَعَا الْمَلِكَ بِالْحُكَمَاءِ فَحَضَرُوا، فَقَالَ لَهُمْ: دَاوُونِي فِي أَقَلِّ مِنْ عَشْرَةِ أَيَّامٍ. فَقَالُوا: سَمْعًا وَطَاعَةً. وَجَعَلَ الْحُكَمَاءُ يَلَاطِفُونَ عَجِيْبًا حَتَّى شَفِيَ وَتَعَاْفَى مِنَ الْمَرَضِ الَّذِي كَانَ فِيهِ وَمِنَ الْعَذَابِ، ثُمَّ أَمَرَ وَزِيرَهُ أَنْ يَكْتُبَ الْكُتُبَ إِلَى جَمِيعِ النَّوَّابِ، فَكُتِبَ وَاحِدًا وَعَشْرِينَ كِتَابًا وَأُرْسِلَهُمْ إِلَيْهِمْ، فَجَهَّزُوا الْعَسَاكِرَ وَقَصَدُوا الْكُوفَةَ مُجِدِّينَ السَّيْرَ. وَأَدْرَكَ شَهْرُزَادُ الصَّبَاحَ فَسَكَّتَتْ عَنِ الْكَلَامِ الْمُبَاحِ.

فلما كانت الليلة ٦٤١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عجيباً أرسل يحضر العسكر فقصدوا الكوفة وحضروا، وأما غريب فإنه صار متأسفاً على هروب عجيب، وأرسل خلفه ألف بطل وفرّقهم في جميع الطرق، فساروا يوماً وليلة فلم يجدوا له خبراً، ثم رجعوا وأخبروا غريباً، فطلب أخاه سهيماً فما وجدته، فخاف عليه من نوائب الزمان واغتمَّ غمّاً شديداً. فبينما هو كذلك وإذا بسهيم داخل عليه، وقبّل الأرض بين يديه، فقام غريب لما نظر إليه وقال: أين كنت يا سهيم؟ فقال له: يا ملك، قد وصلتُ إلى الكوفة فوجدتُ الكلبَ عجيباً وصل إلى محل عزّه، وأمر الحكماء أن يداووه مما به، فداووه فتعافى وكتب الكتب وأرسلها لنوابه فأتوه بالعساكر. فأمر غريب عسكره بالرحيل، فهدوا الخيام وصاروا قاصدين الكوفة، فلما وصلوا إليها وجدوا لها عساكر مثل البحر الزاخر، ليس لها أول من آخر، فنزل غريب بعسكره مقابل عسكر الكفار، ونصبوا الخيام وأقاموا الأعلام، ودخل على الطائفتين الظلام، فأوقدوا النيران وتحارس الفريقان حتى طلع النهار، فقام الملك غريب توضاً وصلى ركعتين على ملة أبينا الخليل إبراهيم عليه السلام، وأمر بدقّ طبول الحرب فدقت، والأعلام خفقت، والفرسان لدروعها لبست، ولخيولها ركبت، ولأنفسها أشهرت، ولبيدان الحرب طلبت، فأول من فتح باب الحرب الملك الدامغ عم الملك غريب، وقد ساق جواده بين الصفين، واشتهر بين الفريقين، ولعب بالرمحين والسيوفين، حتى حيرَ الفرسان، وتعجّب منه الفريقان، فصاح: هل من مبارز؟ لا يأتني كسلان ولا عاجز؟ أنا الملك الدامغ أخو الملك كندمر. فبرز له بطل من فوارس الكفار، كأنه شعلة نار، وحمل على الدامغ من غير كلام، فلاقاه الدامغ وطعنه في صدره، فخرج السنان من كتفه، وعجّل الله بروحه إلى النار وبئس القرار.

وبرز له الثاني فقتله، والثالث فقتله، ولم يزل كذلك حتى قتل منهم ستة وسبعين رجلاً أبطالاً، فعند ذلك توقفت الرجال والأبطال عن المبارزة، فصاح الكافر عجيب على قومه وقال: ويلكم يا قوم، إن برزتم له جميعاً واحداً بعد واحد، فإنه لا يُبقي منكم أحداً قائماً ولا قاعداً، فاحملوا عليه حملة واحدة حتى تتركوا الأرض منهم خالية ورءوسهم تحت حوافر الخيل مجندلة. فعند ذلك هزوا العلم المدهش، وانطبقت الأمم على الأمم، وسال الدم على الأرض وانسجم، وحكم قاضي الحرب وفي حكمه ما ظلم، وثبت الشجاع في مقام الحرب راسخ القدم، وولّى الجبان وانهزم، وما صدق أن ينقضي النهار ويُقبل الليل بجندس الظلام، ولم يزالوا في حرب وقتال وضرب نصال، حتى ولّى النهار وأظلم الليل بالاعتكار؛ فعند ذلك دقّ الكفار طبل الانفصال، فما رضي غريب بل هجم على المشركين وتبعه المؤمنون الموحّدون، فكم قطعوا رءوساً ورقاباً، وكم مرّقوا أيادي وأصلاًباً، وكم هشموا ركباً وأعصاباً، وكم أهلكوا كهولاً وشباباً، فما أصبح الصباح إلا وقد عزم الكفار على الهروب والرواح، وقد انهزموا عند انشقاق الفجر الوضاح، وتبعهم المسلمون إلى وقت الظهر وقد أسروا منهم ما يزيد عن عشرين ألفاً، وقد أتوا بهم مكتّفين، ونزل غريب على باب الكوفة وأمر منادياً أن ينادي في المدينة المذكورة بالأمان والاطمئنان، لمن يترك عبادة الأصنام ويوحّد الملك العلّام، خالق الآنام والضياء والظلام. فعند ذلك نادوا في شوارع المدينة كما قال بالأمن، وأسلم كلٌّ من كان فيها كباراً وصغاراً، وخرجوا كلهم جددوا إسلامهم قدام الملك غريب، وقد فرح بهم غاية الفرح واتسع صدره وانشرح.

ثم سأل عن مرداس وبنته مهدية، فأخبروه أنه كان نازلاً خلف الجبل الأحمر، فعند ذلك أرسل إلى أخيه سهيم فحضر عنده فقال له: اكشف لي عن خبر أبيك. فركب جواده وما تأخر، وقد اعتقل رمحه الأسمر وما قصّر، وسار متوجّهاً إلى الجبل الأحمر، وفتشّ فما رأى له خبراً ولا لقومه أثراً، ورأى مكانهم شيخاً من العرب كبير السن، حطيماً من كثرة السنين، فسأله سهيم عن حال الرجال وأين مضوا؟ فقال له: يا ولدي، إن مرداساً لما سمع بنزول غريب على الكوفة خاف خوفاً عظيماً، وأخذ بنته وقومه وجميع جواريه وعبيده، وسار في تلك البراري والقفار، ولا أدري أين توجه. فلما سمع سهيم كلام الشيخ رجع إلى أخيه وأعلمه بذلك، فاغتم غمّاً شديداً، وجلس على سرير ملك أبيه، وفتح خزانته وفرّق الأموال على جميع الأبطال، وأقام في الكوفة وأرسل الجواسيس تكشف أمر عجيب، وأمر بإحضار أرباب الدولة، فأتوه طائعين، وكذلك أهل المدينة، وخلص عليهم الخلع السنية وأوصاهم بالريعية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٤٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما خلع على أهل الكوفة وأوصاهم بالرعية، ركب في بعض الأيام إلى الصيد والقنص، وخرج في مائة فارس وسار إلى أن وصل إلى وادٍ ذي أشجار وأثمار، كثير الأنهار والأطيار، ومرتع للظبي والغزلان، تتراح إليه النفوس وتنعش روائحه من فترة العكوس، فأقاموا فيه ذلك اليوم، وكان يومًا مزهرا، وباتوا فيه إلى الصباح، فصلّى غريب ركعتين بعد الوضوء وحمد الله تعالى وشكره، وإذا بصراخ وهرج لهما طنين في ذلك المرج، فقال غريب لسهيم: اكتشف لنا الأخبار. فمرق من وقته وسار حتى رأى أموالاً منهوبة، وخيلًا مجنوبة، وحريمًا مسبيةً وأولادًا وصياحًا، فسأل بعض الرعاة وقال لهم: أي شيء الخبر؟ قالوا: هذا حريم مرداس سيد بني قحطان وأمواله وأموال الحي الذي معه؛ فإن الجمرقان بالأمس قتل مرداسًا ونهب أمواله وسبى عياله، وأخذ أموال الحي جميعه؛ والجمرقان من دأبه شُنُّ الغارات وقطع الطرقات، وهو جبّار عنيد ما تقدر عليه العربان ولا الملوك؛ لأنه شر مكان.

فلما سمع سهيم بقتل أبيه وسبى الحريم ونهب الأموال، عاد إلى أخيه غريب وأعلمه بذلك، فازداد نارًا على نار وهاجت به الحمية لكشف العار وأخذ الثأر، فركب في قومه طالبين الفرصة، وسار إلى أن وصل إلى القوم فصاح على الرجال: الله أكبر على من طغى وبغى وكفر. وقتل منهم في حملة واحدة واحدًا وعشرين بطلاً، ثم وقف في حومة الميدان بقلب غير جبان وقال: أين الجمرقان؟ يبرز لي حتى أذيقه كأس الهوان وأخلي منه الأوطان. فما فرغ غريب من كلامه حتى برز الجمرقان كأنه جلة من الجبل، أو قطعة من جبل بالحديد مسربل، وكان عملاقًا طويلًا جدًّا، فصدم غريبًا صدمة جبّار عنيد من غير كلام ولا سلام، فحمل عليه غريب ولاقاه كالأسد الضاري، وكان مع الجمرقان عمود من الحديد الصيني ثقيل رزين، لو ضرب به جبلًا لهدمه، فحملة في يده وضرب به غريبًا

على رأسه، فزاغ عنه غريب، فنزلت في الأرض فغاصت فيها نصف ذراع، ثم إن غريباً تناوَلَ الدبوس وضرب الجمرقان على مقبض كَفِّه، فهرس أصابعه فوق العמוד من يده، فانحنى غريب من بحر سرجه وخطفه أسرع من البرق الخاطف، وضرب به الجمرقان على صف أضلاعه، فوقع على الأرض كالنخلة السحوق، فأخذه سهيم وأدار كتافه وسحبه بحبل، واندفعت فرسان غريب على فرسان الجمرقان، فقتلوا خمسين وولَّى الباقي هارين، ولم يزالوا في هزيمتهم حتى وصلوا حيهم وأعلنوا بالصياح، فركب كلُّ مَنْ في الحصن ولاقوهم وسألوهم عن الخبر، فأعلموهم بما كان، فلما سمعوا بأسر سيدهم تسابقوا إلى خلاصه وساروا قاصدين الوادي.

وكان الملك غريب لما أسر الجمرقان وهربت أبطاله، نزل عن جواده وأمر بإحضار الجمرقان، فلما حضر خضع له وقال: أنا في جيرتك يا فارس الزمان. فقال له غريب: يا كلب العرب، هل تقطع الطريق على عباد الله تعالى ولا تخاف من رب العالمين؟ فقال له الجمرقان: يا سيدي، وما رب العالمين؟ قال غريب: يا كلب، وما تعبد من المصائب؟ قال له: يا سيدي، أعبد إلهاً من عجوة بالسمن والعسل، وفي بعض الأوقات آكله وأعمل غيره. فضحك غريب حتى استلقى على قفاه وقال: يا تعيس، ما يُعبد إلا الله تعالى الذي خلقك وخلق كل شيء، ورزق كل حي، ولا يخفى عليه شيء، وهو على كل شيء قدير. فقال الجمرقان: وأين هذا الإله العظيم حتى أعبد؟ قال له غريب: يا هذا، اعلم أن ذلك الإله اسمه الله، وهو الذي خلق السموات والأرض، وأنبت الأشجار وأجرى الأنهار، وخلق الوحوش والأطيار، والجنة والنار، واحتجب عن الأبصار، يَرَى ولا يُرَى، وهو بالمنظر الأعلى، وهو الذي خلقنا ورزقنا سبحانه لا إله إلا هو. فلما سمع الجمرقان كلام غريب انفتحت مسامع قلبه واقشعرَّ جلده وقال: يا مولاي، فما أقول حتى أصير منكم ويرضى عليَّ هذا الرب العظيم؟ قال له: قل لا إله إلا الله إبراهيم الخليل رسول الله. فنطق الجمرقان بالشهادة، فكتب من أهل السعادة، فقال له: هل نقت حلاوة الإسلام؟ قال: نعم. قال غريب: حلُّوا قيوده. فحلوها، فقَبَلَ الأرض قدام غريب وقَبَلَ رجل غريب، فبينما هم كذلك وإذا بغبار قد ثار حتى سد الأقطار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٤٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجمرقان لما أسلم قَبْلَ الأرض بين يدي غريب، فبينما هم كذلك وإذا بغبار قد ثار حتى سد الأقطار، فقال غريب: يا سهيم، اكشف لنا خبر هذا الغبار. فخرج مثل الطير إذا طار، وغاب ساعة ثم عاد وقال: يا ملك الزمان، هذا غبار بني عامر أصحاب الجمرقان. فقال له: اركب ولاق قومك واعرض عليهم الإسلام، فإن أطاعوك سلموا وإن أَبَوْا أعملنا فيهم الحسام. فركب الجمرقان وساق جواده حتى لاقاهم وصاح عليهم، فعرفوه ونزلوا عن الخيل وأَتَوْا على أقدامهم وقالوا: قد فرحنا بسلامتك يا مولانا. فقال: يا قوم، مَنْ أطاعني نجا، وَمَنْ خالفني قصمته بهذا الحسام. فقالوا له: مُرْنَا بما شئتَ، فإننا لا نخالف لك أمرًا. قال: قولوا معي: لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله. فقالوا: يا مولانا، من أين لك هذا الكلام؟ فحكى لهم ما جرى له مع غريب وقال لهم: يا قوم، أَمَا تعلمون أنني معادل بكم في حومة الميدان ومقام الحرب والطعان؟ وقد أُسرني فرد إنسان وأذاقني الذل والهوان. فلما سمع قومه كلامه نطقوا بكلمة التوحيد، ثم توجَّه بهم الجمرقان إلى غريب وجددوا إسلامهم بين يديه، ودعوا له بالنصر والعز بعد أن قَبَّلُوا الأرض، ففرح بهم وقال لهم: امضوا إلى حيِّكم واعرضوا عليهم الإسلام. فقال الجمرقان وقومه: يا مولانا، ما بقينا نفارقك، ولكن نروح نجىء بأولادنا ونأتي إليك. فقال غريب: يا قوم، امضوا والحقوني في مدينة الكوفة. فركب الجمرقان وقومه حتى وصلوا حيَّهم وعرضوا على حريمهم وأولادهم الإسلام فأسلموا عن آخرهم، وهدوا البيوت والخيام، وساقوا الخيل والجمال والغنم وساروا إلى نحو الكوفة، وسار غريب، فلما وصل إلى الكوفة لاقاه الفرسان بموكب، ثم دخل قصر الملك وجلس على تخت أبيه، ووقفت الأبطال ميمنة وميسرة، ودخل عليه الجواسيس وأخبروه أن أخاه وصل إلى الجند بن كركر صاحب مدينة عمان وأرض اليمن؛ فلما سمع غريب خبر أخيه صاح على قومه

وقال: يا قوم، خذوا أهبتكم للسفر بعد ثلاثة أيام. وعرض على الثلاثين ألفاً الذين أسروهم أول الوقعة الإسلام والسير معهم، فأسلم منهم عشرون ألفاً وأبى عشرة آلاف فقتلهم، ثم قدم الجمرقان وقومه وقبّلوا الأرض بين يديه وخلع عليهم الخلع السنية، وجعله مقدم الجيش وقال: يا جمرقان، اركب في كبار بني عمك وعشرين ألف فارس وسرّ في مقدم العسكر، واقصد بلاد الجلد بن كركر صاحب مدينة عمان. فقال: السمع والطاعة. فتركوا حريمهم وأولادهم في الكوفة ورحلوا.

ثم تفقّد حريم مرداس، فوقعت عينه على مهدية وهي بين النساء، فوقع مغشياً عليه، فرشوا على وجهه ماء الورد، فلما أفاق اعتنقها ودخل بها قاعة الجلوس، ثم جلس معها وناماً من غير زنى حتى أصبح الصباح، فخرج وجلس على سرير ملكه وخلع على عمه الدامغ وجعله نائباً على العراق جميعه، وأوصاه على مهدية حتى يرجع من غزوة أخيه، فامتثل أمره، ثم رحل في عشرين ألف فارس وعشرة آلاف راجل، وسار متوجّهاً إلى أرض عمان وبلاد اليمن، وكان عجيب قد وصل مدينة عمان بقومه وهم منهزمون، وقد ظهر لأهل عمان غبارهم، فنظر الجلد بن كركر ذلك الغبار، فأمر السعاة أن يكشفوا له الخبر، فغابوا ساعة ثم عادوا وأخبروه أن هذا غبار ملك يقال له عجيب صاحب العراق، فتعجّب الجلد بن مجيء عجيب إلى أرضه، فلما صحّ ذلك عنده قال لقومه: اخرجوا ولاقوه. فخرجوا ولاقوا عجيباً ونصبوا له الخيام على باب المدينة، وطلع عجيب إلى الجلد وهو باكٍ حزين القلب، وكانت بنت عم عجيب زوجة الجلد وله أولاد منها، فلما نظر صهره وهو في هذه الحالة قال له: أَعْلَمْنِي ما خبرك؟ فحكى له جميع ما جرى له من أوله إلى آخره مع أخيه، وقال له: يا ملك، إنه يأمر الناس بعبادة رب السماء، وينهاهم عن عبادة الأصنام وغيرها من الآلهة. فلما سمع الجلد هذا الكلام طغى وبغى وقال: وحق الشمس ذات الأنوار، لا أبقي من قوم أخيك دياراً، فأين تركت القوم؟ وكم هم؟ قال: تركتهم بالكوفة، وهم خمسون ألف فارس. فصاح على قومه وعلى وزيره جوامرد وقال له: خذ معك سبعين ألف فارس، وانذهب إلى المسلمين واثنتي بهم بالحياة حتى أعاقبهم بأنواع العذاب. فركب جوامرد بالجيش قاصداً الكوفة أول يوم وثاني يوم إلى سابع يوم، فبينما هم سائرون إذ نزلوا على وادٍ ذي أشجار وأنهار وأثمار، فأمر جوامرد قومه بالنزول. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٤٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جوامرد لما أرسله الجلد بالعسكر إلى الكوفة، مروا على وادٍ ذي أشجار وأنهار، فأمر قومه بالنزول واستراحوا إلى نصف الليل، ثم أمرهم جوامرد أن يرحلوا، وركب جواده وسبقهم وسار إلى وقت السحر، ثم انحدروا إلى وادٍ كبير الأشجار قد فاحت أزهاره، وترنمت أطياره، وتمايلت أغصانه، فنفخ الشيطان في معاطفه، فأنشد هذه الأبيات:

أَقُودُ الْأَسَارَى بِاجْتِهَادِي وَقُوَّتِي	أَخُوضُ بِجَيْشِي بَحَرَ كُلِّ عَجَاجَةٍ
مُهَابٌ لَدَى الْفُرْسَانِ حَامِي عَشِيرَتِي	وَتَعْلَمُ فُرْسَانُ الْبِلَادِ بِأَنَّنِي
وَأَزْجَعُ مَسْرُورًا وَتَكْمُلُ فَرْحَتِي	سَأَسْبِي غَرِيبًا فِي الْقَيْودِ مُكَبَّلًا
وَأَمْضِي إِلَى الْهَيْجَاءِ فِي كُلِّ وَجْهَتِي	وَأَلْبَسُ دِرْعِي ثُمَّ أَخْذُ عُدَّتِي

فما فرغ جوامرد من شعره حتى خرج عليه من بين الأشجار فارس أشم المعاطس، في الحديد غاطس، فصاح على جوامرد وقال له: قف يا شلح العرب واشلح ثيابك وعدتك، وانزل عن جوادك وانج بنفسك. فلما سمع جوامرد هذا الكلام، صار الضياء في وجهه ظلامًا، وسلّ حسامه وهجم على الجمرقان وقال له: يا شلح العرب، أقطع الطريق عليّ وأنا مقدم جيش الجلد بن كركر، لأجيء بغريب وقومه مربوطين. فلما سمع الجمرقان هذا الكلام قال: ما أبرده على كبدي! ثم حمل جوامرد وهو ينشد هذه الأبيات:

تَخَافُ الْعُدَى مِنْ صَارِمِي وَسَنَائِي	أَنَا الْفَارِسُ الْمَعْرُوفُ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى
وَتَعْلَمُ فُرْسَانُ الْأَنَامِ طِعَانِي	أَنَا الْجَمْرَقَانُ الْمُرْتَجَى لِكَرِيهَةِ

عَرِيبٌ أَمِيرِي بَلْ إِمَامِي وَسَيِّدِي هُمَامُ الْوَعَى يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ
إِمَامٌ لَهُ دَيْنٌ وَزُهْدٌ وَسَطْوَةٌ يَبِيدُ الْعِدَى فِي حَوْمَةِ الْمَيْدَانِ
وَيَدْعُو إِلَى دَيْنِ الْخَلِيلِ مُرْتَلًّا عَلَى رَغَمِ أَوْثَانِ الْجُحُودِ مَثَانِي

ثم إن الجمرقان لما سار بقومه من مدينة الكوفة، استمر على السير عشرة أيام، ثم نزلوا في الحادي عشر وأقاموا إلى نصف الليل، ثم أمرهم الجمرقان بالرحيل فرحلوا، وسار قدامهم وانحدر في ذلك الوادي، فسمع جوامرد وهو ينشد ما تقدّم ذكره، فحمل عليه حملة أسدٍ كاسرٍ وضربه بالسيف فشقه نصفين، وصبر حتى أقبل المقدمون وأعلمهم بما جرى وقال: تفرّقوا كل خمسة منكم تأخذ خمسة آلاف وتدور حول الوادي، وأنا ورجال بني عامر، فإذا وصلني أول الأعداء أحمل عليهم وأصيح: الله أكبر. فإذا سمعتم صياحي فاحملوا وكبروا واضربوا فيهم بالسيف. فقالوا: سمعاً وطاعة. ثم داروا على أبطالهم وأعلموهم فتفرّقوا في جهات الوادي عند انشقاق الفجر، وإذا بالقوم قد أقبلوا مثل قطع الغنم وقد ملئوا السهل والجبل، فعند ذلك حمل الجمرقان وبنو عامر وصاحوا: الله أكبر. فسمع المؤمنون والكفار، وصاح المسلمون من سائر الجهات: الله أكبر، ففتح ونصر، وخذل من كفر. فأوّبت الجبال والتلال، وكل يابس وأخضر يقول: الله أكبر. فاندesh الكفار وضرب بعضهم بعضاً بالصارم البتار، وحمل المسلمون الأبرار كأنهم شعل النار، فما يُرى إلا رأس طائر، ودم فاتر، وجبان حائر، ولم تظهر الوجوه إلا وقد فني ثلثا الكفار، وعجل الله بأرواحهم إلى النار وبئس القرار، وانهمز الباقون وتشتّتوا في القفار، وتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون إلى نصف النهار، ثم رجعوا وقد أسروا سبعة آلاف، ولم يرجع من الكفار غير ستة وعشرين ألفاً وأكثرهم مجروحون، ورجع المسلمون مؤيدين منصورين، وجمعوا الخيل والعُدَد والأثقال والخيام، وأرسلوها مع ألف فارس إلى الكوفة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٤٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجمرقان لما وقع بينه وبين جوامرد القتال، قتله وقتل قومه وأسر منهم خلقًا كثيرًا وأخذ أموالهم وخيلهم وأثقالهم، وأرسلها مع ألف فارس إلى الكوفة. وأما الجمرقان وعساكر الإسلام، فإنهم نزلوا عن الخيل وعرضوا الإسلام على الأسارى فأسلموا قلبًا ولسانًا، فحلّوهم من الرباط وعانقوهم وفرحوا بهم، وقد سار الجمرقان في جيش عظيم وأراح قومه يومًا وليلة، ثم رحل بهم عند الصباح قاصدًا بلاد الجند بن كركر، وسار الألف فارس بالغنيمة حتى وصلوا إلى الكوفة، وأعملوا الملك غريبًا بما جرى، ففرح واستبشر والتفت إلى غول الجبل وقال له: اركب وخذ معك عشرين ألفًا واتبع الجمرقان. فركب سعدان الغول وأولاده في عشرين ألف فارس وقصدوا مدينة عمان، ووصل المنهزمون من الكفار إلى المدينة وهم يبكون ويدعون بالويل والثبور، فاندھش الجند بن كركر وقال لهم: ما مصيبتكم؟ فأخبروه بما جرى لهم، فقال لهم: ويلكم، وكم كانوا؟ فقالوا: يا ملك، كانوا عشرين علمًا، وكل علم تحته ألف فارس. فلما سمع الجند هذا الكلام قال: لا طرحت الشمس فيكم بركة، يا ويلكم! أيغلبكم عشرون ألفًا وأنتم سبعون ألف فارس، وجوامرد مقوم بثلاثة آلاف في حومة الميدان؟ ومن شدة غمه سلّ سيفه وصاح فيهم وقال لمن حضر: عليكم بهم. فسلّ القوم سيوفهم على المنهزمين، فأفّنوهم عن آخرهم ورموهم للكلاب، ثم بعد ذلك صاح الجند على ابنه وقال له: اركب في مائة ألف فارس وامض إلى العراق وخزّبه على الإطلاق. وقد كان ابن الملك الجند اسمه القورجان، ولم يكن في عسكر أبيه أفرس منه، وكان يحمل على ثلاثة آلاف فارس، فأخرج القورجان خيامه وابتدرت الأبطال وخرجت الرجال، وأخذوا أهبتهم ولبسوا عدتهم، ورحلوا يتلو بعضهم بعضًا والقورجان قدام العسكر، وقد أعجب بنفسه وأنشد هذه الأبيات:

أَنَا الْقُورَجَانُ وَذِكْرِي اشْتَهَرُ قَهَرْتُ أَهَالِي الْفَلَا وَالْحَضَرُ

فَكَمْ فَارِسٍ حِينَ أَرْدَيْتُهُ يَخُورُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلَ الْبَقَرِ
وَكَمْ مِنْ عَسَاكِرَ فَرَّقْتُهُمْ وَدَخَرَجْتَ هَامَاتِهِمْ كَالْأَكْرِ
فَلَا بُدَّ أَنْيَّ أَغْزُو الْعِرَاقَ وَأُبْذِي دِمَاءَ الْعِدَا كَالْمَطَرِ
وَأَسْبِي غَرِيبًا وَأَبْطَالَهُ فَيَضْحَوْنَ نِكَالًا لِأَهْلِ النَّظَرِ

ثم سار القوم اثني عشر يومًا، فبينما هم سائرون وإذا هم ببغار قد ثار حتى سد الأفق، فصاح القورجان على السعاة وقال: اثتوني بخبر هذا الغبار. فساروا حتى عبروا تحت الأعلام وعادوا للقورجان وقالوا: يا ملك، إن هذا غبار المسلمين. ففرح وقال لهم: هل أحصيتموهم؟ فقالوا: عددنا من الأعلام عشرين علمًا. فقال: وحق ديني ما أجرد عليهم أحدًا، وإنما أخرج لهم وحدي، وأجعل رءوسهم تحت حوافر الخيل. وكان هذا الغبار غبارَ الجمرقان، وقد نظر إلى عساكر الكفار فرأهم مثل البحر الزاخر، فأمر قومه بالنزول ونصب الخيام، فنزلوا وأقاموا الأعلام وهم يذكرون الملك العلام خالق النور والظلام، رب كل شيء الذي يَرَى ولا يُرَى، وهو بالمنظر الأعلى سبحانه وتعالى، لا إله إلا هو. ونزل الكفار ونصبوا خيامهم وقال لهم: خذوا أهبتكم، واحملوا عددكم، ولا تناموا إلا وأنتم بأسلحتكم، فإذا كان الثلث الأخير فاركبوا ودوسوا هذه الشرزمة القليلة. وكان جاسوس الجمرقان واقفًا يسمع ما دبَّرتَه الكفار، فعاد وأخبر الجمرقان، فالتفت لأبطاله وقال: احملوا سلاحكم وإذا أقبل الليل اثتوني بالبغال والجمال، واثتوني بالجلال والقلقل والأجراس، واجعلوها في أعناق الجمال والبغال. وكانت أكثر من عشرين ألف جمل وبغل، وصبروا على الكفار حتى دخلوا في المنام، ثم أمر الجمرقان قومه بالركوب، وعلى الله توكلوا وطلبوا النصر من رب العالمين، ثم قال لهم: سوقوا الجمال والدواب نحو الكفار، وانخسوها بأسنَّة الرماح. ففعلوا ما أمرهم بسائر البغال والجمال، ثم هجموا على خيام الكفار، وقد قعقت الجلال والقلقل والأجراس، والمسلمون خلفهم وهم يقولون: الله أكبر. وقد طنت الجبال والتلال بذكر الملك المتعال، من له العظمة والجلال، وهجمت الخيل لما سمعت هذه الحيلة العظيمة، وداست الخيام والناس نيام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٤٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجمرقان لما هجم على الكفار بقومه وخيوله وجماله في الليل والناس نيام، قام المشركون مدهوشين، فخطفوا سلاحهم ووقعوا في بعضهم ضرباً حتى قُتل أكثرهم، وقد نظروا إلى بعضهم فلم يجدوا قتيلاً من المسلمين، بل وجدوهم راكبين متسلحين، فعلموا أنها حيلة عُمِلت عليهم، فصاح القورجان على بقية قومه وقال: يا بني الزواني، الذي أردنا أن نفعله بهم فعلوه بنا، وقد غلب مكرهم على مكرنا. فأرادوا أن يحملوا، وإذا بغبار قد ثار حتى سدَّ الأقطار، فضربته الرياح فعلاً وتسردق، وفي الجو تعلّق، وبان من تحت الغبار لمعان الخود وبريق الزرد، وما معهم إلا كل بطل أمجد، قد تقلّد بسيف مهند، وقد اعتقل برمح أملد، فلما نظر الكفار الغبار توقفوا عن القتال، وأرسلت كل طائفة ساعياً، فساروا تحت الغبار، ثم نظروا وعادوا فأخبروا أنهم مسلمون، وكان الجيش القادم الذي أرسله غريب غول الجبل، وكان هو سائراً قدام جيشه فوصل إلى عسكر المسلمين الأبرار، فعندها حمل الجمرقان وقومه وقد هجموا على الكفار كأنهم شعلة نار، وأعملوا فيهم السيف البتّار، والرمح الرديني الخطّار، واسودَّ النهار وعميت الأبصار من كثرة الغبار، وثبت الشجاع الكرار، وهرب الجبان الفرار، وطلب البراري والقفار، وصار الدماء على الأرض كالتيار.

ولم يزالوا في حرب وقتال حتى فرغ النهار، وأقبل الليل بالاعتكار، ثم انفصل المسلمون من الكفار، ونزلوا في الخيام وأكلوا الطعام، وباتوا حتى ولّى الظلام وأقبل النهار بالابتسام، ثم صلّى المسلمون صلاة الصبح وركبوا للحرب، وكان القورجان قد قال لقومه لما انفصلوا من الحرب، وقد وجدوا أكثرهم مجروحاً، وقد فني منهم الثلثان بالسيف والسنان، فقال: يا قوم، غداً أبرز أنا لحومة الميدان، ومقام الحرب والطعان، وأخذ الشجعان في المجال. فلما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، ركب الطائفتان وأكثروا

الصياح، وشهروا السلاح ومُدُّوا سمر الرماح، واصطفوا للحرب والكفاح، وكان أول مَنْ فتح باب الحرب القورجان بن الجلند بن كركر وقال: لا يَأْتِنِي اليومَ كسلان ولا عاجز. كل هذا والجمرقان وسعدان الغول تحت الأعلام، فبرز مقدم بني عامر وبارَزَ القورجان في حومة الميدان، فحمل الاثنان كأنهما كبشان يتناطحان مدةً من الزمان، بعد ذلك هجم القورجان على المقدم ومسكه من جلباب ذراعه وجذبه، فاقتلعه من سرجه، وقد خبطه في الأرض وأشغله بنفسه، فكتَّفه الكفار وساروا به إلى الخيام. ثم إن القورجان جال وصال وطلب النزال، فبرز له ثاني مقدم حتى أسر سبعة مقدمين قبل الظهر. ثم صاح الجمرقان صيحة دوى لها الميدان، وسمعها العسكران، وهجم على القورجان بقلب وجدان، وأنشد هذه الأبيات:

أَنَا الْجَمْرَقَانُ قَوِيُّ الْجَنَانِ	جَمِيعُ الْفَوَارِسِ تَخْشَى قِتَالِي
هَدَمْتُ الْحُصُونِ وَخَلَّيْتُهَا	تَنُوحُ وَتَبْكِي لِفَقْدِ الرِّجَالِ
فَيَا قُورَجَانُ طَرِيقَ الْهُدَى	عَلَيْكَ وَفَارِقَ طَرِيقِ الضَّلَالِ
وَوَحْدَ إِلَهَا رَفِيعَ السَّمَاءِ	وَمُجْرِي الْبُحُورِ وَمُرْسِي الْجِبَالِ
إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ يَأْوِي غَدًا	جَنَانًا وَيُكْفَى أَلِيمَ النُّكَالِ

فلما سمع القورجان كلام الجمرقان، شخر ونخر وسبَّ الشمس والقمر، وحمل على الجمرقان وهو ينشد هذه الأبيات:

أَنَا الْقُورَجَانُ شَجِيعُ الزَّمَانِ	وَتَفَرَّعُ أَسَدُ الشَّرِّ مِنْ خِيَالِي
مَلَكْتُ الْقَلَاعَ وَصُدْتُ السَّبَاعَ	وَكُلُّ الْفَوَارِسِ تَخْشَى قِتَالِي
فَيَا جَمْرَقَانُ إِذَا لَمْ تَثِقْ	بِقَوْلِي فَدُونَكَ بَارِزُ نَزَالِي

فلما سمع الجمرقان كلامه، حمل عليه بقلب قوي وتضاربا بالسيوف حتى ضجَّتْ منهم الصفوف، وتطاعنا بالرماح وكثر بينهما الصياح، ولم يزالا في حرب وقتال حتى فات العصر وقد ولى النهار، ثم هجم الجمرقان على القورجان، وضربه بالعمود على صدره فألقاه على الأرض مثل جذع النخلة، فكتَّفه المسلمون وسحبوه بحبل مثل الجمال، فلما نظرت الكفار إلى سيدهم أسيراً، أخذتهم حمية الجاهلية، فحملوا على المسلمين يريدون خلاص مولاهم، فقابلتهم أبطال المسلمين وتركتهم على الأرض مطروحين، وولى

بقيتهم هاربين، وللنجاة طالبين، والسيف في قفاهم له طنين، فلم يزالوا خلفهم حتى شتتوهم في الجبال والقفار، ثم رجعوا عنهم إلى الغنيمة وكانت شيئاً كثيراً، من خيل وخيام وغيرهما، وقد غنموا غنيمة يا لها من غنيمة! ثم توجهوا وعرض الجمرقان الإسلام على القورجان، وهذده وخوفه فلم يُسلم، فقطعوا رقبته وحملوا رأسه على رمح، ثم رحلوا قاصدين مدينة عمان.

وأما ما كان من أمر الكفار، فإنهم أخبروا الملك بقتل ولده وهلاك العسكر، فلما سمع الجند هذا الخبر، ضرب بتاجه الأرض ولطم على وجهه حتى طلع الدم من منخره، ووقع على الأرض مغشياً عليه، فرشوا على وجهه ماء الورد، فأفاق وصاح على وزيره وقال له: اكتب الكتب إلى جميع النواب، ومُرهم ألا يتركوا ضارب سيف ولا طاعناً برمح ولا حامل قوس إلا ويأتون بهم جميعاً. فكتب الكتب وأرسلها مع السعاة، فتجهز النواب، وسار في عسكر جرار قدره مائة ألف وثمانون ألفاً، فهيئوا الخيام والجبال وجياد الخيل، وأرادوا أن يرحلوا، وإذ بالجرقان وسعدان الغول قد أقبلًا في سبعين ألف فارس كأنهم ليوث عوابس، وكل منهم في الحديد غاطس؛ فلما نظر الجند إلى المسلمين قد أقبلوا فرح وقال: وحق الشمس ذات الأنوار، ما أبقي من الأعداء دياراً ولا من يرد الأخبار، وأخرب العراق وأخذ ثار ولدي الفارس المغوار، ولا تبرد لي نار. ثم التفت إلى عجيب وقال له: يا كلب العراق، هذه جلبتك لنا، فأنا وحق معبودي إن لم أنتصف من عدوي لأقتلنك أشراً قتلة. فلما سمع عجيب هذا الكلام اغتم غماً شديداً وصار يلوم نفسه، ثم صبر حتى نزل المسلمون ونصبوا خيامهم وأظلم الليل، وكان منعزلاً عن الخيام مع من بقي من عشيرته، فقال لهم: يا بني عمي، اعلموا أنه لما أقبل المسلمون، فزعت منهم أنا والجند غاية الفرع، وقد علمت أنه لم يقدر أن يحميني من أخي ولا من غيره، والرأي عندي أن ترحلوا بنا إذا نامت العيون، ونقصد الملك يعرب بن قحطان؛ لأنه أكثر جنداً وأقوى سلطاناً. فلما سمع قومه هذا الكلام قالوا: هذا هو الصواب. فأمرهم أن يوقدوا النار على أبواب الخيام، ويرحلوا في حندس الظلام، ففعلوا ما أمرهم به وساروا، فما أصبحوا حتى قطعوا بلاداً بعيدة.

ثم أصبح الجند ومائتان وستون ألف مدرع غاطسين في الحديد والزرذ النضيد، ودقوا كئوس الحرب واصطفوا للطعن والضرب، وركب الجمرقان وسعدان في أربعين ألف فارس أبطال شداد، تحت كل علم ألف فارس شداد جياد، مقدمون في الطراد، فاصطف العسكران وطلبوا الضرب والطعان، وسحبوا السيوف وأسنة المران، لشرب كأس المنون، وكان أول من فتح باب الحرب سعدان، وهو كأنه جبل صوان أو من مردة الجان، فبرز

له بطل من الكفار فقتله ورماه في الميدان، وصاح على أولاده وغلمانته وقال: أشعلوا النار واشعوا هذا القتل. ففعلوا ما أمرهم به وقدموه له مشويًا، فأكله ونهش عظمه، والكفار واقفون ينظرون من بعيد، فقالوا: يا للشمس ذات الأنوار! وفزعوا من قتال سعدان، فصاح الجند في قومه وقال: اقتلوا هذا القرمان. فنزل له مقدم من الكفار فقتله سعدان، ولم يزل يقتل فارسًا بعد فارس حتى قتل ثلاثين فارسًا، فعندها توقَّف الكفار اللئام عن قتال سعدان وقالوا: مَنْ يقاتل الجان والغيلان؟ فصاح الجند وقال: تحمل عليه مائة فارس وتأتي به أسيرًا أو قتيلاً. فبرز مائة فارس وحملوا على سعدان وقصدوه بالسيوف والسنان، فتلقَّاهم بقلب أقوى من الصوان، وهو يوحد الملك الديان، الذي لا يشغله شأن عن شأن، وقال: الله أكبر. وضرب فيهم بالسيف حتى ألقى رءوسهم، فما جال فيهم غير جولة واحدة، فقتل منهم أربعة وسبعين وهرب الباقي، فصاح الجند على عشرة مقدمين تحت كل مقدم ألف بطل وقال: ارموا جواده بالنبل حتى يقع من تحته فاقبضوه باليد. فحمل على سعدان عشرة آلاف فارس، فتلقَّاهم بقلب قوي، فنظر الجمرقان والمسلمون إلى الكفار وقد حملوا على سعدان، فكبروا وحملوا عليهم، فما وصلوا إلى سعدان حتى قتلوا جواده وأخذوه أسيرًا، ولم يزلوا حاملين على الكفار حتى أظلم النهار، وعميت الأبصار، ورنَّ السيف البتار، وثبت كل فارس مغوار، ولحق الجبان والانبهار، وبقي المسلمون في الكفار كالشامة البيضاء في الثور الأسود. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٤٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحرب اشتدَّ بين المسلمين والكفار حتى صار المسلمون في الكفار كالشامة البيضاء في الثور الأسود، ولم يزالوا في ضرب واصطدام حتى أقبل الظلام، وافترقوا من بعضهم وقد قُتل من الكفار خلقٌ كثيرٌ ما لهم عدد، ورجع الجمرقان وقومه وهم في غاية الحزن على سعدان، ولم يَظَبْ لهم طعام ولا منام، وتفقّدوا قومهم فوجدوا المقتول منهم دون ألف، فقال الجمرقان: يا قوم، إني أبرز في حومة الميدان، ومقام الحرب والطعان، وأقتل أبطالهم وأسبي عيالهم وأخذهم أسارى، وأفدي بهم سعدان بإذن الملك الديان الذي لا يشغله شأن عن شأن. فطابت قلوبهم وفرحوا، ثم تفرّقوا إلى خيامهم. وأما الجلند فإنه قام ودخل سرادقه، وجلس على سرير ملكه، ودارت قومه من حوله، ودعا بسعدان فأحضروه بين يديه، فقال له: يا كلب ويا أقل العرب ويا حمّال الحطب، مَنْ قتل ولدي القورجان شجاع الزمان، قاتل الأقران ومجندل الأبطال؟ قال له سعدان: قتله الجمرقان مقدم عسكر الملك غريب سيد الفرسان، وأنا شويته وأكلته وكنتُ جائعًا. فلما سمع الجلند كلام سعدان، صارت عيناه في أم رأسه، وأمر بضرب رقبتة، فأتى السيف بهمته وتقدّم لسعدان، فعند ذلك تمطع سعدان في الكثاف فقطّعه، وهمّ على السيف وخطف السيف منه وضربه فرمى رأسه، وقصد الجلند فرمى روحه عن السرير وهرب، فوقع سعدان في الحاضرين فقتل منهم عشرين من خواص الملك، وهرب باقي المقدمين، وارتفع الصياح في عسكر الكفار، وهجم سعدان على الحاضرين من الكفار، وضرب فيهم يمينًا وشمالًا، فعند ذلك تفرّقوا من بين يديه فأخلوا له الزقاق، ولم يزل سائرًا يضرب في العدى بالسيف حتى خرج من الخيام وقصد خيام المسلمين، وسمع المسلمون ضجيج الكفار فقالوا: لعلهم جاءتهم نجدة. فبينما هم باهتون وإذا بسعدان قد أقبلَ عليهم،

ففرحوا بقدومه فرحاً شديداً، وكان أكثرهم به فرحاً الجمرقان، فسلم عليه وسلم عليه المسلمون وهنئوه بالسلامة.

هذا ما كان من أمر المسلمين، وأما ما كان من أمر الكفار فإنهم رجعوا وملكهم إلى السراشق بعد رواح سعدان، فقال لهم الملك: يا قوم، وحق الشمس ذات الأنوار، وحق ظلام الليل ونور النهار والكوكب السيار، ما كنت أظن أني أسلم من القتل في هذا النهار، ولو وقعت في يده لأكلني، ولا كنت أساوي عنده قمحاً ولا شعيراً ولا حبة من الحبوب. فقالوا: يا ملك، ما رأينا من يعمل مثل هذا الغول؟ فقال لهم: يا قوم، إذا كان في غزٍ فاحملوا عُدَدَكُمْ واركبوا خيولكم ودوسوهم تحت حوافر الخيل. وأما المسلمون فإنهم اجتمعوا وهم فرحون بالنصر وخلص سعدان الغول، فقال الجمرقان: غداً في الميدان أريكم فعلي وما يليق بمثلي، وحق الخليل إبراهيم لأقتلنهم أشنع القتلات، ولأضربن فيهم بالبتار حتى يحير فيهم كل فهم، ولكن قد نويت أني أحمل على الميمنة والميسرة، فإذا رأيتموني قد هجمت على الملك تحت الأعلام، فاحملوا خلفي بالاهتمام، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وبات الفريقان يتحارسان حتى طلع النهار، وبانت الشمس للنظار، وركب الفريقان أسرع من لمحة العين، وصاح غراب البين، ونظروا بعضهم بالعين، واصطفوا للحرب والقتال، فأول من فتح باب الحرب الجمرقان، فجال وصال وطلب النزال، فأراد الجلند أن يحمل بقومه، وإذا بغبار قد ثار حتى سدّ الأقطار، وأظلم النهار، وضربته الرياح الأربع، فتمزّق وتقطّع، وبان من تحته كل فارس أدرع وبطل سميدع، وسيوف تقطع ورماح تصدع، ورجال كأنهم السباع لا تخاف ولا تجزع، فلما نظر العسكران الغبار أمسكوا عن القتال وأرسلوا من يكشف لهم الأخبار، من أي قوم هؤلاء القادمون المثيرون لهذا الغبار؟ فسار السعاة وعبروا تحت الغبار وغابوا عن الأبصار، ثم عادوا بعد ساعة من النهار، فأما ساعي الكفار فإنه أخبرهم أن هؤلاء القادمين طائفة من المسلمين وملكهم غريب، وأما ساعي المسلمين فإنه رجع وأخبرهم بمجيء الملك غريب وقومه، ففرحوا بقدومه. ثم إنهم ساقوا خيلهم ولاقوا ملكهم، ونزلوا وقبّلوا الأرض بين يديه وسلموا عليه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٤٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عسكر المسلمين لما حضر لهم الملك غريب، فرحوا فرحًا شديدًا، وقبّلوا الأرض بين يديه وداروا حوله، فرحّب بهم وفرح بسلامتهم، ووصلوا الخيام ونصبوا له السرادقات والأعلام، وجلس الملك غريب على سرير ملكه وأرباب دولته من حوله، فحكوا له جميع ما جرى لسعدان. وأما الكفار فإنهم اجتمعوا يفتشون على عجيب فلم يجدوه بينهم ولا في خيامهم، فأخبروا الجلند بن كركر بهروبه، فقامت عليه القيامة وعُضَّ على أصبعه وقال: وحقّ الشمس ذات الأنوار، إنه كلب غدار، هرب مع قومه الأشرار في البراري والقفار، ولكن ما بقي يدفع هذه الأعداء إلا القتال الشديد، فشُدُّوا عزمكم وقوُّوا قلوبكم، واحذروا من المسلمين. وأما الملك غريب فإنه قال لقومه: شدُّوا عزمكم وقوُّوا قلوبكم، واستعينوا بربكم، واسألوه أن ينصركم على عدوكم. فقالوا: يا ملك، سوف تنظر ما نفعل في حومة الميدان، ومقام الحرب والطعان. وباتت الطائفتان حتى أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، وأشرق الشمس على رءوس الربي والبطاح، فصلى غريب ركعتين على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم كتب مكتوبًا وأرسله مع أخيه سهيم إلى الكفار، فلما وصل إليهم قالوا له: ما تريد؟ قال لهم: أريد الحاكم عليكم. فقالوا: قف حتى نشاوره عليك. فوقف ثم شاوروا عليه الجلند وأخبروه بحاله، فقال: عليّ به. فأحضروه بين يديه، فقال له: مَنْ أرسلك؟ قال: الملك غريب الذي حَكَّمَهُ الله على العرب والعجم، فخذ كتابه وردّ جوابه.

فأخذ الجلند الكتاب ففكَّه وقرأه فوجد: «بسم الله الرحمن الرحيم، الرب القديم الواحد العظيم، الذي هو بكل شيء عليم، رب نوح وصالح وهود وإبراهيم، ورب كل شيء، والسلام على مَنْ اتَّبَعَ الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى، واتَّبَعَ طريق الهدى، واختار الآخرة على الأولى. أما بعد؛ يا جلند، فإنه لا يُعْبَدُ إلا الله الواحد القَهَّار،

خالق الليل والنهار، والفلك الدوّار، وأرسل الأنبياء الأبرار وأجرى الأنهار، ورفع السماء وبسط الأرض، وأنبت الأشجار ورزق الطير في الأوكار، ورزق الوحوش في القفار، فهو الله العزيز الغفار، الحليم الستار، الذي لا تدركه الأبصار، مكوّر الليل على النهار، الذي أرسل وأنزل الكتب. واعلم يا جلند أنه لا دين إلا دين إبراهيم الخليل، فاسلم تسلم من السيف البتّار، وفي الآخرة من عذاب النار، وإنّ أبيّ الإسلام فأبشّر بالدمار، وخراب الديار وقطّع الآثار، وأرسل إليّ الكلب عجيباً لأخذ ثأر أبي وأمي.»

فلما قرأ الجلند الكتاب قال لسهيم: قل لمولايك إن عجيباً هرب هو وقومه، وما ندري أين ذهب، وأما الجلند فلا يرجع عن دينه، وغداً يكون الحرب بيننا، والشمس تنصرنا. فرجع سهيم لأخيه وأعلمه بما قد جرى، فباتوا حتى أصبح الصباح، ثم أخذ المسلمون آلة السلاح، وركبوا الخيل القراح، وأعلنوا بذكر الملك الفتّاح، خالق الأجساد والأرواح، وأعلنوا بالتكبير، ودقوا طبول الحرب حتى ارتجت الأرض، وتكلم كل فارس جحاج وبطل وقاح، وقصدوا الحرب حتى ارتجت الأرض، فأول من فتح باب الحرب الجمرقان، وساق جواده في حومة الميدان، ولعب بالسيف والنشاب حتى حير أولي الألباب، ثم صاح: هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ لا يأتني اليوم كسلان ولا عاجز؟ أنا قاتل القورجان بن الجلند، فمن يبرز لأخذ الثأر؟ فلما سمع الجلند ذكّر ولده، صاح على قومه وقال: يا أولاد الزواني، اتثوني بهذا الفارس الذي قتل ولدي حتى أكل لحمه وأشرب دمه. فحمل عليه مائة بطل، فقتل أكثرهم وهزم أميرهم، فلما نظر الجلند ما فعل الجمرقان، صاح على قومه وقال: احمّلوا عليه حملة واحدة. فهزوا العلم المدهش وانطبقت الأمم على الأمم، وحمل غريب بقومه والجمرقان، وتصادم الفريقان كأنهم بحران يلتقيان، فأعمل السيف اليماني والرمح حتى مزّق الصدور والأبدان، ورأى الصفّان ملك الموت بالعيان، وطلع الغبار إلى العنان، وضمت الأذان وخرس اللسان، وأحاط الموت من كل مكان، وثبت الشجاع وولّى الجبان. ولم يزالوا في حرب وقتال، حتى ولّى النهار ودقوا طبول الانفصال، وافترقوا من بعضهم ورجعت كل طائفة إلى خيامها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٤٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك غريبًا لما انقضى الحرب وافترقوا من بعضهم، ورجعت كل طائفة إلى خيامها، جلس على سرير مُلكه ومحل سلطانه واصطف أصحابه حوله، فقال لقومه: أنا جزعت من القهر، وبهروب هذا الكلب عجيب، ولا أعرف أين مضى؟ وإن لم ألحقه وأخذ تأري أموت من القهر. فتقدّم أخاه سهيم الليل وقبّل الأرض وقال: يا ملك، أنا أمضي إلى عسكر الكفار، وأكشف خبر الكلب الغدار عجيب. فقال غريب: سرّ وتحقّق خبر هذا الخنزير. فتزيّا سهيم بزيّ الكفار، ولبس لبسهم فصار كأنه منهم، ثم قصد خيام الأعداء فوجدهم نيامًا، وهم سكارى من الحرب والقتال، ولم يَبْقَ من القوم بلا نوم سوى الحرّاس، فعبر سهيم وهجم على السرادق، فوجد الملك نائمًا وما عنده أحد، فتقدّم وشمه البنج الطيّار، فكان كأنه ميت، وخرج فأحضر بغلاً ولفّ الملك في ملءة الفرش وحطّه فوق البغل، وحط فوقه الحصير وسار حتى وصل إلى سرادق غريب ودخل على الملك؛ فأنكره الحاضرون وقالوا له: مَنْ أنت؟ فضحك سهيم وكشف وجهه فعرفوه، فقال له غريب: ما جِئكَ يا سهيم؟ فقال له: يا ملك، هذا الجلند بن كركر. ثم حلّه فعرفه غريب وقال: يا سهيم، نبّهه. فأعطاه الخل والكندز، فرمى البنج من أنفه وفتح عينيه، فوجد نفسه بين المسلمين فقال: أي شيء هذا المنام القبيح؟ ثم إنه أطبق عينيه ونام، فلكره سهيم وقال له: افتح عينيك يا ملعون. ففتح عينيه وقال: أين أنا؟ فقال سهيم: أنت في حضرة الملك غريب بن كندمر ملك العراق. فلما سمع الجلند هذا الكلام قال: يا ملك أنا في جيرتك، واعلم أن ما لي ذنب، والذي أخرجنا نقاتل هو أخوك، ورمى بيننا وبينك وهرب. فقال غريب: وهل تعلم طريقه؟ فقال: لا، وحقّ الشمس ذات الأنوار ما أعلم أين سار. فأمر غريب بتقييده والمحافظة عليه، وتوجّه كلّ مقدّم إلى خيمته ورجع الجمرقان وقومه وقال: يا بني عمي، قصدي أن أعمل في هذه الليلة عملة أبيّض بها وجهي عند الملك

غريب؟ فقالوا له: افعل ما تشاء، فنحن لأمرك سامعون مُطيعون. فقال: احملوا سلاحكم وأنا معكم وخففوا خطوكم ولا تَحْلُوا النمل يدري بكم، وتفرّقوا حول خيام الكفار، فإذا سمعتم تكبيري فكبروا وصيحوا قائلين: الله أكبر. وتأخروا واقصدوا باب المدينة، ونطلب النصر من الله تعالى.

فاستعدّ القوم بالسلاح الكامل، وصبروا إلى نصف الليل وتفرّقوا حول الكفار وصبروا ساعة، وإذا بالجمرقان ضرب بسيفه على ترسه وقال: الله أكبر. فدوى الوادي، وفعل قومه مثله وصاحوا: الله أكبر. حتى دوى لهم الوادي والجبال، والرمال والتلال وسائر الأطلال، فانتبه الكفار وقد اندهشوا ووقعوا في بعضهم، وقد دار السيف بينهم، وتأخّر المسلمون وطلبوا أبواب المدينة، وقتلوا البوابين ودخلوا المدينة وملكوها بما فيها من مال وحريم.

هذا ما جرى للجمرقان، وأما الملك غريب فإنه سمع الصياح بالتكبير، فركب وركب العسكر عن آخرهم وتقدّم ساهيم حتى قرب من الوقعة، فنظر بني عامر والجمرقان قد شنّوا الغارة على الكفار وأسقوهم كأس المنون، فرجع وأخبر أخاه بما كان، فدعا للجمرقان، ولم تزل الكفار نازلين في بعضهم بالصارم البتّار، باذلين جهدهم حتى طلع النهار، وأضاء بنوره على الأقطار، فعند ذلك صاح غريب على قومه وقال: احملوا يا كرام وأرضوا الملك العلّام. فحملت الأبرار على الفجّار، ولعب السيف البتّار، وجال الرمح الخطار في صدر كل منافق كفّار، وأرادوا أن يدخلوا مدينتهم، فخرج لهم الجمرقان وبنو عمه وصادروهم بين جبلين محيطين، وقتلوا منهم خلقًا ما لهم عدد، وتشتّت الباقي في البراري والقفار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٥٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عسكر المسلمين لما حملوا على الكفار مَزَقوهم بالصارم البتَّار، وتشتتوا في البراري والقفار، ولم يزلوا خلف الكُفَّار بالسيف حتى انتشروا في السهل والأوعار، ثم رجعوا إلى مدينة عمان، ودخل الملك غريب قصر الجلد، وجلس على كرسي مملكته، ودار أصحابه حوله ميمنة وميسرة، فدعا بالجلند فأسرعوا إليه وأحضره بين يدي الملك غريب، فعرض عليه الإسلام فأبى، فأمر بصلبه على باب المدينة، ثم رموه بالنبال إلى أن صار مثل القنفذ، ثم إن غريباً خلع على الجمرقان وقال له: أنت صاحب البلد وحاكمها وصاحب ربطها وحلها، فإنك فتحتها بسيفك ورجالك. فقبَّلَ الجمرقان رجل الملك غريب وشكره ودعا له بدوام النصر والعز والنعم. ثم إن غريباً فتح خزائن الجلد ونظر إلى ما فيها من الأموال، وبعد ذلك فرَّقَ على المقدمين والرجال أصحاب الرايات والقتال، وفرَّقَ على البنات والصبيان، وصار يفرِّقُ من الأموال مدة عشرة أيام، ثم إنه بعد ذلك كان نائماً في بعض الليالي، فرأى في منامه رؤيا هائلة، فانتبه فَرَعَا مرعوباً، ثم نبَّه أخاه سهيماً وقال له: إني رأيت في منامي أنني في وادٍ، وذلك الوادي في مكان مَتَّسِعٍ، وقد انقَضَّ علينا من الطير جارحتان لم أرَ في عمري أكبر منهما، ولهما سيقان مثل الرماح، وقد هجَمَا علينا ففزعنا منهما، فهذا الذي رأيته. فلما سمع سهيم هذا الكلام قال: يا ملك، هذا عدو كبير فاحترس على نفسك منه. فلم يَنَمْ غريب بقية الليلة.

فلما أصبح الصباح طلب جواده وركبه، فقال له سهيم: إلى أين تذهب يا أخي؟ فقال: أصبحت ضيق الصدر، فقصدي أن أسير عشرة أيام حتى ينشرح صدري. فقال له سهيم: خذ معك ألف بطل. فقال غريب: لا أسير إلا أنا وأنت لا غير. فعند ذلك ركب غريب وسهيم وقصدا الأودية والمروج، ولم يزلّا سائرين من وادٍ إلى وادٍ، ومن مرج إلى مرج، حتى عبّرا على وادٍ كثير الأشجار والأثمار والأنهار فأتى الأزهار، أطباره تغرّد بالألحان على

الأغصان، والهزار يرجع بطيب الألحان، والقمرى قد ملأ بصوته المكان، والبلبل بحسه يوقظ الوسنان، والشحور كأنه إنسان، والفاخت والمطوق تجاوبهما الدرة بأفصح لسان، والأشجار في أثمارها من كل مأكول وفاكهة زوجين، فأعجبهما ذلك الوادي فأكلًا من أثماره وشربًا من أنهاره، وقعدا تحت ظل أشجاره، فغلب عليهما النعاس فناما وسبحان مَنْ لا ينام. فبينما هما نائمان، وإذا بماردين شديدين قد انقضًا عليهما وحطَّ كل واحد منهما أحدهما على كاهله، وارتفعًا إلى أعلى الجو حتى صارًا فوق الغمام، فانتبه ساهيم وغريب فوجدًا أنفسهما بين السماء والأرض، ونظرًا إلى مَنْ حملهما وإذا هما ماردان، رأس أحدهما رأس كلب، ورأس الآخر رأس قرد، وهو كالنخلة السحوق، ولهما شعر مثل أذنان الخيل، ومخالب مثل مخالب السباع؛ فلما نظر غريب وساهيم إلى ذلك الحال قالَا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وكان السبب في ذلك أن ملكًا من ملوك الجن اسمه مرعش، وكان له ولد اسمه صاعق يحب جارية من الجن اسمها نجمة، وكان صاعق ونجمة مجتمعين في ذلك الوادي وهما في صفة طيرين، وكان غريب وساهيم نظرًا إلى صاعق ونجمة فظنَّاهما طائرين، فرمياهما بنشاب فلم يُصَبْ إلا صاعق، فسال دمه، فحزنت نجمة على صاعق وخطفته وطارت خوفًا أن يصيبها ما أصاب صاعقًا، ولم تزل طائرة به حتى رمته على باب قصر أبيه، فحمله البوابون حتى رموه قدام أبيه، فلما نظر مرعش إلى ولده ورأى النبله في ضلعه قال: وا ولداه! مَنْ فعل بك هذه الفعال حتى أخرج دياره وأعجل دماره؟ ولو كان أكبر ملوك الجان. فعند ذلك فتح عينيه وقال: يا أبتى، ما قتلني إلا رجل من الإنس بوادي العيون. فما فرغ من كلامه حتى طلعت روحه، فلطم أبوه حتى طلع الدم من فيه، وصاح على ماردين وقال لهما: سيرًا إلى وادي العيون واثنياني بكل مَنْ فيه. فسافر الماردان حتى وصلا إلى وادي العيون، فرأيا غريبًا وساهيمًا نائمين فخطفاهما وسارًا بهما حتى وصلا بهما إلى مرعش، فلما انتبه ساهيم وغريب من نومهما وجدًا أنفسهما بين السماء والأرض، فقالَا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٥١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الماردين لما خطفا غريباً وسهيمًا جاءا بهما إلى مرعش ملك الجن، ولما وضعاهما قدام مرعش وجداه جالسًا على كرسي مملكته، وهو كالجبل العظيم وعلى جثته أربع رءوس: رأس سبع، ورأس فيل، ورأس نمر، ورأس فهد. فقدّمَا غريبًا وسهيمًا قدام مرعش وقالّا: يا ملك، هذان اللذان وجدناهما في وادي العيون. فنظر إليها بعين الغضب وقد شخر ونخر وطار من أنفه الشرر، وقد خاف منه كلُّ مَنْ حضر. وقال: يا كلاب الإنس، قتلتما ولدي وأوقدتما النار في كبدي. فقال غريب: ومَنْ هو ولدك الذي قتلناه؟ ومَنْ هو الذي نظر ولدك؟ فقال: أمّا كنتما أنتما في وادي العيون، ونظرتما ولدي في صفة طير ورميتماه بعود نشاب فمات؟ فقال غريب: أنا لا أدري مَنْ قتله وحقّ الرب العظيم الواحد القديم، الذي هو بكل شيء عليم، وحقّ الخليل إبراهيم ما رأينا طيرًا، ولا قتلنا وحشًا ولا طيرًا. فلما سمع مرعش كلام غريب حين حلف بالله وعظمته ونبيه الخليل إبراهيم، علم أنه مسلم، وكان مرعش يعبد النار دون الملك الجبّار، فصاح على قومه وقال: ائتوني بربتي. فأتوه بتنور من ذهب، فوضعوه بين يديه وأشعلوه بالنار ورموا عليه العقاقير، فطلع له لهيب أخضر ولهيب أزرق ولهيب أصفر، فسجد له الملك والحاضرون. كلُّ هذا وغريب وسهيم يوحّدان الله تعالى ويكبرانه، ويشهدان أن الله على كل شيء قدير. فرفع الملك رأسه، فرأى غريبًا وسهيمًا واقفين لا يسجدان، فقال: يا كلبان، ما لكما لا تسجدان؟ فقال غريب: ويلكم يا ملاعين، إن السجود لا يكون إلا للملك المعبود، مبرز الموجود من العدم إلى الوجود، ومنبع الماء من الحجر الجلمود، الذي حنّ الولد على المولود، ولا يُوصَف بقيام ولا قعود، ربّ نوح وصالح وإبراهيم الخليل، وهو الذي خلق الجنة والنار، وخلق الأشجار والأثمار؛ فهو الله الواحد القهار.

فلما سمع مرعش هذا الكلام انقلبت عيناه في أم رأسه، وصاح على قومه وقال: كَنُفُوا هذين الكلبين وقرَّبوهما لربتي. فكَنُفُوا سَهِيمًا وَغَرِيبًا وأرادوا أن يرموهما في النار، وإذا بشرافة من شراريف القصر وقعت على التنور فانكسر وانطفأت النار، وصارت رمادًا طائرًا في الهواء، فقال غريب: الله أكبر، فتح ونصر وخذل مَنْ كفر، الله أكبر على مَنْ يعبد النار دون الملك الجبَّار. فعندها قال الملك: إنك ساحر وسحرت ربتي حتى جرى لها هذا الحال. فقال غريب: يا مجنون، لو كان للنار سر وبرهان، كانت منعت عن نفسها ما ضرَّها. فلما سمع مرعش هذا الكلام هدر وزمجر وسب النار، وقال: وحقَّ ديني ما أقتلكم إلا فيها. وأمر بحبسهما ودعا بمائة مارد وأمرهم أن يحملوا الحطب كثيرًا وأن يطلقوا فيه النار، ففعلوا وانهبت نار عظيمة، ولم تزل مشتعلة إلى الصباح. ثم ركب مرعش على فيل في تخت من ذهب مرصَّع بالجواهر، وصارت حوله قبائل الجن وهم أصناف مختلفة، ثم أحضروا غريبًا وسَهِيمًا، فلما رأيا لهيب النار استغاثًا بالواحد القَهَّار، خالق الليل والنهار، العظيم الشأن الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، ولم يزالا يتوسلان وإذا بسحابة طلعت من الغرب إلى الشرق، وأمطرت مثل البحر الزاخر فأطفأت النار؛ فخاف الملك والجند ودخلوا في قصرها، ثم التفت الملك إلى الوزير وأرباب الدولة وقال لهم: ما تقولون في هذين الرجلين؟ فقالوا: يا ملك، لولا أنهما على الحق ما جرى للنار هذه الفعال، ونحن نقول إنهما على الحق صادقان. قال الملك: قد بان لي الحق والطريقة الواضحة، فعبادة النار باطلة، فلو كانت ربةً لمنعتُ عن نفسها المطر الذي أطفأها، والحجر الذي كسر تنورها وقد صارت رمادًا، فأنا آمنتُ بالذي خلق النار والنور والظل والحرور، وأنتم ما تقولون؟ فقالوا: يا ملك، ونحن كذلك تابعون سامعون طائعون. ثم دعا بغريب فأحضره بين يديه، فقام له واعتنقه وقبَّله بين عينيه وقبَّلَ سَهِيمًا مثل ذلك، ثم إن الأجناد تراحموا على غريب وسَهِيم يقبلون أيديهما ورأسهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٥٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مرعشاً ملك الجن لما اهتدى هو وقومه للإسلام، أحضر غريباً وأخاه وقبّلهما بين أعينهما، وكذلك أرباب دولته ازدحموا على تقبيل أيديهما ورأسهما. ثم إن الملك مرعشاً جلس على كرسي مملكته، وأجلس غريباً عن يمينه وسهيماً عن يساره وقال: يا إنسي، ما نقول حتى نصير مسلمين؟ فقال غريب: قولوا لا إله إلا الله، إبراهيم خليل الله. فأسلم الملك وقومه قلباً ولساناً، وقعد غريب يعلمهم الصلاة. ثم إن غريباً تذكر قومه فتنهّد، فقال له ملك الجن: قد ذهب الغم وراح، وجاء البسط والانشراح. فقال له غريب: يا ملك، إن لي أعداء كثيرة، وأنا خائف على قومي منهم. وحكى له ما جرى له مع أخيه عجيب من أوله إلى آخره. فقال له ملك الجن: يا ملك الإنس، أنا أبعث لك من يكشف خبر قومك، وما أخليك تروح حتى أتملى بوجهك. ثم دعا بماردين شديدين، أحدهما اسمه الكيلجان، والآخر اسمه القورجان، فلما حضر الماردان قبلاً الأرض، فقال لهما: سيرا إلى اليمن واكشفا خبر جنودهما وعساكرهما. فقالا: سمعاً وطاعة. ثم سار الماردان وطاراً نحو اليمن.

هذا ما جرى لغريب وسهيم، وأما عسكر المسلمين فإنهم أصبحوا راكبين هم والمقدمون، وقصدوا قصر الملك غريب لأجل الخدمة، فقال لهم الخدم: إن الملك وأخاه ركبا سحراً وخرجا. فركب المقدمون وقصدوا الأودية والجبال، ولم يزالوا يقصون الأثر حتى وصلوا إلى وادي العيون، فوجدوا عدة غريب وسهيم مرمية، والجوادين يريان، فقال المقدمون: إن الملك فقد من هذا المكان، يا لجاه الخليل إبراهيم. ثم إنهم تفرقوا في الوادي والجبال ثلاثة أيام، فما ظهر لهم خبر، فأقاموا العزاء وطلبوا الساعة، وقالوا لهم: تفرقوا في الميدان والحصون والقلاع، واكشفوا خبر ملكنا. فقالوا: سمعاً وطاعة. وقد تفرقوا وطلب كل واحد إقليمًا، ووصل لعجيب مع الجواسيس خبر أخيه أنه فقد ولم يقعوا له

على خبر، ففرح عجيب بفقد أخيه غريب واستبشر، ودخل على الملك يعرب بن قحطان، وكان استجار به فأجاره وأعطاه مائتي ألف عملاق، وسار عجيب بعسكره حتى نزل على مدينة عمان، فخرج لهم الجمرقان وسعدان وقاتلاههم وقُتل من المسلمين خلقٌ كثير، ودخلوا المدينة وغلّقوا الأبواب وحصّنوا الأسوار، ثم أقبل الماردان الكيلجان والقورجان وقد نظرًا المسلمين محصورين، فصبرًا حتى أقبل الليل وأعملًا في الكفار سيفين باترين من سيوف الجن، كل سيف طوله اثنا عشر ذراعًا، لو ضرب به إنسانُ حجرًا لقصمه، فحملًا عليهم وهما يقولان: الله أكبر، فتح ونصر وخذل من كفر بدين الخليل إبراهيم. ثم إنهما بطشا بالكفار وأكثرًا فهِيم القتل، وخرجت النار من أفواههما ومناخيرهما، فبرز الكفار من سرادقهم فنظروا إلى أشياء عجيبة تقشعر منها الأبدان، واختبلوا وطارت عقولهم. ثم إنهم خطفوا أسلحتهم وبتشوا ببعضهم، والماردان يحصدان في رقاب الكفار ويصيحان: الله أكبر، نحن غلمان الملك غريب صاحب الملك مرعش ملك الجان. ولم يزل السيف دائرًا فيهم حتى انتصف الليل، وقد تخيل للكفار أن الجبال كلها عفاريت، فحملوا الخيام والنقل والمال على الجمال وقصدوا الذهاب، وكان أولهم هروبًا عجيب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: يا أختي، ما أحسن هذا الكلام وأعذبه وأحلاه وأطيبه! فقالت لها: وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٥٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الكفار قصدوا الذهاب وكان أولهم هروبًا عجيب، ثم قد اجتمع المسلمون وتعجبوا من هذا الأمر الذي جرى للكفار وخافوا من قبائل الجان، ولم يزل الماردان في أقفية الكفار حتى شتتوهم في البراري والقفار، وما سلم من الماردان سوى خمسين ألف عملاق من أصل مائتي ألف، وقد قصدوا بلادهم وهم منهزمون مجروحون وقالوا: يا عسكر، إن الملك غريبًا سيدكم وأخاه يسلمان عليكم، وهما مستضافان عند الملك مرعش ملك الجان، وعن قريب يكونان عندكم. فلما سمع العساكر بخبر غريب وأنه طيب، فرحوا فرحًا شديدًا، وقالوا لهما: بشركما الله بالخير يا أرواحًا كرامًا. ثم إن الماردين رجعا ودخلا على الملك غريب والملك مرعش فوجداهما جالسين، فأخبراهما بما جرى وما فعلا فجازياهما خيرًا، وقد اطمأن قلب غريب، فعند ذلك قال الملك مرعش: يا أخي، مرادي أن أفرجك على أرضنا، وأريك مدينة يافث بن نوح عليه السلام. قال: يا ملك، افعل ما بدًا لك. فدعا بجوادين لهما وركب هو وغريب وسهيم، وركب معه ألف مارد وساروا كأنهم قطعة جبل مشقوقة بالطول، فساروا يتفرجون على أودية وجبال حتى أتوا مدينة يافث بن نوح عليه السلام، فخرج أهل المدينة كبارًا وصغارًا ولاقوا مرعشًا، فدخل في موكب عظيم، ثم إنه طلع إلى قصر يافث بن نوح وجلس على كرسي ملكه، وهو من المرمر مشبك بقضبان الذهب، علوه عشر درج وهو مفروش بأنواع الحرير الملون، ولما وقف أهل المدينة قال لهم: يا ذرية يافث بن نوح، ما كان يعبد آباؤكم وأجدادكم؟ قالوا: إنا وجدنا آباءنا يعبدون النار فتبعناهم وأنت أخبر بذلك. قال: يا قوم، أنا رأيت النار مخلوقة من مَخَالِيقِ اللَّهِ تعالى الذي خلق كل شيء، فلما علمتُ ذلك أسلمتُ لله الواحد القهار، خالق الليل والنهار والفلك الدوار، الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، فأسلموا تسلموا من غضب الجبار، وفي الآخرة من عذاب النار. فأسلموا قلبًا ولسانًا، وأخذ مرعش بيد

غريب وفرَّجَه على قصر يافث وبنائه وما فيه من العجائب، ثم دخل دار السلاح وفرَّجَه على سلاح يافث، فنظر غريب إلى سيف معلق في وتد من ذهب، فقال غريب: يا ملك، هذا لمن؟ قال: هذا سيف يافث بن نوح الذي كان يقاتل به الإنس والجن، صاغه الحكيم جردوم، وكتب على ظهره أسماء عظيمة، فلو ضرب به الجبل لهدمه، واسمه الماحق، ما نزل على شيء إلا محقه، ولا جني إلا دمَّره.

فلما سمع غريب كلامه وما ذكره في فضائل هذا السيف قال: مرادي أن أنظر هذا السيف؟ فقال مرعش: دونك وما تريد. فمدَّ غريب يده وأخذ السيف وسحبه من جفيره، فسطع ودبَّ الموت على حده وشعشع، وكان طوله اثني عشر شبرًا، وعرضه ثلاثة أشبار، فأراد غريب أن يأخذه، فقال الملك مرعش: إن كنت تقدر أن تضرب به فخذ. فقال غريب: نعم. ثم أخذه في يده فصار في يده كالعصا، فتعجَّب الحاضرون من الإنس وقالوا: أحسنَت يا سيد الفرسان. فقال له مرعش: ضع يدك على هذه الذخيرة التي بحسرتها ملوك الأرض، واركب حتى أفرَّجك. فركب وركب مرعش ومشت الإنس والجن في خدمته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: ما أحسن هذا الكلام وأطيبه وأحلاه وأعذبه! فقالت: وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٥٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك غريبًا والملك مرعشًا لما ركبا من مدينة يافث، والإنس والجن سائرون في خدمتهما، مشيًا بين قصور ودور خاليات، وشوارع وأبواب مذهبات، ثم خرجا من أبواب المدينة وتفرجا في بساتين ذات أشجار مثمرات، وأنهار جاريات، وأطيّار ناطقات، تسبح من له القدرة والبقاء، ولم يزالا يتفرجان حتى أقبل المساء، فرجعا وباتا في قصر يافث بن نوح، فلما وصلا قُدمت لهما مائدة فأكلّا، والتفت غريب لملك الجان وقال: يا ملك، إن قصدي الذهاب إلى قومي وجندي، فلم أعلم حالهم بعدي. فلما سمع مرعش كلام غريب قال له: يا أخي، والله ما مرادي فراقك، ولا أخليك تروح ولا بعد شهر كامل حتى أتملى برؤيتك. فما قدر أن يخالفه، فقعد شهرًا كاملًا في مدينة يافث، ثم أكل وشرب وأعطاه الملك مرعش هدايا من التحف والمعادن والجواهر والزمرد والبلخش وحجر الماس، وقطعا من ذهب وفضة، وكذلك مسك وعنبر، ومقاطع حرير منسوجة بالذهب، وعمل لغريب وسهيم خلعتين من الوشي منسوجتين بالذهب، وعمل لغريب تاجًا مكللًا بالدر والجوهر لا يعادل بأثمان، ثم عبى له ذلك كله في أعدل، ودعا بخمسمائة ماردٍ وقال لهم: جهّزوا حالكم إلى السفر في غدٍ، حتى نؤدي الملك غريبًا وسهيمًا إلى بلادهما. قالوا: سمعًا وطاعةً. وباتوا على نية السفر حتى أتى وقت السفر، وإذا هم بخيول وطبول ونفير تصيح حتى ملأت الأرض، وهم سبعون ألف مارد طيّارة غواصة، وملكهم اسمه برقان، وكان لمجيء هذا الجيش سبب عظيم عجيب، وأمر مطرب غريب، سنذكره على التراتيب.

وكان برقان هذا صاحب مدينة العقيق وقصر الذهب، وكان يحكم على خمس قلل، كل قلة فيها خمسمائة ألف مارد، وهو وقومه يعبدون النار دون الملك الجبار، وكان هذا الملك ابن عم مرعش، وكان في قوم مرعش مارد كافر أسلم نفاقًا، وغطس من بين قومه

وسار حتى وصل إلى وادي العقيق، ودخل قصر الملك برقان وقبَّل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز والأنعام، ثم أخبره بإسلام مرعش، فقال له برقان: كيف مرق من دينه؟ فحكى له جميع ما جرى، فلما سمع برقان كلامه شخر ونخر، وسب الشمس والقمر، والنار ذات الشرور، وقال: وحقَّ ديني لأقتلنَّ ابن عمي وقومه، وهذا الإنسي، ولا أترك منهم أحدًا. ثم صاح على أرهاط الجن، واختار منهم سبعين ألف مارد، وسار بهم حتى وصل إلى مدينة جابرصا، وداروا حول المدينة كما ذكرنا، ونزل الملك برقان مقابل باب المدينة ونصب خيامه، فدعا مرعش بمارد وقال له: امضِ إلى هذا العسكر وانظر ما يريدون واثتني عاجلاً. فمرق المارد حتى دخل خيام برقان، فتسارع إليه المردة وقالوا له: مَنْ أنت؟ قال: رسول مرعش. فأخذوه وأوقفوه بين يدي برقان، فسجد له وقال: يا مولاي، إن سيدي أرسلني إليكم لأنظر خبركم. فقال له: ارجع إلى سيدك وقل له: هذا ابن عمك برقان أتى يسلم عليك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: ما أحسن حديثك وأطيبه وأحلاه وأعذبه! فقالت: وأين هذا ممَّا أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٥٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المارد رسول مرعش لما دخل على برقان وقال له: إن سيدي أرسلني إليك لأنظر خبركم. قال له: ارجع إلى سيدك وقل له: إن ابن عمك برقان أتى يسلم عليك. فرجع المارد إلى مولاه وأخبره بذلك، فقال لغريب: اقعد على سريرك حتى أسلم على ابن عمي وأعود إليك. ثم ركب وسار قاصداً الخيام، وكان برقان عملها حيلة حتى يخرج مرعش ويقبض عليه، ثم أوقف حوله مردة وقال لهم: إذا رأيتموني حضنته فأمسكوه وكتفوه. فقالوا: سمعاً وطاعة. ثم بعد ذلك وصل الملك مرعش ودخل سرادق ابن عمه، فقام إليه واعتنقه، فهجم عليه الجان وكتفوه وقيّدوه، فنظر مرعش إلى برقان وقال له: ما هذا الحال؟ فقال له: يا كلب الجان، أتترك دينك ودين آبائك وأجدادك وتدخل في دين لا تعرفه؟ فقال له مرعش: يا ولد عمي، قد وجدت دين إبراهيم الخليل هو الحق وغيره باطل. فقال: ومن أخبركم؟ قال: غريب ملك العراق، وهو عندي في أعز مكان. فقال له برقان: وحق النار والنور، والظل والحرور، لأقتلنكم جميعاً. ثم سجنه، فلما نظر غلام مرعش ما حلّ بمولاه، ولّى هارباً إلى المدينة وأعلم أرهاط الملك مرعش بما حصل لمولاه، فصاحوا وركبوا خيولهم، فقال غريب: ما الخير؟ فأعلموه بما جرى، فصاح على سهيم وقال له: شدّ لي جواداً من الجوادين اللذين أعطانيهما الملك مرعش. فقال له: يا أخي، أتناقل الجان؟ قال: نعم أقاتلهم بسيف يافث بن نوح، وأستعين برب الخليل إبراهيم عليه السلام، فهو رب كل شيء وخالفه. فشدّ له جواداً أشقر من خيل الجن كأنه حصن من الحصون، ثم أخذ آلة الحرب وخرج وركب وخرجت الأرهاط وهم لابسون الدروع، وركب برقان وقومه وتقاتل الفريقان، واصطف العسكران، وكان أول من فتح باب الحرب الملك غريب، فساق جواده في حومة الميدان، وجرد سيف يافث بن نوح عليه السلام، فخرج منه نور ساطع انبهرت منه عيون الجن أجمعين، ووقع في قلوبهم الرعب، فلعب غريب

بالسيف حتى أذهل عقول الجان، ثم نادى: الله أكبر، أنا الملك غريب ملك العراق، لا دين إلا دين إبراهيم الخليل.

فلما سمع برقان كلام غريب قال: هذا الذي غيّر دين ابن عمي وأخرجه من دينه، فوَحَقَّ ديني لا أقعد على سريري حتى أقطع رأس غريب وأخمد أنفاسه، وأردّ ابن عمي وقومه إلى دينهم، ومَن خالفني أهلكته. ثم ركب على فيل أبيض قرطاسي، كأنه برج مشيد، وصاح عليه وضربه بسنان من بولاد، فغرق في لحمه، فصرخ الفيل وقصد الميدان ومقام الحرب والطعان، حتى قرب من غريب، فقال له: يا كلب الإنس، ما أدخلك أرضنا حتى أفسدت ابن عمي وقومه وأخرجتهم من دين إلى دين؟ اعلم أن اليوم آخر أيامك من الدنيا. فلما سمع غريب هذا الكلام قال له: اخسأ يا أقلّ الجان. فسحب برقان حرباً وهزّها وضرب بها غريباً فأخطأه، فضربه بحربة ثانية فخطفها غريب من الهواء وهزّها وأرسلها نحو الفيل، فدخلت في جنبه وخرجت من الجانب الآخر، فوقع الفيل على الأرض قتيلًا، وارتمى برقان كأنه نخلة سحق، فما خلّاه غريب يتحرك من مكانه حتى ضربه بسيف يافث بن نوح على جذع رقبته صفحاً فغُشي عليه، فاندفعت عليه المردة وأداروا أكتافه، فلما نظر قومه إلى ملكهم هجموا وأرادوا خلاصه، فحمل عليهم غريب، وحملت معه الجن المؤمنون، فله درّ غريب لقد أرضى الرب المجيب، وأشفى الغليل بالسيف المطلسم، وكلّ مَن ضربه به قصمه، فما تطلع روحه حتى يصير في النار رماذاً، وهجم المؤمنون على الجن الكافرين وتراموا بشهب النار، وعمّ الدخان، وغريب قد جال فيهم يميناً وشمالاً فتفرّقوا بين يديه، وقد وصل الملك غريب إلى سرادق الملك برقان، وكان إلى جانبه الكيلجان والقورجان، فصاح غريب عليهما وقال: حلّا مولاكما. فحلّاه وكسّرا قيده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح. قالت لها أختها: ما أحلى حديثك وأعذبه وألذه وأطيبه! فقالت: وأين هذا ممّا أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله ما أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٥٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك غريبًا لما صاح على الكيلجان والقورجان وقال لهما: حلًّا مولاكما. فحلَّاه وكسَّرَا قيده، فقال لهما الملك مرعش: ائتياني بعُدَّتِي وجوادي الطيَّار. وكان عند الملك جوادان يطيران في الهواء، فأعطى غريبًا واحدًا وبقي عنده واحد، فأتوه به بعد أن لبس آلة الحرب وحمل مع غريب وطار بهما الجوادان وقومهما خلفهما وهما يصيحان: الله أكبر، الله أكبر. فأجابتهما الأرض والجبال والأودية والتلال، ورجعوا من خلفهم بعد أن قتلوا منهم خلقًا كثيرًا تزيد عن ثلاثين ألف مارد وشيطان، ودخلوا مدينة يافث وجلس الملكان على مراتب العز، وطلبًا برقان فما وجداه؛ لأنهما حين أسراه اشتغلَّا عنه بالقتال، وقد سبقه عفريت من غلمانة فحلَّاه ومَرَّ به على قومه، فوجد البعض مقتولًا والبعض هاربًا، فطار به نحو السماء وحطَّ على مدينة العقيق وقصر الذهب، وجلس الملك برقان على تخت مملكته، ووصل قومه إليه الذين فضلوا من القتل، فدخلوا عليه وهنَّوْهُ بالسلامة، فقال: يا قوم، وأين السلامة وقد قُتِلَ عسكري، وأسروني وخرقوا حرمتي بين قبائل الجان؟ فقالوا: يا ملك، ما دامت الملوك تصيب وتصاب. قال لهم: لا بد من أن أخذ ثأري وأكشف عاري، وإلا أكون معيرة بين قبائل الجان. ثم إنه كتب الكتب وأرسل إلى قبائل الحصون فأتوه مذعنين مطيعين، فتفقدَّهم فوجدهم ثلاثمائة ألف وعشرين ألفًا من المردة الجبَّارين والشياطين. فقالوا: أي حاجة لك؟ فقال: خذوا أهبتكم للسفر بعد ثلاثة أيام. فقالوا: سمعًا وطاعة.

هذا ما كان من أمر الملك برقان، وأما ما كان من أمر الملك مرعش فإنه لما رجع وطلب برقان ولم يجده صعب عليه، وقال: لو كنَّا حفظناه بمائة مارد ما كان يهرب، ولكن أين يروح منَّا؟ ثم قال مرعش لغريب: اعلم يا أخي أن برقان غدار ما يقعد عن أخذ الثأر، ولا بد أن يجمع أرهاطه ويأتوا إلينا، وأنا قصدي أن ألحقه وهو ضعيف على إثر

هزيمته. فقال غريب: هذا هو الرأي الصواب والأمر الذي لا يعاب. ثم قال مرعش لغريب: يا أخي، خلّ المردة يوصلونكم إلى بلادكم واتركوني أجاهد الكفار حتى تخف عني الأوزار. فقال غريب: لا وحقّ الحليم الكريم الستار، ما أروح هذه الديار حتى أفني جميع الجان الكفار، ويعجلّ الله بأرواحهم إلى النار وبئس القرار، ولا ينجو إلا من يعبد الله الواحد القهار، ولكن أرسل سهيماً إلى مدينة عمان لعله يشفى من المرض. وكان ساهيم ضعيفاً، فصاح مرعش على المردة وقال لهم: احملوا سهيماً وهذه الأموال والهدايا إلى مدينة عمان. فقالوا: سمعاً وطاعة. فحملوا سهيماً والهدايا وقصدوا بلاد الإنس، ثم كتب مرعش الكتب إلى حصونه وجميع عمّاله، فحضرُوا فكانتْ عُدتهم مائة ألف وستين ألفاً، فتجهّزوا وساروا قاصدين بلاد العقيق وقصر الذهب، فقطعوا في يوم واحد مسيرة سنة، ودخلوا وادياً فنزلوا فيه للراحة وباتوا حتى أصبح الصباح، وأرادوا أن يرحلوا وإذا بطلائع الجان قد طلعت، والجن قد صاحت، والتقى العسكران في ذلك الوادي، فحملوا على بعضهم وقد وقع القتل بينهم، واشتدّ النزال، وعظم الزلزال، وساءت الأحوال، وجاء الجد وذهب المحال، وبطل القيل والقال، وقصرت الأعمار الطوال، وصارت الكفرة في الذل والخبال، وحمل غريب وهو يوحد الواحد المعبود المستعان، فقطع الرقاب وقد ترك الرءوس مدحرجة على التراب، فما أمسى المساء حتى قتل من الكفار نحو سبعين ألفاً؛ فعند ذلك دقوا كنؤس الانفصال وافترقوا من بعضهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: ما أطيب حديثك وأحسنه وأحلاه وأعذبه! فقالت: وأين هذا ممّا أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٥٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العسكرين لما انفصلا من بعضهما وافترقا، نزل مرعش وغريب في خيامهما بعد أن مسحوا سلاحهما، ثم حُضِرَ العشاء فأكلَا وهنَّيَا بعضهما بالسلامة، وقد قتل منهم أكثر من عشرة آلاف مارد. وأما برقان فإنه نزل في خيامه وهو ندمان على مَنْ قُتِلَ من الأعوان وقال: يا قوم، إن قعدنا نقاتل هذا القوم ثلاثة أيام أفنونا عن آخرنا. فقالوا: وما نفعل يا ملك؟ قال: نهجم عليهم في الليل وهم نيام، فما يبقى منهم مَنْ يرد الأخبار، فخذوا أهبتكم واهجموا على أعدائكم واحملوا حملة رجل واحد. فقالوا: سمعًا وطاعةً. ثم إنهم تجهَّزوا للهجوم، وكان فيهم مارد اسمه جندل، وكان قلبه لَانَ للإسلام، فلما نظر الكفار وما عزموا عليه، مرق من بينهم ودخل على مرعش والملك غريب وأخبرهما بما دبَّرَ الكفار، فالتفت مرعش لغريب وقال له: يا أخي، ما يكون العمل؟ فقال: الليلة نهجم على الكفار ونشتتهم في البراري والقفار بقدرة الملك الجبَّار. ثم دعا بالمقدمين من الجان وقال لهم: احملوا آلة حربكم أنتم وقومكم، فإذا أسبل الظلام فانسلُّوا على أقدامكم مائة بعد مائة، واخلُّوا الخيام خالية واكمنوا بين الجبال، فإذا رأيتم الأعداء صاروا بين الخيام، فاحملوا عليهم من سائر الجهات، وقوُّوا عزمكم واعتمدوا على ربكم، فإنكم تنصرون، وها أنا معكم.

فلما جاء الليل هجموا على الخيام وقد استغاثوا بالنار والنور، فلما وصلوا بين الخيام هجم المؤمنون على الكفار وهم يستغيثون برب العالمين ويقولون: يا أرحم الراحمين، يا خالق الخلق أجمعين. حتى تركوهم حصيدًا خامدين، فما أصبح الصباح إلا والكفار أشباح بلا أرواح، والذين فضلوا طلبوا البراري والبطاح، ورجع مرعش وغريب وهم منصورون مؤيدون ونهبوا أموال الكفار، وباتوا حتى أصبح الصباح وساروا طالبين مدينة العقيق وقصر الذهب. وأما برقان فإنه لما دار الحرب عليه وقتل أكثر قومه في

ظلام الليل، ولَّى هاربًا مع مَنْ بقي من قومه حتى وصل إلى مدينته ودخل قصره وجمع أرهاطه، وقال: يا بَنِيَّ، مَنْ كان عنده شيء فليأخذه ويلحقني في جبل قاف عند الملك الأزرق صاحب القصر الأبلق، فهو الذي يأخذ ثأرنا. فأخذوا حريمهم وأولادهم وأموالهم وقصدوا جبل قاف، ثم وصل مرعش وغريب إلى مدينة العقيق وقصر الذهب، فوجدوا الأبواب مفتوحة وليس فيها مَنْ يخبر بخبر، فأخذ مرعش غريبًا يفرّجه على مدينة العقيق وقصر الذهب، وكان أساسات صورها من الزمرد، وبابها من العقيق الأحمر، بمسامير من الفضة، وسقوف بيوتها وقصورها العود والصندل، فمشوا وتفرّقوا في شوارعها وأزقتها حتى وصلوا إلى قصر الذهب، ولو يزالوا يدخلون من دهليز إلى دهليز، وإذا هم ببناء من البلخش الملوكي ورخامه زمرد وياقوت، ودخل مرعش وغريب في القصر فاندعشا من حُسْنه، ولم يزالا يدخلان من موضع إلى موضع حتى قطعَا سبعة دهاليز، فلما وصلَا إلى داخل القصر إذا هما بأربعة لواوين، كل ليوان لا يشبه الآخر، وفي وسط القصر فسقية من الذهب الأحمر وعليها صور سباع من الذهب، والماء يجري من أفواهها، فنظرَا شيئًا يحير الأفكار، والليوان الذي في الصدر مفروش بالبسط المنسوجة بالحرير الملون، وفيه كرسيان من الذهب الأحمر مرصّعان بالدر والجوهر، فعند ذلك قعد مرعش وغريب على كرسي برقان، وعملا في قصر الذهب موكبًا عظيمًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: يا أختي، ما أحسن حديثك وألذه وأعذبه! فقالت: وأين هذا ممّا أحدثكم به الليلة القابلة إنْ عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٥٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مرعشًا وغريبًا جلسا على كرسي برقان وأوكبا موكبًا عظيمًا، وبعد ذلك قال غريب لمرعش: أي شيء دبّرتَ من الرأي؟ قال: يا ملك الإنس، قد أرسلت مائة فارس يكشفون لي خبر برقان في أي مكان هو حتى نسير خلفه. ثم قعدا في قصر الذهب ثلاثة أيام حتى وصل المردة ورجعوا خبروا أن برقان سار إلى جبل قاف، واستجار بالملك الأزرق فأجاره، فقال مرعش لغريب: ما تقول يا أخي؟ قال: إن لم نهجم عليهم يهجموا علينا. ثم أمر مرعش وغريب العسكر أن يأخذوا الأهبة للسفر بعد ثلاثة أيام؛ فأصلحوا أحوالهم وأرادوا أن يرحلوا، وإذا هم بالمردة الذين وصلوا سهيمًا والهدايا قد أقبلوا على غريب وقبّلوا الأرض، فسألهم عن قومهم فقالوا له: إن أخاك عجبًا لما هرب من الوقعة ذهب إلى يعرب بن قحطان، وقصد بلاد الهند ودخل على ملكها، وحكى له ما جرى له من أخيه واستجار به، فأجاره وأرسل كتبه إلى جميع عمّاله، فاجتمع عسكره مثل البحر الزاخر ما له أول من آخر، وهو عازم على خراب العراق. فلما سمع غريب كلامه قال: تعس الكفار، فإن الله تعالى ينصر الإسلام، وسوف أريهم ضربًا وطعانًا. ثم قال مرعش: يا ملك الإنس، وحق الاسم الأعظم لا بد أن أسير معك إلى ملكك وأهلك أعداءك وأبلغك هناك. فشكره غريب وباتوا على نية الرحيل، إلى أن أصبح الصباح، فرحلوا وصاروا قاصدين جبل قاف ومشوا يومهم، وبعد ذلك ساروا قاصدين القصر الأبلق ومدينة المرمز، وكانت هذه المدينة مبنية بالحجارة والمرمر، بناها بارق بن فاقع أبو الجن، وبنى القصر الأبلق، وسُمّي بذلك لأنه مبنى بطوبة من فضة وطوبة من ذهب، ما بُني مثله في سائر الأقطار.

فلما قربوا من مدينة المرمز، وبقي بينهم وبينها نصف يوم؛ نزلوا للراحة، فأرسل مرعش من يكشف له الأخبار، فغاب الساعي ثم عاد وقال له: يا ملك، إن في مدينة المرمز



دخل «مرعش» و«غريب» قصرًا من البلخش الملوكي، ورخامه زمردٌ وياقوت، فاندھشا.

من أرھاط الجن عدد أوراق الشجر وقطر المطر. فقال الملك مرعش: أي شيء يكون العمل يا ملك الإنس؟ فقال غريب: يا ملك، قَسِّم قومك أربعة أقسام حول العسكر، ثم يقولون: الله أكبر. وبعد أن يصيحوا بالتكبير يتأخرون عنهم، ويكون ذلك الأمر في نصف الليل، وانظر ما يجري بين قبائل الجان. فأحضر مرعش قومه وفرّقهم مثل ما قال غريب، فحملوا سلاحهم وصبروا حتى انتصف الليل، فساروا حتى داروا حول العسكر وصاحوا: الله أكبر،

يا لدين الخليل إبراهيم عليه السلام. فانتبه الكفار مرعوبين من هذه الكلمة، وخطفوا سلاحهم ووقعوا في بعضهم، حتى لاح الفجر وقد فني أكثرهم وبقي أقلهم، فصاح غريب على الجن المؤمنين وقال: احملوا على مَنْ بقي من الكافرين، وها أنا معكم والله ناصركم. فحمل مرعش وصحبته غريب وجردَ غريب سيفه الماحق الذي من سيوف الجن، فجذع الأنوف وهزم الصفوف، وقد ظفر ببرقان وضربه فأعدمه الحياة، ونزل مختضباً بدمائه، ثم فعل بالملك الأزرق كذلك.

فلما أضحى النهار لم يَبْقَ من الكفار ديار ولا مَنْ يرد الأخبار، ودخل مرعش وغريب القصر الأبلق فرأيا حيطان طوبة من ذهب وطوبة من فضة، وأعتابه من البلور، وهو معقود بالزمرد الأخضر، وفيه فسقية وشاذروان مفروش بالحرير المزركش بشرائط الذهب المرصع بالجواهر، ووجدَا أموالاً لا تُحصى ولا تُوصَف، ثم دخلا قاعة الحريم فوجدَا فيها حريماً ظريفاً، فنظر غريب إلى حريم الملك الأزرق فرأى في بناته بنتاً ما رأى أحسن منها، وعليها بدلة تساوي ألف دينار، وحولها مائة جارية ترفع أذيالها بكلايب من الذهب، وهي مثل القمر بين النجوم؛ فلما رأى غريب هذه البنت، طاش عقله وحار، فقال لبعض تلك الجواري: مَنْ تكون هذه الجارية؟ فقالوا له: هذه كوكب الصباح بنت الملك الأزرق. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: ما أطيب حديثك وأحسنه وأحلاه وأعذبه! فقالت لها: وأين هذا ممَّا أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٥٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما سأل بعض الجواري وقال: مَنْ هذه الجارية؟ فقالوا له: هذه كوكب الصباح بنت الملك الأزرق. فالتفت غريب للملك مرعش وقال: يا ملك الجان، مرادي أن أتزوَّج بهذه البنت؟ فقال له الملك مرعش: القصر وما فيه من الأموال والأولاد كسب يدك، ولولا أنت عملت الحيلة حتى أهلكت برقان والملك الأزرق وقومهما، لكانوا أهلكونا عن آخرنا، فإمال مالك وأهله عبيدك. فشكره غريب على حسن كلامه وتقدَّم إلى البنت ونظر إليها وحقق النظر فيها، فأحبَّها حبًّا شديدًا، ونسي فخرتاج بنت الملك سابور ملك العجم والترك والديلم، ونسي مهدية. وكانت والدَةُ هذه البنتِ بنتَ ملك الصين، خطفها الملك الأزرق من قصرها وافتتضَّها، فعلقَت منه وجاءت بهذه البنت، فمن حُسْنها وجمالها سمَّاها كوكب الصباح، وهي سيدة الملاح، فماتت أمها وهي بنت أربعين يومًا، فربَّتها القوابل والخدام حتى صار لها من العمر سبع عشرة سنة، فجرى هذا الأمر وقُتِل أبوها وحبَّها غريب حبًّا شديدًا، وصافَحها ودخل عليها من ليلته، فوجدها بكرًا، وكانت تبغض أباهَا وقد فرحت بقتله، وقد أمر غريب أن يُهدَم القصر الأبلق، فهدموه وفرَّقه غريب على الجان، فتاب غريبًا إحدى وعشرون ألف طوبة من الذهب والفضة، ونابه من المال والمعادن ما لا يُحصَى ولا يُعدُّ.

ثم إن الملك مرعشًا أخذ غريبًا وفرَّجَه على جبل قاف وعجائبه، وساروا قاصدين حصن برقان، فلما وصلوا إليه أخبروه وقسموا أمواله، وساروا إلى حصن مرعش فأقاموا فيه خمسة أيام، وطلب غريبُ الرواحَ إلى بلاده، فقال مرعش: يا ملك الإنس، أنا أسير في ركابك حتى أوصلك إلى بلادك؟ فقال غريب: لا وحقَّ الخليل إبراهيم ما أخلِك تتعب سرك، ولن آخذ من قومك سوى الكيلجان والقورجان. فقال مرعش: يا ملك، خذ عشرة آلاف فارس من الجن يكونون معك في خدمتك. فقال غريب: ما آخذ إلا ما أخبرتك به. فأمر

مرعش ألف مارء أن يءملوا ما ناب غريباً من الغنيمة ويصءبوه إلى ملكه، وأمر المارءين الكيلءان والقورءان أن يكونا مع غريب ويطيعاه، فقآلاً: سمعاً وطاعة. ثم قال غريب للمردة: اءملوا أنتم المال وكوكب الصباء. وأراء غريب أن يرحل بركب جواده الطيار، فقال مرعش: هذا الجواء يا أخي لا يعيش إلا في أرضنا، وإن وصل إلى أرض الإنس مات، ولكن عنءي جواء يجري وما يوجد له مثل في أرض العراق وجميع الآفاق. ثم أمر بإءضار الجواء فأءضروه، فلما نظره غريب ءال بينه وبين عقله، ثم كبءوا الجواء وءمله الكيلءان وءمل القورءان ما أطاقه.

ثم إن مرعشاً اعتنق غريباً وبكى على فراقه وقال له: يا أخي، إذا ءصل لك ما لا طاقة لك به، فأرسل إليّ وأنا آتيك بعسكر يءربون الأرض وما عليها. فشكره غريب على معروفه وءسن إسلامه، وسار المارءان بغيرب والجواء يومين وليلة، وقد قطعاً مسيرة ءمسين سنة ءتى قربوا من مءينة عمان، فنزلوا قريباً منها ليأءذوا الراحة، فالتفت غريب إلى الكيلءان وقال له: سرّ واكشف لي ءبر قومي. فسار المارء ثم عاد وقال: يا ملك، إن على مءينتك عسكر الكفار مثل البءر الزءار، وقومك تقاتلهم وقد دقوا طبول الحرب، والءمرقان برز لهم إلى الميءان. فلما سمع غريب هذا الكلام صاح: الله أكبر. وقال: يا كيلءان شء لي الءصان وقءم عُدّتي والسنان، اليوم يظهر الفارس من الجبان في مقام الحرب والطعان. فقام الكيلءان وقد أءضر له ما طلب، فأءذ عُدّة الحرب وتقلّد بسيف يافء بن نوح، وركب الجواء البءري وقصد العساكر والءنوء، فقال الكيلءان والقورءان: أرء قلبك ودعنا نسير إلى الكفار فنشتّهم في البراري والقفار، ءتى لا يبقى منهم ديار ولا نافء نار، بعون الله العليّ الجبار. فقال لهم غريب: وءقّ الءليل إبراهيم ما أءليكم تقاتلون إلا وأنا على ظهر جوائي. وقد كان لمءيء هذه العساكر سبب عءيب. وأءرك شهرزاء الصباء فسكّئت عن الكلام المباء.

فلما كانت الليلة ٦٦٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما قال للكيلجان: سرّ واكشف لي خبر قومي. فرجع وقال: إن على مدينتك عسكرًا كثيرًا. وكان السبب في مجيئهم أن عجيبًا لما أتى بعسكر يعرب بن قحطان، وحاصر المسلمين، وخرج الجمرقان وسعدان وجاءهم الكيلجان والقورجان، وكسروا عساكر الكفار وهرب عجيب، قال: يا قوم، إن رجعتم إلى يعرب بن قحطان وقد قُتل قومه يقول: يا قوم، لولا أنتم ما قُتل قومي، فيقتلنا عن آخرنا، والرأي عندي أن تسيروا إلى بلاد الهند وندخل على الملك طركنان فيأخذ بثأرنا. فقال له قومه: سرّ بنا باركت النار فيك. فساروا أيامًا وليالي حتى وصلوا إلى مدينة الهند، واستأذنوا في الدخول على الملك طركنان، فأذن لعجيب في الدخول، فدخل وقبّل الأرض ودعا له بدعاء الملوك وقال: يا ملك، أجرتني أجارتك النار ذات الشرر، وحماك الدجى بالظلام المعتكر. فلما نظر ملك الهند إلى عجيب قال له: مَنْ أنت؟ وما تريد؟ قال له: أنا عجيب ملك العراق، وقد جار عليّ أخي، وقد تبع دين الإسلام وأطاعته العباد وقد مَلَكَ البلاد، ولم يزل يطردني من أرض إلى أرض، وها أنا أتيت إليك أستجير بك وبهمتك. فلما سمع ملك الهند كلامَ عجيب قام وقعد وقال: وحقّ النار لآخذن بثأرك ولا أدع أحدًا يعبد غير النار. ثم إنه صاح على ولده وقال له: يا ولدي، هيئ حالك واهذب إلى العراق، وأهلك كلّ مَنْ فيها، واربط الذين لا يعبدون النار وعدّ بهم ومثّل بهم ولا تقتلهم وائتني بهم عندي حتى أصنع في عذابهم أنواعًا، وأذيقهم الهوان وأتركهم عبرةً لِمَن اعتبر في هذا الزمان. ثم اختار معه ثمانين ألف مقاتل على الخيل، وثمانين ألف مقاتل على الزرافات، وبعث معهم عشرة آلاف فيل، كلّ فيل عليه تخت من الصندل مشبك بقضبان الذهب وصفائحه، ومساميره من الذهب والفضة، وفي كل تخت سرير من الذهب والزمرد، وأرسل معهم تخوت السلاح، في كل تخت ثمانين رجلًا يقاتلون بسائر السلاح.

وكان ابن الملك شجاع الزمان ما له في شجاعته نظير، وكان اسمه رعد شاه، وجَهَرَ نفسه في عشرة أيام، وساروا مثل قطع الغمام مدة شهرين من الزمان حتى وصلوا مدينة عمان وداروا حولها، وعجيب فرحان ويظن أنه ينتصر، وقد خرج الجمرقان وسعدان وجميع الأبطال في حومة الميدان، ودَقَّتِ الطبول وصهلت الخيول، وأشرف على ذلك الكيلجان، ورجع أخبر الملك غريب وركب كما ذكرنا، وساق جواده ودخل بين الكفار ينتظر مَنْ يبرز له ويفتح باب الحرب، فبرز سعدان الغول وطلب البراز، فبرز له بطل من أبطال الهند فما أمهله سعدان في الثبات قدامه حتى ضربه بالعمود، فهشَّم عظمه وصار على الأرض ممدودًا، فبرز له ثانٍ فقتله، وثالث فجندله، ولم يزل سعدان يقتل حتى قتل ثلاثين بطلًا، فعند ذلك برز له بطل من الهند اسمه بطاش الأقران، وكان فارس الزمان، يُعَدُّ بخمسة آلاف فارس في الميدان للحرب والطعان، وهو عم الملك طركنان، فلما برز بطاش لسعدان قال له: يا شلح العرب، هل بلغ من قدرك أن تقتل ملوك الهند وأبطالها وتأسر فرسانها؟ اليوم آخر أيامك من الدنيا. فلما سمع سعدان هذا الكلام احمرَّت عيناه وهجم على بطاش فضربه بالعمود، فخابت الضربة ولفَّ سعدان مع العمود فوقع على الأرض، فما أفاق إلا وهو مكتَّفٌ مقبَّد، فسحبوه إلى خيامهم، فلما نظر الجمرقان إلى صاحبه أسيرًا قال: يا لدين الخليل إبراهيم، ولكز جواده وحمل على بطاش الأقران فتجاوَلَا ساعة، ثم هجم بطاش على الجمرقان فجذبه من جلبات ذراعه واقتلعه من سرجه ورماه على الأرض، فكَتَّفوه وسحبوه إلى خيامهم، ولم يزل بطاش يبرز له مقدم حتى أسَرَ من المسلمين أربعة وعشرين مقدمًا، فلما نظر المسلمون إلى ذلك، اغتمُّوا غمًّا شديدًا، فلما نظر غريب ما حلَّ بأبطاله، سحب من تحت ركبته عمودًا من الذهب وزنه مائة وعشرون رطلًا، وهو عمود برقان ملك الجان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: ما أحلى حديثك وأطيبه وأحلاه وأعذبه! فقالت لها: وأين هذا ممَّا أحدثكُم به الليلة القابلة إنْ عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٦١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك غريبًا لما نظر ما حلَّ بأبطاله، سحب عمودًا من الذهب كان لبرقان ملك الجان، ثم ساق جواده البحري فجرى تحته مثل هبوب الريح، واندفع حتى صار في وسط الميدان وصاح: الله أكبر، فتح ونصر وخذل من كفر بدين إبراهيم الخليل. ثم حمل على بطاش وضربه بالعمود فوقع على الأرض، فالتفت نحو المسلمين ونظر إلى أخيه سهيم الليل وقال له: كُتِفَ هذا الكلب. فلما سمع سهيم كلام غريب اندفع على بطاش فشده وثاقه وأخذه وصار أبطال المسلمين يتعجبون من ذلك الفارس، وصار الكفار يقولون لبعضهم: من هذا الفارس الذي خرج من بينهم وأسّر صاحبنا؟ كل هذا وغريب يطلب البراز، فبرز له مقدم من الهنود، فضربه غريب بالعمود فوقع على الأرض ممدودًا، فكشفه الكيلجان والقورجان وسلّماه إلى سهيم، ولم يزل غريب يأسر بطلًا بعد بطل حتى أسر اثنين وخمسين بطلًا مقدمين أعيانًا وقد فرغ النهار، فدقوا طبول الانفصال وطلع غريب من الميدان وقصد عسكر المسلمين، وكان أول من لاقاه سهيم، فقبّل رجله في الركاب وقال له: لا شُلْتُ يداك يا فارس الزمان، فأخبرنا من أنت من الشجعان؟ فعند ذلك رفع البرقع الزرد عن وجهه، فعرفه وقال سهيم: يا قوم، هذا ملككم وسيدكم غريب، وقد أتى من أرض الجان. فلما سمع المسلمون بذكر ملكهم، رموا أرواحهم عن ظهور الخيل وقَدِموا إليه وقَبَلوا رجليه في الركاب، وسلموا عليه وفرحوا بسلامته ودخلوا به إلى مدينة عمان، ونزل على كرسي مملكته، ودار قومه حوله في غاية الفرح، ثم قَدِموا الطعام فأكلوا، وبعد ذلك حكى لهم جميع ما جرى له في جبل قاف من قبائل الجان، فتعجبوا غاية العجب وحمدوا الله على سلامته.

وكان الكيلجان والقورجان لا يفارقان غريبًا، ثم أمر غريب قومه بالانصراف إلى مراقدهم ففترّقوا إلى بيوتهم، ولم يَبْقَ عنده إلى الماردان، فقال لهما: هل تقدران أن

تحملاني إلى الكوفة لأتملى بحريمي وترجعاً بي في آخر الليل؟ فقالا: يا مولانا هذا أهون ما طلبت. وكان بين الكوفة وعمان ستون يوماً للفارس المجد، فقال الكيلجان للقورجان: أنا أحمله في الذهاب وأنت تحمله في المجيء. فحملة الكيلجان وحاذاه القورجان، فما كان إلا ساعة حتى وصلوا الكوفة وعدلوا به إلى باب القصر، فدخل على عمه الدامغ، فلما رآه قام له وسلّم عليه ثم قال له: كيف حال زوجتي فخرتاج وزوجتي مهدية؟ قال: إنهما طيّبتان بخير وعافية. ثم دخل الخادم فأخبر الحريم بمجيء غريب، ففرحوا وزلغطوا ووهبوا للخادم بشارته، ثم دخل الملك غريب فقاموا له وسلموا عليه، ثم بعد ذلك تحدّثوا وحضر الدامغ فحكى له ما جرى له مع الجن، فتعجب الدامغ والحريم ونام بقية الليل مع فخرتاج إلى أن قرب الفجر، فخرج إلى الماردين وودّع أهله وحريمه وعمه الدامغ، ثم ركب ظهر القورجان وحاذاه الكيلجان، فما انكشف الظلام إلا وهو في مدينة عمان، ولبس آلة حربه وكذلك قومه، وأمر بفتح الأبواب، وإذا بفارس قد وصل من عسكر الكفار ومعه الجمرقان وسعدان الغول والمقدمون المأسورون، وقد خلصهم ثم سلّمهم لغريب ملك المسلمين، ففرح المسلمون بسلامتهم، ثم تدرعوا وركبوا وقد دقوا كئوس الحرب واعتدوا للطعن والضرب، وركب الكفار واصطفوا صفوفاً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: ما أحسن هذا الحديث وأطيبه وأحلاه وأعذبه! فقالت: وأين هذا ممّا أهدّكُم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٦٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عسكر المسلمين لما ركبوا في الميدان للحرب والطعان، فأول مَنْ فتح باب الحرب الملك غريب، وسحب سيفه الماحق وهو سيف يافث بن نوح عليه السلام، وساق جواده بين الصفين ونادى: مَنْ عرفني فقد اكتفى شرّي، وَمَنْ لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا الملك غريب ملك العراق واليمن، أنا غريب أخو عجيب. فلما سمع رعد شاه ابن ملك الهند كلامَ غريب، صاح على المقدمين وقال: ائتوني بعجيب. فأتوا به، فقال له: أنت تعلم بأن هذه الفتنة فتنتك وأنت كنت السبب فيها، وهذا أخوك في حومة الميدان ومقام الحرب والطعان، فاخرج له وائتني به أسيرًا حتى أركبه على جمل بالمقلوب، وأمثّل به حتى أصل إلى بلاد الهند. فقال له عجيب: يا ملك، أرسلْ له غيري، فإنني أصبحت ضعيفًا. فلما سمع رعد شاه كلامه شخر ونخر وقال: وحقّ النار ذات الشرور، والنور والظل والحرور، إن لم تخرج إلى أخيك وتأتني به سريعًا، قطعت رأسك وأخمدت أنفاسك. فخرج عجيب وساق جواده وقد شجّع قلبه وقارب أخاه في حومة الميدان وقال له: يا كلب العرب، وأخس من دق طنب، أتضاهي الملوك؟ فخذ ما جاءك وأبشر بموتك. فلما سمع الملك غريب هذا الكلام قال له: مَنْ أنت من الملوك؟ قال له: أنا أخوك، فاليوم آخر أيامك من الدنيا. فلما تحقّق غريب أنه أخوه عجيب صاح وقال: يا لثأر أبي وأمي! ثم أعطى الكيلجان سيفه، وحمل عليه وضربه بالدبوس ضربة جبّار عنيد كادت أن تُخرج أضلاعه، وقبضه من أطواقه وجذبه فاقتلعه من سرجه وضرب به الأرض، فاندفع عليه الماردان وشدّا وثاقه ثم قاداه ذليلاً حقيرًا! كل هذا وغريب قد فرح بأسر عدوه، وأنشد قول الشاعر:

بَلَّغْتُ الْمُرَادَ وَزَالَ الْعَنَا لَكَ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ يَا رَبَّنَا

نَشَأْتُ ذَلِيلًا فَقِيرًا حَقِيرًا فَأَعْطَانِي اللَّهُ كُلَّ الْمُنَى
مَلَكَتُ الْبِلَادَ قَهَرْتُ الْعِبَادَ فَلَوْلَاكَ مَا كُنْتُ يَا رَبَّنَا

فلما نظر رعد شاه ما حلَّ بعجيب من أخيه غريب، دعا بجواده ولبس آلة حربيه وجلبابه، وخرج إلى الميدان وساق جواده إلى أن قاربَ الملك غريبًا في مقام الحرب والطعان، وصاح عليه وقال: يا أخس العرب وحمَّال الحطب، بلغ من قدرك أن تأسر الملوك والأبطال؟ فانزل عن جوادك وكتِّفْ نفسك وقبِّلْ رجلي وأطلق أبطالي، وسِرْ معي إلى ملكي وأنت مقيّد مسلسل، حتى أعفو عنك وأجعلك شيخ بلادنا، تأكل فيها لقمة الخبز. فلما سمع غريب منه هذا الكلام ضحك حتى استلقى على قفاه وقال له: يا كلب أكلب، وذئب أجرب، سوف تنظر من تدور عليه الدوائر. ثم صاح على سهيم وقال له: اثنتي بالأسارى. فأتاه بهم فضرب رقابهم، فعند ذلك حمل رعد شاه على غريب حملة صناديد، وصدمه صدمة جبَّار عنيد، ولم يزالا في كَرٍّ وفرٍّ وصدام، حتى هجم الظلام، فدقوا طبول الانفصال. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: ما أحسن هذا الحديث وأطيبه وأحلاه وأعذبه! فقالت: وأين هذا ممَّا أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٦٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنهم لما دقوا طبول الانفصال، وافترقا من بعضهما، ذهب كل ملك إلى موضعه فهنوهما بالسلامة، فقال المسلمون للملك غريب: ما هي عادتك يا ملك أن تطاول في القتال! فقال: يا قوم، قاتلتُ الأبطال والأقيال، فما رأيت أحسن ضرباً من هذا البطل، وكنت أردتُ أن أسحب سيف يافث وأضربه فأهشَّم عظامه وأفني أيامه، ولكن طاولته ظناً مني أني آخذه أسيراً، ويكون له حظ في الإسلام.

هذا ما كان من أمر غريب، وأما ما كان من أمر رعد شاه، فإنه دخل السرادق وجلس على سريريه، ودخل عليه كبراء قومه فسألوه عن خصمه فقال لهم: وحقُّ النار ذات الشر، ما رأيت عمري مثل هذا البطل، وفي غدٍ آخذه أسيراً وأقوده ذليلاً حقيراً. وباتوا إلى الصباح، فدقوا طبول الحرب واعتدوا للطعن والضرب، وتقلَّدوا الصفاح، وأقاموا الصياح، وركبوا الجرد القوارح، وخرجوا من الخيام فملئوا الأرض والآكام والبطاح والأماكن الفساح، وكان أول من فتح باب الحرب والطعان الفارس المقدام والأسد الضرغام الملك غريب، فجال وصال وقال: هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ لا يخرج لي اليوم كسلان ولا عاجز. فما استتم كلامه حتى برز له رعد شاه وهو راكب على فيل كأنه قبة عظيمة، وعلى ظهر الفيل تخت مخرم بشرائط حرير، والفَيْال راكب بين آذان الفيل، وفي يده كلاب يضرب به الفيل، ويهتز يميناً وشمالاً، فلما قرب الفيل من جواد غريب وقد نظر الجواد شيئاً ما رآه قطُّ فجفل منه، فنزل غريب عنه وسلَّمه للكيلجان وسحب سيفه الماحق وتقدَّم نحو رعد شاه ماشياً على أقدامه حتى صار قدام الفيل، وكان رعد شاه إذا رأى نفسه مغلوباً مع بطل من الأبطال يركب في تخت الفيل، ويأخذ معه شيئاً اسمه الوهق، وهو في هيئة الشبكة واسع من أسفل وضيق من فوق، وفي ذيله حلق وفيه قنب حرير، فيقصد الفارس والفرس ويضعه عليهما ويسحب القنب، فينزل عن الجواد راكباً، فيأخذه أسيراً وقد قهر

الفرسان بهذا الشأن. فلما قارب غريب رفع يده بالهوق وفرشه على غريب، فانتشر عليه وسحبه فصار عنده على ظهر الفيل، وصاح على الفيل أن يرد إلى عسكره، وكان الكيلجان والقورجان ما يفارقان غريبًا، فلما رأيا ما حلَّ بصاحبهما أمسكا الفيل، كل هذا وغريب قد تمطع في الهوق فمزَّقه، وهجم الكيلجان والقورجان على رعد شاه وكتَّفاه وقاداه في حبل ليف، وقد حمل الناس على بعضهم كأنهم بحران يلتطمان أو جبلان يصطدمان، والغبار قد طلع إلى عنان السماء، وعاین العسكران العمى وقوي الحرب وسالت الدماء، ولم يزالوا في حرب شديد وطعن أكيد، وضرب ما عليه من مزيد، حتى ولَّى النهار وأقبل الليل بالاعتكار، فدقوا طبول الانفصال، وافترقوا من بعضهم.

وكان المسلمون حاضرين في ذلك اليوم، وقد قُتل منهم جماعة كثيرة وجُرح أكثرهم، وذلك من ركاب الفيلة والزرافات، فصعبوا على غريب، فأمر أن يُداوى الجرحى، والتفت إلى كبار جماعته وقال: ما عندكم من الرأي؟ قالوا: يا ملك، ما ضرنا إلا الفيلة والزرافات، فلو سلمنا منهم كُنا غلبناهم. فقال الكيلجان والقورجان: نحن الاثنان نسحب سيوفنا ونهجم عليهم فنقتل أكثرهم. فتقدَّم رجل من أهل عمان، وكان صاحب رأي عند الجلند وقال: يا ملك، ضمان هذا العسكر عليَّ إذا طاوَعْتَنِي وسمعتَ مني. فالتفت غريب إلى المقدمين وقال: مهما قاله لكم هذا المعلم فأطيعوه. فقالوا: سمعًا وطاعةً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٦٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك غريبًا لما قال للمقدمين: كل ما قاله لكم هذا المعلم فأطيعوه. قالوا: سمعًا وطاعةً. فاختار ذلك الرجل عشرة مقدمين وقال: ما تحت أيديكم من الأبطال؟ فقالوا: عشرة آلاف بطل. فأخذهم ودخل دار السلاح فأعطى خمسة آلاف منهم بندقيات وعلمهم كيفية الرمي بها، فلما لاح الفجر جهّز الكفار أرواحهم وقدموا الفيلة والزرافات، ورجالهم حاملون السلاح الكامل، وقدموا الوحوش وأبطالهم قدام العسكر، وركب غريب وأبطاله واصطفوا صفوفًا، ودقت الكاسات وقدمت السادات، وتقدّم الوحوش والفيلة، فصاح الرجل على الرماة، فاشتغلوا بالسهام والبندقيات، فخرج النبل والرصاص فدخلت في أضلاع الوحوش، فصاحت الوحوش وانقلبت على الأبطال والرجال وداستهم بأرجلها، ثم هجم المسلمون على الكفار وأحاطوا بهم من الشمال إلى اليمين، وداستهم الفيلة وشتّتتهم في البراري والقفار، وسار المسلمون في أقفيتهم بالسيوف المهنددة، فما سلم من الفيلة والزرافات إلا القليل، ورجع الملك غريب وقومه فرحين بالنصر، فلما أصبحوا فرّقوا الغنائم وقعدوا خمسة أيام.

ثم بعد ذلك جلس الملك غريب على كرسي المملكة، وطلب أخاه عجبًا وقال له: يا كلب، ما لك تحشد علينا الملوك، والقادر على كل شيء ينصرني عليك؟ فاسلم تسلم وأترك لك ثأر أبي وأمي من أجل ذلك، وأجعلك ملكًا كما كنتَ وأكون أنا من تحت يدك. فلما سمع عجب كلام غريب قال له: ما أفارق ديني. فجعله في قيد حديد ووكّل به مائة عبد شديد، والتفت إلى رعد شاه وقال له: ما تقول في دين الإسلام؟ فقال: يا مولاي، أنا أدخل في دينكم، ولولا أنه دين صحيح مليح ما غلبتونا، امدد يدك وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن الخليل إبراهيم رسول الله. ففرح غريب بإسلامه وقال له: هل ثبتت في قلبك حلوة الإيمان؟ قال: نعم يا مولاي. ثم قال له غريب: يا رعد شاه، هل تمضي إلى بلادك وملكك؟

فقال: يا ملك، يقتلني أبي لأنني خرجت من دينه. فقال غريب: أنا أسير معك وأملكك الأرض حتى تطيعك البلاد والعباد بعون الله الكريم الجواد. فقبّل يده ورجله، ثم أنعم على صاحب الرأي الذي هو سبب انهزام العدو وأعطاه أموالاً كثيرة، والتفت إلى الكيلجان والقورجان وقال لهما: يا أرهاط الجن. قالاً: لبيك. قال: مرادي أن تحملاني إلى بلاد الهند. فقالا: سمعاً وطاعةً. فأخذ معه الجمرقان وسعدان وحملهما القورجان، وحمل الكيلجان غريباً ورعد شاه، وقصّداً أرض الهند. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: ما أحسن حديثك وأطيبه وأحلاه وأعذبه! فقالت: وأين هذا ممّا أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٦٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك غريبًا والجمرقان وسعدان الغول ورعد شاه لما حملهم الماردان، وقصدًا بهم أرض الهند، وكان المسير وقت الغروب، فما جاء آخر الليل إلا وهم في كشمير، فأنزلهم في قصر وانحدروا من سلالم القصر، وكان طركنان بلغه الخبر من المنهزمين بما جرى لابنه وعسكره، وأنهم في همٍّ عظيم، وأن ابنه لا ينام ولا يلتذُّ بشيء، فصار متفكِّرًا في أمره وما جرى له، وإذا بالجماعة دخلوا عليه، فلما نظر الملك ابنه ومن معه بُهت، وأخذَه الفزع من المردة، والتفت إليه ابنه رعد شاه فقال له: إلى أين يا غدار، يا عابد النار، يا ويلك، فاترك عبادة النار واعبد الملك الجبار، خالق الليل والنهار، الذي لا تدركه الأبصار. فلما سمع أبوه هذا الكلام، كان معه دبوس حديد فرماه به، فخلا عنه ووقع في ركن القصر، فهدم ثلاثة أحجار وقال له: يا كلب، أهلك العساكر وضيعت دينك وجئت تُخرجني من ديني؟ فتلقاه غريب ولكمه في عنقه فرماه، فشد الكيلجان والقورجان وثاقه وهرب الحريم جميعًا. ثم إنه جلس على كرسي مملكته وقال لرعد شاه: اعدل أباك. فالتفت إليه وقال له: يا شيخ الضلال، أسلم تسلم من النار ومن غضب الجبار. فقال طركنان: ما أموت إلا على ديني. فعند ذلك سحب غريب سيفه الماحق وضربه به، فوقع على الأرض شطرين، وعجلَ الله بروحه إلى النار وبئس القرار، ثم أمر بتعليقه على باب القصر، فعلقوه وجعلوا شطرًا يمينًا وشرطًا شمالًا، وباتوا حتى فرغ النهار، فأمر غريب رعد شاه أن يلبس بدلة الملك، فلبس وجلس على تخت أبيه، وقعد غريب عن يمينه، ووقف الكيلجان والقورجان والجمرقان وسعدان الغول يمينًا وشمالًا، وقال لهم الملك غريب: كلُّ من دخل من الملوك اربطوه ولا تخلوا مقدمًا ينفلت من أيديكم. فقالوا: سمعًا وطاعةً.

ثم بعد ذلك طلع المقدمون وقصدوا الملك لأجل الخدمة، فأول من طلع المقدم الكبير، فنظر الملك طركنان معلقاً شطرين، فاندھش وحار ولحقه الانبھار، فهم عليه الكيلجان وجذبه من أطواقه فرماه وكثّفه، ثم جذبه إلى داخل القصر، ثم ربطه وسحبه، فما طلعت الشمس حتى ربط ثلاثمائة وخمسين مقدماً، وأوقفهم بين يدي غريب فقال لهم: يا قوم، هل نظرتُم ملككم وهو معلق على باب القصر؟ فقالوا: مَنْ فعل به هذه الفعّال؟ فقال غريب: أنا فعلتُ به ذلك بعون الله تعالى، ومَنْ خالفني فعلتُ به مثله. فقالوا: ما تريد منّا؟ فقال: أنا غريب ملك العراق، أنا الذي أهكتُ أبطالكم، وإن رعد شاه دخل في دين الإسلام، وصار ملكاً عظيماً وحاكماً عليكم، فأسلموا تسلموا، ولا تخالفوا تندموا. فنطقوا بالشهادة وكُتِبوا من أهل السعادة، فقال غريب: هل صحّت في قلوبكم حلاوة الإيمان؟ قالوا: نعم. فأمر بحلهم فحلّوهم، فخلع عليهم وقال لهم: امضوا إلى قومكم واعرضوا عليهم الإسلام، فمن أسلم فأبقوه ومن أبى فاقتلوه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: ما أحلى هذا الحديث وأطيبه وأعذبه! فقالت: وأين هذا ممّا أحدثكم به الليلة القابلة إن عشتُ وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها.

فلما كانت الليلة ٦٦٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك غريبًا لما قال لعسكر رعد شاه: امضوا إلى قومكم واعرضوا عليهم دين الإسلام، فمن أسلم فأبقوه ومن أبى فاقتلوه، فمضوا وجمعوا رجالهم الذين تحت أيديهم ويحكمون عليهم وأعلموهم بما كان، ثم عرضوا عليهم الإسلام فأسلموا إلا قليلًا فقتلوهم وأخبروا غريبًا بذلك، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: الحمد لله الذي هوّن علينا من غير قتال. وأقام غريب في كشمير الهند أربعين يومًا حتى مهدّ البلاد، وأخرب بيوت النار وأماكنها، وبنى في مواضعها مساجد وجوامع، وقد حزم رعد شاه من الهدايا والتحف شيئًا كثيرًا لا يُوصف وأرسله في المراكب، ثم ركب غريب على ظهر الكيلجان، وركب سعدان الجمرقان على ظهر القورجان بعد أن ودّعوا بعضهم، وساروا إلى آخر الليل، فما لاح الفجر إلا وهم في مدينة عمان، فتلقّاهم قومهم وسلّموا عليهم وفرحوا بهم، فلما وصل غريب إلى باب الكوفة أمر بإحضار أخيه عجيب، فأحضروه وأمر بصلبه، فأحضر له سهيم كلاليب من حديد، وجعلها في عراقيبه وعلّقوه على باب الكوفة، ثم أمر برميّه بالنبال، فرموه بها حتى صار كالقنفذ، ثم دخل الكوفة ودخل قصره وجلس على تخت ملكه، فحكم ذلك اليوم حتى فرغ النهار، ثم دخل على حريمه فقامت له كوكب الصباح واعتنقته وكذلك الجواري يهنّئنه بالسلامة، ثم أقام عند كوكب الصباح ذلك اليوم وتلك الليلة. فلما أصبح الصباح قام واغتسل وصلى صلاة الصبح، وجلس على سرير ملكه وشرع في عرس مهديّة، فذبح ثلاثة آلاف رأس من الغنم، وألفين من البقر، وألفًا من المعز، وخمسمائة من الجمال، وأربعة آلاف من الدجاج، ومن الأرز كثيرًا، ومن الخيل خمسمائة، وكان هذا العرس لم يُعمل مثله في الإسلام في ذلك الزمان. ثم دخل غريب على مهديّة وأزال بكارتها، وقعد في الكوفة عشرة أيام، ثم وصّى عمه بالعدل في الرعية، وسار بحريمه

ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)

وأبطاله حتى وصل إلى مراكب الهدايا والتحف، فغرّقها بجميع ما فيها، واستغنت الأبطال بالأموال، ولم يزالوا في سيرهم حتى وصلوا إلى مدينة بابل، فخلع على أخيه سهيم الليل وجعله فيها سلطاناً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكّنت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٦٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك غريبًا لما خلع على أخيه سهيم خلعة وجعله سلطانًا فيها، أقام عنده عشرة أيام ثم رحل، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى حصن سعدان الغول، فاستراحوا خمسة أيام، ثم إن غريبًا قال للكيلجان والقورجان: امضيا إلى إسبانيير المدائن وادخلا قصر كسرى، واكشفا لي خبر فخرتاج، وهاتيا لي رجلًا من أقارب الملك يخبرني بما جرى. فقالا: سمعًا وطاعةً. ثم إنهما سارا الاثنان إلى إسبانيير المدائن، فبينما هما سائران بين السماء والأرض، وإذا هما بعسكر جرار مثل البحر الزاخر، فقال الكيلجان لقورجان: انزل بنا لنكشف خبر هذا العسكر، فنزلا ومشيا بين العساكر، فوجداهم أعجاءًا، فسألًا بعض الرجال: من هذا العسكر؟ وإلى أين سائرون؟ فقالوا لهما: إلى غريب نقتله ونقتل كلَّ من معه. فلما سمعا هذا الكلام توجَّها إلى سراق الملك المقدم عليهم وكان اسمه رستم، وصبرا حتى نام الأعجاء في مراقدهم، ونام رستم على تخته، فحملوه بتخته وتجاوزا الحصن، فما جاء نصف الليل إلا وهم في خيام الملك غريب، فعند ذلك تقدَّما إلى باب السراق وقالوا: دستور. فلما سمع غريب ذلك الكلام جلس وقال: ادخلوا. فدخلوا بذلك التخت ورستم راقد عليه، فقال لهم غريب: من يكون هذا؟ فقالوا: هذا ملك من ملوك العجم، ومعه عسكر عظيم، وقد أتى يريد قتلك أنت وقومك، وقد جئناك به ليخبرك عمَّا تريد. فقال غريب: ائتوني بمائة بطل. فأتوا بهم، فقال: اسحبوا سيوفكم وقفوا على رأس هذا العجمي. ففعلوا ما أمرهم به ونبَّهوه، ففتح عينيه فوجد على رأسه قبة من سيوف، فغمض عينيه وقال: أي شيء هذا المنام القبيح؟ فوكزه الكيلجان بذباب السيف فقعد، فقال له رستم: أين أنا؟ فقال: أنت في حضرة الملك غريب صهر ملك العجم، فما اسمك؟ وإلى أين تذهب؟ فلما سمع اسم غريب تفكَّر وقال في نفسه: هل أنا نائم أم يقظان؟ فضربه سهيم وقال له: لم لا ترد الكلام. فرفع رأسه وقال: من أتى بي من خيمتي

وأنا بين رجالي؟ فقال غريب: جاء بك هذان الماردان. فلما نظر إلى الكيلجان والقورجان تغوَّطَ في لباسه، فهمَّ عليه الماردان وقد كَثُرَا عن أنيابهما وسحبا سيوفهما وقالوا له: أما تتقدَّم تقبِّل الأرض قدام الملك غريب؟ فارتعب من الماردين وتحقَّق أنه غير نائم، فوقف على أقدامه وقبَّل الأرض وقال: باركت النار فيك، وطال عمرك يا ملك. فقال غريب: يا كلب العجم، النار ليست معبوداً؛ لأنها تضر ولا تنفع إلا للطعام. فقال: فَمَنْ هو المعبود؟ فقال غريب: المعبود الذي خَلَقَ وصَوَّرَكَ وخلق السموات والأرض. فقال الأعجمي: فما أقول حتى أصير من حزب ذلك الرب وأدخل في دينكم؟ فقال غريب: تقول لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله. فنطق بالشهادة، فكتب من أهل السعادة وقال: اعلم يا مولاي أن صهرك الملك سابور طلب قتلك، وقد بعثني في مائة ألف، وأمرني ألا أبقي منكم أحداً.

فلما سمع غريب كلامه قال: أهذا جزائي حيث خلَّصْتُ ابنته من الضيق ومن الردى؟ ولكن يجازيه الله بما أضمره، ولكن فما اسمك؟ قال: رستم مقدم سابور. فقال له غريب: وكذلك مقدم عسكري. ثم قال له: يا رستم، كيف حال الملكة فخرتاج؟ فقال له: تعيش رأسك يا ملك الزمان. فقال: ما سبب موتها؟ قال: يا مولاي، لما سرت إلى أخيك، أتت جاريةً للملك سابور صهرك وقالت له: يا سيدي، أأنت أمرت غريباً أن ينام عند سيدتي فخرتاج؟ قال: لا وحقُّ النار. ثم إنه سحب سيفه ودخل عليها وقال لها: يا خبيثة، كيف خلَّيت هذا البدوي ينام عندك، ولا أعطاك مهراً ولا عمل عُرْساً؟ قالت له: يا أبت، أنت أذنت له أن ينام عندي. فقال لها: هل قرب منك؟ فسكتت وأطرقت رأسها إلى الأرض. فصاح على القوابل والجواري وقال لهن: كتفنَّ هذه العاهرة وابصرن فرجها. فكتفنَّها وأبصرن فرجها وقلن: يا ملك، قد ذهبَت بكارتها. فحمل عليها وأراد قتلها، فقامت أمها ومنعت عنها وقالت: يا ملك، لا تقتلها فتبقى معيرة، ولكن احبسها في مخدع حتى تموت. فحبسها حتى هجم الليل، فأرسلها مع اثنين من خواصه وقال لهما: ابعدا بها وألقياها في بحر جيحون ولا تخبرا أحداً. ففعلَا ما أمرهما وقد خفي ذِكْرُها ومضى زمانها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٦٨

قالت: بلغني أيها الملك، أن غريبًا لما سأل عن فخرتاج أخبره رستم بخبرها، وأن أباهَا غرَّقها في البحر، فلما سمع غريب كلامه اسودَّت الدنيا في عينه، وساءت أخلاقه وقال: وحقَّ الخليل لأسيرن إلى هذا الكلب وأهلكه وأخرب دياره. ثم أرسل الكتب للجمرقان ولصاحب ميفارقين ولصاحب الموصل، ثم التفت إلى رستم وقال له: كم معك من العسكر؟ فقال له: معي ألف من فرسان العجم. فقال له: خذ معك عشرة آلاف وسِرْ إلى قومك وشاغلهم بالحرب، وأنا على إثرك. فركب رستم في عشرة آلاف فارس من عسكره، ثم سافر إلى قومه وقال في نفسه: إني أعمل عملًا يبيِّض وجهي عند الملك غريب. فسار رستم سبعة أيام وقد قرب من عسكر العجم، وبقي بينه وبينهم نصف يوم، ففرَّق أربع فرق وقال لهم: دوروا حول العسكر وأوقعوا فيهم السيف. فقالوا: سمعًا وطاعة. فركبوا من العشاء إلى نصف الليل حتى داروا حول العسكر، وكانوا آمنين بعد فَقْدِ رستم من بينهم، فهجم عليهم المسلمون وصاحوا: الله أكبر. فقام الأعجام من النوم، ودار فيهم الحسام، وزلَّتْ منهم الأقدام، وغضب عليهم الملك العلَّام، وعمل فيهم رستم مثل عمل النار في الحطب اليابس، فما فرغ الليل إلا وعسكر العجم ما بين قتيل وهارب ومجروح، وغنم المسلمون الثقل والخيام وخزائن الأموال والخيول والجمال، ثم نزلوا في خيام الأعجام واستراحوا حتى أقبل الملك غريب، ونظر ما فعل رستم وكيف دبَّرَ الحيلة وقتل الأعجام وكسر عسكرهم، فخلع عليه وقال له: يا رستم، أنت الذي كسرتَ العجم فجميع الغنيمة لك. فقبَّلَ يدَ الملك وشكره واستراحوا يومهم، ثم ساروا طالبيين ملك العجم، ووصل المهزومون ودخلوا على الملك سابور، وشكوا له الويل والثبور وعظائم الأمور، فقال لهم سابور: ما الذي دهاكم؟ ومَن بِشَرِّه رماكم؟ فحكوا له ما جرى، وكيف هُجِمَ عليهم في ظلام الليل، فقال سابور: ومَن الذي هجم عليكم؟ فقالوا: ما هجم إلا مقدم عسكرك؛ لأنه أسلم، وأما غريب فلم يأتنا.

فلما سمع الملك بذلك رمى تاجه على الأرض وقال: ما بقي لنا قيمة. ثم التفت إلى ولده وردشاه وقال: يا ولدي، ما لهذا الأمر إلا أنت. فقال وردشاه: وحياتك يا والدي لا بد من أن أجيء بغريب وكبراء قومه في الحبال، وأهلك كل من كان معه. وأخصى عسكره فوجدهم مائتي وعشرين ألفاً، وباتوا على نية الرحيل، وقد أصبح الصباح وأرادوا أن يرحلوا وإذا هم بغبار قد ثار حتى سدّ الأقطار، وقد حجب أعين النظّار، وكان الملك سابور راكباً لوداع ولده، فلما نظر إلى هذا العجاج العظيم صاح على ساعٍ وقال: اكشف لي خبر هذا الغبار. فراح وعاد ثم قال: يا مولاي، قد أتى غريب وأبطاله. فعند ذلك حطوا الأحمال واصطفّ الرجال للحرب والقتال، فلما أقبل غريب على إسبانيّر المدائن ونظر الأعجام وقد عزموا على الحرب والكفاح، ندب قومه وقال: احملوا باركت النار فيكم. فعندها هزوا العلم، وانطبقت العرب والعجم، والأمم على الأمم، وجرى الدم وانسجم، وعالمت النفوس العدم، وتقدّم الشجاع وهجم، وولّى الجبان وانهزم، ولم يزالوا في حرب وقتال، حتى ولّى النهار، فدقوا طبول الانفصال، وافترقوا من بعضهم، وأمر الملك سابور أن ينصبوا الخيام على باب المدينة، وكذلك الملك غريب نصب خيامه قبال خيام الأعجام، ونزل كل واحد في خيامه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٦٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عسكر الملك غريب وعسكر الملك سابور لما انفصلوا من بعضهم ذهب كل واحد إلى خيامه حتى أصبح الصباح، ثم ركبوا الجرد القراح وأقاموا الصباح، وقد حملوا الرماح، ولبسوا عدة الكفاح، وتقدّم كل بطل ججاج، وليث وقاح، فأول من فتح باب الحرب رستم، فقدّم جواده إلى وسط الميدان وصاح: الله أكبر، أنا رستم مقدم أبطال العرب والعجم، هل من مبارز؟ هل من مناجز؟ لا يبرز لي اليوم كسلان ولا عاجز. فبرز له طومان من العجم، وحمل على رستم، ورستم حمل عليه، ووقع بينهما حملات منكرات، فوثب رستم على غريمه وضربه بعمود كان معه وزنه سبعون رطلاً، فخسف رأسه في صدره، فوقع على الأرض قتيلًا، وفي دمه غريقًا، فما هان ذلك على الملك سابور، فأمر قومه بالحملة، فحملوا على المسلمين واستغاثوا بالشمس ذات الأنوار، واستغاث المسلمون بالملك الجبار، وتكاثّر العجم على العرب وسقوهم كأس العطب، فعند ذلك صاح غريب وتقدّم بهمته، وسحب سيفه الماحق سيف يافث، وحمل على الأعجام، وكان الكيلجان والقورجان بركاب الملك غريب، ولم يزل مُكرًا بسيفه حتى وصل إلى رافع العلم، فضربه على رأسه صفحًا، فوقع في الأرض مغشيًا عليه، فأخذه الماردان إلى خيامهم، فلما نظرت الأعجام العلم قد وقع ولّوا هارين، وإلى أبواب المدينة طالبين، فتبعهم المسلمون بالسيوف حتى وصلوا إلى الأبواب وازدحموا فيها، فمات منهم خلق كثير، ولم يقدروا على غلق الأبواب، فهجم رستم والجمرقان وسعدان وسهيم والدامغ والكيلجان والقورجان وجميع أبطال المسلمين وفرسان الموحدين، على الأعجام والمارقين في الأبواب، وجرى الدم من الكفار وفي الأزقة مثل التيار، فعند ذلك نادوا الأمان، فرفعوا السيف عنهم فرموا سلاحهم وعددهم وساقوهم سوق الغنم إلى خيامهم.

وكان غريب قد رجع إلى سرادقه وقلع سلاحه ولبس ثياب العز، بعدما اغتسل من دم الكفار، وقعد على تخت مُلكه وطلب ملك العجم، فجاءوا به وأوقفوه بين يديه، فقال له: يا كلب العجم، ما حملك على ما فعلتَ بابنتك؟ كيف تراني لا أصلح لها بعلاً؟ فقال: يا ملك، لا تؤاخذني بما فعلتُ، فإني ندمتُ وما واجهتك بالقتال إلا خوفاً منك. فلما سمع غريب هذا الكلام أمر أن يسطحوه ويضربوه، ففعلوا ما أمرهم به حتى قطع الأثنين، ثم أدخلوه عند المحبوسين، ثم دعا بالأعجام وعرض عليهم الإسلام، فأسلم منهم مائة وعشرون ألفاً، والباقي راحوا على السيف، وأسلم كلُّ مَنْ في المدينة من الأعجام، وركب غريب في موكب عظيم، ودخل إسبانيير المدائن وجلس على كرسي سابور ملك العجم، وخلع ووهب وفرَّق الغنيمة والذهب وفرَّق على الأعجام، فأحبوه ودعوا له بالنصر والعز والبقاء. ثم إن أم فخرتاج تذكَّرتُ بنتها وأقامت العزاء وامتلاً القصر بالصراخ والصياح، فسمعهم غريب فدخل عليهم وقال: ما خبركم؟ فتقدَّمتُ أم فخرتاج وقالت له: يا سيدي، إنك لما حضرتَ تذكَّرتُ ابنتي وقلت: لو كانت طيبة كانت فرحتُ بقدومك. فبكى غريب عليها وجلس على تخته وقال: ائتوني بسابور. فأتوا به وهو يحجل في القيود فقال له: يا كلب العجم، ما فعلتَ بابنتك؟ قال: أعطيتها لهذا وهذا وقلت لهما: غرقاها في بحر جيحون. فدعا غريب بالرجلين وقال لهما: هل ما ذكره هذا حق؟ قالا: نعم، ولكن يا ملك ما غرقناها، بل شفقنا عليها وتركناها على شاطئ جيحون، وقلنا لها: اطلبي النجاة لنفسك ولا ترجعي إلى المدينة فيقتلك ويقتلنا معك، وهذا ما عندنا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٧٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجلين لما حكيا للملك غريب على قصة فخرتاج وقالوا له: تركناها على شاطئ بحر جيحون. فلما سمع غريب منهم هذا، دعا بالمنجمين فحضروا، فقال لهم: اضربوا لي تخت رمل وانظروا حال فخرتاج، هل هي في قيد الحياة أو ماتت؟ فضربوا تخت رمل وقالوا: يا ملك الزمان، ظهر لنا أن الملكة في قيد الحياة، وقد جاءت بولدٍ ذَكَر، وهما عند طائفة من الجان، ولكن تغيب عنك عشرين سنة، فاحسب كم لك في سفرتك؟ فحسب مدة الغيبة فكانت ثمانين سنين، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وبعث رسلاً إلى القلاع والحصون التي في حكم سابور، فأَتوا طائعين. فبينما هو جالس في قصره إذ نظر غبارًا ثار حتى سدَّ الأقطار وأظلم الآفاق، فصاح على الكيلجان والقورجان وقال: اثنياني بخبر هذا الغبار. فسار الماردان ودخلا تحت الغبار وخطفا فارسًا من الفرسان، وأتيا به إلى غريب وأوقفاه بين يديه وقالوا له: اسأل هذا فإنه من العسكر. فقال له غريب: لمن هذا العسكر؟ فقال: يا ملك، إن هذا الملك وردشاه صاحب شیراز أتى يقاتلك.

وكان السبب في ذلك أن سابور ملك العجم لما وقعت الواقعة بينه وبين غريب، وجرى ما جرى، قد هرب ابن الملك سابور في شردمة من عسكر أبيه، فسار حتى وصل إلى مدينة شیراز، ودخل على الملك وردشاه وقبَّل الأرض ودموعه نازلة على خدوده. فقال له: ارفع رأسك يا غلام وقل لي ما يُبكيك؟ فقال: يا ملك، ظهر لنا ملك من العرب اسمه غريب، أخذ مُلْك أبي، وقتل الأعجام وسقامهم كأس الحمام. وحكى له ما جرى من غريب من أوله إلى آخره. فلما سمع وردشاه كلام ابن سابور قال: هل امرأتي طيبة؟ فقال له: أخذها غريب. فعند ذلك قال: وحياء رأسي ما بقيت أُبقي على وجه الأرض بدويًّا ولا مسلمًا. ثم كتب الكتب وأرسلها إلى نوابه فأقبلوا، فعَدَّهم فوجدهم خمسة وثمانين ألفًا، ثم فتح الخزائن

وفَرَّقَ على الرجال الدروعَ وآلاتِ السلاح، وسار بهم حتى وصلوا إلى إسبانيِر المدائن ونزلوا جميعهم قبال باب المدينة، فتقدَّم الكيلجان والقورجان وقبلاً ركبةً غريب وقالوا: يا مولانا، اجبر قلوبنا واجعل هذا العسكر من قسمنا. فقال لهما: دونكما وإياهم. فعند ذلك طار الماردان حتى نزلا على سرادق وردشاه، فوجداه على كرسي عزّه، وابن سابور جالس على يمينه، والمقدمون حوله صفّان، وهم يتشاورون على قتل المسلمين؛ فتقدَّم الكيلجان وخطف ابن سابور، والقورجان خطف وردشاه وسارا بهما إلى غريب، فأمر بضربهما حتى غابا عن الوجود، ثم عاد الماردان وسحبا سيفين، كل سيف لا يقدر أحد أن يحمله، وخطأ في الكفار وعجّل الله بأرواحهم إلى النار وبئس القرار، فلم تنظر الكفار سوى سيفين يلمعان ويحصدان الرجال حصد الزرع ولا يرون أحداً، ففاتوا خيامهم وساروا على مجرد الخيل، فتبعاهم يومين وقد أفنياً منهم خلقاً كثيراً، ورجع الماردان فقبلاً يد غريب، فشكرهما على ما فعلاً وقال لهما: غنيمة الكفار لكما وحدكما لا يشارككما فيها أحد. فدعوا له وانصرفا ولما أموالهما واطمأنّا في أوطانهما. هذا ما كان من أمر غريب وقومه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٧١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريباً بعدما هزم عسكر وردشاه أمر الكيلجان والقورجان أن يأخذا أموالهم غنيمة، ولم يشاركهما فيها أحد، فجمعوا أموالهما وقعدا في أوطانهما، وأما الكفار فإنهم لم يزالوا في هزيمتهم حتى وصلوا إلى شيراز، وأقاموا العزاء على مَنْ قُتِلَ منهم، وكان للملك وردشاه أخ اسمه سيران الساحر، ليس في زمانه أسحر منه، وكان منعزلاً عن أخيه في حصنٍ من الحصون كثير الأشجار والأنهار والأطيار والأزهار، وكان بينه وبين مدينة شيراز نصف يوم، فسار القوم المنهزمون إلى الحصن ودخلوا على سيران الساحر وهم باكون صارخون، فقال لهم: ما أبكاكم يا قوم؟ فأعلموه بالخبر وكيف خطف الماردان أخاه وردشاه وابن سابور، فلما سمع سيران هذا الكلام صار الضياء في وجهه ظلاماً وقال: وحقّ ديني لأقتلن غريباً ورجاله، ولا أترك منهم دياراً ولا مَنْ يرد الأخبار. ثم إنه تلا كلمات وطلب الملك الأحمر، فحضر فقال له: امضِ إلى إسبانيّر المدائن واهجم على غريب وهو جالس على سريره. فقال له: سمعاً وطاعة.

ثم إنه سار حتى وصل إلى الملك غريب، فلما رآه غريب سحب سيفه الماحق وحمل عليه، وكذلك الكيلجان والقورجان وقصدا عسكر الملك الأحمر، فقتلوا منهم خمسمائة وثلاثين، وجرحوا الملك الأحمر جرحاً بالغاً، فولى هارباً وولى قومه مجروحين، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا حصن الفواكه، ودخلوا على سيران الساحر وهم يدعون بالويل والثبور، فقالوا له: يا حكيم، إن غريباً معه سيف يافت بن نوح المطلسم، فكلُّ مَنْ ضربه به قصمه، ومعه ماردان من جبل قاف قد أعطاه إياهما الملك مرعش، وهو الذي قتل برقان حين دخل جبل قاف، وقتل الملك الأزرق وأفنى من الجن شيئاً كثيراً. فلما سمع الساحر كلام الملك الأحمر قال له: امضِ. فمضى إلى حال سبيله، ثم إن الساحر عزم وأحضر مارداً اسمه زعازع، وأعطاه قدرَ درهم بنج طيار وقال: امضِ إلى إسبانيّر المدائن واقصد

قصر غريب، وتصوّر في صورة عصفور، وارصده حتى ينام ولا يبقى عنده أحد، فخذ البنج وحطّه في أنفه واثنتي به. فقال: سمعًا وطاعة. وسار حتى وصل إلى إسبانيّ المدائن وقصد قصر غريب وهو في صورة عصفور، وقعد في طاقة من طيقان القصر، وصبر حتى دخل الليل وذهب الملوك إلى مراقدهم، ونام غريب على تخته، وصبر المارد حتى نام غريب، فنزل وأخرج البنج المطحون وذره في أنفه فخمدت أنفاسه، فلّفه في ملاءة الفرش وحمله ومرق به مثل الريح العاصف، فما جاء نصف الليل إلا وهو في حصن الفواكه، ودخل به على سيران الساحر، فشكره على فعله وأراد أن يقتله وهو في حالة تبنيجه فنهاه رجل من قومه عن قتله وقال له: يا حكيم، إنك إن قتلته أخرب ديارنا الجان؛ لأن الملك مرعش صاحبه يحمل علينا بكل عفريت عنده. قال له: وما نصنع به؟ فقال: ارمه في جيحون وهو مبنّج، فلا يدري من رماه، ويغرق ولا يعلم به أحد. فأمر المارد أن يحمل غريبًا ويرميه في جيحون. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٧٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المارد حمل غريبًا وأتى به إلى جيحون، فأراد أن يرميه في جيحون فلم يهن عليه، فعمل رومس خشب وربطه بالحبال، ودفع الرومس بغريب في التيار، فأخذه التيار وراح. هذا ما كان من أمر غريب، وأما قومه فإنهم أصبحوا يقصدون خدمته فلم يجدوه، ووجدوا سبحته على تخته، وانتظروه أن يخرج فما خرج، فطلبوا الحاجب وقالوا له: ادخل إلى الحريم وانظر الملك، فإنه ما له عادة أن يغيب إلى هذا الوقت. فدخل الحاجب وسأل مَنْ في الحريم فقالوا له: من البارحة ما رأيناه. فرجع إليهم الحاجب وأخبرهم بذلك، فتحيروا وقال بعضهم لبعض: ننظر أن يكون راح ليتنزه نحو البساتين. ثم إنهم سألوا البساتينية: هل الملك مرَّ عليكم؟ فقالوا: ما رأيناه. فاغتموا وفتشوا جميع البساتين ورجعوا آخر النهار باكين، وطاف الكيلجان والقورجان يفتشان عليه في المدينة، فلم يعرفوا له خبرًا وعادوا بعد ثلاثة أيام، فلبس القوم السواد، وشكوا لرب العباد، الذي يفعل ما أراد.

فهذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر غريب، فإنه صار مُلقًى على الرومس وهو يجري به في التيار خمسة أيام، ثم قذفه التيار في البحر المالح، فلعبت به الأمواج واختصَّ باطنه فخرج منه البنج، ففتح عينيه فوجد نفسه في وسط البحر والأمواج تلعب به، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، يا تُرى مَنْ فعل بي هذا الفعل؟ فبينما هو متحيرٌ في أمره، وإذا بمركب سائرة، فلوح للركاب بكمه فأتوه وأخذوه، ثم قالوا له: مَنْ تكون؟ ومن أي البلاد أنت؟ فقال لهم: أطعموني واسقوني حتى تُردَّ لي روحي وأقول لكم مَنْ أنا. فأتوه بالماء والزاد، فأكل وشرب وردَّ الله عليه عقله، فقال: يا قوم، ما جنسكم؟ وما دينكم؟ فقالوا: نحن من الكرج، ونعبد صنمًا اسمه منقاش. فقال لهم: تبًّا لكم ولعبودكم يا كلاب، ما يُعبد إلا الله الذي خلق كلَّ شيء ويقول للشيء كن فيكون.

فَعِنْدَهَا قَامُوا عَلَيْهِ بِقُوَّةٍ وَجُنُونٍ، وَأَرَادُوا الْقَبْضَ عَلَيْهِ وَهُوَ بِلَا سِلَاحٍ، فَصَارَ كُلُّ مَنْ لَكُمْه رِمَاهُ وَأَعْدَمَهُ الْحَيَاةَ، فَبَطَحَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا، فَتَكَاثَرُوا عَلَيْهِ وَشَدُّوا وَثَاقَهُ وَقَالُوا: مَا نَقْتُلُهُ إِلَّا فِي أَرْضِنَا حَتَّى نَعْرِضَهُ عَلَى الْمَلِكِ. ثُمَّ سَارُوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مَدِينَةِ الْكَرَجِ. وَأَدْرَكَ شَهْرُ زَادِ الصَّبَاحِ فَسَكَتَتْ عَنِ الْكَلَامِ الْمُبَاحِ.

فلما كانت الليلة ٦٧٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أهل المركب لما قبضوا على غريب وكنّفوه قالوا: ما نقلته إلا في أرضنا. ثم ساروا إلى مدينة الكرج، وكان الذي بناها عملاً جباراً، وقد جعل على كل باب من أبوابها شخصاً من نحاس بالحكمة، فإذا دخل المدينة أحد غريب يصيح ذلك الشخص بالبوق، فيسمعه كل من في المدينة، فيمسكونه ويقتلونه إن لم يدخل في دينهم، فلما دخل غريب صاح ذلك الشخص صيحة عظيمة، وصرخ حتى أفزع قلب الملك، فقام ودخل على صنمه فوجد النار والدخان يخرجان من فيه وأنفه وعينيه، وكان الشيطان دخل في الصنم ونطق على لسانه وقال: يا ملك، قد وقع لك واحد اسم غريب، وهو ملك العراق، وهو يأمر الناس أن يتركوا دينهم ويعبدوا ربّه، فإذا دخلوا عليك به فلا تُثِقْه. فخرج الملك وجلس على تخته، وإذا بهم قد دخلوا بغريب، ثم أوقفوه بين يدي الملك وقالوا: يا ملك، قد وجدنا هذا الغلام كافراً بالهتنا، ووجدناه غريباً. وحكوا له حكايات غريب، فقال: اذهبوا به إلى بيت الصنم الكبير وانحروه أمامه، لعله يرضى عنا. فقال الوزير: يا ملك، نحره ما هو مليح، فإنه يموت في ساعة. فقال: نحبسه ونجمع الحطب ونطلق فيه النار. فجمعوا الحطب وأطلقوا فيه النار إلى الصباح، وخرج الملك وخرج أهل المدينة وأمروا بإحضار غريب، فذهبوا إليه ليحضروه فلم يجدوه، فعادوا وأعلموا الملك بهروبه، فقال: وكيف هرب؟ قالوا: وجدنا السلاسل والقيود مرمية والأبواب مغلقة. فتعجب الملك وقال: هل هذا في السماء طار، أو في الأرض غار؟ فقالوا: لا نعلم. ثم قال: أنا أمضي إلى إلهي وأسأله عنه، فإنه يخبرني أين مضى. ثم إنه قام وقصد الصنم ليسجد له فلم يجده، فصار يمعك عينيه ويقول: هل أنت نائم أم يقظان؟ والتفت إلى وزيره وقال: يا وزير، أين إلهي وأين الأسير؟ وحقّ ديني يا كلب الوزراء لولا أنك أشرت عليّ بحرقه لكنّت نحرت، فهو الذي سرق إلهي وهرب، ولا بد أن آخذ ثأره. ثم سحب سيفه وضرب الوزير فقطع رقبتة.

وكان لرواح غريب والصنم سبب عجيب، وذلك أنه لما حبس غريباً في المخدع، قعد بجانب القبة التي فيها الصنم، فقام غريب لذكر الله تعالى وطلب من الله عز وجل، فسمعه المارد الموكّل بالصنم الناطق على لسانه، فخشع قلبه وقال: يا خجلتاه من الذي يراني ولا أراه! ثم إنه تقدّم إلى غريب وانكبّ على قدميه وقال: يا سيدي، ما الذي أقول حتى أصير من حزبك وأدخل في ملتك؟ قال: تقول لا إله إلا الله، إبراهيم خليل الله. فنطق المارد بالشهادة فكُتِبَ من أهل السعادة، وكان اسم المارد زلزال بن المزلزل، وأبوه من كبار ملوك الجان، ثم إنه حلّ غريباً من القيود وحمله الصنم وقصد الجو الأعلى. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٧٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المارد لما حمل غريبًا وحمل الصنم، قصد الجو الأعلى. هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر الملك، فإنه لما دخل يسأل الصنم عن غريب لم يجده، وجرى ما جرى من أمر الوزير وقتله، فلما رأى جند الملك ما جرى، أنكروا عبادة الصنم وسحبوا سيوفهم وقتلوا الملك وحملوا على بعضهم، ودار السيف بينهم ثلاثة أيام حتى أفنوا بعضهم، ولم يَبْقَ سوى رجلين، فتقوّى أحدهما على الآخر فقتله، ووثب الصبيان على ذلك الرجل فقتلوه، ودقوا في بعضهم حتى هلكوا عن آخرهم، وهجمت النساء والبنات وقصدوا القرى والحصون، وصارت المدينة خالية لا يسكنها إلا البوم.

هذا ما جرى لهم، وأما ما كان من أمر غريب، فإنه لما حمله زلزال بن المزلزل وقصد به بلاده، وهي جزائر الكافور وقصر البلور والعجل المسحور، وكان الملك المزلزل عنده عجل أبلق قد ألبسه الحلي والحلل المنسوجة بالذهب الأحمر واتخذة إلهًا، فدخل المزلزل يومًا هو وقومه على عجله فوجده منزعًا، فقال له: يا إلهي، ما الذي أزعجك؟ فصاح الشيطان في جوف العجل وقال: يا مزلزل، إن ابنك صبا إلى دين الخليل إبراهيم، على يد غريب صاحب العراق. ثم حدّثه بما جرى من أوله إلى آخره، فلما سمع كلام العجل خرج متحيرًا، وجلس على كرسي مملكته وطلب أرباب دولته فحضرُوا، فحكى لهم ما سمعه من الصنم، فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما نفعل يا ملك؟ قال: إذا حضر ولدي ورأيتُموني أعتنقه فاقبضوه عليه. فقالوا: سمعًا وطاعة. ثم بعد يومين دخل زلزال على أبيه ومعه غريب وصنم ملك الكرج، فلما دخل من باب القصر هجموا عليه وعلى غريب، وقبضوا عليهما وأوقفوهما قدام الملك المزلزل، فنظر لابنه بعين الغضب وقال له: يا كلب الجان، هل فارقت دينك ودين آبائك وأجدادك؟ قال له: دخلت في دين الحق، وأنت يا ويلك، فأسلم تسلم من غضب الملك الجبّار، خالق الليل والنهار. فغضب الملك على ولده وقال له: يا ولد

الزنا، أتواجهني بهذا الكلام؟ ثم إنه أمر بحبسه فحبسوه، ثم التفت إلى غريب وقال له: يا قطاعة الإنس، كيف لعبت بعقل ولدي وأخرجته من دينه؟ فقال غريب: أخرجته من الضلال إلى الهدى، ومن النار إلى الجنة، ومن الكفر إلى الإيمان. فصاح الملك على مارد اسمه سيّار وقال له: خذ هذا الكلب وضعه في وادي النار حتى يهلك. وذلك الوادي من فرط حرّه والتهاب جمره، كلُّ مَنْ نزل فيه هلك ولا يعيش ساعة، ومحيط بذلك الوادي جبل عالٍ أملس ليس فيه منفذ، فتقدّم الملعون سيّار وحمل غريباً وطار به وقصد الربع الخراب من الدنيا حتى صار بينه وبين الوادي ساعة واحدة، وقد تعب العفريت بغريب فنزّله في وادي ذي أشجار وأنهار وأثمار، فلما نزل المارد وهو تعبّان، نزل غريب من على ظهره وهو مكبّل، وحين نام المارد من التعب وشخر، عالج غريب في قيده حتى حلّه، وأخذ حجراً ثقيلاً وألقاه فوق رأسه، فهشّم عظامه فهلك لوقته، ومضى غريب في ذلك الوادي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٧٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما قتل المارد مضى في ذلك الوادي فوجده في جزيرة في وسط البحر، وتلك الجزيرة واسعة وفيها جميع الفواكه مما تشتهيهِ الشفة واللسان، فصار غريب يأكل من أثمارها ويشرب من أنهارها، ومضت عليه فيها السنون والأعوام، وصار يأخذ من السمك ويأكل، ولم يزل على هذه الحالة منفردًا وحده سبع سنين، فبينما هو ذات يوم جالس إذ نزل عليه من الجو ماردان، مع كل مارد رجل، وقد نظروا إلى غريب فقالوا له: ما تكون يا هذا؟ ومن أي القبائل أنت؟ وكان غريب قد طال شعره فحسبوه من الجن، فسألوه عن حاله فقال لهم: ما أنا من الجن. ثم أخبرهم بما جرى له من أوله إلى آخره. فحزنوا عليه، فقال عفريت منهما: استمر مكانك حتى نؤدي هذين الخروفين إلى ملكنا يتغدى بواحد ويتعشى بواحد، ونعود إليك ونؤديك إلى بلادك. فشكرهما غريب وقال لهما: أين الخروفان اللذان معكما؟ فقال: هذان الآدميان. فقال غريب: استجرتُ بإله إبراهيم الخليل، ربِّ كل شيء وهو على كل شيء قدير.

ثم إنهما طارًا وقعد غريب ينتظر المارد، فبعد يومين أتاه ذلك المارد بكسوة فستره وحمله وطار به إلى الجو الأعلى حتى غاب عن الدنيا، فسمع غريب تسبيح الملائك في الهواء، فأصاب المارد منهم سهماً من نار، فهرب وقصد الأرض حتى بقي بينه وبين الأرض رمية رمح وقد قرب السهم منه وأدركه، فنهض غريب ونزل عن كاهله ولحقه السهم فصار رمادًا، ولم يكن نزول غريب إلا في البحر، فغطس مقدار قامتين وطلع، فعام ذلك اليوم وليلته وثنائي يوم حتى ضعفت نفسه وأيقن بالموت، فما جاء اليوم الثالث إلا وقد يئس من الحياة، فبان له جبل شامخ فقصده وطلعه ومشى فيه، وتقفوت من نبات الأرض واستراح يومًا وليلة، ثم طلع من أعلى الجبل ونزل من خلفه وسار يومين، فوصل إلى مدينة ذات أشجار وأنهار وأسوار وأبراج، فلما وصل إلى أبواب المدينة قام إليه البوابون وقبضوا عليه

وأثوا به إلى ملكتهم، وكان اسمها جانشاه، وكان لها من العمر خمسمائة سنة، وكل من دخل مدينتها يعرضونه عليها، فتأخذه وتراقده فلما يفرغ عمله تقتله، وقد قتلت ناسًا كثيرًا، فلما أثوا بغريب إليها أعجبها، فقالت له: ما اسمك؟ وما دينك؟ ومن أي البلاد أنت؟ فقال: اسمي غريب ملك العراق وديني الإسلام. فقالت له: اخرج من دينك في ديني وأنا أتزوج بك وأجعلك ملكًا. فنظر غريب إليها بعين الغضب وقال لها: تبًا لك ولدينك. صاحت عليه وقالت له: أتسب صنمي وهو من العقيق الأحمر، مرصع بالدر والجواهر؟ ثم إنها قالت: يا رجال، احبسوه في قبة الصنم لعله يلين قلبه. فحبسوه في قبة الصنم وقفلوا عليه الأبواب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٧٦

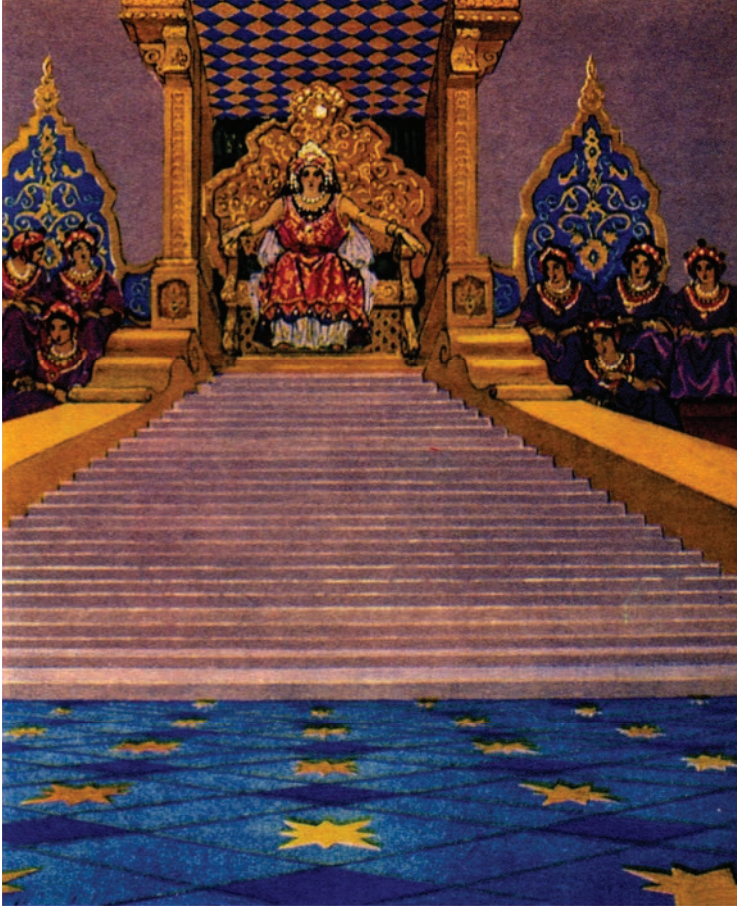
قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنهم لما أخذوا غريبًا وحبسوه في قبة الصنم، وأغلقوا عليه الأبواب ومضوا إلى حال سبيلهم، نظر غريب إلى الصنم وهو من العقيق الأحمر، وفي عنقه قلائد الدر والجوهر، فتقدّم غريب إلى الصنم وحمله وضرب به الأرض فصار هشيمًا؛ ونام حتى طلع النهار. فلما أصبح الصباح جلست الملكة على سريرها وقالت: يا رجال، ائتوني بالأسير. فساروا إلى غريب وفتحوا القبة ودخلوا فوجدوا الصنم مكسورًا، فلطموا على وجوههم حتى نزل الدم من آماق عيونهم، ثم تقدّموا إلى غريب ليمسكوه، فلكّم منهم واحدًا فمات، وآخر فقتله حتى قتل خمسة وعشرين وهرب الباقي، فدخلوا على الملكة جانّشاه وهم صارخون، فقالت لهم: ما الخبر؟ قالوا لها: إن الأسير كسر صنمك وقتل رجالك. وأخبروها بما كان، فرمت تاجها على الأرض وقالت: ما بقي للأصنام قيمة. ثم إنها ركبت في ألف بطل وقصدت بيت الصنم، فوجدت غريبًا قد خرج من القبة وقد أخذ سيفًا وصار يقتل الأبطال ويجندل الرجال، فنظرت جانّشاه إلى غريب وشجاعته وغرقت في محبته وقالت: ليس لي حاجة بالصنم، وما مرادي إلا هذا الغريب يرقد في حضني بقيمة عمري.

ثم إنها قالت لرجالها: ابعدوا عنه وانعزلوا. ثم إنها تقدمت وهممت، فوقف ذراع غريب وارتخت سواعده وسقط السيف من يده، فمسكوه وكثّفوه ذليلاً حقيرًا متحيرًا، ثم رجعت جانّشاه وجلست على سرير مُلكها، وأمرت قومها بالانصراف، واختلت به في المكان فقالت له: يا كلب العرب، أتكسر صنمي وتقتل رجالي؟ فقال لها: يا ملعونة، لو كان إلهاً لمنع عن نفسه؟ فقالت له: ضاجعني وأنا أترك لك ما صنعت؟ فقال لها: ما أفعل شيئاً من ذلك. فقالت: وحق ديني لأعذّبكَ عذاباً شديداً. ثم إنها أخذت ماءً وعزمت عليه ورشّته عليه فصار قرّداً، وصارت تُطعمه وتسقيه، ثم حبسته في مخدع ووكلت به

مَنْ يقوم به سنتين، ثم دعتَه يومًا من الأيام فأحضرتَه إليها وقالت: أسمع مني؟ فقال لها برأسه: نعم. ففرحت وخلصته من السحر وقَدَّمَتْ له الأكل، فأكل معها ولعبها وقَبَّلَهَا فاطمأنت له، وأقبل الليل فرقدت وقالت له: قم اعمل شغلك. فقال لها: نعم. ثم ركب على صدرها وقبض على رقبتها فكسرهما، ولم يَقم عنها حتى خرجت روحها، ثم نظر إلى خزانة مفتوحة فدخلها، فوجد فيها سيفًا مجوهرًا ودرقة من الحديد الصيني، فلبس كامل العدة وصبر إلى الصباح، ثم خرج ووقف على باب القصر، فأقبل الأمراء وأرادوا أن يدخلوا إلى الخدمة، فوجدوا غريبًا وهو لابس آلة الحرب، فقال لهم: يا قوم، اتركوا عبادة الأصنام واعبدوا الملك العَلَمَ، خالق الليل والنهار، رب الأنام ومحبي العظام، وخالق كل شيء وهو على كل شيء قدير. فلما سمع الكفار ذلك الكلام هجموا عليه، فحمل عليهم كأنه أسد كاسرٍ، فجال فيهم وقتل خلقًا كثيرًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٧٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما حمل على الكفار قتل منهم خلقًا كثيرًا، وهجم الليل وهم يتكاثرون عليه وكلهم سعوا له وأرادوا أن يأخذوه، وإذا هو بألف مارد قد هجموا على الكفار بألف سيف ورئيسهم زلزال بن المنزل، وهو في أولهم، فأعملوا فيهم السيف البتار، وأسقوهم كأس البوار، وعَجَّلَ الله تعالى بأرواحهم إلى النار، ولم يبقوا من قوم جانشاه مَن يرد الأخبار، فصاح الأعوان: الأمان الأمان. وآمنوا بالملك الديان، الذي لا يشغله شأن عن شأن، مبيد الأكاسرة ومفني الجبابرة، ورب الدنيا والآخرة. ثم سَلَّمَ زلزال على غريب وهنَّاهُ بالسلامة، فقال له غريب: مَن أعلمك بحالي؟ فقال: يا مولاي، لما حبسني أبي وأرسلك إلى وادي النار، أقمتُ في الحبس سنتين ثم أطلقني، فأقمت بعد ذلك ثم عدت إلى ما كنت عليه، فقتلتُ أبي وأطاعني الجنود، ولي سنة وأنا أحكم عليهم، فنمت وأنت في خاطري فرأيتك في المنام وأنت تقاتل قوم جانشاه، فأخذت هؤلاء الألف مارد وأتيت إليك. فتعجب غريب من هذا الاتفاق، ثم أخذ أموال جانشاه وأموال قومه ونُصِبَ على المدينة حاكمًا، وحملت المردة الأموال وغريبًا وما باتوا ليلتهم إلا في مدينة زلزال، واستُضِيف غريب عند زلزال ستة أشهر، ثم أراد الرواح، فأحضر زلزال الهدايا وبعث ثلاثة آلاف مارد، فجاءوا بالمال من مدينة الكرج ووضعوه على أموال جانشاه، ثم أمرهم أن يحملوا الهدايا والأموال، وحمل زلزال غريبًا وقصدوا مدينة إسبانيير المدائن، فما جاء نصف الليل إلا وهم فيها، فنظر غريب فرأى المدينة محصورةً محيطًا بها عسكر جرار مثل البحر الزاخر، فقال غريب لزلزال: يا أخي، ما سبب هذه المحاصرة؟ ومن أين هذا العسكر؟ ثم نزل غريب على سطح القصر ونادى: يا كوكب الصباح، يا مهدية. فقامتا من نومهما مدهوشتين وقالتا: مَن ينادينا في هذا الوقت؟ قال: أنا مولاكما غريب صاحب الفعل العجيب. فلما سمع السيدتان كلام مولاهما فرحتا، وكذلك الجواري والخدم، ونزل



ثم رجعت «جانشاه» وجلست على سرير مُلكها، وأمّرت قَوْمَهَا بالانصراف.

غريب فترامَيْنَ عليه وزلغطن، فدوى لهن القصر، فأتى المقدمون من مراقدهم وقالوا: ما الخبر؟ وطلعوا القصر وقالوا للطواشية: هل ولدت واحدة من الجواري؟ قالوا: لا، ولكن أبشروا فقد وصل إليكم الملك غريب. ففرح الأمراء وسلّم غريب على الحريم وخرج إلى أصحابه، فتراموا عليه وقبّلوا يديه ورجليه، وحمدوا الله تعالى وأثنوا عليه، وقعد غريب على سريرته ونادى أصحابه، فحضروا وجلسوا حوله، فسألهم عن العسكر النازلين عليهم،

فقالوا: يا ملك، إن لهم ثلاثة أيام من حين نزلوا علينا ومعهم جن وإنس، وما ندري ما يريدون، وما وقع بيننا وبينهم قتال ولا كلام. فقال غريب: غداً نبعث إليهم كتاباً وننظر ما يريدون. ثم قالوا: وملكهم اسمه مرادشاه، وتحت يده مائة ألف فارس، وثلاثة آلاف راجل، ومائتان من أرهاط الجان. وكان لمجيء هذا العسكر سبب عظيم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٧٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان لمجيء هذا العسكر ونزوله على مدينة إسبانيير سبب عظيم، وذلك أنه لما بعث الملك سابور ابنته مع اثنين من قومه وقال لهم: غرّقاها في جيحون. فخرجا بها وقالا لها: امضي إلى حال سبيلك ولا تظهرى لأبيك فيقتلنا ويقتلك. فهجّت فخرتاج وهي حيرانة لا تعرف أين تتوجه وقالت: أين عينك يا غريب تنظر حالي والذي أنا فيه؟ ولم تزل سائرة من أرض إلى أرض، ومن وادٍ إلى وادٍ، حتى مرت بوادٍ كثير الأشجار والأنهار، وفي وسطه حصن مبني، عالي البنيان، مشيد الأركان كأنه روضة من الجنان، فتتحت فخرتاج إلى الحصن ودخلته فوجدته مفروشاً بالبسط الحريري، وفيه من أواني الذهب والفضة شيء كثير، ووجدت فيه مائة جارية من الجواري الحسان، فلما نظرت الجواري فخرتاج، قُمنَ إليها وسلّمنَ عليها وهن يحسبن أنها من جواري الجن، فسألنها عن حالها فقالت لهن: أنا بنت ملك العجم. وحكت لهن ما جرى لها، فلما سمعت الجواري هذا الكلام حزنَّ عليها، ثم إنهن طيبنَ قلبها وقلن لها: طيبي نفساً، وقرى عيناً، ولك ما تأكلين وما تشربين وما تلبسين، وكلنا في خدمتك. فدعت لهن، ثم إنهن قدّمنَ إليها الطعام فأكلت حتى اكتفت، وقالت فخرتاج للجواري: ومَن صاحب هذا القصر والحاكم عليكم؟ قالوا: سيدنا الملك صلصال بن دال، وهو يأتي في كل شهرٍ ليلةً، ويصبح متوجّهاً ليحكم في قبائل الجان.

فأقامت عندهن فخرتاج خمسة أيام، فوضعت ولدًا ذكرًا مثل القمر، فقطعن سرتة، وكحلن مقلته، وسمّيته مرادشاه، فتربّى في حجر أمه، وعن قليل أقبل الملك صلصال وهو راكب على فيل أبيض قرطاسي قدر البرج المشيد، وحوله طوائف الجان، ثم دخل القصر وتلقته المائة جارية وقبّلن الأرض ومعهن فخرتاج، فنظر الملك فقال لجواريه: مَن تكون هذه الجارية؟ فقالوا له: بنت سابور ملك العجم والترك والديلم. فقال: مَن أتى بها إلى

هذا المكان؟ فحكى له ما جرى لها، فحزن عليها وقال: لا تحزني واصبري حتى تربى ولدك ويكبر، ثم إنني أسير إلى بلاد العجم وأقطع رأس أبيك من بين أكتافه، وأجلس لك ولدك على تخت العجم والترك والديلم. فقامت فخرتاج وقبّلت يديه ودعت له، وقعدت تربى ولدها مع أولاد الملك، وصاروا يركبون الخيل ويسرون إلى الصيد والقنص، فتعلّم صيد الوحش وصيد السباع الضارية وظل يأكل من لحومها حتى صار قلبه من الحجر، فلما صار له من العمر خمسة عشر عامًا، كبرت عنده نفسه، فقال لأمه: يا أماه، ومن هو أبي؟ فقالت: يا ولدي، أبوك غريب ملك العراق، وأنا بنت ملك العجم. ثم إنها حكّت له ما جرى، فلما سمع كلامها قال: وهل أمر جدي بقتلك وقتل أبي؟ قالت: نعم. فقال لها: وحق ما لك عليّ من التربية لأسيرنّ إلى مدينة أبيك، وأقطع رأسه وأقدّمها إلى حضرتك. ففرحت بقوله. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٧٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن مرادشاه ابن فخرتاج، صار يركب مع المائتيّ مارد حتى إنه تربّى معهم، وصاروا يشنون الغارات ويقطعون الطرقات، ولم يزالوا في سيرهم حتى أشرفوا على بلاد شيراز، فهجموا عليها، وهجم مرادشاه على قصر الملك، فرمى رأسه وهو على تخته، وقتل من جنده خلقًا كثيرًا، وصاح الباقي باللسان: الأمان الأمان. ثم إنهم قَبَلُوا ركبة مرادشاه، فعدّهم فوجدهم عشرة آلاف فارس، فركبوا في خدمته ثم ساروا إلى بلخ، فقتلوا ملكها وأهلكوا جندها، وتملّكوا أهلها وساروا إلى نورين، وقد سار مرادشاه في ثلاثين ألف فارس، وقد خرج إليهم صاحب نورين طائعًا، وقدّم إليهم الأموال والتحف، وركب في ثلاثين ألف فارس وساروا قاصدين مدينة سمرقند العجم، فأخذوها وساروا إلى أخلاط فأخذوها، ثم ساروا ولم يصلوا إلى مدينة إلا أخذوها، وقد صار مرادشاه في جيش عظيم، والذي يأخذه من الأموال والتحف من المدائن يفرّقه على الرجال، فحبوه لأجل شجاعته وكرمه. وقد وصل إلى إسبانيّر المدائن فقال: اصبروا حتى أحضر باقي عسكري وأقبض على جدي، وأحضره قدام أُمّي وأشفي قلبها بضرب عنقه. ثم إنه أرسل من يجيء بها، فلأجل هذا لم يحصل القتال ثلاثة أيام، وقد وصل غريب ومعه زلزال في أربعين ألف مارد، حاملين الأموال والهدايا، وسأل عن العسكر النازلين فقالوا: لا نعلم من أين هم، ولهم ثلاثة أيام لم يقاتلونا ولم نقاتلهم. ووصلت فخرتاج فاعتنقها ولدها مرادشاه وقال لها: اقعدي في خيمتك حتى أجيء لك بأبيك. فدعت له بالنصر من رب العالمين، رب السموات ورب الأرضين.

فلما أصبح الصباح ركب مرادشاه، والمائتا مارد على يمينه، وملوك الإنس على شماله، ودقوا طبول الحرب، فسمع غريب فركب وخرج ودعا قومه للحرب، ووقفت الجن على يمينه، والإنس على يساره، فبرز مرادشاه وهو غارق في عدة الحرب، فساق جواده يمينًا

وشمالاً ثم نادى: يا قوم، لا يبرز لي إلا ملككم، فإن قهرني كان هو صاحب العسكرين، وإن قهرته قتلته مثل غيره. فلما سمع غريب كلام مرادشاه قال: اخسأ يا كلب العرب. ثم حملاً على بعضهما، وتطاعنا بالرماح حتى تكسرت، وتضارياً بالسيوف حتى تثلمت، ولم يزالا في كر وفر وقرب وبُعد حتى انتصف النهار، وقد وقعت الخيل من تحتها، فنزلا على الأرض وقد قبضا بعضهما، فعند ذلك هجم مرادشاه على غريب وخطفه وعلقه، وأراد أن يضرب به الأرض، فقبض غريب على أذنيه وجذبهما بشدة، فحس مرادشاه أن السماء انطبقت على الأرض، فصاح بملء فمه وقال: أنا في جيرتك يا فارس الزمان. فكثفه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٨٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن غريبًا لما قبض على أذني مرادشاه وجذبهما فقال له: أنا في جيرتك يا فارس الزمان. فكَتَفَهُ، فأراد المَرَدَةُ أصحاب مرادشاه أن يهجموا ويخلصوه، فحمل غريب بألف مارد وأرادوا أن يبطشوا بمرَدَة مرادشاه، فصاحوا: الأمان الأمان. ورموا سلاحهم، فجلس غريب في سرادقه، وكان من الحرير الأخضر، مطرَّرًا بالذهب الأحمر، مكلَّلًا بالدر والجوهر، ثم دعا بمرادشاه فأحضروه بين يديه وهو يحجل في القيود والأغلال، فلما نظر مرادشاه إلى غريب أطرق برأسه إلى الأرض من الحياء، فقال له غريب: يا كلب العرب، أي شيء وصفك حتى تركب وتضاهي الملوك؟ فقال: يا مولاي، لا تؤاخذني فإنني معذور. قال له غريب: ما وجه عذرك؟ قال مرادشاه: يا مولاي، اعلم أنني قد خرجتُ أخذ ثأر أبي وأمي من سابور ملك العجم، فإنه أراد قتلهما، فسلمت أُمِّي وما أدري هل قُتِلَ أبي أم لا؟ فلما سمع غريب كلامه قال: والله إنك معذور، فمن هو أبوك؟ ومن هي أمك؟ وما اسم أبيك؟ وما اسم أمك؟ فقال: اسم أبي غريب ملك العراق، واسم أُمِّي فخرتاج بنت سابور ملك العجم. فلما سمع غريب كلامه صرخ صرخة عظيمة ووقع مغشيًا عليه، فرشوا عليه ماء الورد، فلما أفاق قال له: هل أنت ابن غريب من فخرتاج؟ قال: نعم. قال غريب: أنت فارس ابن فارس، حلوا القيود عن ولدي. فتقدَّم سَهِيم والكيلجان وحلَّا مرادشاه، واحتضن ولده وأجلسه في جانبه وقال له: أين أمك؟ قال: هي عندي في خيمتي. قال: ائتني بها. فركب مرادشاه إلى خيامه، فتلقَّاه أصحابه وفرحوا بسلامته، وسألوه عن حاله فقال: ما هذا وقت سؤال. ثم إنه دخل على أمه وحدَّثَهَا بما جرى، ففرحت فرحًا شديدًا وأتى بها إلى أبيه، فتعانقا وفرحا ببعضهما، وأسلمت فخرتاج وأسلم مرادشاه، وعرضا على عسكرهما الإسلام فأسلموا جميعًا قلبًا ولسانًا، وفرح غريب بإسلامهم، ثم

ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)

أحضر الملك سابور ووبَّخه على فعالة هو وولده، وعرض عليهما الإسلام فأبَيَّا، فصلبهما على باب المدينة.



وأتى بـ «فخرتاج» إلى أبيه «غريب»، فتعانقا وفرحا ببعضهما.

وزيَّنوا المدينة وفرح أهل المدينة وزينوها، وألبسوا مرادشاه التاج الكسروي، وجعلوه ملك العجم والترك والديلم، وبعث الملك غريب عمه الملك الدامغ ملكًا على العراق، وقد

أطاعته كل البلاد والعباد، وقعد غريب في مملكته يعدل في الرعية، وقد أحبه الخلق أجمعون. ولم يزالوا في أرغد عيش إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات، فسبحان من يدوم عزه وبقاؤه، وعلى خلقه جلت آلاؤه. وهذا ما بلغنا من حكاية غريب وعجيب.

حكاية عتبة ورثاً

وحكي أيضاً أن عبد الله بن معمر القيسي قال: حججت سنةً إلى بيت الله الحرام، فلما قضيت حجي عدتُ إلى زيارة قبر النبي ﷺ، فبينما أنا ذات ليلة جالس في الروضة بين القبر والمنبر، إذ سمعتُ أنيناً رقيقاً بصوت رقيم، فأنصتُ إليه وإذا هو يقول:

أَشْجَاكَ نَوْحُ حَمَائِمِ السِّدْرِ	فَأَهَاجَ مِنْكَ بَلَابِلَ الصِّدْرِ
أَمْ سَاءَ حَالُكَ ذِكْرُ غَانِيَةٍ	أَهْدَتْ إِلَيْكَ وَسَاوِسَ الْفِكْرِ
يَا لَيْلَةً طَالَتْ عَلَى دَنَفِ	يَشْكُو الْغَرَامَ وَقَلَّةَ الصَّبْرِ
أَسْهَرْتَ مَنْ يُصَلِّي بِحَرِّ جَوَى	مُتَوَقِّدٌ كَتَوَقُّدِ الْجَمْرِ
فَالْبَدْرُ يَشْهَدُ أَنَّي كَلِفُ	صَبٌّ بِحُبِّ شَبِيهِةِ الْبَدْرِ
مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّي كَلِفُ	حَتَّى بُلِيْتُ وَكُنْتُ لَا أُدْرِي

ثم انقطع صوته ولم أدر من أين جاءني، فبقيت حائرًا، وإذا به أعاد الأنين وأنشد يقول:

أَشْجَاكَ مِنْ رِيَا خَيَالٍ زَائِرُ	وَاللَّيْلُ مُسَوِّدُ الذَّوَائِبِ عَاكِرُ
وَأَعْتَادَ مَقْلَتِكَ الْهُوَى بِسَهَائِدِهِ	وَاهْتَاكَ مُهْجَتِكَ الْخَيَالُ الزَّائِرُ
نَادَيْتُ لَيْلِي وَالظَّلَامُ كَأَنَّهُ	بَحْرٌ تَلَاظِمَ فِيهِ مَوْجُ زَاخِرُ
يَا لَيْلُ طُلْتُ عَلَى مُحِبٍّ مَا لَهُ	إِلَّا الصَّبَاحُ مُسَاعِدٌ وَمُؤَاوِزُ
فَأَجَابَنِي لَا تَشْكُونَنَّ إِطَالَتِي	إِنَّ الْهُوَى لَهُوَ الْهُوَانُ الْخَاضِرُ

قال: فنهضت إليه عند ابتداء الأبيات أقصد جهة الصوت، فما انتهى إلى آخر الأبيات إلا وأنا عنده، فرأيتُ غلامًا في غاية الجمال لم ينبت عذاره، وقد خرق الدمع من وجنتيه خرقين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٨١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الله بن معمر القيسي قال: فنهضتُ عند ابتداء الأبيات أقصد جهة الصوت، فما انتهى إلى آخر الأبيات إلا وأنا عنده، فرأيت غلامًا لم ينبت عذاره، وقد خرق الدمع من وجنتيه خرقين، فقلت له: نَعِمْتَ غلامًا. فقال: وأنت، فَمَنْ الرجل؟ قلت: عبد الله بن معمر القيسي. قال: أفلك حاجة؟ قلت له: كُنْتُ جالسًا في الروضة، فما راعني هذه الليلة إلا صوتك، فبنفسي أفديك ما الذي تجده؟ قال: اجلس. فجلست، قال: أنا عُتْبَةُ بن الجبان بن المنذر بن الجموح الأنصاري، عدوت إلى مسجد الأحزاب فبقيتُ راکعًا وساجدًا، ثم اعتزلتُ أتعبد، وإذا بنسوة يتهادين كالأقمار، وفي وسطهن جاريةً بديعةُ الجمال كاملة الملاحه، فوقفتُ عليَّ وقالت: يا عُتْبَةُ، ما تقول في وصلٍ مَنْ يطلب وصلك؟ ثم تركتني وذهبت، فلم أسمع لها خبرًا ولا وقعتُ لها على أثر، وها أنا حيران أنتقل من مكان إلى مكان. ثم صرخ وانكبَّ على الأرض مغشيًا عليه. ثم أفاق كأنما صُبِغت ديباجةً خديّه بورس، وأنشأ يقول هذه الأبيات:

أَرَاكُم بِقَلْبِي مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ تَرَاكُم تَرَوْنِي بِالْقُلُوبِ عَلَى بُعْدِ
فَوَّادِي وَطَرَفِي يَا سَفَانِ عَلَيَّكُمْ وَعِنْدَكُمْ رُوحِي وَذِكْرُكُمْ عِنْدِي
وَلَسْتُ أَلْذُ الْعَيْشِ حَتَّى أَرَاكُمْ وَلَوْ كُنْتُ فِي الْفَرْدَوْسِ أَوْ جَنَّةِ الْخُلْدِ

فقلت له: يا عتبة يا ابن أخي، تَبَّ إلى ربك واستغفر من ذنبك، فإن بين يديك هول الموقف. فقال: هيهات ما أنا سائل حتى يئوب القارطان. ولم أزل معه حتى طلع الفجر، فقلت له: قُمْ بنا إلى المسجد. فجلسنا فيه حتى صلَّينا الظهر، وإذا بالنسوة قد أقبلن، وأما الجارية فليست فيهن، فقلن: يا عتبة، ما ظنك بطالبة وصلك؟ قال: وما بالها؟ قلن: أخذها

أبوها وارتحل إلى السماوة. فسألتهن عن اسم الجارية فقلن: رياء بنت الغطريف السليمي. فرفع رأسه وأنشد هذين البيتين:

خَلِيلِي رِيًّا قَدْ أَجَدَّ بُكُورُهَا وَسَارَتْ إِلَى أَرْضِ السَّمَاءِ عِيرُهَا
خَلِيلِي إِنِّي قَدْ غَشِيتُ مِنَ الْبُكَاءِ فَهَلْ عِنْدَ غَيْرِي عَبْرَةٌ أَسْتَعِيرُهَا

فقلت له: يا عتبة، إني وردت بمال جزيل أريد به ستر أهل المروة، والله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضى، فقم بنا إلى مجلس الأنصار. فقمنا حتى أشرفنا على ملكهم، فسلمت عليهم فأحسنوا الرد، ثم قلت: أيها الملاء، ما تقولون في عتبة وأبيه؟ فقالوا: من سادات العرب. قلت: اعلموا أنه رومي بداهية الهوى، فأريد منكم المساعدة إلى السماوة. قالوا: سمعاً وطاعة. فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على مكان بني سليم، فعلم الغطريف بمكاننا، فخرج مبادراً واستقبلنا وقال: حبيتم يا كرام. فقلنا له: وأنت حبيت، إننا لك أضياف. فقال: نزلتم بأكرم منزل رحب. فنزل ثم نادى: يا معشر العبيد، انزلوا. فنزلت العبيد، وفرشت الأنطاع والنمارق، وذبحت النعم والغنم. فقلنا: نحن لا ندوق طعامك حتى تقضي حاجتنا. قال: وما حاجتكم؟ قلنا: نخطب ابنتك الكريمة لعتبة بن الجبان بن المنذر، العالي الفخر، الطيب العنصر. فقال: يا إخواني، إن التي تخطبونها أمرها لنفسها، وأنا أدخل وأخبرها. ثم نهض مغضباً ودخل إلى رياء، فقالت: يا أبت، ما لي أرى الغضب بائئناً عليك؟ فقال: ورد علي قوم من الأنصار يخطبونك مني؟ فقالت: سادات كرام، استغفر لهم النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، فلمن الخطبة فيهم؟ فقال لها: لفتى يعرف بعتبة بن الجبان. قالت: سمعت عتبة هذا، إنه يفي بما وعد ويدرك ما طلب. فقال: أقسمت لا أزوجنك به أبداً، فقد نما إلي بعض حديثك معه. قالت: ما كان ذلك، ولكن أقسمت أن الأنصار لا يردون مرداً قبيحاً، فأحسن لهم الرد. قال: بأي شيء؟ قالت: أغلظ عليهم المهر، فإنهم يرجعون. قال: ما أحسن ما قلت! ثم خرج مبادراً فقال: إن فتاة الحي قد أجابت، ولكن تريد لها مهر مثله، فمن القائم به؟ قال عبد الله: فقلت: أنا. قال: أريد لها ألف أسورة من الذهب الأحمر، وخمسة آلاف درهم من ضرب حجر، ومائة ثوب من الأبراد والحبر، وخمسة أكرشة من العنبر. قال: قلت لك ذلك، فهل أجبت؟ قال: أجبت. فأنفذ عبد الله نفرًا من الأنصار إلى المدينة المنورة، فأتوا بجميع ما ضمنه، وذبحت النعم والغنم، واجتمع الناس لأكل الطعام. قال: فأقمنا على هذا الحال أربعين يوماً، ثم

قال: خذوا فتاتكم. فحملناها على هودج وجهَّزها بثلاثين راحلة من التحف، ثم ودَّعنا وانصرف، وسرنا حتى بقي بيننا وبين المدينة المنورة مرحلة. ثم خرجت علينا خيل تريد الغارة، وأحسب أنها من بني سليم، فحمل عليها عُتْبَةُ بن الجبان، فقتل عدة رجال وانحرف وبه طعنة ثم سقط إلى الأرض، وأتتنا النصره من سكان تلك الأرض، فطردوا عنا الخيل وقد قضى عُتْبَةُ نحبه. وقلنا: وا عتبتاه! فسمعت الجارية ذلك، فألقت نفسها من فوق البعير، وانكبَّت عليه وجعلت تصيح بحرقة وتقول هذه الأبيات:

تَصَبَّرْتُ لَا كَوْنِي صَبَرْتُ وَإِنَّمَا أَعْلَلُ نَفْسِي أَنَّهَا بِكَ لَاحِقَه
وَلَوْ أَنْصَفْتُ رُوحِي لَكَانَتْ إِلَى الرَّدَى أَمَامَكَ مِنْ دُونِ الْبَرِيَّةِ سَابِقَه
فَمَا أَحَدٌ بَعْدِي وَبَعْدَكَ مُنْصِفٌ خَلِيلًا وَلَا نَفْسٌ لِنَفْسٍ مَوَافِقَه

ثم شهقت شهقة واحدة وانقضى نحبها، فحفرنا لهما قبرًا واحدًا، وواريناهما في التراب، ورجعتُ إلى ديار قومي وأقمتُ سبع سنين، ثم عدتُ إلى الحجاز ودخلت المدينة المنورة للزيارة، فقلتُ: والله لأعودن إلى قبر عُتْبَةَ. فأتيتُ إليه فإذا هو عليه شجرة عالية، عليها عصائب حمراء وصفراء وخضر. فقلتُ لأرباب المنزل: ما يقال لهذه الشجرة؟ فقالوا: شجرة العروسين. فأقمتُ عند القبر يومًا وليلةً وانصرفتُ، وكان آخر العهد به رحمه الله تعالى.

حكاية طلاق هند بنت النعمان

وحُكي أيضًا أن هند بنت النعمان كانت أحسن نساء زمانها، فوصف للحجاج حُسْنُها وجمالها، فخطبها وبذل لها مالًا كثيرًا وتزوَّجَ بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم، فلما دخل بها مكث معها مدة طويلة، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر وجهها في المرآة وتقول:

وَمَا هِنْدُ إِلَّا مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ سُلَالَةُ أَفْرَاسٍ تَحَلَّلَهَا بَغْلُ
فَإِنْ وَلَدَتْ أَنْتَى فَلِلَّهِ دَرُّهَا وَإِنْ وَلَدَتْ بَغْلًا فَجَاءَ بِهِ الْبَغْلُ

فلما سمع الحجاج ذلك انصرف راجعًا ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فبعث إليها عبد الله بن طاهر يطلِّقها، فدخل عبد الله بن طاهر عليها،

فقال لها: يقول لك الحجاج أبو محمد، كان تأخَّرَ لك عليه من الصداق مائتًا ألف درهم، وهي هذه حضرت معي، ووكَّلتني في الطلاق. فقالت: اعلم يا ابن طاهر أننا كنَّا معًا، والله ما فرحتُ به يومًا قطُّ، وإن تفرَّقنا والله لا أندم عليه أبدًا، وهذه المائتا ألف درهم لك بشارة بخلاصي من كلب ثقيف. ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها، ووُصِفَ له حُسْنُها وجمالها، وقَدَّها واعتدالها، وعذوبة أَلْفاظها، وتغزل أَلْحاظها، فأرسل إليها يخطبها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٨٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لما بلغه حُسن الجارية وجمالها، أرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتابًا تقول فيه: بعد الثناء على الله، والصلاة على نبيه محمد ﷺ، أما بعد؛ فاعلم يا أمير المؤمنين أن الكلب ولغ في الإناء. فلما قرأ كتابها أمير المؤمنين ضحك من قولها، وكتب لها قوله ﷺ: «إذا ولغ الكلب في إناء أحلكم، فليغسله سبعًا إحداهن بالتراب.» وقال: اغسلي القذى عن محل الاستعمال. فلما رأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، وكتبت إليه تقول: بعد الثناء على الله تعالى، اعلم يا أمير المؤمنين، إنني لا أجري العقد إلا بشرط، فإن قلت: ما الشرط؟ أقول: أن يقود الحجاج محملي إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون حافيًا بملبوسه الذي هو لابسه. فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك ضحكًا عاليًا شديدًا، وأرسل إلى الحجاج يأمره بذلك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب، ولم يخالف وامتنل الأمر، ثم أرسل الحجاج إلى هند يأمرها بالتجهيز، فتجهّزت في محمل، وجاء الحجاج في موكبه حتى وصل إلى باب هند، فلما ركبت المحمل وركب حولها جواريتها وخدمها، ترجّل الحجاج وهو حافٍ، وأخذ بزمام البعير يقوده وسار بها، فصارت تسخر منه وتهزأ به وتضحك عليه مع بلانتها وجواريتها، ثم إنها قالت لبلانتها: اكشفي لي ستارة المحمل. فكشفتها حتى قابلَ وجهها وجهه؛ فضحكت عليه، فأنشد هذا البيت:

فَإِنْ تَضَحَّكِي يَا هِنْدُ رُبَّهَ لَيْلَةٍ تَرَكَتُكِ فِيهَا تَسْهَرِينَ نَوَاحَا

فأجابته بهذين البيتين:

وَمَا نُبَالِي إِذَا أَرْوَاحُنَا سَلِمَتْ بِمَا فَقَدْنَاهُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ نَشَبٍ
فَالْمَالُ مُكْتَسَبٌ وَالْعِزُّ مُرْتَجِعٌ إِذَا اشْتَقَى الْمَرْءُ مِنْ دَاءٍ وَمِنْ عَطَبٍ

ولم تزل تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فلما وصلت إلى البلد رمت من يدها ديناراً على الأرض، وقالت له: يا جَمَّال، إنه قد سقط منِّي درهم فانظره، وناولنا إياه. فنظر الحجاج إلى الأرض، فلم يَرَ إلا ديناراً، فقال لها: هذا دينار. فقالت له: بل هو درهم. فقال لها: بل دينار. فقالت: الحمد لله الذي عَوَّضَنَا بالدرهم الساقط ديناراً، فناولنا إياه. فخجل الحجاج من ذلك، ثم إنه أوصلها إلى قصر أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، ودخلت عليه وكانت محظية عنده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٨٣

حكاية خزيمة بن بشر وعكرمة الفياض

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في أيام أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك رجل يقال له: خزيمة بن بشر من بني أسد، كان له مروءة ظاهرة ونعمة وافرة وفضل وبر بالإخوان، فلم يزل على ذلك الحال حتى أقعده الدهر فاحتاج إلى إخوانه الذين كان يتفضل عليهم ويواسيهم، فواسوه حيناً ثم ملُّوا به؛ فلما لاح له تغيُّرهم عليه ذهب إلى امرأته، وكانت ابنة عمه، فقال لها: يا ابنة عمي، قد رأيت من إخواني تغيُّراً وقد عزمت على أن ألزم بيتي إلى أن يأتيني الموت. فأغلق بابي عليه وأقام يتقوّت بما عنده حتى نفذ وصار حائراً، وكان يعرفه عكرمة الفياض الربيعي متولي الجزيرة، فبينما هو في مجلسه إذ ذكر خزيمة بن بشر فقال عكرمة الفياض: ما حاله؟ فقالوا له: قد صار إلى أمر لا يُوصف، وإنه أغلق بابي ولزم بيته. فقال عكرمة الفياض: إنما حصل له ذلك لشدة كرمه، وكيف لم يجد خزيمة بن بشر مواسياً ولا موافياً؟ فقالوا: إنه لم يجد شيئاً من ذلك. فلما جاء الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها في كيس واحد، ثم أمر بإسراج دابته وخرج سراً من أهله وركب ومعه غلام من غلمانته يحمل المال، ثم سار حتى وقف بباب خزيمة، فأخذ الكيس من غلامه ثم أبعده عنه وتقدّم إلى الباب فدفعه بنفسه، فخرج إليه خزيمة، فناوله الكيس وقال له: أصلح بهذا شأنك. فأخذه فراه ثقيلًا، فوضعه عن يده ومسك بلجام الدابة وقال له: مَنْ أنت؟ جعلت نفسي فداك. فقال له عكرمة: يا هذا، ما جئتُك في مثل هذا الوقت وأريد أن تعرفني؟ قال: فما أقيلك حتى تعرفني مَنْ أنت؟ فقال: أنا جابر عثرات الكرام. قال: فزدني. قال: لا. ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس إلى ابنة عمه فقال لها: أبشري فقد أتى الله بالفرج القريب والخير، فإن كان هذا دراهم فإنها كثيرة، قومي

فاسرجي. قالت: لا سبيل إلى السراج. فبات يلمسها بيده فيجد خشونة الدنانير فلا يصدق أنها دنانير.

وأما عكرمة فإنه رجع إلى منزله، فوجد امرأته قد تفقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه، فأنكرت ذلك عليه وارتابت منه وقالت له: إن والي الجزيرة لا يخرج بعد مدة من الليل منفردًا عن غلمانه في سرٍّ من أهله إلا إلى زوجة أو سرية. فقال لها: علم الله أنني ما خرجت في واحدة منهما. فقالت: أخبرني فيم خرجت؟ قال لها: ما خرجت من هذا الوقت إلا لأجل ألا يعلم به أحد. قالت: لا بد من إخباري. قال: هل تكتمينه إذا قلت لك؟ قالت: نعم. فأخبرها بالقصة على وجهها وما كان من أمره، ثم قال لها: أتحبين أن أحلف لك أيضًا. قالت: لا، لا، فإن قلبي قد سكن وركن إلى ما ذكرت.

وأما خزيمة فإنه لما أصبح صالح الغرماء وأصلح حاله، ثم تجهَّز يريد سليمان بن عبد الملك، وكان نازلًا يومئذ بفلسطين؛ فلما وقف ببابه واستأذن حجابَه، دخل الحاجب فأخبره بمكانه، وكان مشهورًا بالمروءة، وكان سليمان به عارفًا فأذن له في الدخول، فلما دخل سلَّم عليه سلام الخلافة، فقال له سليمان بن عبد الملك: يا خزيمة، ما أبطأك عنا؟ قال: سوء الحال. قال: فما منعك من النهضة إلينا؟ قال: ضعفي يا أمير المؤمنين. قال: فيم نهضت الآن؟ قال له: اعلم يا أمير المؤمنين أنني كنت في بيتي بعد مدة من الليل، وإذا برجل طرق الباب، وكان من أمره كذا وكذا، وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها. فقال سليمان: هل تعرف الرجل؟ فقال خزيمة: لا أعرفه يا أمير المؤمنين، وذلك أنه كان متكبرًا وما سمعت من لفظه إلا قوله: أنا جابر عثرات الكرام. فتلهَّب وتلهَّف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال: لو عرفناه لكافأناه على مروءته. ثم عقد لخزيمة بن بشر لواء، وجعله عاملًا على الجزيرة عوضًا عن عكرمة الفيَّاض. فخرج خزيمة قاصدًا الجزيرة، فلما قرب منها خرج عكرمة ولاقاه وخرج أهل الجزيرة في ملاقاته، فسَلَّمَا على بعضهما ثم ساروا جميعًا إلى أن دخل البلد، فنزل خزيمة دار الإمارة وأمر أن يؤخذ من عكرمة كفيلاً وأن يُحاسَب، فحُوسِب فوجد عليه أموالاً كثيرة فطالَبَه بأدائها. قال: ما لي إلى شيء من سبيل؟ قال: لا بد منها. قال: ليست عندي فاصنع ما أنت صانع. فأمر به إلى الحبس. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٨٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خزيمة أمر بحبس عكرمة الفياض. أرسل إليه يطالبه بما عليه، فأرسل يقول له: إني لستُ ممن يصون ماله بعرضه، فاصنع ما شئت. فأمر أن يُكَبَّل بالحديد ويُسَجَن، فأقام شهراً أو أكثر حتى أضناه ذلك وأضرَّ به حبسه، ثم بلغ ابنة عمه خبره واغتمت لذلك غاية الغم، ودعت مولاة لها كانت ذات عقل وافر ومعرفة وقالت لها: امضي في هذه الساعة إلى باب الأمير خزيمة بن بشر وقولي: إن عندي نصيحة. فإذا طلبها منك أحد فقولي: لا أقولها إلا للأمير. فإذا دخلت عليه فاسأليه الخلة، فإذا اختليت به فقولي له: ما هذا الفعل الذي فعلته، ما كان جزاء جابر عثرات الكرام منك إلا أن كافأته بالحبس الشديد والضيق في الحديد. ففعلت الجارية ما أُمِرت به، فلما سمع خزيمة كلامها نادى بأعلى صوته: وا سوأته! وإنه لهو؟ قالت: نعم. فأمر من وقته بدابته فأسرجت ودعا بوجوه البلد، فجمعهم إليه وأتى بهم إلى باب الحبس وفتحه، ودخل خزيمة ومَن معه، فرأوه قاعداً متغيّر الحال وقد أضناه الضرب والألم. فلما نظر إليه عكرمة، أخجله ذلك فنكس رأسه، فأقبل خزيمة وانكبَّ على رأسه فقبلها. فرفع عكرمة إليه رأسه وقال: ما أعقب هذا منك؟ قال: كريم أفعالك وسوء مكافأتي. قال: يغفر الله لنا ولك. ثم أمر خزيمة السجَّان أن يفك القيود عنه، وأمر أن تُوضَعَ القيود في رجلَيْه. فقال عكرمة: ماذا تريد؟ قال: أريد أن ينالني مثل ما نالك. فقال عكرمة: أقسم عليك بالله ألا تفعل. ثم خرجا جميعاً حتى وصلا إلى دار خزيمة، فودَّعه عكرمة وأراد الانصراف، فمنعه خزيمة من ذلك. فقال عكرمة: ما تريد؟ قال: أريد أن أغَيِّرَ حالك، فإن حيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك.

ثم أمر بإخلاء الحمام، فأخلي ودخلا جميعاً، فقام خزيمة وتولّى خدمته بنفسه، ثم خرجا فخلع عليه خلعة نفيسة وأركبه وحمل معه مالا كثيراً، ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار إلى ابنة عمه، فاعتذر إليها، ثم سأل بعد ذلك أن يسير معه إلى سليمان بن عبد الملك، وكان يومئذ مُقيمًا بالرمّل، فأجابه إلى ذلك وساراً جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبد الملك، فدخل الحاجب وأعلمه بقدوم خزيمة بن بشر، فراعه ذلك وقال: هل والي الجزيرة يقدم بغير أمرنا؟ ما هذا إلا لحادث عظيم. فأذن له في الدخول، فلما دخل قال له قبل أن يسلم عليه: ما وراءك يا خزيمة؟ قال له: الخير يا أمير المؤمنين. قال له: فما الذي أقدمك؟ قال: ظفرت بجابر عثرات الكرام، فأحببت أن أسرك به لما رأيت من تلهُفك على معرفته وشوقك إلى رؤيته. قال: ومن هو؟ قال: عكرمة الفياض. فأذن له بالتقرّب، فتقرّب وسلّم عليه بالخلافة، فرحّب به وأدناه من مجلسه وقال له: يا عكرمة، ما كان خيرك له إلا وبالأعلى عليك. ثم قال سليمان: اكتب حوائجك كلها جميعاً وما تحتاج إليه في رقعة. ففعل ذلك، فأمر بقضائها من ساعته، وأمر له بعشرة آلاف دينار خلاف الحوائج التي كتبها، وعشرين تختاً من الثياب زيادة على ما كتبه، ثم دعاه بقناة وعقد له لواء على الجزيرة وأرمانية وأزربيجان، وقال له: أمر خزيمة إليك أن شئت أبقيته، وإن شئت عزلته. قال: بل أردّه إلى محله يا أمير المؤمنين. ثم انصرفا من عنده جميعاً، ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته.

حكاية يونس الكاتب والوليد بن سهل

وحكي أيضاً أنه كان في مدة خلافة هشام بن عبد الملك رجلٌ يُسمّى يونس الكاتب وكان مشهوراً، فخرج مسافراً إلى الشام ومعه جارية في غاية الحُسن والجمال، وكان عليها جميع ما تحتاج إليه، وكان قدر ثمنها مائة ألف درهم، فلما قرب من الشام نزلت القافلة على غدير ماء، ونزل هو بناحية من نواحيه، وأصاب من طعام كان معه، وأخرج ركوة كان فيها نبيذ. فبينما هو كذلك إذا بفتى حسن الوجه والهيبة على فرس أشقر، ومعه خادمان، فسلم عليه وقال له: أتقبل ضيفاً؟ قال: نعم. فنزل عنده وقال له: اسقنا من شرابك فأسقاه. فقال: إن شئت أن تغني لنا صوتاً. فغنى مُنشداً هذا البيت:

حَوَتْ مِنَ الْحُسْنِ مَا لَمْ تَحْوِهِ بَشَرٌ فَلَدَّ لِي فِي هَوَاهَا الدَّمْعُ وَالسَّهَرُ

فطرب طرباً شديداً، وأسقاه مراراً حتى مال به السكر، ثم قال: قل لجاريتك أن تغني. فغنّت مُنشدَةً هذا البيت:

حُورِيَّةٌ حَارَ قَلْبِي فِي مَحَاسِنِهَا فَلَا قَضِيبٌ وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ

فطرب طرباً شديداً وأسقاه مراراً. ولم يزل مقيماً عنده إلى أن صلياً العشاء ثم قال له: ما أقدمك على هذا البلد؟ قال: ما أقضي به ديني وأصلح به حالي. فقال له: أتبعيني هذه الجارية بثلاثين ألف درهم؟ قلت: ما أحوجني إلى فضل الله والمزيد منه. قال: أيقنعك فيها أربعون ألفاً؟ قال: فيها قضاء ديني وأبقى صفر اليدين. قال: قد أخذناها بخمسين ألفاً من الدراهم، ولك بعد ذلك كسوة ونفقة طريقك، وأشركك في حالي ما بقيت. فقال: قد بعْتُكها. قال: أفنتق بي أن أوصل إليك ثمنها في غِدِّ وأحملها معي، أو تكون عندك إلى أن أحمل ذلك إليك غداً؟ فحملة السكر والحياء مع الخشية منه على أن قال له: نعم، قد وثقتُ بك، فخذها قد بَارَكَ الله لك فيها. فقال لأحد غلاميه: احملها على دابتك وارْتِدِفْ وراءها وامض بها. ثم ركب فرسه وودَّعَه وانصرف. فما هو إلا أن غاب عن البائع ساعةً، فتفكَّرَ البائع في نفسه وعرف أنه أخطأ في بيعها وقال في نفسه: ماذا صنعتُ حتى أسلَّم جاريتي إلى رجل لا أعرفه ولا أدري مَنْ هو، وهَبْتُ أني عرفته فمن أين الوصول إليه؟ ثم جلس متفكراً إلى أن صليَ الصبح ودخل أصحابه دمشق وجلس هو حائراً لا يدري ما يفعل، واستمرَّ جالساً حتى أحرقت الشمس وكره المقام، فهمَّ بالدخول في دمشق ثم قال في نفسه: إن دخلتُ لم آمن أن الرسول يأتي فلا يجدني فأكون قد جنيتُ على نفسي جناية ثانية، فجلس في ظل جدار كان هناك.

فلما ولى النهار وإذا بأحد الخادمين اللذين كانا مع الغلام قد أقبل عليه، فلما رآه حصل له سرور عظيم، وقال في نفسه: ما أعرف أني سررتُ بشيء أعظم من سروري هذا الوقت بالنظر إلى الخادم. فلما جاءه الخادم قال له: يا سيدي، قد أبطأنا عليك. فلم يذكر له شيئاً من الوله الذي كان به. ثم قال له الخادم: هل تعرف الرجل الذي أخذ الجارية؟ فقال له: لا. قال: هو الوليد بن سهل ولي العهد. فسكت عند ذلك ثم قال: قم فاركب. وكان معه دابة، فأركبه إياها وسارا إلى أن وصلا إلى دار فدخلها، فلما رآته الجارية وثبتت إليه وسلَّمت عليه، فقال لها: ما كان من أمرك مع مَنْ اشتراك؟ قالت: أنزلني في هذه الحجرة، وأمر لي بما أحتاج إليه. فجلس عندها ساعةً، وإذا بخادم صاحب الدار قد جاء إليه ثم قال له: قم. فقام معه ودخل به على سيده، فوجده ضيفه بالأمس، ورآه

جالسًا على سريرهِ. فقال لي: مَنْ أَنْتَ؟ فقال له: يونس الكاتب. قال: مرحبًا بك، قد كُنْتُ والله أَتَشَوَّقُ إلى رؤيتِكَ، فَإِنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ بِخَبْرِكَ، فَكَيْفَ كَانَ مَبِيتِكَ فِي لَيْلَتِكَ؟ فقال له: بخير أَعَزَّكَ اللهُ تعالى. ثم قال: لعلك ندمتَ على ما كان منك البارحة، وقلتَ في نفسك: إِنِّي دفعت جاريَّتي إلى رجل لا أعرفه ولا أعرف اسمه ولا من أي البلاد هو؟ فقال له: معاذ الله أيها الأمير أن أندم عليها، ولو أهديتها إلى الأمير لكانت أقل ما يُهدى إليه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٨٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن يونس الكاتب لما قال للوليد بن سهل: معاذ الله أن أندم، ولو أهديتها للأمير لكانت أقل ما يُهدى إليه، وما هذه الجارية بالنسبة إلى مقامه؟ فقال له الوليد: والله إنني ندمت على أخذها منك، وقلت: هذا رجل غريب لا يعرفني، وقد دهمته وسفهته عليه في استعجالي بأخذ الجارية، أفتذكر ما كان بيننا؟ قلتُ: نعم. قال: أتبيعني هذه الجارية بخمسين ألف درهم؟ قال: نعم. قال: هات يا غلام المال. فوضعه بين يديه فقال: يا غلام هات ألفاً وخمسمائة دينار. فأتى بها ثم قال: هذا ثمن جاريتك فضّمه إليك، وهذا الألف دينار لحسن ظنك بنا، وهذه الخمسمائة دينار لنفقة طريقك وما تتباعه لأهلك، أَرْضَيْتَ؟ قال: رضيت. وقبّلتُ يديه وقلت: والله قد ملأتَ عيني ويدي وقلبي. ثم قال الوليد: والله إنني لم أخلُ بها ولا شبعْتُ من غنائها، عليّ بها. فجاءت فأمرها بالجلوس فجلست، فقال لها: غني. فأنشدت هذا الشعر:

أَيَا مَنْ حَاَزَ كُلَّ الْحُسْنِ طُرًّا	وَيَا حُلُوَ الشَّمَائِلِ وَالِدَّلَالِ
جَمِيعُ الْحُسْنِ فِي تَرْكِ وَعَرْبِ	وَمَا فِي الْكُلِّ مِثْلُكَ يَا غَزَالِي
تَعْطَفُ يَا مَلِيحٌ عَلَى مُحِبِّ	بِوَعْدِكَ لَوْ بِطَيْفٍ مِنْ خِيَالِ
حَلَائِي فِيكَ ذُلِّي وَافْتِضَاجِي	وَطَابَ لِمُقْلَتِي سَهْرُ اللَّيَالِي
وَمَا أَنَا فِيكَ أَوَّلُ مُسْتَهَامِ	فَكَمْ قَبْلِي قَتَلْتُ مِنَ الرِّجَالِ
رَضِيْتُكَ لِي مِنَ الدُّنْيَا نَصِيبًا	وَأَنْتَ أَعَزُّ مِنْ رُوحِي وَمَالِي

فطرب طرباً شديداً، وشكر حُسن تأديبي لها وتعليمي إياها، ثم قال: يا غلام، قدّم له دابة بسرجهها وآلاتها لركوبه، وبغلاً لحمل حوائجه. ثم قال: يا يونس، إذا بلغك أن هذا

الأمر قد أفضى إليّ فالحق بي، فوالله لأملأنّ بالخير يدك، ولأُعَلِّينَ قدرك ولأُغْنِيَنَّكَ ما بقيت. فأخذت المال وانصرفت، فلما أفضت إليه الخلافة سرّت إليه، فوقّي لي والله بوعده وزاده في إكرامي، وكنتُ معه على أسر حال وأسنى منزلة، وقد اتّسعّت أحوالي وكثرت أموالي، وصار لي من الضياع والأموال ما يكفيني إلى مماتي، ويكفي ورثتي من بعدي. ولم أزل معه حتى قُتِل رحمه الله تعالى.

حكاية هارون الرشيد والبنات البدوية

وحُكي أيضاً أن أمير المؤمنين هارون الرشيد مرّ في بعض الأيام، وصحبته جعفر البرمكي، وإذا هو بعدة بنات يسقين الماء، فعرّج عليهن يريد الشرب، وإذا إحادهن التفّتت إليه، وأنشدت هذه الأبيات:

قُولِي لِطَيْفِكَ يَنْتَنِي	عَنْ مَضْجَعِي وَقْتَ الْمَنَامِ
كَيْ أُسْتَرِيحَ وَتَنْطَفِي	نَارُ تَأْجِجٍ فِي الْعِظَامِ
دَنْفٌ تُقَلِّبُهُ الْأَكْـ	فُ عَلَى بَسَاطٍ مِنْ سَقَامِ
أَمَّا أَنَا فَكَمَا عَلِمَـ	تِ فَهَلْ لَوْصَلِكِ مِنْ دَوَامِ

فأعجب أمير المؤمنين ملاحظتها وفصاحتها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٨٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين لما سمع هذه الأبيات من البنت أعجبه ملاحظتها وفصاحتها، فقال لها: يا بنت الكرام، أهذا من مقولك أم من منقولك؟ قالت: من مقولي. قال: إذا كان كلامك صحيحًا، فأمسكي المعنى وغيري القافية. فأنشدت تقول:

قُولِي لِطَيْفِكَ يَنْتَنِي	عَنْ مَضْجَعِي وَقْتَ الْوَسْنِ
كَيْ أُسْتَرِيحَ وَتَنْطَفِي	نَارُ تَأْجَجٍ فِي الْبَدَنِ
دَنْفٌ تُقَلِّبُهُ الْأَكْ	فُ عَلَى بَسَاطٍ مِنْ شَجْنِ
أَمَّا أَنَا فَكَمَا عَلِمُ	تِ فَهَلْ لَوْصَلِكِ مِنْ ثَمْنِ

فقال لها: والآخر مسروق؟ قالت: بل كلامي. فقال: إن كان كلامك أيضًا، فأمسكي المعنى وغيري القافية. فجعلت تقول:

قُولِي لِطَيْفِكَ يَنْتَنِي	عَنْ مَضْجَعِي وَقْتَ الرُّقَادِ
كَيْ أُسْتَرِيحَ وَتَنْطَفِي	نَارُ تَأْجَجٍ فِي الْفُؤَادِ
دَنْفٌ تُقَلِّبُهُ الْأَكْ	فُ عَلَى بَسَاطٍ مِنْ سُهَادِ
أَمَّا أَنَا فَكَمَا عَلِمُ	تِ فَهَلْ لَوْصَلِكِ مِنْ سَدَادِ

فقال لها: والآخر مسروق؟ فقالت: بل كلامي. فقال لها: إن كان كلامك فأمسكي المعنى وغيري القافية. فقالت:

قُولِي لِطَيْفِكَ يَنْتَنِي	عَنْ مَضْجَعِي وَقْتَ الْهَجُوعِ
كَيْ أُسْتَرِيحَ وَتَنْطَفِي	نَارُ تَأْجَجٍ فِي الضُّلُوعِ

دَنِفْ تُقَلِّبُهُ الْأَكُّ فُ عَلَى بِسَاطٍ مِنْ دُمُوعٍ
أَمَّا أَنَا فَكَمَا عَلِمَ سِ فَهَلْ لَوْصَلِكِ مِنْ رُجُوعٍ

فقال لها أمير المؤمنين: من أي هذا الحي؟ قالت: من أوسطه بيتاً وأعلاه عموداً. فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحي، ثم قالت له: وأنت من أي رعاة الخيل؟ فقال: من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة. فقَبَلَتِ الأرض وقالت: أَيِّدَكَ اللهُ يا أمير المؤمنين. ودعت له، ثم انصرفت مع بنات العرب، فقال الخليفة لجعفر: لا بد من زواجها. فتوجَّه جعفر إلى أبيها وقال له: إن أمير المؤمنين يريد ابنتك. فقال: حباً وكرامةً تُهدى جارية إلى حضرة مولانا أمير المؤمنين. ثم جهَّزها وحملها إليه وتزوَّجها، ودخل بها، فكانت عنده من أعز نسائه، وأعطى والدها ما يستره بين العرب من الأنعام، ثم بعد ذلك انتقل والدها إلى رحمة الله تعالى، فورد على الخليفة خبر وفاة أبيها، فدخل عليها وهو كئيب، فلما شاهدته وعليه الكآبة نهضت، ودخلت إلى حجرتها، وخلعت كل ما كان عليها من الثياب الفاخرة، ولبست الحداد وأقامت النعي عليه، فقليل لها: ما سبب هذا؟ فقالت: مات والدي. فمضوا إلى الخليفة، فأخبروه فقام وأتى إليها وسألها مَنْ أَخْبَرَكَ بهذا الخبر؟ قالت: وجهك يا أمير المؤمنين. قال: وكيف ذلك؟ قالت: لأنني منذ استقررتُ عندك ما رأيتُك هكذا إلا في هذه المرة، ولم يكن لي مَنْ أخاف عليه إلا والدي لكِبَره، وتعيش رأسك يا أمير المؤمنين. فتغرَّغرتُ عيناه بالدموع، وعزَّأها فيه، وأقامت مدة حزينة على والدها، ثم لحقت به رحمة الله عليهم أجمعين.

حكاية الأصمعي والبنات الثلاث

وحَكِّي أيضاً أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق أرقاً شديداً في ليلة من الليالي، فقام من فراشه وتمشَّى من مقصورة إلى مقصورة، ولم يزل قَلْبًا في نفسه قَلْبًا زائداً، فلما أصبح قال: عليَّ بالأصمعي. فخرج الطواشي إلى البوابين وقال: يقول لكم أمير المؤمنين أرسلوا لي الأصمعي. فلما حضر أَعْلِمَ به أمير المؤمنين، فأمر بإدخاله وأجلسه ورَحَّبَ به وقال له: يا أصمعي، أريد منك أن تحدَّثني بأجود ما سمعتَ من أخبار النساء وأشعارهن. فقال: سمعاً وطاعة. لقد سمعتُ كثيراً، ولم يعجبني سوى ثلاثة أبيات أنشدن ثلاث بنات. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٨٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأصمعي قال لأمير المؤمنين: لقد سمعتُ كثيراً ولم يعجبني سوى ثلاثة أبيات أنشدهن ثلاث بنات. فقال: حدّثني بحديثهن. فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أنني أقيمتُ سنة في البصرة، فاشتدَّ عليَّ الحر، فطلبت مقيلاً أقيّل فيه فلم أجد، فبينما أنا ألتفت يميناً وشمالاً، وإذا بساباط مكنوس مرشوش وفيه دكة من خشب، وعليها شبك مفتوح يفوح منه رائحة المسك، فدخلت الساباط وجلست على الدكة وأردت الاضطجاع، فسمعت كلاماً عذّباً من جارية وهي تقول: يا أخواتي، إننا جلسنا يومنا هذا على وجه المؤانسة، فتعالَيْنِ نطرح ثلاثمائة دينار، وكل واحدة منّا تقول بيتاً من الشعر، فكلُّ من قالت البيت الأعذب الأملح كانت الثلاثمائة دينار لها. فقلن: حبّاً وكرامة. فقالت الكبرى بيتاً وهو هذا:

عَجِبْتُ لَهُ أَنْ زَارَ فِي النَّوْمِ مَضْجِعِي وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَيْقِظًا كَانَ أَعْجَبًا

فقالت الوسطى بيتاً وهو هذا:

وَمَا زَارَنِي فِي النَّوْمِ إِلَّا خَيَالُهُ فَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا

فقالت الصغرى بيتاً وهو هذا:

بِنَفْسِي وَأَهْلِي مَنْ أَرَى كُلَّ لَيْلَةٍ ضَجِيعِي وَرِيَّاهُ مِنَ الْمِسْكِ أَطْيَبًا

فقلت: إن كان لهذا المثال جمال فقد تم الأمر على كل حال. فنزلت من على الدكة وأردت الانصراف، وإذا بالباب قد فُتح وخرجت منه جارية وهي تقول: اجلس يا شيخ. فطلعت على الدكة ثانيًا، وجلست، فدفعت لي ورقة، فنظرت فيها خطأ في نهاية الحُسن، مستقيم الألفات، مجوّف الهاءات، مدوّر الواوات، مضمونها: نَعْلِمُ الشَّيْخَ — أطال الله بقاءه — أننا ثلاث بنات أخوات، جلسن على وجه المؤانسة، وطرحنا ثلاثمائة دينار، وشرطنا أن كلَّ مَنْ قالت البيت الأعذب الأملح كان لها الثلاثمائة دينار، وقد جعلناك الحَكَمَ في ذلك، فاحكم بما ترى والسلام. فقلت للجارية: عليّ بدواة وقرطاس، فغابت قليلاً وخرجت إليّ بدواة مفضضة وأقلام مذهبة، فكتبت هذه الأبيات:

أَحَدْتُ عَنْ خُودٍ تَحَدَّثُنْ مَرَّةً	حَدِيثَ امْرِئٍ قَاسَ الْأُمُورَ وَجَرَبًا
ثَلَاثُ كُبُكَزَاتِ الصَّبَاحِ صَبَاحَةً	تَمَلَّكُنْ قَلْبًا بِالْغَرَامِ مُعَذِّبًا
خَلَوْنَ وَقَدْ نَامَتِ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ	مِنَ النَّاسِ قَدْ أَعْرَضْنَ عَمَّنْ تَجَنَّبًا
فَبُحْنَ بِمَا يَخْفَيْنَ مِنْ دَاخِلِ الْحَشَى	نَعَمْ وَاتَّخَذْنَ الشَّعْرَ لَهُوًا وَمَلْعَبًا
فَقَالَتْ عَرُوبٌ ذَاتُ تِيهِ عَزِيزَةٌ	وَتَبَسَّمَ عَنْ عَذَبِ الْمَقَالَةِ أَشْنَبًا
عَجِبْتُ لَهُ أَنْ زَارَ فِي النَّوْمِ مَضْجِعِي	وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَنَقِظًا كَانَ أَعْجَبًا
فَلَمَّا انْقَضَى مَا زَحَرَفْتُ بِتَضَاحِكِ	تَنَفَّسَتِ الْوُسْطَى وَقَالَتْ تَطَرُّبًا
وَمَا زَارَنِي فِي النَّوْمِ إِلَّا خَيَالُهُ	فَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا
وَأَحْسَنَتِ الصُّغْرَى وَقَالَتْ مُجِيبَةً	بَلْفِظْ لَهَا قَدْ كَانَ أَشْهَى وَأَعَذِّبًا
بِنَفْسِي وَأَهْلِي مَنْ أَرَى كُلَّ لَيْلَةٍ	ضَجِيعِي وَرِيَّاهُ مِنَ الْمِسْكِ أَطْيَبًا
فَلَمَّا تَدَبَّرْتُ الَّذِي قُلْنَ وَأَنْبَرَى	لِي الْحُكْمُ لَمْ أَتْرُكْ لِذِي اللَّبِّ مَلْعَبًا
حَكَمْتُ لِصُغْرَاهُنَّ فِي الشَّعْرِ أَنَّني	رَأَيْتُ الَّذِي قَالَتْ إِلَى الْحَقِّ أَقْرَبًا

قال الأصمعي: ثم دفعت الورقة إلى الجارية، فلما صعدت عادت إلى القصر، وإذا برقص وصفق وقيامة قائمة، فقلت: ما بقي لي إقامة. فنزلت من فوق الدكة وأردت الانصراف، وإذا بالجارية تنادي وتقول: اجلس يا أصمعي. فقلت: ومن أعلمك أنني الأصمعي؟ فقالت: يا شيخ، إن خفي علينا اسمك، فما خفي علينا نظمك. فجلست وإذا بالباب قد فُتح، وخرجت منه الجارية الأولى وفي يدها طبق من فاكهة وطبق من حلوى، فتفكَّهَتْ وتحلَّيْتُ، وشكرت صنيعها وأردت الانصراف، وإذا بالجارية تنادي وتقول: اجلس يا أصمعي. فرفعت بصري إليها، فنظرت كفاً أحمر في كم أصفر، فخلته البدر

يشرق من تحت الغمام، ورمت صرة فيها ثلاثمائة دينار، وقالت: هذا لي، وهو مني إليك هدية في نظير حكومتك. فقال له أمير المؤمنين: لِمَ حكمت للصغرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أ طال الله بقاءك، إن الكبرى قالت: عجبْتُ له أن زار في النوم مضجعي، وهو محجوب معلّق على شرط قد يقع، وقد لا يقع؛ وأما الوسطى فقد مرّ بها طيف خيال في النوم، فسَلَمْتُ عليه؛ وأما بيت الصغرى، فإنها ذكرت فيه أنها ضاجعته مضاجعةً حقيقية، وشَمَّتْ منه أنفاساً أطيب من المسك، وفدته بنفسها وأهلها، ولا يُفدَى بالنفس إلا مَنْ هو أعزُّ منها. فقال الخليفة: أحسنت يا أصمعي. ودفع إليه ثلاثمائة دينار مثلها في نظير حكايته.

حكاية إبراهيم الموصلي وإبليس

وحُكي أيضاً أن أبا إسحاق إبراهيم الموصلي قال: استأذنت الرشيد في أن يهب لي يوماً من الأيام للانفراد بأهل بيتي وإخواني، فأذن لي في يوم السبت، فأتيت منزلي وأخذت في إصلاح طعامي وشرابي وما أحتاج إليه، وأمرت البوابين أن يغلقوا الأبواب، وألاً يأذنوا لأحد في الدخول عليّ، فبينما أنا في مجلسي والحريم قد حففن بي، وإذا بشيخ ذي هيبة وجمال، وعليه ثياب بيض وقميص ناعم، وعلى رأسه طليسان وفي يده عكاز قبضته من فضة، وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق، فدخلني غيظ عظيم بدخوله عليّ وهممت بطرد البوابين، فسَلَمَ عليّ بأحسن سلام، فرددت عليه وأمرته بالجلوس، فجلس وأخذ يحدثني بحديث العرب وأشعارها حتى ذهب ما بي من الغضب، وظننت أن غلماني تحروا مسرتي بإدخال مثله عليّ لأدبه وظرافته، فقلت له: هل لك في الطعام؟ فقال: لا حاجة لي فيه. فقلت له: وفي الشراب. قال: ذلك إليك. فشربت رطلاً وسقيته مثله، ثم قال: يا أبا إسحاق، هل لك أن تغنينا شيئاً، فنسمع من صنعتك ما قد فقت به العام والخاص؟ فغاظني قوله، ثم سهلت الأمر على نفسي، فأخذت العود وضربت وغنيت. فقال: أحسنت يا أبا إسحاق. ثم قال إبراهيم: فازددتُ غيظاً وقلت: ما قنع بما فعله من دخوله بغير إذن واقتراحه عليّ حتى سمّاني باسمي مع جهل مخاطبتي. ثم قال: هل لك أن تزيد ونكافئك؟ فتحملت المشقة وأخذت العود فغنيت وتحفّظت فيما غنيت، وقمت به قياماً ما لقوله: ونكافئك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٨٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ لما قال لأبي إسحاق: هل لك أن تزيدني ونكافئك؟ قال أبو إسحاق: فتحملتُ المشقة وأخذت العود، فغنيت وتحفظت فيما غنيت وقمت به قيامًا تامًا لقوله: ونكافئك. فطرب وقال: أحسنت يا سيدي. ثم قال: أأذن لي في الغناء؟ قال: شألك. واستضعفت عقله في أن يغني بحضرتي بعد الذي سمعه مني، فأخذ العود وجسه، فوالله لقد خلت العود أن ينطق بلسان عربي فصيح بصوتٍ أغنَّ مليح، واندفع يغني هذه الأبيات:

وَلِي كِبْدٌ مَقْرُوحَةٌ مِّنْ يَبِيعُنِي	بِهَآ كِبْدًا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحٍ
أَبَاهَا عَلَيَّ النَّاسُ لَا يَشْتَرُونَهَا	وَمَنْ يَشْتَرِي ذَا عَلِيٍّ بِصَحِيحٍ
أَتُنُّ مِّنَ الشُّوقِ الَّذِي بَجَوَانِحِي	أَنِينَ غُصِيصٍ بِالشَّرَابِ قَرِيحٍ

قال أبو إسحاق: فوالله لقد ظننتُ أن الأبواب والحيطان وكلَّ ما في البيت تجيبه وتغني معه من حُسن صوته، حتى خلتُ والله أني أسمع أعضائي وثيابي تجيبه، وبقيت مبهورًا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لِمَا خالطَ قلبي، ثم غنى بهذه الأبيات:

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللَّوَى عُدْنَ عَوْدَةً	فَإِنِّي مِّنْ أَصَوَاتِكُنَّ حَزِينٌ
فَعُدْنَ إِلَى أَيْكَ فَكِدْنَ يُمْنَنِي	وَكِدْتُ بِأَسْرَارِي لَهُنَّ أَبِينٌ
دَعَوْنَ فَرِيقًا بِالْهَدِيرِ كَأَنَّمَا	شَرِبْنَ الْحُمَيَّا أَوْ بِهِنَّ جُنُونٌ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ حَمَائِمَ	بَكَيْنَ وَلَمْ تَدْمَعْ لَهُنَّ عَيْوُنٌ

ثم غنى أيضاً بهذه الأبيات:

أَلَا يَا صَبَا نَجِدْ مَتَى هَجَتْ مِنْ نَجْدٍ
لَقَدْ هَتَفْتُ وَرَقَاءَ فِي رَوْتِقِ الضُّحَى
بَكَتْ مِثْلَ مَا يَبْكِي الْوَلِيدُ صَبَابَةً
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْمُحِبَّ إِذَا دَنَا
بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشَفَّ مَا بَنَا
عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ لَيْسَ بِنَافِعٍ
فَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجَدًا عَلَى وَجْدِي
عَلَى فَنَنِ الْأَغْصَانِ بِالْبَانَ وَالرَّندِ
وَأَبْدَتْ مِنَ الْأَشْوَاقِ مَا لَمْ أَكُنْ أُبْدِي
يَمَلُّ وَأَنَّ الْبُعْدَ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ
عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعْدِ
إِذَا كَانَ مِنْ تَهَوَّاهُ لَيْسَ بِذِي وَدٍّ

ثم قال: يا إبراهيم، غنّ هذا الغناء الذي سمعته وانحِ نحوه في غنائك وعلمه جواريك. فقلت: أعده عليّ. فقال: لستَ تحتاج إلى إعادة، قد أخذته وفرغت منه. ثم غاب من بين يدي. فتعجّبتُ منه وقمتُ إلى السيف وجذبته، ثم غدوت نحو باب الحريم فوجدته مغلقاً، فقلت للجواري: أي شيء سمعتن؟ فقلن: سمعنا أطيّب غناء وأحسنه. فخرجت متحرّراً إلى باب الدار فوجدته مغلقاً، فسألت البوابين عن الشيخ فقالوا لي: شيخ! فوالله ما دخل إليك اليوم أحدٌ. فرجعت أتأمل أمره، فإذا هو قد هتف من جانب الدار فقال: لا بأس عليك يا أبا إسحاق، إنما أنا أبو مرة، قد كنتُ نديمك اليوم فلا تفرزع. فركبت إلى الرشيد فأخبرته الخبر، فقال: أعِد الأصوات التي أخذتها منه. فأخذت العود وضربتُ، فإذا هي راسخة في صدري؛ فطرب بها الرشيد وجعل يشرب عليها، ولم يكن له انهماك على الشراب، وقال: ليتهُ متّعنا بنفسه يوماً واحداً كما متّعك. ثم أمر لي بصلة، فأخذتها وانصرفت.

عاشقان من بني عذرة

وحكي أيضاً أن مسرور الخادم قال: أرق أمير المؤمنين هارون الرشيد ليلة أرقاً شديداً، فقال لي: يا مسرور، مَنْ بالباب من الشعراء؟ فخرجت إلى الدهليز فوجدتُ جميل بن معمر العذري، فقلت له: أجِبْ أمير المؤمنين. فقال: سمعاً وطاعة. فدخلتُ ودخل معي إلى أن صار بين يدي هارون الرشيد، فسلمّ بسلام الخلافة، فردّ عليه السلام وأمره بالجلوس، ثم قال له الرشيد: يا جميل، أعندك شيء من الأحاديث العجيبة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أيما أحبُّ إليك؛ ما عاينته ورأيتُهُ، أو ما سمعته ووعيته؟ فقال: حدّثني بما عاينته ورأيتُهُ. قال: نعم يا أمير المؤمنين، أقبل عليّ بكلك، وأصغِ إليّ بإذنك. فعمد الرشيد إلى مخدة من

الديباج الأحمر المزركش بالذهب، محشوة بريش النعام، فجعلها تحت فخذه، ثم مَنَّ
منها مرفقيه، وقال: هَلَمْ بحديثك يا جميل. فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أنني كنت مفتوناً
بفتاةٍ مُحبِّاً لها، وكنت أتردد إليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٨٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين هارون الرشيد لما اتكأ على مخدة من الديباج قال: هلمَّ بحديثك يا جميل. فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أنني كنتُ مفتونًا بفتاة محبًا لها، وكنتُ أترددُ إليها إذ هي سؤلي وبغيتي من الدنيا، ثم إن أهلها رحلوا لقلة المرعى، فأقمتُ مدةً لم أرها، ثم إن الشوق ألقني وجذبي إليها، فحدَّثتني نفسي بالمسير إليها، فلما كان ذات ليلة من الليالي هزَّني الشوق إليها، فقمْتُ وشدتُ رحلي على ناقتي وتعمَّمتُ بعمامتي، ولبستُ أطماري، وتقلَّدتُ بسيفي، واعتقلتُ رمحي، وركبتُ ناقتي، وخرجتُ طالبًا لها، وكنتُ أُسرِع في المسير، فسرْتُ ذات ليلة وكانت ليلةً مظلمةً مدلهمة، وأنا مع ذلك أكابد هبوط الأودية وصعود الجبال، فأسمع زئيرَ الأسود وعيَّ الذئاب وأصوات الوحوش من كل جانب، وقد ذهل عقلي وطاش لبي، ولساني لا يفتر عن ذكر الله تعالى. فبينما أنا أسير على هذا الحال إذ غلبني النوم، فأخذتُ بي الناقة على غير الطريق التي كنتُ فيها، وغلب عليَّ النوم، وإذا أنا بشيء لطمني في رأسي، فانتبهتُ فزعًا مرعوبًا، وإذا بأشجار وأنهار، وأطيار على تلك الأغصان تغرَّد بلغاتها وألحانها، وأشجار تلك المرج مشتبك بعضها ببعض؛ فنزلتُ عن ناقتي وأخذتُ بزمامها في يدي، ولم أزل أتلطف في الخلاص إلى أن خرجتُ بها من تلك الأشجار إلى أرض فلاة، فأصلحتُ كورها واستويت راكبًا على ظهرها، ولا أدري إلى أين أذهب، ولا إلى أي مكان تسوقني الأقدار، فمددتُ نظري في تلك البرية، فلاحَت لي نار في صدرها، فوكرتُ ناقتي وصرتُ متوجِّهًا إليها حتى وصلتُ إلى تلك النار، فقرَّبْتُ منها وتأمَّلتُ وإذا بخباء مضروب، ورمح مركوز، ودابة قائمة، وخيل واقفة، وإبل سائمة؛ فقلتُ في نفسي: يوشك أن يكون لهذا الخباء شأن عظيم، فإنِّي لا أرى في تلك البرية سواه.

ثم تقدّمتُ إلى جهة الخباء، وقلت: السلام عليكم يا أهل الخباء ورحمة الله وبركاته. فخرج إليّ من الخباء غلامٌ من أبناء التسع عشرة سنة، فكأنه البدر إذا أشرق والشجاعة بين عينيه، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أبا العرب، إني أظنك ضالاً عن الطريق؟ فقلت: الأمر كذلك، أرشدني يرحمك الله. فقال: يا أبا العرب، إن بلدنا هذه مسبعة، وهذه الليلة مظلمة موحشة شديدة الظلمة والبرد، ولا آمن عليك من الوحش أن يفترسك، فانزل عندي على الرحب والسعة، فإذا كان الغد أرشدتك إلى الطريق. فنزلتُ عن ناقتي وعقلتُها بفضل زمامها، ونزعتُ ما كان عليّ من الثياب، وتخفّفتُ وجلستُ ساعة، وإذا بالشاب قد عمد إلى شاة فذبّحها، وإلى نارٍ فأضرمها وأجّجها، ثم دخل الخباء وأخرج إبرازاً ناعمة وملحاً طيباً، وأقبل يقطع من ذلك اللحم قطعاً، ويشويها على النار ويعطيني، ويتنهد ساعة ويبكي أخرى، ثم شهق شهقة عظيمة وبكى بكاءً شديداً، وأنشد يقول هذه الأبيات:

لَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْسٌ هَافِتٌ	وَمُقَلَّةٌ إِنْسَانُهَا بَاهِتٌ
لَمْ يَبْقَ فِي أَعْضَائِهِ مَفْصِلٌ	إِلَّا وَفِيهِ سَقَمٌ ثَابِتٌ
وَدَمْعُهُ جَارٍ وَأَحْشَاؤُهُ	تَوَقَّدُ لِكِنَّهُ سَاكِتٌ
تَبْكِي لَهُ أَعْدَاؤُهُ رَحْمَةً	يَا وَيْحَ مَنْ يَرْحَمُهُ الشَّامِتُ

قال جميل: فعلمت عند ذلك يا أمير المؤمنين أن الغلام عاشق ولهان، ولا يعرف الهوى إلا من ذاق طعم الهوى. فقلت في نفسي: هل أسأله؟ ثم راجعت نفسي وقلت: كيف أتهم عليه في السؤال وأنا في منزله؟ فردعت نفسي وأكلت من ذلك اللحم كفايتي. فلما فرغنا من الأكل قام الشاب ودخل الخباء، وأخرج طشتاً وإبريقاً حسناً، ومنديلاً من الحرير وأطرافه مزركشة بالذهب الأحمر، وقمقمًا ممتلئًا من ماء الورد الممسك، فتعجبتُ من ظرفه ورقّة حاشيته، وقلت في نفسي: لم أعرف الظرف في البادية. ثم غسلنا أيدينا وتحدّثنا ساعة، ثم قام ودخل الخباء، وفصل بيني وبينه بفاصل من الديباج الأحمر وقال: ادخل يا وجه العرب وخذ مضجعك، فقد لحقك في هذه الليلة تعب، وفي سفرك هذه نصب مفرط. فدخلت وإذا أنا بفراش من الديباج الأخضر، فعند ذلك نزع ما عليّ من الثياب، وبتُّ ليلة لم أبت في عمري مثلاً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٩٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جميلًا قال: فبتُّ ليلةً لم أبت عمري مثلها؛ فكل ذلك وأنا متفكر في أمر هذا الشاب إلى أن جنَّ الليل ونامت العيون، فلم أشعر إلا بصوت خفي لم أسمع ألطف منه، ولا أرق حاشية، فرفعت الفاصل المضروب بيننا، وإذا أنا بصبية لم أر أحسن منها وجهًا وهي في جانبه، وهما يبكيان ويتشاكيان ألمَّ الهوى والصبابة والجوى وشدة اشتياقهما إلى التلاقي، فقلت: يا لله العجب من هذا الشخص الثاني! وحين دخلتُ هذا البيت لم أر فيه غير هذا الفتى وما عنده أحد، ثم قلتُ في نفسي: لا شك أن هذه من بنات الجن تهوى هذا الغلام، وقد تفرَّدَ بها في هذا المكان وتفردت به. ثم أمعنت النظر فيها فإذا هي أنسية عربية، إذا أسفرت عن وجهها تخجل الشمس المضئية، وقد أضاء الخباء من نور وجهها، فلما تحققت أنها محبوبته تذكَّرتُ غيرَ المحب، فأرخيت الستر وغطيتُ وجهي ونمت. فلما أصبحت لبست ثيابي وتوضأت لصلاتي، وصليت ما كان عليَّ من الفرض، ثم قلت له: يا أخا العرب، هل لك أن ترشدني إلى الطريق، وقد تفضَّلَ عليَّ؟ فنظر إليَّ وقال: على رسلك يا وجه العرب، إن الضيافة ثلاثة أيام، وما كنت بالذي يدعك إلا بعد ثلاثة أيام.

قال جميل: فأقمت عنده ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع جلسنا للحديث، فحادثته وسألته عن اسمه ونسبه فقال: أمَّا نسبي فأنا من بني عذرة، وأمَّا اسمي أنا فلان بن فلان، وعمي فلان. فإذا هو ابن عمي يا أمير المؤمنين، وهو من أشرف بيت من بني عذرة، فقلت: يا ابن العم، ما حملك على ما أراه منك من الانفراد في هذه البرية؟ وكيف تركتَ نعمتك ونعمة آبائك؟ وكيف تركتَ عبيدك وإماءك، وانفردتَ بنفسك في هذا المكان؟ فلما سمع يا أمير المؤمنين كلامي اغرورقت عيناه بالدموع والبكاء، ثم قال: يا ابن العم، إني كنت محبًّا لابنة عمي مفتونًا بها، هائمًا بحبها، مجنونًا في هواها لا أطيع الفراق عنها، فزاد

عشقي لها فخطبتها من عمي، فأبى وزوجها لرجل من بني عذرة ودخل بها، وأخذها إلى المحلة التي هو فيها من العام الأول، فلما بعدت عني واحتجبت عن النظر إليها، حملتني لوعات الهوى وشدة الشوق والجوى على ترك أهلي ومفارقة عشيرتي وخلّاني وجميع نعمتي، وانفردت بهذا البيت في هذه البرية، وألفت وحدتي. فقلت: وأين بيوتهم؟ قال: هي قريب في ذروة هذا الجبل، وهي كلّ ليلة عند نوم العيون وهدوء الليل تنسلّ من الحي سرّاً بحيث لا يشعر بها أحد، فأقضي منها بالحديث وطراً، وتقضي هي كذلك، وها أنا مقيم على ذلك الحال أتسلى بها ساعة من الليل ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، أو يأتيني الأمر على رغم الحاسدين، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين. ثم قال جميل: فلما أخبرني الغلام يا أمير المؤمنين، غمّني أمره، وصرت من ذلك حيراناً لما أصابني من الغيرة، فقلت له: يا ابن العم، وهل لك أن أدلك على حيلة أشير بها عليك، وفيها إن شاء الله عين الصلاح وسبيل الرشd والنجاح، وبها يزيل الله عنك الذي تخشاه؟ فقال الغلام: قل لي يا ابن العم. فقلت له: إذا كان الليل وجاءت الجارية، فاطرحها على ناقتي، فإنها سريعة الرواح، واركب أنت جوادك وأنا أركب بعض هذه النياق، وأسير بكما الليلة جميعها، فما يصبح الصباح إلا وقد قطعْتُ بكما براري وقفاراً، أو تكون قد بلغتَ مرادك وظفرتَ بمحبوبة قلبك، وأرض الله واسعة فضاها، وأنا والله مساعدك ما حييت بروحي ومالي وسيفي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٩١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جميلًا قال لابن عمه أن يأخذ الجارية ويذهب بها في الليل، ويكون عونًا له ومساعدًا مدة حياته، فلما سمع ذلك قال: يا ابن العم، حتى أشاورها في ذلك، فإنها عاقلة لييبة بصيرة بالأمور. قال جميل: فلما جنَّ الليل وحان وقت مجيئها وهو ينتظرها في الوقت المعلوم، فأبطأت عن عادتها، فرأيتُ الفتى خرج من باب الخباء، وفتح وجعل يتنَسَّم هبوب الريح الذي يهب من نحوها، وينشق رِيَّها، وينشد هذين البيتين:

رِيحُ الصَّبَا تُهْدِي إِلَيَّ نَسِيمُ مِنْ بُلْدَةٍ فِيهَا الْحَبِيبُ مُقِيمُ
يَا رِيحُ فِيكَ مِنَ الْحَبِيبِ عَلَامَةٌ أَفَتَعْلَمِينَ مَتَى يَكُونُ قُدُومُ؟

ثم دخل الخباء وقعد ساعةً زمانية وهو يبكي، ثم قال: يا ابن العم، إن لابنة عمي في هذه الليلة نبأ، وقد حدث لها حادث أو عاقها عني عائق. ثم قال لي: كن مكانك حتى آتيك بالخبر. ثم أخذ سيفه وترسه، ثم غاب عني ساعة من الليل، ثم أقبل وعلى يديه شيء يحمله، ثم صاح عليَّ فأسرعتُ إليه، فقال: يا ابن العم، أتردي ما الخبر؟ فقلت: لا والله. فقال: لقد فُجِعت في ابنة عمي هذه الليلة؛ لأنها قد توجَّهت إلينا، فتعرَّض لها في طريقها أسد فافترسها، ولم يُبقِ منها إلا ما ترى. ثم طرح ما كان على يده فإذا هو مشاش الجارية، وما فضل من عظامها، ثم بكى بكاءً شديدًا ورمى القوس من يده، وأخذ كيسًا على يده، ثم قال لي: لا تبرح إلى أن آتيك إن شاء الله تعالى. ثم سار فغاب عني ساعة، ثم

عاد وبيده رأس أسدٍ فطرحه من يده، ثم طلب ماء فأتيته به، فغسل فم الأسد، وجعل يقبله ويبكي، وزاد حزنه، وجعل ينشد هذه الأبيات:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْثُ الْمُعْزُ بِنَفْسِهِ هُلِكْتَ وَقَدْ هَيَّجَتْ لِي بَعْدَهَا حُرُنَا
وَصَيَّرْتَنِي فَرْدًا وَقَدْ كُنْتُ إِفْهًا وَصَيَّرْتَ بَطْنَ الْأَرْضِ قَبْرًا لَهَا هُنَا
أَقُولُ لِدَهْرٍ سَاءَنِي بِفِرَاقِهَا أَعُوذُ بِرَبِّي أَنْ تُرِينِي لَهَا خَدْنَا

ثم قال: يا ابن العم، سألتك بالله وبحق القرابة والرحم التي بيني وبينك أن تحفظ وصيتي، فستراني الساعة ميتاً بين يديك، فإذا كان ذلك فغسلني وكفني أنا وهذا الفاضل من عظام ابنة عمي في هذا الثوب، وادفنا جميعاً في قبر واحد، واكتب على قبرنا هذين البيتين:

كُنَّا عَلَى ظَهْرِهَا وَالْعَيْشُ فِي رَعْدٍ وَالشُّمْلُ مُجْتَمِعٌ وَالِدَارُ وَالْوَطَنُ
فَفَرَّقَ الدَّهْرُ وَالتَّصْرِيفُ إِفْتَنَا وَصَارَ يَجْمَعُنَا فِي بَطْنِهَا الْكَفَنُ

ثم بكى بكاءً شديداً، ثم دخل الخباء وغاب عني ساعةً وخرج، وصار يتنهد ويصيح، ثم شق شقةً ففارق الدنيا، فلما رأيت ذلك منه عظم عليّ وكبر عندي حتى كدتُ ألحق به من شدة حزني عليه، ثم تقدّمتُ إليه فأضجعتُه وفعلتُ به ما أمرني من العمل وكفّنتُهما جميعاً، ودفنتهما جميعاً في قبر واحد، وأقمت عند قبرهما ثلاثة أيام، ثم ارتحلتُ وأقمت سنتين أترددُ إلى زيارتهما. وهذا ما كان من حديثهما يا أمير المؤمنين. فلما سمع الرشيد كلامه استحسّنه، وخلع عليه، وأجازة جائزة حسنة.

حكاية الأعرابي وزوجته الوفية

وحكي أيضاً أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين معاوية جلس يوماً في مجلس له بدمشق وكان الموضع مفتوح الطيقان من الجهات الأربع، يدخل فيه النسيم من كل جانب، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات، وكان يوماً شديد الحر لا نسيم فيه، وكان ذلك في وسط النهار وقد اشتدت الهاجرة، إذ نظر إلى رجل يمشي وهو يتلظى من حر التراب، ويحجل في مشيه حافياً، فتأمّله وقال لجلسائه: هل خلق الله سبحانه وتعالى أشقى ممّن يحتاج إلى الحركة في هذا الوقت وفي هذه الساعة مثل هذا؟ قال بعضهم: لعله يقصد أمير

المؤمنين. فقال: والله لئن قصدني لأعطينه، وإن كان مظلومًا لأنصرنه. يا غلام قف بالباب فإذا طلب الدخول عليّ هذا الأعرابي لا تمنعه من الدخول عليّ. فخرج فوافاه الأعرابي، فقال له: ما تريد؟ قال: أريد أمير المؤمنين. قال له: ادخل. فدخل وسلّم عليه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٩٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخادم لما أذن للأعرابي في الدخول، دخل وسلّم على أمير المؤمنين، فقال له معاوية: ممّن الرجل؟ فقال: من بني تيم. قال: فما الذي جاء بك في هذا الوقت؟ فقال: جئتك مشتكيًا وبك مستجيرًا. قال: ممّن؟ قال: من مروان بن الحكم عاملك. ثم إنه أنشد وجعل يقول:

مُعَاوِيَ يَا ذَا الْجُودِ وَالْحِلْمِ وَالْفَضْلِ	وَيَا ذَا النَّدَى وَالْعِلْمِ وَالرُّشْدِ وَالنَّبْلِ
أَتَيْتُكَ لَمَّا ضَاقَ فِي الْأَرْضِ مَذْهَبِي	فَيَا عَوْتُ لَا تَقْطَعْ رَجَائِي مِنَ الْعَدْلِ
وَجُدْ لِي بِإِنْصَافٍ مِنَ الْجَائِرِ الَّذِي	بَلَانِي بِشَيْءٍ كَانَ أَيْسَرَهُ قَتْلِي
سَبَانِي سَعَادَ وَأَنْبَرَى لِحُصُومَتِي	وَجَارَ وَلَمْ يَعْدِلْ وَأَفْقَدَنِي أَهْلِي
وَهُمْ بِقَتْلِي غَيْرَ أَنْ مَنِيَّتِي	تَأْنَتْ وَلَمْ أَسْتَكَمِلِ الرِّزْقَ مِنْ أَجْلِي

فلما سمع معاوية إنشاده والنار تتوقّد من فيه، قال له: أهلاً وسهلاً يا أخا العرب، اذكر قصتك وانبي عن أمرك. فقال له: يا أمير المؤمنين، كان لي زوجة وكنتُ لها مُحِبًّا وبها كلفًا، وكنت قريّر العين طيبَ النفس، وكانت لي جملة من الإبل، وكنت أستعين بها على قيام حالي، فأصابتنا سنة أذهبت الخف والحافر، وبقيت لا أملك شيئًا، فلما قلّ ما بيدي وذهب مالي وفسد حالي، بقيت مهانئًا ثقيلًا على الذي كان يرغب في زيارتي، فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال وشر المال، أخذها مني وجحدني وطردني وأغلظ عليّ، فأتيتُ إلى عاملك مروان بن الحكم راجيًا لنصرته، فلما أحضر أباهما وسأله عن حالي قال: ما أعرفه قطّ. فقلت: أصلح الأمير إن رأى أن يحضر المرأة ويسألها عن قول أبيها تبين الحق. فبعث خلفها وأحضرها، فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لي خصمًا وعليّ

منكرًا، وأظهر لي الغضب وبعثني إلى السجن، فصرت كأنا نزلت من السماء، واستوى بي الريح في مكان سحيق. ثم قال لأبيها: هل لك أن تزوجه مني على ألف دينار وعشرة آلاف درهم، وأنا ضامن خلاصها من هذا الأعرابي؟ فرغب أبوها في البذل وأجابه إلى ذلك، فأحضرني ونظر إليَّ كالأسد الغضبان، وقال: يا أعرابي، طلق سعاد. قلت: لا أطلقها. فسلب جماعة من غلمانها، فصاروا يعدونني بأنواع العذاب، فلم أجد لي بدًّا إلا طلاقها ففعلت، فأعادني إلى السجن فمكثت فيه إلى أن انقضت العدة، فتزوج بها وأطلقني، وقد جئتُك راجيًا وبك مستجيرًا وإليك ملتجئًا. وأنشد هذه الأبيات:

وَالنَّارُ فِيهَا اسْتِعَارُ	فِي الْقَلْبِ مِنِّي نَارُ
فِيهِ الطَّيِّبُ يَحَارُ	وَالْجِسْمُ مِنِّي سَقِيمُ
وَالْجَمْرُ فِيهِ شَرَارُ	وَفِي فُؤَادِي جَمْرُ
وَدَمْعُهَا مِذْرَارُ	وَالْعَيْنُ تَهْطِلُ دَمْعًا
وَبِالْأَمِيرِ انْتِصَارُ	وَلَيْسَ إِلَّا بِرَبِّي

ثم اضطرب واصطكت أسنانه ووقع مغشيًا عليه، وصار يتلوى كالحية المقتولة، فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده قال: تعدى ابن الحكم في حدود الدين وظلم واجترأ على حريم المسلمين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٩٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين معاوية لما سمع كلام الأعرابي قال: تعدّي ابن الحكم في حدود الدين وظلم واجترأ على حريم المسلمين. ثم قال: يا أعرابي، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله قط. ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب إلى مروان بن الحكم: قد بلغني أنك تعدّيت على ريعتك في حدود الدين، وينبغي لمن يكون والياً أن يكفّ بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذاتها. ثم كتب بعد ذلك كلاماً طويلاً اختصرته، من جملته هذه الأبيات:

وَلَيْتَ وَيَحَكَ أَمْرًا لَسْتَ تُدْرِكُهُ	فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ مِنْ فِعْلِ امْرِئٍ زَانِي
وَقَدْ أَتَانَا الْفَتَى الْمُسْكِينُ مُنْتَجِبًا	يَشْكُو إِلَيْنَا بَبِينٍ ثُمَّ أَحْزَانٍ
أَعْطِي إِلَهَ يَمِينًا لَا أَكْفَرُهَا	نَعَمْ وَأَبْرَأُ مِنْ دِينِي وَإِيمَانِي
إِنْ أَنْتَ خَالَفْتَ فِيمَا قَدْ كَتَبْتُ بِهِ	لَأَجْعَلَنَّكَ لَحْمًا بَيْنَ عُقْبَانِي
طَلَّقْ سَعَادَ وَعَجِّلْهَا مُجَهَّزَةً	مَعَ الْكُمَيْتِ وَمَعَ نَصْرِ بْنِ ذُبْيَانَ

ثم طوى الكتاب وطبعه بخاتمه، واستدعى الكميث ونصر بن ذبيان، وكان يستنهضهما في المهمات لأمانتهما؛ فأخذا الكتاب وسارا حتى قديماً المدينة فدخلوا على مروان بن الحكم وسلموا عليه، وسلموا إليه الكتاب، وأعلماه بصورة الحال. فصار مروان يقرؤه ويبكي، ثم قام إلى سعاد وأخبرها، ولم يسعه مخالفة معاوية، فطلقها بمحضر من الكميث ونصر بن ذبيان، وجهّزهما وصبحتهما سعاد. ثم كتب مروان كتاباً إلى معاوية يقول فيه:

لَا تُعْجِلَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ	أَوْفَى بِنَذْرِكَ فِي رَفَقٍ وَإِحْسَانٍ
وَمَا أَتَيْتُ حَرَامًا حِينَ أَعْجَبَنِي	فَكَيْفَ ادَّعَى بِاسْمِ الْخَائِنِ الزَّانِي
وَسَوْفَ تَأْتِيكَ شَمْسٌ لَا نَظِيرَ لَهَا	عِنْدَ الْخَلِيفَةِ مِنْ إِنْسٍ وَمِنْ جَانٍ

وختم الكتاب ودفعه إلى الرسولين، فسارا حتى وصلا إلى معاوية وسلّمًا إليه الكتاب، فقرأه وقال: لقد أحسن في الطاعة وأطنب في ذِكر الجارية. ثم أمر بإحضارها، فلما رآها رأى صورةً حسنةً لم يرَ مثلها في الحُسن والجمال، والقَدِّ والاعتدال، فخاطبها فوجدها فصيحةً اللسان، حسنة البيان، فقال: عليّ بالأعرابي. فأتوا به وهو في حالة مزعجة من تغَيُّر الزمان عليه، فقال: يا أعرابي، هل لك عنها من سلوة وأعوّضك عنها جوارِي نهدًا وأبكارًا، كأنهن أقمار، ومع كل جارية ألف دينار، وأجعل لك في بيت المال في كل سنة ما يكفيك ويغنيك؟ فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شفق شهقة، فظنَّ معاوية أنه قد مات، فلما قال له معاوية: ما بالك؟ قال: بشر بال وسوء حال، استجرتُ بعدلك من جور ابن الحكم، فبمَن أستجير من جورك؟ وأنشد هذه الأبيات:

لَا تَجْعَلَنِي فِدَاكَ اللَّهُ مِنْ مَلِكٍ	كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ
ارْزُدْ سَعَادَ عَلَى حَيْرَانَ مُكْتَتِبٍ	يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي هَمٍّ وَتَذْكَارِ
أَطْلُقْ وَتَأْقِي وَلَا تَبْخُلْ عَلَيَّ بِهَا	فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنِّي غَيْرُ كَفَّارِ

ثم قال: والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتني ما خولته من الخلافة، ما أخذته دون سعاد. وأنشد هذا البيت:

أَبَى الْقَلْبُ فِي الْحُبِّ إِلَّا سَعَادًا هَوَاهَا غَدَا لِي رِيًّا وَزَادَا

فقال معاوية: إنك مُقَرُّ بأنك طَلَّقْتَهَا، ومروان مُقَرُّ بأنه طَلَّقَهَا، ونحن نخيرها، إن اختارت سواكَ زَوَّجْنَاهَا إِيَّاهُ، وإن اختارتك حَوَّلْنَاهَا إِلَيْكَ. قال: افعل. فقال معاوية: ما تقولين يا سعاد، مَنْ أَحَبَّ إِلَيْكَ؛ أمير المؤمنين في شرفه وعزه وقصوره وسلطانه وأمواله وما أبصرته عنده، أم مروان بن الحكم وعسفه وجوده، أم هذا الأعرابي وجوعه وفقره؟ فأنشدت هذين البيتين:

هَذَا وَإِنْ كَانَ فِي جُوعٍ وَأَضْرَارٍ	أَعَزُّ عِنْدِي مِنْ قَوْمِي وَمِنْ جَارِي
وَصَاحِبِ التَّاجِ أَوْ مَرْوَانَ عَامِلِهِ	وَكُلُّ ذِي دِرْهَمٍ عِنْدِي وَدَيْنَارِ

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ولا لغدرات الأيام، وإن له صحبةً قديمة لا تُنْسَى، ومحبةً لا تبلى، وأنا أحقُّ مَنْ صبر معه في الضراء كما

تَنَعَّمْتُ معه في السراء. فتعجَّبَ معاوية من عقلها ومودتها وموافاتها، وأمر لها بعشرة آلاف درهم، ودفعها للأعرابي وأخذ زوجته وانصرف.

حكاية عاشقين من البصرة

وَحُكِيَ أيضًا أيها الملك السعيد، أن هارون الرشيد أرق ليلةً، فوجَّهَ إلى الأصمعي، وإلى حسين الخليع، فأحضرهما وقال: حدَّثاني، وابدأ أنت يا حسين. فقال: نعم يا أمير المؤمنين، خرجت في بعض السنين منحدراً إلى البصرة، ممتدحاً محمد بن سليمان الربيعي بقصيدة، فقبلها وأمرني بالمقام، فخرجت ذات يوم إلى المريد، وجعلت المهالية طريقي، فأصابني حر شديد، فدنوت من باب كبير لأستسقي، وإذا أنا بجارية كأنها قضيب ينثني، وسناء العينين، زجاء الحاجبين، أسيلة الخدين، عليها قميص جلناري ورداء صنعاني، قد غلبت شدة بياض يديها حمرة قميصها، يتلألأ من تحت القميص ثديان كرمانتين، وبطن كطي القباطي بعكن كالقراطيس الناصعة المعقودة بالمسك محشوة، وهي يا أمير المؤمنين متقلدة بخرز من الذهب الأحمر، وهو بين نهديها وعلى صحن جبينها طرة كالسبح، ولها حاجبان مقرونان، وعينان نجلاوان، وخدان أسيلان، وأنف أقنى، تحته ثغر كاللؤلؤ وأسنان كالدر، وقد غلب عليها الطيب، وهي والهة حيرانة زاهبة في الدهليز تروح وتجيء، تخطر على أكباد مُحبيها في مشيتها، وقد أخرست سيقانها أصوات خلايلها، فهي كما قال فيها الشاعر:

كُلُّ جُزءٍ فِي مَحاسِنِهَا مُرْسَلٌ مِنْ حُسْنِهَا مَثَلًا

فهبتها يا أمير المؤمنين، ثم دنوت منها لأسلم عليها، فإذا الدار والدهليز والشارع قد عبق بالمسك، فسَلَّمْتُ عليها فردَّتْ عليَّ بلسان خاشع وقلب حزين بلهيب الوجد محترق، فقلت لها: يا سيدتي، إني شيخ غريب وأصابني عطش، أفْتَأْمِرِينِ لي بشربة ماء تُؤَجِّرِينِ عليها؟ قالت: إليك عني يا شيخ، فإني مشغولة عن الماء والزاد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٩٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت: إني مشغولة عن الماء والزاد. فقلت: لأي علة يا سيدتي؟ قالت: إني أعشق من لا ينصفني، وأريد من لا يريدني، ومع ذلك فإنني ممتحنة بمراقبة الرقباء. قلت: وهل يا سيدتي على بسطة الأرض من تريدينه ولا يريديك؟ قالت: نعم، وذلك لفضل ما رُكِبَ فيه من الجمال والكمال والدلال. قلت: وما وقوفك في هذا الدهليز؟ قالت: ها هنا طريقه، وهذا وقت اجتيازه. قلت لها: يا سيدتي، فهل اجتمعتما في وقت من الأوقات، وتحدثتُمَا حديثاً أوجب هذا الوجد؟ فتنفست الصعداء، وأرخت دموعها على خدها كطل سقط على ورد، ثم أنشدت هذين البيتين:

وَكُنَّا كَغُصْنِي بَانَةٍ فَوْقَ رَوْضَةٍ نَشُمُّ جَنَى اللَّذَاتِ فِي عَيْشَةٍ رَغَدٍ
فَأَفْرَدَ هَذَا الْغُصْنُ مِنْ ذَاكَ قَاطِعُ فَيَا مَنْ رَأَى فَرْدًا يَحِنُّ إِلَى فَرْدٍ

قلت: يا هذه، فما بلغ من عشقك لهذا الفتى؟ قالت: أرى الشمس على حيطان أهله، فأحسب أنها هو، وربما أراه بغتة فأبهت ويهرب الدم والروح من جسدي، وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل. فقلت لها: اعذريني، فإنني على مثل ما بك من الصبابة، مشغل البال بالهوى وانتحال الجسم وضعف القوى، أرى بك من شحوب اللون وريقة البشرة ما يشهد بتباريح الهوى، وكيف لم يمسسك الهوى وأنت مقيمة في أرض البصرة؟ قالت: والله كنت قبل محبتي هذا الغلام في غاية الدلال، بهية الجمال والكمال، ولقد فتننت جميع ملوك البصرة حتى افتتن بي هذا الغلام. قلت: يا هذه، ما الذي فرّق بينكما؟ قالت: نوائب الدهر، ولحديثي وحديثه شأن عجيب؛ وذلك أنني قعدت في يوم نيروز، ودعوت عدة من جواري البصرة، وفي تلك الجوارى جارية سيران، وكان ثمنها عليه من عمان ثمانين ألف

درهم، وكانت لي مُحبّة وبني مولعة، فلما دخلتُ رمت نفسها عليّ وكادت تقطعني قرصاً وعضاً، ثم خلونا ننعّم بالشراب إلى أن يتهياً طعامنا ويتكامل سرورنا، وكانت تلاعبني وألاعبها، فتارةً أنا فوقها وتارةً هي فوقي، فحملها السكر على أن ضربت يدها إلى دكتي، فحلّنتها من غير ريبة كانت بيننا، ونزل سروالي بالملاعبة، فبينما نحن كذلك إذ دخل هو على حين غفلة، فرأى ذلك، فاغتاظ لذلك وانصرف عني انصراف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل لجامها، فوُلّي خارجاً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٩٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت لحسين الخليع: إن محبوبي لما رأى ما ذكرتُ لك من ملاعبي مع جارية سيران، خرج مغضباً مني، فأنا يا شيخ منذ ثلاث سنين لم أزل أعتذر إليه وأتلف به وأستعطفه، فلا ينظر إليّ بطرف، ولا يكتب إليّ بحرف، ولا يكلم لي رسولاً، ولا يسمع مني قليلاً. قلت لها: يا هذه، أمنّ العرب هو أم منّ العجم؟ قالت: ويحك، هو من جملة ملوك البصرة. فقلت لها: أشيخ هو أم شاب؟ فنظرتُ إليّ شزراً وقالت: إنك أحمق، هو مثل القمر ليلة البدر، أجرد أمرد، لا يعيبه شيء غير انحرافه عني. فقلت لها: ما اسمه؟ قالت: ما تصنع به؟ قلت: أجتهد في لقائه لتحصيل الوصال بينكما. قالت: على شرط أن تحمل إليه رقعة. قلت: لا أكره ذلك. فقالت: اسمه ضمرة بن المغيرة، ويكنى بأبي السخاء، وقصره بالمريد. ثم صاحت على من في الدار: هاتوا الدواة والقرطاس. وشمרת عن ساعدين كأنهما طوقان من فضة، وكتبت بعد التسمية: «سيدي، ترك الدعاء في صدر رقعتي يُنبئ عن تقصيري، واعلم أن دعائي لو كان مستجاباً ما فارقتني؛ لأنني كثيراً ما دعوتُ ألا تفارقني وقد فارقتني، ولولا أن الجهد تجاوز بي جد التقصير لكان ما تكلفته خادمك من كتابة هذه الرقعة معيناً لها مع يأسها منك؛ لعلمها أنك تترك الجواب، وأقصى مرادها سيدي نظرة إليك وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز تُحيي بها نفساً ميتة، وأجلُّ من ذلك عندها أن تخطَّ بخط يدك — بسطها الله بكل فضيلة — رقعة، وتجعلها عوضاً عن تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات، التي أنت ذاكر لها سيدي، ألسنتُ لك محبة مدنفة؟ فإن أجبتَ إلى المسألة كنتُ لك شاكراً، والله حامدة والسلام.»

فتناولتُ الكتاب وخرجت، وأصبحت غدوت إلى باب محمد بن سليمان، فوجدت مجلساً محتفلاً بالملوك، ورأيت غلاماً قد زان المجلس، وفاق على من فيه جمالاً وبهجة

قد رفعه الأمير فوقه، فسألت عنه فإذا هو ضمرة بن المغيرة، فقلت في نفسي: بالحقيقة حلّ بالمسكينة ما حلّ بها. ثم قمت وقصدت المريد، ووقفت على باب داره، فإذا هو قد ورد في موكب، فوثبت إليه وبالغت في الدعاء وناولته الرقعة، فلما قرأها وفهم معناها قال لي: يا شيخ، قد استبدلنا بها، فهل لك أن تنظر إلى البديل؟ قلت: نعم. فصاح على فتاة، وإذا هي جارية تُخجل القمرين، ناهدة الثديين، تمشي مشية مستعجل من غير وجل، فناولها الرقعة وقال: أجيبني عنها. فلما قرأتها اصفراً لونها حيث عرفت ما فيها وقالت: يا شيخ، استغفر الله ممّا جنّت فيه. فخرجت يا أمير المؤمنين، وأنا أجر رجلي حتى أتيتها واستأذنت عليها ودخلت، فقالت: ما وراءك؟ قلت: البأس واليأس. قالت: ما عليك منه، فأين الله والقدرة. ثم أمرت لي بخمسائة دينار وخرجت، ثم جزت على ذلك المكان بعد أيام، فوجدت غلماناً وفرساناً فدخلت، وإذا هم أصحاب ضمرة يسألونها الرجوع إليه، وهي تقول: لا والله لا نظرت له في وجه. فسجدت شكراً لله يا أمير المؤمنين شماتة بضمرة، وتقرّبت من الجارية فأبرزت لي رقعة، فإذا فيها بعد التسمية: «سيدتي، لولا إبقائي عليك — أدام الله حياتك — لوضعت شطراً مما حصل منك، وبسطت عذري في ظلامتك إياي؛ إذ كنت الجانية على نفسك ونفسي المظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء والمؤثرة علينا غيرنا، فخالفت هواي والله المستعان على ما كان من اختيارك والسلام.» وأوقفتني على ما حمله إليها من الهدايا والتحف، وإذا هو بمقدار ثلاثين ألف دينار، ثم رأيته بعد ذلك وقد تزوّج بها ضمرة، فقال الرشيد: لولا أن ضمرة سبقني إليها لكان لي معها شأن من الشئون.

إسحاق الموصلّي وإبليس

وحكي أيضاً أيها الملك أن إسحاق بن إبراهيم الموصلّي قال: بينما أنا ذات ليلة في منزلي، وكان زمن الشتاء، وقد انتشرت السحب وتراكت الأمطار تقطر كأفواه القرب، وامتنع الغادي والمقبل من السير في الطرقات لما فيها من الأمطار والوحل، وأنا ضيق الصدر، حيث لم يأتني أحد من إخواني، ولم أقدر أن أسير إليهم من شدة الوحل والطين. فقلت لغلامي: أحضر لي ما أتشاغل به. فأحضر لي طعاماً وشراباً، فتغنصت إذ لم يكن معي من يؤانسني. ولم أزل أطلع من الطاقات وأراقب الطرقات حتى أقبل الليل، فتذكرت جارية لبعض أولاد المهدي كنت أهواها، وكانت عارفة بالغناء وتحريك آلات الملاهي، فقلت في نفسي: لو كانت الليلة عندنا لتم سروري وقصر ليالي من الفكر والقلق. وإذا بذاك يدق الباب وهو يقول: أيدخل محبوب على الباب واقف؟ فقلت في نفسي: لعل غرس

التمنّي قد أثمر. فقمْتُ إلى الباب فإذا بصاحبتني وعليها مرط أخضر قد انتشَحَتْ به، وعلى رأسها وقاية من الديباج تقيها من المطر، وقد غرقت في الطين إلى ركبتيّها وابتلّ ما عليها من الميازيب، وهي في قالب عجيب. فقلت لها: يا سيدتي، ما الذي أتى بك في مثل هذه الأوجال؟ فقالت: قاصدك جاءني ووصف ما عندك من الصبابة والشوق، فلم يسعني إلا الإجابة والإسراع نحوك. فتعجّبْتُ من ذلك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٩٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما أتت وطرقت باب إسحاق، خرج لها وقال: يا سيدتي، ما الذي أتى بك في هذه الأحوال؟ قالت له: قاصدك جاءني ووصف ما عندك من الصبابة والشوق، فلم يسعني إلا الإجابة والإسراع نحوك. فتعجبت من ذلك وكرهت أني أقول لها لم أرسل إليك أحدًا، فقلت: الحمد لله على جمع الشمل بعد ما قاسيت من ألم الصبر، ولو كنت أبطأت علي ساعة كنت أحق بالسعي إليك؛ لأنني أشتاق إليك، كثير الصبابة نحوك. ثم قلت لغلامي: هات الماء. فأقبل بمسخرة فيها ماء حار حتى تصلح حالها، ثم أمرته أن يصب الماء على رجليها وتوليت غسلهما بنفسي، ثم دعوت ببدة من أفخر الملابس، فألبستها إياها بعد أن نزع ما كان عليها وجلسنا، ثم استدعيت بالطعام فأبّت، فقلت: هل لك في الشراب؟ قالت: نعم. فتناولت أقداحًا ثم قالت: من يغن؟ فقلت: أنا يا سيدتي. فقالت: لا أحب. فقلت: بعض جوارئ. قالت: لا أريد. قلت: غن بنفسك. قالت: ولا أنا. قلت لها: فمن يغن لك؟ قالت: اخرج التمس من يغني لي. فخرجت طاعة لها إلا أنني يائس ومتيقن ألا أجد أحدًا في مثل هذا الوقت، فلم أزل ماشيًا حتى بلغت الشارع، وإذا أنا بأعمى يخطب الأرض بعصاه وهو يقول: لا جزى الله من كنت عندهم خيرًا، إن غنيت لم يسمعوا، وإن سكنت استخفوا بي. فقلت له: أمغن أنت؟ قال: نعم. قلت له: فهل لك أن تتم ليلتك عندنا وتونسنا؟ قال: إن شئت خذ بيدي. فأخذت بيده وسرت إلى الدار وقلت لها: يا سيدتي، قد أتيت بمغن أعمى نلتد به ولا يرانا. فقالت: علي به. فأدخلته وعزمت عليه بالطعام، فأكل أكلاً لطيفاً وغسل يديه، وقدمت إليه الشراب فشرب ثلاثة أقداح ثم قال: من تكن؟ قلت: إسحاق بن إبراهيم الموصلي. قال: لقد كنت أسمع

بك، والآن فرحتُ بمنادمتك. فقلت: يا سيدي، فرحت بفركك. ثم قال: غنَّ لي يا إسحاق. فأخذت العود على سبيل المجون وقلت: السمع والطاعة. فلما أن غنَّيتُ وانقضى الصوت قال: يا إسحاق، قاربَت أن تكون مغنِّياً. فصغرت إلى نفسي وألقيت العود من يدي، فقال: أما عندك مَنْ يُحسِنُ الغناء؟ قلت: عندي جارية. قال: مُرَّها أن تغني. فقلت: هل تغني وأنت واثق بغنائها؟ قال: نعم. فغنَّتُ. قال: لا ما صنعتُ شيئاً. فرمت العود من يدها مغضبة وقالت: الذي عندنا جُذنا به، فإن كان عندك شيء فتصدَّق به علينا. فقال: عليَّ بعود لم تمسه يد. فأمرت الخادم فجاء بعود جديد، فجس العود وضرب في طريق لا أعرفها، واندفع يغني وينشد هذين البيتين:

سَرَى يَقْطَعُ الظُّلَمَاءَ وَاللَّيْلُ عَاكِفُ حَبِيبٌ بِأَوْقَاتِ الزِّيَارَةِ عَارِفُ
وَمَا رَاعَنَا إِلَّا سَلَامٌ وَقَوْلُهَا أَيَدْخُلُ مَحْبُوبٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقِفُ؟

قال: فنظرتُ إليَّ الجارية شزراً وقالت: سرُّ بيني وبينك ما يسعه صدرك ساعةً وأودعته لهذا الرجل! فحلفتُ لها واعتذرت إليها، ثم أخذت أقبلَ يديها وأزغزغ ثدييها وأعض خديها حتى ضحكت. ثم التفت إلى الأعمى وقلت له: غنَّ يا سيدي. فأخذ العود وغنَّى بهذين البيتين:

أَلَا رُبَّمَا زُرْتُ الْمَلَاخَ وَرُبَّمَا لَمَسْتُ بِكَفِّي الْبَنَانَ الْمُخَضَّبَا
وَزَغَزَغْتُ رُفَّانَ الصُّدُورِ وَلَمْ أَرْلُ أُعْضِعُ تَفَاحَ الْخُدُودِ الْمُكَبَّبَا

فقلت لها: يا سيدتي، مَنْ أعلمه بما نحن فيه؟ قالت: صدقت. ثم تجنَّبناه، فقال: إنني حاقن. فقلت: يا غلام، خذ الشمعة وامض بين يديه. فخرج وأبطأ، فخرجنا في طلبه فلم نجده، فإذا الأبواب مغلقة والمفاتيح في الخزانة، فلا ندري أفي السماء صعد أم في الأرض هبط؟ فعلمتُ أنه إبليس وأنه قاد لي. ثم انصرفْتُ فتذكرْتُ قول أبي نواس حيث قال هذين البيتين:

عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسَ فِي كِبَرِهِ وَخُبْتُ مَا أَضْمَرَ فِي نِيَّتِهِ
تَاهَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَةٍ وَصَارَ قَوَادًا لِذُرِّيَّتِهِ

حكاية عاشقين من أهل المدينة

وحُكي أيضًا أن إبراهيم بن إسحاق قال: كنتُ منقطعًا إلى البرامكة، فبينما أنا يومًا في منزلي وإذا ببابي يدق، فخرج غلامي وعاد وقال لي: على الباب فتى جميلٌ يستأذن. فأذنتُ له، فدخل شاب عليه أثر السقم، فقال: إن لي مدة أحاول لقاءك ولي إليك حاجة. فقلت: ما هي؟ فأخرجَ ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدي وقال: أسألك أن تقبلها مني وتصنع لي لحنًا في بيتين قلتَهما. فقلت له: أنشدنيهما. فأنشد وجعل يقول ... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتتُ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٩٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن إبراهيم بن إسحاق لما دخل عليه الفتى، ووضع بين يديه الدنانير وقال له: أسألك أن تقبلها وتصنع لي لحنًا في بيتين قلتهما. فقال له: أنشدنيهما. فأنشد يقول:

بِاللّهِ يَا طَرْفِي الْجَانِي عَلَى كَيْدِي لَتُطْفَنَنَّ بِدَمْعِي لَوَعَةَ الْحَزَنِ
الدَّهْرُ مِنْ جُمْلَةِ الْعُدَالِ فِي سَكْنِي فَلَا أَرَاهُ وَلَوْ أُدْرِجْتُ فِي كَفَنِي

قال: فصنعتُ له لحنًا يشبه النوح، ثم غَنَيْتُهُ فَأَغَمِي عليه حتى ظننتُ أنه مات، ثم أفاق وقال: أَعُدْ. فناشدتُه الله وقلت: أخشى أن تموت. قال: ليت ذلك لو كان. وما زال يخضع ويتضرّع حتى رحمته وأعدته. فصعق صعقة أشد من الأولى فلم أشك في موته، وما زلت أنضح عليه من ماء الورد حتى أفاق وجلس، فحمدت الله على سلامته ووضعت دنانيره بين يديه وقلت له: خذ مالك وانصرف عني. فقال: لا حاجة لي به، ولك مثلها إن أعدت اللحم. فانشرح صدري إلى المال، فقلت له: أُعيد ولكن بثلاثة شروط؛ أولها أن تقيم عندي وتأكل طعامي حتى تقوي نفسك، والثاني أن تشرب من الشراب ما يمسك قلبك، والثالث أن تحدّثني بحديثك. ففعل ذلك ثم قال: إني رجل من أهل المدينة، خرجت متنزهًا وقد سلكت طريق العقيق مع إختوي، فرأيت جارية مع فتيات كأنهن غصن جلّله الندى، تنظر بعينين ما ارتدّ طرفهما إلا بنفس ملاحظتهما، فأظللن حتى فرغ النهار ثم انصرفن، وقد وجدتُ بقلبي جراحًا بطيئة الاندمال؛ فعدتُ أتنسّم أخبارها فلم أجد أحدًا، فصرتُ

أَتَتَّبِعُهَا فِي الْأَسْوَاقِ، فَلَمْ أَقْعَ لَهَا عَلَى خَبْرٍ، وَمَرَضْتُ أَسَى وَحَكَيْتُ قِصَّتِي لَذِي قَرَابَةٍ لِي، فَقَالَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، هَذِهِ أَيَّامُ الرَّبِيعِ مَا انْقَضَتْ وَسَتَمَطِرُ السَّمَاءُ فَتَخْرُجُ حِينِيذٍ وَأَخْرَجَ أَنَا مَعَكَ فَأَفْعَلُ مَرَادَكَ. فَاطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ إِلَى أَنْ سَالَ الْعَقِيقُ وَخَرَجَ، فَخَرَجْتُ مَعَ إِخْوَتِي وَقَرَابَتِي فَجَلَسْنَا فِي مَجْلِسِنَا بَعَيْنَهُ، فَمَا لَبِثْنَا إِلَّا وَالنِّسْوَةُ أَقْبَلْنَ كَفَرَسِي رَهَانَ، فَقُلْتُ لَجَارِيَةِ مِنْ أَقْرَابِي: قُولِي لِهَذِهِ الْجَارِيَةِ، يَقُولُ لَكَ هَذَا الرَّجُلُ: لَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ هَذَا الْبَيْتَ:

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ أَفْصَدَ الْقُلُوبَ وَانْتَنَتْ وَقَدْ عَاوَدَتْ جُرْحًا بِهِ وَنُدُوبًا

فَمَضَتْ إِلَيْهَا وَقَالَتْ لَهَا ذَلِكَ، فَقَالَتْ: قُولِي لَهُ: لَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ أَجَابَ بِهَذَا الْبَيْتَ:

بِنَا مِثْلَ مَا تَشْكُو فَصَبْرًا لَعَلَّنَا نَرَى فَرَجًا يَشْفِي الْقُلُوبَ قَرِيبًا

وَأَمْسَكَتُ عَنِ الْكَلَامِ خَوْفَ الْفُضِيحَةِ وَقَمْتُ مَنْصَرَفًا، فَقَامَتْ لِقِيَامِي وَتَبِعَتْهَا، فَارْتَدَّتْني حَتَّى عَرَفْتُ مَنَازِلَهَا، وَصَارَتْ تَسِيرُ إِلَيَّ وَأَسِيرُ إِلَيْهَا حَتَّى اجْتَمَعْنَا، وَكَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى شَاعَ وَظَهَرَ وَعَلِمَ أَبُوهَا؛ فَلَمْ أَزَلْ مُجْتَهِدًا فِي لِقَائِهَا وَشَكُوتُ ذَلِكَ إِلَى أَبِي، فَجَمَعَ أَهْلُنَا وَمَضَى إِلَى أَبِيهَا رَاغِبًا فِي خُطْبَتِهَا، فَقَالَ: لَوْ بَدَا لِي ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَفْضَحَهَا لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ اشْتَهَرَ ذَلِكَ فَمَا كُنْتُ لِأَحَقِّقَ قَوْلَ النَّاسِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ الصَّوْتِ، فَعَرَفَنِي مَنَازِلَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ، وَكَانَ بَيْنَنَا عَشْرَةٌ. ثُمَّ جَلَسَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَحَضَرَتْ عَلَيَّ عَادَتِي، فَغَنَيْتُهُ شِعْرَ الْفَتَى، فَطَرِبَ وَشَرِبَ أَقْدَاحًا وَقَالَ: وَيْلَكَ! لَمَنْ هَذَا الصَّوْتُ؟ فَحَدَّثْتُهُ حَدِيثَ الْفَتَى، فَأَمَرَنِي بِالرُّكُوبِ إِلَيْهِ وَأَنْ أَجْعَلَهُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ بُلُوغِ إِرْبِهِ؛ فَمَضَيْتُ إِلَيْهِ فَأَحْضَرْتَهُ، فَاسْتَعَادَ الْحَدِيثَ فَحَدَّثَهُ، فَقَالَ: أَنْتَ فِي ذِمَّتِي حَتَّى أَزُوجَكَ إِيَّاهَا. فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَأَقَامَ مَعَنَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ رَكِبَ جَعْفَرُ إِلَى الرَّشِيدِ وَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ، فَاسْتَظَرَفَهُ وَأَمَرَ أَنْ نَحْضُرَ جَمِيعًا، فَاسْتَعَادَ الصَّوْتِ وَشَرِبَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِكُتُبِ كِتَابٍ إِلَى عَامِلِ الْحِجَازِ بِإِحْضَارِ أَبِي الْمَرْأَةِ وَأَهْلِهَا مُبْجَلًا إِلَى حَضْرَتِهِ، وَالْإِنْفَاقَ عَلَيْهِمْ نَفَقَةً وَاسِعَةً؛ فَلَمْ يَمُضْ إِلَّا يَسِيرٌ حَتَّى حَضَرُوا، فَأَشَارَ الرَّشِيدُ بِإِحْضَارِ الرَّجُلِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَحَضَرَ، وَأَمَرَهُ بِتَزْوِيجِ ابْنَتِهِ مِنَ الْفَتَى وَأَعْطَاهُ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَانْقَلَبَ إِلَى أَهْلِهِ. وَلَمْ يَزَلِ الشَّابُّ مِنْ نَدْمَاءِ جَعْفَرٍ حَتَّى حَدَثَ مَا حَدَثَ، فَعَادَ الْفَتَى بِأَهْلِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَرَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَرْوَاحَهُمْ أَجْمَعِينَ.

حكاية الملك الناصر ووزيره

وحُكي أيضًا أيها الملك السعيد، أن الوزير أبا عامر بن مروان كان قد أُهدي إليه غلامٌ من النصارى، لا تقع العيون على أحسن منه؛ فلمحه الملك الناصر فقال لسيده: من أين هذا؟ قال: هو من عند الله. فقال له: أتخوفنا بالنجوم وتأسرنا بالأقمار؟ فاعتذر إليه ثم احتفل في هدية بعثها إليه مع الغلام وقال له: كُنْ داخلًا في جملة الهدية، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي. وكتب معه هذين البيتين:

أَمْوَلَايَ هَذَا الْبَدْرُ سَارَ لِأَفْقِكُمْ أَرَى الْأَفْقَ أَوَّلَى بِالْبُدُورِ مِنَ الْأَرْضِ
فَأَرْضِيكُمْ بِالنَّفْسِ وَهِيَ نَفِيسَةٌ وَلَمْ أَرْ قَبْلِي مَنْ بِمُهْجَتِهِ يُرْضِي

فَحَسُنَ ذلك عند الناصر وأتحفه بمال جزيل وتمكَّن عنده. ثم بعد ذلك أُهديت للوزير جارية من أجلاء نساء الدنيا، فخاف أن ينمي ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام؛ فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وأرسلها مع الجارية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٦٩٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير أبا عامر لما أُهديت إليه الجارية، خاف أن يصل خبرها إلى الملك الناصر وتكون قصتها مثل قصة الغلام؛ فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وأرسلها وصحبته الجارية، وكتب معها هذه الأبيات:

تَقَدَّمَ إِلَيْهَا يَلْتَقِي الْقَمَرَانِ	أَمْوَلَايَ هَذِي الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ أَوَّلًا
فَدُمَ مِنْهُمَا فِي كَوْنٍ وَجَنَانِ	قِرَانُ لَعْمَرِي بِالسَّعَادَةِ نَاطِقُ
وَمَا لَكَ فِي مُلْكِ الْبَرِّيَّةِ ثَانِ	فَمَا لَهُمَا وَاللَّهِ فِي الْحُسْنِ ثَالِثُ

فتضاعفت مكانته عنده، ثم وشى به بعض أعدائه عند الناصر بأن عنده من الغلام بقية حرارة، وأنه لا يزال يلهج بذكره حين تحركه الشمول، فيقرع السن على إهداء الغلام. فقال الناصر: لا تحرك به لسانك وإلا أطرتُ رأسك. وكتب إليه على لسان الغلام ورقةً فيها: يا مولاي، أنت تعلم أنك كنت لي على الانفراد، ولم أزل معك في نعيم، وأنا وإن كنتُ عند السلطان فإني أحب انفرادي بك، ولكنني أخشى من سطوة الملك؛ فتحيلُ في استدعائي منه. ثم بعثها مع غلام صغير وأوصاه أن يقول: هي من عند فلان، وإن الملك لم يكلمه قط. فلما أوقف عليها أبو عامر ودلّس عليه الخادم أحس بالشربة، فكتب على ظهر الورقة هذه الأبيات:

لِذِي الْحَزْمِ أَنْ يَسْعَى إِلَى غَايَةِ الْأَسَدِ	أَمِنْ بَعْدِ إِحْكَامِ التَّجَارِبِ يَنْبَغِي
وَلَا جَاهِلٌ مَا يَدْعِيهِ أَوْلُو الْحَسَدِ	وَلَا أَنَا مِمَّنْ يَغْلُبُ الْحُبُّ عَقْلَهُ
وَكَيْفَ تَرُدُّ الرُّوحَ إِنْ فَارَقَتْ جَسَدَ	فَإِنْ كُنْتَ رُوحِي قَدْ وَهَبْتُكَ طَائِعًا

فلما وقف الناصر على الجواب، تعجّب من فطنته ولم يَعدْ إلى استماع وإش فيه بعد ذلك. ثم قال له: كيف خلصت من الشُّرك؟ قال: لأن عقلي بالهوى غير مشترك. والله أعلم.

حكاية دليلة المحتالة

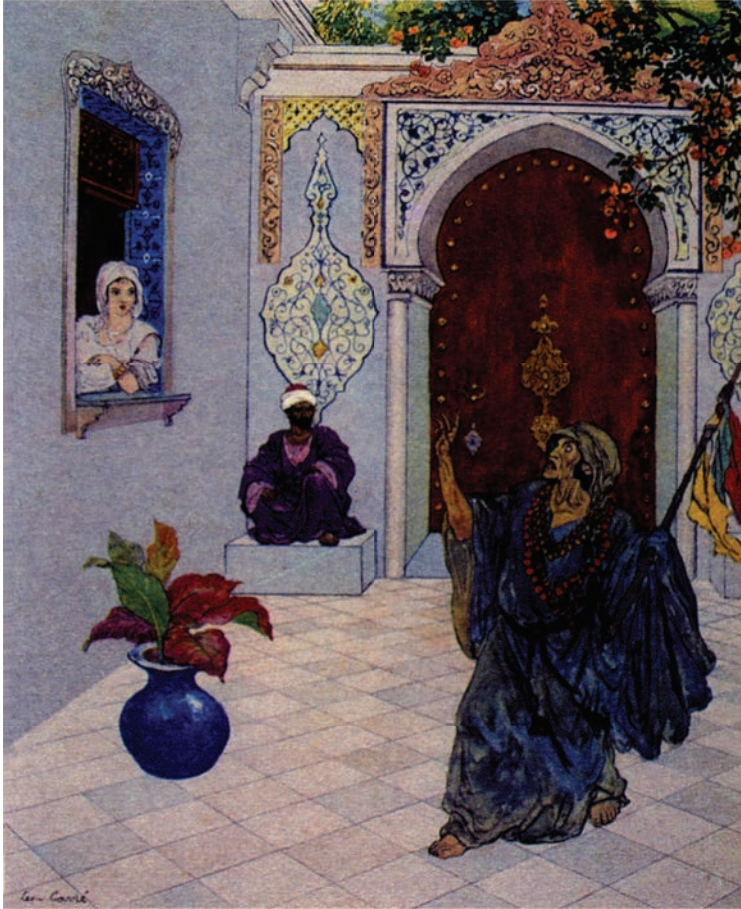
وَحُكِّي أَيْضًا أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ، أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ خِلاَفَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ رَجُلٌ يُسَمَّى أَحْمَدُ الدَّنْفِ، وَآخِرُ اسْمِهِ حَسَنُ شُومَانٍ، وَكَانَا صَاحِبَا مَكْرٍ وَحِيلٍ، وَلَهُمَا أَفْعَالٌ عَجِيبَةٌ، فَبَسَبَبِ ذَلِكَ خَلَعَ الْخَلِيفَةُ عَلَى أَحْمَدِ الدَّنْفِ خُلْعَةً وَجَعَلَهُ مَقْدَمَ الْمِيمَنَةِ، وَخَلَعَ عَلَى حَسَنِ شُومَانٍ خُلْعَةً وَجَعَلَهُ مَقْدَمَ الْمِيسِرَةِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا جَامِكِيَّةً فِي كُلِّ شَهْرٍ أَلْفَ دِينَارٍ، وَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنْ تَحْتِ يَدِهِ، وَكَانَ مَكْتُوبًا بِأَعْلَى: أَحْمَدُ الدَّنْفِ دَرَكُ الْبَرِّ. فَنَزَلَ أَحْمَدُ الدَّنْفِ وَمَعَهُ حَسَنُ شُومَانٍ، وَمِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمَا رَاكِبِينَ، وَالْأَمِيرُ خَالِدُ الْوَالِي بِصَحْبَتِهِمْ، وَالْمَنَادِي يَنَادِي حَسْبَمَا رَسَمَ الْخَلِيفَةُ أَنَّهُ: لَا مَقْدَمَ بَغْدَادَ فِي الْمِيمَنَةِ إِلَّا الْمَقْدَمُ أَحْمَدُ الدَّنْفِ، وَلَا مَقْدَمَ بَغْدَادَ فِي الْمِيسِرَةِ إِلَّا حَسَنُ شُومَانٍ، وَإِنْهُمَا مَسْمُوعَانِ الْكَلِمَةِ وَاجِبَانِ الْحَرَمَةِ، وَكَانَ فِي الْبَلَدَةِ عَجُوزٌ تُسَمَّى دَلِيلَةُ الْمَحْتَالَةِ، وَلَهَا بِنْتُ تُسَمَّى زَيْنَبُ النَّصَابَةِ، فَسَمِعَتَا الْمَنَادَاةَ بِذَلِكَ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ لَأُمِّهَا دَلِيلَةُ: انْظُرِي يَا أُمِّي، هَذَا أَحْمَدُ الدَّنْفِ جَاءَ مِنْ مِصْرٍ مَطْرُودًا، وَلَعِبَ مَنَاصِفَ فِي بَغْدَادَ إِلَى أَنْ تَقَرَّبَ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ، وَبَقِيَ مَقْدَمَ الْمِيمَنَةِ، وَهَذَا الْوَلَدُ الْأَقْرَعُ حَسَنُ شُومَانٍ صَارَ مَقْدَمَ الْمِيسِرَةِ، وَلَهُ سَمَاطٌ فِي الْغَدَاةِ وَسَمَاطٌ فِي الْعِشِيِّ، وَلَهُمَا جَوَامِكُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَلْفَ دِينَارٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ، وَنَحْنُ قَاعِدُونَ مَعْطَلُونَ فِي هَذَا الْبَيْتِ، لَا مَقَامَ لَنَا وَلَا حَرَمَةَ، وَلَيْسَ لَنَا مَنْ يَسْأَلُ عَنَّا. وَكَانَ زَوْجُ دَلِيلَةِ مَقْدَمَ بَغْدَادَ سَابِقًا، وَكَانَ لَهُ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ فِي كُلِّ شَهْرٍ أَلْفَ دِينَارٍ، فَمَاتَ عَنْ بَنَتَيْنِ؛ بِنْتُ مَتْرُوجَةٍ وَمَعَهَا وَلَدٌ يُسَمَّى أَحْمَدُ اللَّقِيطِ، وَبِنْتُ عَازِبَةٍ تُسَمَّى زَيْنَبُ النَّصَابَةِ، وَكَانَتْ دَلِيلَةُ صَاحِبَةً حَيْلٍ وَخِدَاعٍ وَمَنَاصِفٍ، وَكَانَتْ تَتَحِيلُ عَلَى الثَّعْبَانِ حَتَّى تَطْلُعَهُ مِنْ وَكْرِهِ، وَكَانَ إِبْلِيسُ يَتَعَلَّمُ مِنْهَا الْمَكْرَ، وَكَانَ زَوْجُهَا بَرَّاجٌ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ، وَكَانَ لَهُ جَامِكِيَّةٌ فِي كُلِّ شَهْرٍ أَلْفَ دِينَارٍ، وَكَانَ يَرْبِي حَمَامَ الْبَطَاقَةِ الَّذِي يَسَافِرُ بِالْكَتَبِ وَالرَّسَائِلِ، وَكَانَ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ كُلِّ طَيْرٍ لَوْ قَتَلَ حَاجَتَهُ أَغْزَمَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ لَأُمِّهَا: قَوْمِي أَعْمَلِي حَيْلًا وَمَنَاصِفَ؛ لَعَلَّ بِذَلِكَ يَشْتَهَرُ لَنَا صَيْتٌ فِي بَغْدَادَ، وَتَكُونُ لَنَا جَامِكِيَّةٌ أَبِينَا. وَأَدْرَكَ شَهْرُ زَادِ الصَّبَاحِ فَسَكَّتَتْ عَنِ الْكَلَامِ الْمَبَاحِ.

فلما كانت الليلة ٦٩٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زينب النصابة لما قالت لأمها: قومي اعلمي لنا حيلًا ومناصف؛ لعل بذلك يشيع لنا صيت في بغداد، فتكون لنا جامكية أبينا، فقالت لها: وحياتك يا بنتي لألعب في بغداد مناصف أقوى من مناصف أحمد الدنف وحسن شومان. فقامت ضربت على وجهها لثامًا، ولبست لباس الفقراء من الصوفية، ولبست لباسًا نازلاً لكعبها وجبة صوف، وتحزمت بمنطقة عريضة، وأخذت إبريقًا وملأته ماء لرقبته، وحطت في فمه ثلاثة دنانير، وغطت فم الإبريق بليفة، وتقلدت بسبح قدر حملة حطب، وأخذت راية في يدها، وفيها شراميط حمر وصفرة، وطلعت تقول: الله واللسان ناطق بالتسبيح، والقلب راكض في ميدان القبيح. وصارت تتلمح لمنصف تلعبه في البلد، فسارت من زقاق إلى زقاق حتى وصلت إلى زقاق مكنوس مرشوش، وبالرخام مفروش، فرأت بابًا مقوصًا بعتبة من مرمر، ورجلًا مغربيًا بوابًا واقفًا بالباب، وكانت تلك الدار لرئيس الشاوشية عند الخليفة، وكان صاحب الدار ذا زرع وبلاد وجامكية واسعة، وكان يُسمَّى حسن شر الطريق، وما سمَّوه بذلك إلا لكون ضربته تسبق كلمته، وكان متزوجًا بصبية مليحة وكان يحبها، وكانت ليلة دخلته بها حلفته أنه لا يتزوج عليها ولا يبيت في غير بيته، إلى أن طلع زوجها يومًا من الأيام إلى الديوان، فرأى كل أمير معه ولد أو ولدان، وكان قد دخل الحمام ورأى وجهه في المرأة، فرأى بياض شعر ذقنه غطى سوادها، فقال في نفسه: هل الذي أخذ أباك لا يرزقك ولدًا. ثم دخل على زوجته وهو مغتاظ، فقالت له: مساء الخير. فقال لها: روجي من قدامي، من يوم رأيتك ما رأيت خيرًا. فقالت له: لأي شيء؟ فقال لها: ليلة دخلت عليك حلفتني أنني ما أتزوج عليك، ففي هذا اليوم رأيت الأمراء كل واحد معه ولد، وبعضهم معه ولدان، فتذكرت الموت وأنا ما رزقت بولد ولا بنت، ومن لا ذكر

ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)

له لا يُذكر، وهذا سبب غيظي؛ فإنك عاقر لا تحبلين مني. فقالت له: اسم الله عليك، أنا خرقت الأهوان من دق الصوف والعقاقير، وأنا ما لي ذنب والعاقبة منك؛ لأنك بغل أفتس، وبيضك رائق لا يحبل ولا يجيء بأولاد. فقال لها: لما أرجع من السفر أتزوِّج عليك. فقالت له: نصيبي على الله.



لبست لباس الفقراء، وأخذت رايةً في يدها، وسارت من زقاقٍ إلى زقاقٍ.

وطلع من عندها وندما على معايرة بعضهما، فبينما زوجته تطلُّ من طاقتها وهي كأنها عروسة، كنز من المصاغ الذي عليها، وإذا بدليلة واقفة فرأتها، فنظرت عليها صيغة وثياباً مثمّنة، فقالت لنفسها: يا دليلة، لا أصنع من أن تأخذي هذه الصبية من بيت زوجها، وتعرّيها من المصاغ والثياب، وتأخذي جميع ذلك. فوقفتُ وذكرتُ تحت شبّاك القصر، وقالت: الله الله. فرأت الصبية هذه العجوز وهي لابسة من الثياب البيض ما يشبه قبة من نورٍ، متهيئة بهيئة الصوفية، وهي تقول: احضروا يا أولياء الله. فطلّت نساء الحارة من الطيقان، وقالت: شيئاً لله من المدد، هذه شيخة طالع من وجهها النور. فبكت خاتون زوجة الأمير حسن وقالت لجارياتها: انزلي قبلي يد الشيخ أبي علي البوّاب، وقولي له: خليه يدخل الشيخة لتتبرّك بها. فنزلت وقبّلت يده، وقالت: سيدتي تقول لك خل هذه الشيخة تدخل إلى سيدتي لتتبرّك بها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٠٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما نزلت للبواب وقالت له: سيدتي تقول لك: خل هذه الشيخة تدخل لسيدتي لتتبرك بها؛ لعل بركتها تعم علينا. تقدّم البواب وقبّل يدها، فمنعته وقالت له: ابعد عني لئلا تنقض وضوئي، أنت الآخر مجذوب وملحوظ من الأولياء، الله يعتقك من هذه الخدمة يا أبا علي. وكان للبواب أجرة ثلاثة أشهر على الأمير، وكان معسرًا ولم يعرف أن يخلصها من ذلك الأمير، فقال لها: يا أمي، اسقيني من إبريقك لأتبرّك بك. فأخذت الإبريق من كنفها وبرمت به في الهواء، وهزت يدها حتى طارت الليفة من فم الإبريق، فنزلت الثلاثة دنانير على الأرض، فنظرها البواب والتقطها وقال في نفسه: شيء لله، هذه الشيخة من أصحاب التصرف، فإنها كاشفت عليّ وعرفت أنني محتاج للمصروف، فتصرّفت لي في حصول ثلاثة دنانير من الهواء. ثم أخذها في يده وقال لها: خذي يا خالتي الثلاثة دنانير التي وقعت على الأرض من إبريقك. فقالت له العجوز: أبعدها عني، فإني من ناس لا يشتغلون بدنيا أبدًا، خذها ووسّع بها على نفسك عوضًا عن الذي لك على الأمير. فقال: شيئًا لله من المدد، وهذا من باب الكشف.

وإذا بالجارية قبّلت يدها، وأطلعتها لسيدتها. فلما دخلت رأت سيدة الجارية كأنها كنز انفكّت عنه الطلاس، فرحبت بها وقبّلت يدها، فقالت لها: يا بنتي، أنا ما جئتُك إلا بمشورة. فقدّمت لها الأكل، فقالت لها: يا بنتي، أنا ما أكل إلا من مأكّل الجنة، وأديم صيامي فلا أفطر إلا خمسة أيام في السنة، ولكن يا بنتي أنا أنظرك مكدرة، ومرادي أن تقول لي على سبب تكديرك. فقالت: يا أمي، في ليلة ما دخلت حلّفتُ زوجي أنه لا يتزوَّج غيري، فرأى الأولاد فتشوّق إليهم، فقال لي: أنت عاقر. فقلت له: أنت بغل لا تحبّل. فخرج غضبان، وقال لي: لما أرجع من السفر أتزوَّج عليك، وأنا خائفة يا أمي أن يطلّقني ويأخذ غيري، فإن له بلادًا وزروعًا وجامكية واسعة، فإذا جاء له أولاد من غيري يملكون المال

والبلاد مني. فقالت لها: يا بنتي، هل أنت عمياء عن شيخي أبي الحملات؟ فكلُّ مَنْ كان مديوناً وزاره قضى الله دينه، وإن زارته عقيمٌ فإنها تحبل. فقالت: يا أمي، أنا من يوم دخلتُ ما خرجتُ لا معزّية ولا مهنّئة. وقالت لها العجوز: يا بنتي، أنا أخذك معي وأزورك أبا الحملات، وارمي حملتك عليه، وانذري له عسى أنه يجيء زوجك من السفر ويجامعك، فتحبلي منه ببنت أو ولد، وكل شيء ولدته إن كان أنثى أو ذكراً يبقى درويش الشيخ أبي الحملات. فقامت الصبية ولبست مصاغها جميعه، ولبست أفخر ما كان عندها من الثياب، وقالت للجارية: ألقى نظرك على البيت. فقالت: سمعاً وطاعة يا سيدتي.

ثم نزلت فقابلها الشيخ أبو علي البوّاب، فقال لها: إلى أين يا سيدتي؟ فقالت له: أنا رائحة لأزور الشيخ أبا الحملات. فقال البوّاب: صوم العام يلزمني، إن هذه الشيخة من الأولياء وملآنة بالولاية، وهي يا سيدتي من أصحاب التصريف؛ لأنها أعطتني ثلاثة دنانير من الذهب الأحمر، وكاشفت عليّ من غير أن أسألها وعلمتُ أنني محتاج. فخرجت العجوز والصبية زوجة الأمير حسن شر الطريق معها، والعجوز الدليّة المحتالة تقول للصبية: إن شاء الله يا بنتي لما تزورين الشيخ أبا الحملات يحصل لك جبر الخاطر، وتحبلين بإذن الله تعالى، ويحبك زوجك الأمير حسن ببركة هذا الشيخ، ولا يُسمعك كلمة تؤذي خاطرك بعد ذلك. فقالت لها: أزوره يا أمي. ثم قالت العجوز في نفسها: إني أعريها وأخذ ثيابها والناس رائحة وغادية؟ فقالت لها: يا بنتي، إذا مشيتُ فامشي ورائي على قدر ما تنظرينني؛ لأن أمك صاحبة حمل كثيرة، وكلُّ مَنْ كان عليه حملة يرميها عليّ، وكلُّ مَنْ كان معه نذر يعطيه لي ويقبّل يدي. فمشت الصبية وراءها بعيداً عنها، والعجوز قدامها إلى أن وصلتَا سوق التجار، والخلخال يرن، والعقوص تشن، فمرت على دكان ابن تاجر يُسمّى سيدي حسن، وكان مليحاً جد الإنبات بعارضيه، فرأى الصبية مُقبلةً، وصار يلحظها شزراً، فلما لحظت ذلك العجوز، غمزت الصبية وقالت لها: اقعدي على هذا الدكان حتى أجيء إليك. فامتثلت أمرها وقعدت قدام دكان ابن التاجر، فنظرها ابن التاجر نظرةً أعقبته ألف حسرة، ثم أتته العجوز وسلّمت عليه وقالت له: هل أنت اسمك سيدي حسن ابن التاجر محسن؟ فقال لها: نعم، مَنْ أعلمك باسمي؟ فقالت: دلّني عليك أهل الخير، واعلم أن هذه الصبية بنتي وكان أبوها تاجراً، فمات وخلف لها مالاً كثيراً وهي بالغة، وقالت العقلاء: اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك. وعمرها ما خرجت إلا في هذا اليوم، وقد جاءت الإشارة، ونويت في سري أنني أزوّجك بها، وإن كنت فقيراً أعطيتك رأس مال وافتح لك عوض الدكان اثنين. فقال ابن التاجر في نفسه: قد سألت الله عروسةً، فمَنْ

عليّ بثلاثة أشياء؛ كيس وكس وكساء. ثم قال لها: يا أُمي، نِعَم ما أشرتِ به عليّ، فإن أُمي طالما قالت لي: أريد أن أزوجه. لم أرَضْ بل أقول: أنا لا أتزوج إلا على نظر عيني. فقالت له: قُمْ على قدميك واتبعني، وأنا أريها لك عريانة. فقام معها، وأخذ معه ألف دينار وقال في نفسه: ربما نحتاج شيئاً نشتره. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٠١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز قالت لحسن ابن التاجر محسن: قم اتبعني وأنا أريها لك عريانة. فقام معها وأخذ معه ألف دينار، وقال في نفسه: ربما نحتاج إلى شيء فنشتره، ونحطُ معلوم عقد العقد. ثم قالت له العجوز: كن ماشياً بعيداً عنها على قدر ما تنظرها بالعين. وقالت العجوز في نفسها: أين تروحين بابن التاجر وقد قفل دكانه، فتعريه هو والصبية؟ ثم مشت والصبية تابعة العجوز، وابن التاجر تابع الصبية، إلى أن أقبلتُ على مصبغة كان فيها واحد معلوم يُسمَّى الحاج محمد، وكان مثل سكّين القلاقي يقطع الذكر والأنثى، يحب أكل التين والرمّان، فسمع الخلخال يرن فرفع عينه، فرأى الصبية والغلام، وإذا بالعجوز قعدت عنده وسلّمتُ عليه وقالت له: أنت الحاج محمد الصباغ؟ فقال لها: نعم أنا الحاج محمد، أي شيء تطلبين؟ فقالت له: أنا دلّني عليك أهل الخير، فانظر هذه الصبية المليحة بنتي، وهذا الشاب الأمرد المليح ابني، وأنا ربّيتُهما وصرفت عليهما أموالاً كثيرة، واعلم أن لي بيتاً كبيراً خَسِماً وصلبته على خشب، وقال لي المهندس: اسكني في مطرح غيره ربما يقع عليك حتى تعمريه، وبعد ذلك ارجعي إليه واسكني فيه. فطلعت أفتش لي على مكان فدلّني عليك أهل الخير، ومرادي أن أسكن عندك بنتي وابني. فقال الصباغ في نفسه: قد جاءتك زبدة على فطيرة. فقال لها: صحيح أن لي بيتاً وقاعة وطبقة، ولكن أنا ما أستغني عن مكان منها للضيوف والفلاحين أصحاب النيلة. فقالت له: يا ابني، معظمه شهر أو شهران حتى نعمر البيت، ونحن ناس غرباء، فاجعل مكان الضيوف مشتركاً بيننا وبينك، وحياتك يا ابني إن طلبت أن ضيوفك تكون ضيوفنا، فمرحباً بهم، نأكل معهم وننام معهم. فأعطاهما المفاتيح واحداً كبيراً وآخر صغيراً، ومفتاحاً أعوج. وقال لها: المفتاح الكبير للبيت، والأعوج للقاعة، والصغير للطبقة.

فأخذت المفاتيح وتبعتها الصبية ووراءها ابن التاجر، إلى أن أقبلت على زقاق فرأت الباب ففتحته، ودخلت ودخلت الصبية، وقالت لها: يا بنتي، هذا بيت الشيخ أبي الحملات — وأشارت لها إلى القاعة — ولكن اطلعي الطبقة وحلي إزارك حتى أجيء إليك. فدخلت الصبية في الطبقة وقعدت، فأقبل ابن التاجر فاستقبلته العجوز وقالت له: اقعِد في القاعة حتى أجيء إليك ببنتي لتنظرها. فدخل وقعد في القاعة، ودخلت العجوز على الصبية فقالت لها الصبية: أنا مرادي أن أزور أبا الحملات قبل أن يجيء الناس. فقالت لها: يا بنتي، يخشى عليك. فقالت لها: من أي شيء؟ فقالت لها: هناك ولدي أهبل لا يعرف صيفاً من شتاء دائماً عريان، وهو نقيب الشيخ، فإن دخلت بنت مثلك لتزور الشيخ يأخذ حلقها ويشرم أذنها ويقطع ثيابها الحرير، فأنت تقلعين صيغتك وثيابك لأحفظها لك حتى تزوري. فقلعت الصبية الصيغة والثياب، وأعطت العجوز إياها وقالت لها: إني أضعها لك على ستر الشيخ فتحصل لك البركة. ثم أخذتها العجوز وطلعت وخلتها بالقميص واللباس، وخبأتها في محل في السلال، ثم دخلت على ابن التاجر فوجدته في انتظار الصبية، فقال لها: أين بنتك حتى أنظرها؟ فلطمت على صدرها، فقال لها: ما لك؟ فقالت له: لا عاش جار السوء، ولا كان جيران يحسدون لأنهم رأوك داخلاً معي، فسألوني عنك فقلت: أنا خطبت لبنتي هذا العريس. فحسدوني عليك، فقالوا لبنتي: هل أمك تعبت من مؤنتك حتى تزوجك لواحد مبتل؟ فحلفت لها أنني ما أخليها تنظرك إلا وأنت عريان. فقال: أعوذ بالله من الحاسدين. وكشف عن ذراعيه فرأتهما مثل الفضة، فقالت له: لا تخش من شيء، فإني أدعك تنظرها عريانة مثل ما تنظرك عريان. فقال لها: خليها تجيء لتنظرني. وقلع الفروة السمرور والحياسة والسكين، وجميع الثياب حتى صار بالقميص واللباس، وحط الألف دينار في الحوائج، فقالت له: هات حوائجك حتى أحفظها لك. وأخذتها ووضعتها على حوائج الصبية، وحملت جميع ذلك وخرجت به من الباب وقفلته عليهما، وراحت إلى حال سبيلها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٠٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما أخذت حوائج ابن التاجر وحوائج الصبية، وقفلت الباب عليهما، وراحت إلى حال سبيلها، أودعت الذي كان معها عند رجل عطار، وراحت إلى الصباغ فرأته قاعدًا في انتظارها، فقال لها: إن شاء الله يكون البيت أعجبكم؟ فقالت: فيه بركة وأنا رائحة أجىء بالحمّالين يحملون حوائجنا وفرشنا، وأولادي قد اشتهاوا عليّ عيشًا بلحم، فأنت تأخذ هذا الدينار، وتعمل لهما عيشًا بلحم وتروح تتغدى معهم. فقال الصباغ: ومن يحرس المصبغة وحوائج الناس فيها؟ فقالت: صبيك. قال: وهو كذلك. ثم أخذ صحنًا ومكبة معه وراح يعمل الغداء.

هذا ما كان من أمر الصباغ وله كلام يأتي، وأما ما كان من أمر العجوز فإنها أخذت من العطار حوائج الصبية وابن التاجر، ودخلت المصبغة وقالت لصبي الصباغ: الحق معلمك وأنا لا أبرح حتى تأتيا. فقال لها: سمعًا وطاعة. ثم أخذت جميع ما فيها، وإذا برجل حمّار حشّاش له أسبوع وهو بطلال، فقالت له العجوز: تعال يا حمّار. فجاءها فقالت له: هل أنت تعرف ابن الصباغ؟ قال لها: أعرفه. قالت له: هذا مسكين قد أفلس وبقي عليه ديون، وكلما يحبس أطلقه، ومرادنا أن نثبت إعساره، وأنا رائحة أعطي الحوائج لأصحابها، ومرادي أن تعطيني الحمّار حتى أحمل عليه الحوائج للناس، وخذ هذا الدينار كراه، وبعد أن أروح تأخذ الدسترة وتنزح بها الذي في الخوابي، ثم تكسر الخوابي والدنان لأجل إذا نزل كشف من طرف القاضي لا يجد شيئًا في المصبغة. فقال لها: إن المعلم فضله عليّ، وأعمل شيئًا لله. فأخذت الحوائج وحملتها فوق الحمّار وستر عليها الستار، وعمدت إلى بيتها فدخلت على بنتها زينب، فقالت لها: قلبي عندك يا أمي، أي شيء عملت من المناصف؟ فقالت لها: أنا لعبت أربع مناصف على أربعة أشخاص؛ ابن تاجر وامرأة شاويش وصباغ وحمّار، وجئتُ لك بجميع حوائجهم على حمّار الحمّار. فقالت لها: يا أمي،

ما بقيت تقدرى أن تشقى في البلد من الشاويش الذي أخذتِ حوائج امرأته، وابن التاجر الذي عرَّيته، والصباغ الذي أخذتِ حوائج الناس من مصبغته، والحمَّار صاحب الحمار. فقالت: آه يا بنتي، أنا ما أحسب إلا حساب الحمَّار، فإنه يعرفني.

وأما ما كان من أمر المعلم الصباغ، فإنه جهَّز العيش باللحم وحمله على رأس خادمه، وفات على المصبغة فرأى الحمَّار يكسر في الخوابي ولم يَبْقَ فيها قماش ولا حوائج، ورأى المصبغة خرابًا فقال له: ارفع يدك يا حمَّار. فرفع يده وقال له الحمَّار: الحمد لله على السلامة يا معلم، قلبي عليك. فقال له: لأي شيء؟ وما حصل لي؟ فقال له: قد صرتَ مُفْلِسًا، وكتبوا حجةً إعسارك. فقال له: مَنْ قال لك؟ فقال له: أمك قالت لي، وأمرتني بكسر الخوابي ونزح الدنان خوفًا من الكشف إذا جاء ربما يجد في المصبغة شيئًا. فقال له: الله يخيِّب البعيد، إن أُمِّي ماتت من منذ زمان. ودقَّ صدره بيده وقال: يا ضياع مالي ومال الناس. فبكى الحمَّار وقال: يا ضيعة حماري. ثم قال للصباغ: هات لي حماري من أمك. فتعلَّق الصبَّاغ بالحمَّار، وصار يلكمه ويقول: أحضِر لي العجوز. فقال له: أحضِر لي الحمار. فاجتمعت عليهما الخلائق. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٠٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الصباغ تعلّق بالحمار، والحمار تعلّق بالصباغ، وتضاربا وصار كلُّ منهما يدّعي على صاحبه، فاجتمعت عليهم الخلائق، فقال واحد منهم: أي شيء الحكاية يا معلم محمد؟ قال له الحمار: أنا أحكي لكم الحكاية. وحدّثهم بما جرى له، وقال: إني أظن أنني مشكور عند المعلم. فلما رأي دق صدره وقال لي: أمي ماتت. وأنا الآخر أطلب حماري منه؛ لأنه عمل عليّ هذا المنصف لأجل أن يضيع حماري عليّ. فقالت الناس: يا معلم محمد، وهذه العجوز أنت تعرفها لأنك استأمنتها على المصبغة والذي فيها؟ فقال: لا أعرفها، وإنما سكنت عندي في هذا اليوم هي وابنها وبنتها. فقال واحد: في ذمتي أن الحمار في عهدة الصباغ. فقيل له: ما أصله؟ فقال: لأن الحمار ما اطمأنّ وأعطى العجوز حماره إلا لما رأى الصباغ استأمن العجوز على المصبغة والذي فيها. فقال واحد: يا معلم، لما سكنتها عندك وجب عليك أنك تجيء له بحماره. ثم تمشوا قاصدين البيت ولهم كلام يأتي.

وأما ابن التاجر فإنه انتظر مجيء العجوز فلم تجئ ببنتها، وأما الصبية فإنها انتظرت العجوز أن تجيء لها بإذن من ابنها المجذوب الذي هو نقيب الشيخ أبي الحملات فلم ترجع إليها؛ فقامت لتزوره، وإذا بابن التاجر يقول لها حين دخلت: تعالي أين أمك التي جاءت بي لأتزوّج بك؟ فقالت: إن أمي ماتت، فهل أنت ابنها المجذوب نقيب الشيخ أبي الحملات؟ فقال: هذه ما هي أمي، هذه عجوز نصّابة نصبتُ عليّ حتى أخذت ثيابي والألف دينار. فقالت له الصبية: وأنا الأخرى نصبتُ عليّ وجاءت بي لأزور أبا الحملات وأعرّثني. فصار ابن التاجر يقول للصبية: أنا ما أعرف ثيابي والألف دينار إلا منك. والصبية تقول: أنا ما أعرف حوائجي وصيغتي إلا منك، فاحضر لي أمك. وإذا بالصباغ داخل عليهما، فرأى ابن التاجر عريانا والصبية عريانة، فقال: قولا لي أين أمكما؟ فحكّت



فَأَخَذَتِ الْحَوَائِجَ وَحَمَلَتْهَا فَوْقَ الْجِمَارِ، وَسَتَرَتْ عَلَيْهَا السَّتْرًا.

الصبيبة جميع ما وقع لها، وحكى ابن التاجر جميع ما جرى له. فقال الصباغ: يا ضياع مالي ومال الناس! وقال الحمّار: يا ضياع حمّاري! أعطني يا صباغ حمّاري. فقال الصباغ: هذه عجوز نصّابة، اطلعوا حتى أقفل الباب. فقال ابن التاجر: يكون عيباً عليك أن ندخل بيتك لابسين، ونخرج منه عريانين. فكساه وكسى الصبيبة وروّحها بيتها. ولها كلام يأتي بعد قدوم زوجها من السفر.

وأما ما كان من أمر الصباغ، فإنه قفل المصبغة وقال لابن التاجر: اذهب بنا لنفتش على العجوز ونسلمها للوالي. فراح معه وصحبتهما الحمّار، ودخلوا بيت الوالي وشكوا إليه، فقال لهما: يا ناس، أي شيء خبركم؟ فحكوا له ما جرى، فقال لهم: وكم عجوز في البلد؟ روحوا وفتشوا عليها، وامسكوها وأنا أقرّرها لكم. فداروا يفتشون عليها. ولهم كلام يأتي. وأما العجوز دليّة المحتالة، فإنها قالت لبننتها زينب: يا بنتي، أنا أريد أن أعمل منصفًا. فقالت لها: يا أمي أخاف عليك، فقالت لها: أنا مثل سقط القول عاص على الماء والنار. فقامت ولبست ثياب خادمة من خدام الأكابر، وطلعت تتلمّح لمنصف تعمله، فمرت على زقاق مفروش فيه قماش، ومعلّق فيه قناديل، وسمعت فيه مغانيًا ونقر دفوف، ورأت جارية على كتفها ولد بلباس مطرّز بالفضة، وعليه ثياب جميلة، وعلى رأسها طربوش مكلّل باللؤلؤ، وفي رقبته طوق ذهب مجوهر، وعليه عباءة من قطيفة، وكان هذا البيت لشاه بندر التجار ببغداد، والولد ابنه، وله أيضًا بنت بكر مخطوبة، وهم يعملون أملاكها في ذلك اليوم، وكان عند أمها جملة نساء مغنيات، فكلما تطلع أمه أو تنزل يشبط معها الولد، فنادت الجارية وقالت لها: خذي سيدك لابعيه حتى ينفض المجلس. ثم إن العجوز دليّة لما دخلت رأّت الولد على كتف الجارية، فقالت لها: أرى شيئًا عند سيدتك اليوم من الفرح. فقالت: تعمل أملاك بنتها وعندها المغاني. فقالت في نفسها: يا دليّة، ما منصف إلا أخذ هذا الولد من هذه الجارية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٠٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما قالت لنفسها: يا دليلة، ما منصف إلا أخذ هذا الولد من هذه الجارية. قالت بعد ذلك: يا فضيحة الشوم. ثم طلعت من جيبها برقة صغيرة من الصفر مثل الدينار، وكانت الجارية غشيمة، ثم قالت العجوز للجارية: خذي هذا الدينار وادخلي لسيدتك وقولي لها: أم الخير فرحت لك وفضلك عليها، ويوم المحضر تجيء هي وبناتها وينعمن على المواشط بالنقوط. فقالت الجارية: يا أمي، وسيدي هذا كلما ينظر أمه يتعلق بها. فقالت: هاتيه معي حتى تروحي وتجيئي. فأخذت الجارية البرقة ودخلت، وأما العجوز فإنها أخذت الولد وراحت إلى زقاق، فقلّعت الصيغة والثياب التي عليه، وقالت لنفسها: يا دليلة، ما شطارة إلا مثل ما لعبت على الجارية وأخذته منها، أن تعلمي منصفًا وتجعليه رهنًا على شيء بألف دينار. ثم ذهبت إلى سوق الجواهرجية، فرأت يهوديًا صائغًا وقدّامه قفص ملآن صيغة، فقالت لنفسها: ما شطارة إلا أن تحتالي على هذا اليهودي وتأخذي منه صيغة بألف دينار، وتحطي الولد رهنًا عنده عليها. فنظر اليهودي بعينه فرأى الولد مع العجوز، فعرف أنه ابن شاه بندر التجار، وكان اليهودي صاحب مال كثير، وكان يحسد جاره إذا باع ببيعة ولم يبيع هو، فقال لها: أي شيء تطلبين يا سيدتي؟ فقالت له: أنت المعلم عذرة اليهودي؟ — لأنها كانت سألت عن اسمه — فقال لها: نعم. فقالت له: أخت هذا الولد بنت شاه بندر التجار مخطوبة، وفي هذا اليوم عملوا أملاكها وهي محتاجة لصيغة، فأت لنا بزوجين خلاخيل ذهبًا، وزوج أساور ذهبًا، وحلق لؤلؤ وحياسة وخنجر وخاتم. فأخذت منه شيئًا بألف دينار وقالت له: أنا أخذ هذا المصاغ على المشاورة، فالذي يعجبهم يأخذونه وآتي إليك بثمنه، وخذ هذا الولد عندك. فقال: الأمر كما تريدين. فأخذت الصيغة وراحت بيتها، فقالت لها بنتها: أي شيء فعلت من المناصف؟ فقالت: لعبت منصفًا، فأخذت ابن شاه بندر التجار وأعريته، ثم رحت رهنته

على مصالح بألف دينار، فأخذتها من يهودي. فقالت لها بنتها: ما بقيت تقدرى أن تمشي في البلد.

وأما الجارية فإنها دخلت لسيدتها، وقالت: يا سيدتي، إن أم الخير تسلم عليك وفرحت لك، ويوم المحضر تجيء هي وبناتها ويعطين النقوط. فقالت لها سيدتها: وأين سيدك؟ فقالت لها: خليته عندها خوفاً أن يتعلق بك، وأعطتني نقوطاً للمغنيات. فقالت لرئيسة المغنيات: خذي نقوطك. فأخذته فوجدته برقة من الصفر، فقالت لها سيدتها: انزلي يا عاهرة انظري سيدك. فنزلت الجارية فلم تجد الولد ولا العجوز، فصرخت وانقلبت على وجهها، وتبدل فرحهم بحزن، وإذا بشاه بندر التجار أقبل، فحكّت له زوجته جميع ما جرى، فطلع يفتش عليه، وصار كل تاجر يفتش من طريق، ولم يزل شاه بندر التجار يفتش حتى رأى ابنه عرياناً على دكان اليهودي، فقال له: هذا ولدي. فقال اليهودي: نعم. فأخذه أبوه ولم يسأل عن ثيابه لشدة فرحه به.

وأما اليهودي فإنه لما رأى التاجر أخذ ابنه، تعلّق به وقال: الله ينصر فيك الخليفة. فقال له التاجر: ما بالك يا يهودي؟ فقال اليهودي: إن العجوز أخذت مني صيغةً لبنتك بألف دينار، ورهنت هذا الولد عندي وما أعطيتها إلا لأنها تركت هذا الولد عندي رهناً على الذي أخذته، وما ائتمنتها إلا لكوني أعرف أن هذا الولد ولدك. فقال التاجر: إن بنتي لا تحتاج إلى صيغة، فاحضر لي ثياب الولد. فصرخ اليهودي وقال: أدركوني يا مسلمين، وإذا بالحمّار والصبّاغ وابن التاجر دائرون يفتشون على العجوز، فسألوا التاجر واليهودي عن سبب خناقهما، فحكيا لهم ما حصل، فقالوا: إن هذه عجوز نصابة ونصبت علينا قبلكما. وحكوا جميع ما جرى لهم معها، فقال شاه بندر التجار: لما لقيت ولدي، الثياب فداه، وإن وقعت العجوز طلبت الثياب منها. فتوجه شاه بندر التجار بابنه لأمه، ففرحت بسلامته.

وأما اليهودي فإنه سأل الثلاثة وقال لهم: أين تذهبون أنتم؟ فقالوا له: إنا نريد أن نفتش عليها. فقال لهم: خذوني معكم. ثم قال لهم: هل فيكم من يعرفها؟ قال الحمّار: أنا أعرفها. فقال لهم اليهودي: إن طلّعنا سواء لا يمكن أن نجدها وتهرب منّا، ولكن كل واحد منا يروح من طريق، ويكون اجتماعنا على دكان الحاج مسعود المزين المغربي. فتوجه كل واحد من طريق، وإذا هي طلعت لتعمل منصفاً، فرأها الحمّار فعرفها فتعلّق بها، وقال لها: ويلك، ألك زمان على هذا الأمر؟ فقالت له: ما خبرك؟ قال لها: حماري هاتيه. فقالت له: استر ما ستر الله يا ابني، أنت طالب حمارك وإلا حوائج الناس؟ فقال: طالب حماري

فقط. فقالت له: أنا رأيته فقيرًا وحمارك أودعته لك عند المزين المغربي، فقف بعيدًا حتى أصل إليك وأقول له بلطافة أن يعطيك إياه. وتقدمت للمغربي، وقبّلت يده وبكت، فقال لها: ما بالك؟ فقالت له: يا ولدي، انظر ولدي الذي واقف كان ضعيفًا واستهوى فأفسد الهواء عقله، وكان يقني الحمير، فإن قام يقول حماري، وإن قعد يقول حماري، وإن مشى يقول حماري، فقال لي حكيم من الحكماء: إنه اختلّ في عقله، ولا يطيبه إلا قلع ضرسين، ويكوى في أضداغه مرتين، فخذ هذا الدينار وناديه وقل له: حمارك عندي. فقال المغربي: صوم العام يلزمني لأعطيه حماره في كفه. وكان عنده اثنان صنائعية، فقال لواحد منهما: رُح احمل مسمارين. ثم نادى الحمار، والعجوز راحت إلى حال سبيلها. فلما جاءه قال: إن حمارك عندي يا مسكين تعال خذه، وحياتي لأعطيك إياه في كفك. ثم أخذه ودخل به في قاعة مظلمة، وإذا بالمغربي لكمة فوقه، فسحبوه وربطوا يديه ورجليه، وقام المغربي قلع له ضرسين، وكواه على صدغه كيتين، ثم تركه، فقال: يا مغربي، لأي شيء عملت معي هذا الأمر؟ فقال له: إن أمك أخبرتني أنك مختل العقل؛ لأنك هويت وأنت مريض، وإن قمت تقول حماري، وإن قعدت تقول حماري، وإن مشيت تقول حماري، وهذا حمارك في يدك. فقال له: تلقى من الله بسبب تقليعك أضراسي. فقال له: إن أمك قالت لي ... وحكى له جميع ما قالت، فقال: الله ينكّد عليها. وذهب الحمار هو والمغربي يتخاصمان وترك الدكان، فلما رجع المغربي إلى دكانه لم يجد فيها شيئًا، وكانت العجوز حين راح المغربي هو والحمار، أخذت جميع ما في دكانه وراحت لبنتها وحكت لها جميع ما وقع لها وما فعلت.

وأما المزين، فإنه لما رأى دكانه خالية تعلق بالحمار، وقال له: أحضر لي أمك؟ فقال له: ما هي أمي، وإنما هي نصابة نصبت على ناس كثير وأخذت حماري. وإذا بالصباغ واليهودي وابن التجار مُقبلون، فرأوا المغربي متعلقًا بالحمار والحمار مكويًا في أضداغه، فقالوا له: ما جرى لك يا حمار؟ فحكى لهم جميع ما جرى، وكذلك المغربي حكى قصته؛ فقالوا له: إن هذه عجوز نصابة نصبت علينا. وحكوا له ما وقع؛ فقفل دكانه وراح معهم إلى بيت الوالي، وقالوا للوالي: ما نعرف حالنا ومالنا إلا منك. فقال الوالي: وكم عجائز في البلد؟ هل فيكم من يعرفها؟ فقال الحمار: أنا أعرفها، ولكن أعطنا عشرة من أتباعك. فخرج الحمار بأتباع الوالي والباقي وراءهم، ورأى الحمار بالجميع، وإذا بالعجوز دليّة مُقبلة فقبضها هو وأتباع الوالي، وراحوا بها إلى الوالي، فوقفوا تحت شبك القصر حتى يخرج الوالي. ثم إن أتباع الوالي ناموا من كثرة سهرهم مع الوالي، فجعلت العجوز نفسها نائمة، فنام الحمار ورفقاؤه كذلك، فانسلّت منهم، ودخلت إلى حريم الوالي، فقبّلت يد

سيدة الحريم وقالت لها: أين الوالي؟ فقالت: نائم، أي شيء تطلبين؟ فقالت: إن زوجي يبيع الرقيق، فأعطاني خمسة ممالك أبيعهم وهو مسافر، فقابلني الوالي ففصلهم مني بألف دينار ومائتين لي، وقال لي: أوصليهم إلى البيت. فأنا جئت بهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٠٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما طلعت إلى حريم الوالي، قالت لزوجته: إن الوالي فصل مني الممالك بألف دينار ومائتي دينار لي، وقال لي: أوصلهم البيت. وكان الوالي عنده ألف دينار، وقال لزوجته: احفظيها حتى نشترى بها ممالك. فلما سمعت من العجوز هذا الكلام، تحققت من زوجها ذلك فقالت: وأين الممالك؟ قالت العجوز: يا سيدتي، هم نائمون تحت شبك القصر الذي أنت فيه. فطلت السيدة من الشباك فرأت المغربي لابسا لبس الممالك، وابن التاجر في صورة مملوك، والصباغ والحمار واليهودي في صورة الممالك الحليق، فقالت زوجة الوالي: هؤلاء كل مملوك أحسن من ألف دينار. ففتحت الصندوق وأعطت العجوز الألف دينار وقالت لها: اصبري حتى يقوم الوالي من النوم، ونأخذ لك منه المائتي دينار. فقالت لها: يا سيدتي، منهم مائة دينار لك تحت القلة الشربات التي شربتها، والمائة الأخرى احفظيها لي عندك حتى أحضر. ثم قالت: يا سيدتي، أطلعيني من باب السر. فطلعتها منه وستر عليها الستار، وراحت لبنتها، فقالت لها: يا أمي، ما فعلت؟ فقالت: يا بنتي، لعبت منصفاً وأخذت هذا الألف دينار من زوجة الوالي، وبعث الخمسة لها: الحمار واليهودي والصباغ والمزين وابن التاجر، وجعلتهم ممالك، ولكن يا بنتي ما عليّ أضر من الحمار، فإنه يعرفني. فقالت لها: يا أمي، اقعدي يكفي ما فعلت، فما كل مرة تسلم الجرة.

وأما الوالي، فإنه لما قام من النوم قالت له زوجته: فرحتُ لك بالخمسة ممالك الذين اشتريتهم من العجوز. فقال لها: أي ممالك؟ فقالت له: لأي شيء تنكر مني؟ إن شاء الله يصيرون مثلك أصحاب مناصب. فقال لها: وحياء رأسي ما اشتريت ممالك، من قال ذلك؟ فقالت: العجوز دليلة التي فصلتهم منها، وواعتها أنك تعطيهما حقهم ألف دينار ومائتين لها. فقال لها: وهل أعطيتها المال؟ قالت له: نعم، وأنا رأيت الممالك بعيني، كل

واحد عليه بدلة تساوي ألف دينار، وأرسلت وصَّيت عليهم المقدمين. فنزل الوالي فرأى اليهودي والحمَّار والمغربي والصباغ وابن التاجر. فقال: يا مقدمين، أين الخمسة ممالك الذين اشتريناهم من العجوز بألف دينار؟ فقالوا: ما هنا ممالك، ولا رأينا إلا هؤلاء الخمسة الذين أمسكوا العجوز وقبضوا عليها، فنمنا كلنا، ثم إنها انسَلَّت ودخلت الحريم وأتت الجارية تقول: هل الخمسة الذين جاءت بهم العجوز عندهم؟ فقلنا: نعم. فقال الوالي: والله إن هذا أكبر منصف. والخمسة يقولون: ما نعرف حوائجنا إلا منك. فقال لهم: إن العجوز صاحبكم باعتكم لي بألف دينار. فقالوا: ما يحل من الله، نحن أحرار لا نباع، ونحن وإياك للخليفة. فقال لهم: ما عَرَفَ العجوز طريق البيت إلا أنتم، ولكن أنا أبيعكم للأغراب كل واحد بمائتي دينار.

فبينما هم كذلك وإذا بالأمير حسن شر الطريق جاء من سفره ورأى زوجته عريانة، وحكت له جميع ما جرى لها، فقال: أنا ما خصمي إلا الوالي. فدخل عليه وقال له: هل أنت تأذن للعجائز أن تدور في البلد وتنصب على الناس وتأخذ أموالهم؟ هذا عهدتك ولا أعرف حوائج زوجتي إلا منك. ثم قال للخمسة: ما خبركم؟ فحكوا جميع ما جرى، فقال لهم: أنت مظلومون. والتفت للوالي وقال له: لأي شيء تسجنهم؟ فقال له: ما عَرَفَ العجوز طريق بيتي إلا هؤلاء الخمسة حتى أخذت مالي الألف دينار وباعتهم للحريم. فقالوا: يا أمير حسن، أنت وكيلنا في هذه الدعوة. ثم إن الوالي قال للأمير حسن: حوائج امرأتك عندي، وضمان العجوز عليّ، ولكن مَنْ يعرفها منكم؟ فقالوا كلهم: نحن نعرفها، أرسل معنا عشرة مقدمين ونحن نمسكها. فأعطاهم عشرة مقدمين، فقال لهم الحمَّار: اتبعوني فإنني أعرفها بعيون زرق. وإذا بالعجوز دليلاً مُقْبِلَةً من زقاق، وإذا بهم قبضوها وساروا بها إلى بيت الوالي، فلما رآها الوالي قال: أين حوائج الناس؟ فقالت: لا أخذت ولا رأيت. فقال للسَّجَّان: احبسها عندك للغد. قال السَّجَّان: أنا لا آخذها ولا أسجنها مخافة أن تعمل منصفًا وأصير أنا مُلْزَمًا بها. فركب الوالي وأخذ العجوز والجماعة وخرج بهم إلى شاطئ دجلة، ونادى للمشاعلي وأمره بصلبها من شعرها، فسحبها المشاعلي في البكر، واستحفظ عليها عشرة من الناس، وتوجَّه الوالي لبيته إلى أن أقبل الظلام، وغلب النوم على المحافظين؛ وإذا برجل بدوي سمع رجل يقول لرفيقه: الحمد لله على السلامة، أين هذه الغيبة؟ فقال له: في بغداد، وتعديت زلابية بعسل. فقال البدوي: لا بد من دخولي بغداد، وآكل فيها زلابية بعسل. وكان عمره ما رآها ولا دخل بغداد. فركب حصانه، وسار وهو يقول لنفسه: الزلابية كلها زين، وذمة العرب ما آكل إلا زلابية بعسل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٠٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن البدوي لما ركب حصانه، وأراد دخول بغداد، سار وهو يقول لنفسه: أكل الزلابية زين، وذمة العرب أنا لا أكل إلا زلابية بعسل. إلى أن وصل عند مصلب دليلة؛ فسمعته وهو يقول لنفسه هذا الكلام، فأقبل عليها وقال لها: أي شيء أنت؟ فقالت له: أنا في جيرتك يا شيخ العرب. فقال لها: إن الله قد أجارك، ولكن ما سبب صلبك؟ فقالت له: لي عدو زيات يقلي الزلابية، فوقفت أشتري منه شيئاً، فبزقت فوقعت بزقتي على الزلابية، فاشتكاني للحاكم فأمر الحاكم بصلبي وقال: حكمت أنكم تأخذوا لها عشرة أرطال زلابية بعسل وتطعمونها إياها وهي مصلوبة، فإن أكلتها فخلوها، وإن لم تأكلها فخلوها مصلوبة، وأنا نفسي ما تقبل الحلو. فقال البدوي: وذمة العرب ما جئت من النجع إلا لأجل الزلابية بالعسل، وأنا أكلها عوضاً عنك. فقالت له: هذه ما يأكلها إلا الذي يتعلّق موضعي. فانطبقت عليه الحيلة، فحلّها وربطته موضعها بعدما قلّعت الثياب التي كانت عليه، ثم إنها لبست ثيابه وتعمّمت بعمامته وركبت حصانه وراحت لبنتها، فقالت لها بنتها: ما هذا الحال؟ فقالت لها: صلبوني. وحكت لها ما وقع لها مع البدوي. هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر المحافظين، فإنه لما صحا واحد منهم نبّه جماعته، فرأوا النهار قد طلع، فرفع واحد منهم عينه، وقال: دليلة؟ فأجابه البدوي وقال: والله ما نأكل بليلة، هل أحضرتم الزلابية بالعسل؟ فقالوا: هذا رجل بدوي. فقالوا له: يا بدوي، أين دليلة؟ ومن فكّها؟ فقال: أنا فككتها، ما تأكل الزلابية بالعسل غصباً؛ لأن نفسها لم تقبلها. فعرفوا أن البدوي جاهل بحالها، فلعبت عليه منصفاً. وقالوا لبعضهم: هل نهرب أو نستمر حتى نستوفي ما كتبه الله علينا؟ وإذا بالوالي مُقبِل ومعه الجماعة الذين نصب عليهم، فقال الوالي للمقدمين: قوموا فكوا دليلة. فقال البدوي: ما نأكل بليلة، هل أحضرتم الزلابية بعسل؟ فرفع الوالي عينه إلى المصلب، فرأى بدويّاً بدل العجوز، فقال

للمقدمين: ما هذا؟ فقالوا: الأمان يا سيدي. فقال لهم: احكوا لي ما جرى. فقالوا: نحن كنا سهرنا معك في العَسَس، وقلنا دليلة منصوبة ونعسنا، فلما صحونا رأينا هذا البدوي مصلوبًا ونحن بين يديك. فقال: يا ناس، هذه نصابة وأمان الله عليكم فحلوا البدوي. فتعلق البدوي بالوالي وقال: الله ينصر فيك الخليفة، أنا ما أعرف حصاني وثيابي إلا منك. فسأله الوالي، فحكى له البدوي قصته؛ فتعجبَّ الوالي وقال له: لأي شيء حلَّتها؟ فقال له: ما عندي خبر أنها نصابة. فقال الجماعة: نحن ما نعرف حوائجنا إلا منك يا والي، فإننا سلَّمناها إليك، وصارت في عهدتك، ونحن وإياك إلى ديوان الخليفة. وكان حسن شر الطريق طلع الديوان، وإذا بالوالي والبدوي والخمسة مُقبِلون وهم يقولون: إننا مظلومون. فقال الخليفة: مَنْ ظلمكم؟ فتقدَّم كلُّ واحد منهم وحكى له ما جرى عليه، حتى الوالي قال: يا أمير المؤمنين، إنها نصبت عليّ، وباعت لي هؤلاء الخمسة بألف دينار مع أنهم أحرار. فقال الخليفة: جميع ما عدم لكم عندي. وقال للوالي: ألزمتك بالعجز. فنفض الوالي طوقه وقال: لا ألزم بذلك بعدما علَّقْتُها في المصلب، فلعبت على هذا البدوي حتى خلَّصها وعلَّقْتُها في موضعها وأخذت حصانه وثيابه. فقال الخليفة: هل ألزم بها من غيرك؟ فقال له: ألزم بها أحمد الدنف، فإن له في كل شهر ألف دينار، ولأحمد الدنف من الأتباع واحد وأربعون، لكل واحد في كل شهر مائة دينار. فقال الخليفة: يا مقدم أحمد. قال له: لبيك يا أمير المؤمنين. قال له: ألزمتك بحضور العجز. فقال: ضمانها عليّ. ثم إن الخليفة حجز الخمسة والبدوي عنده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٠٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة لما أُلزم أحمد الدنف بإحضار العجوز قال له: ضمانها عليّ يا أمير المؤمنين. ثم نزل هو وأتباعه إلى القاعة، فقالوا لبعضهم: كيف يكون قبضنا إيّاها؟ وكم عجائز في البلد؟ فقال واحد منهم يقال له علي كتف الجمل لأحمد الدنف: على أي شيء تشاورون حسن شومان؟ وهل حسن شومان أمر عظيم؟ فقال حسن: يا علي، كيف تستقلني؟ والاسم الأعظم لن أرافقكم في هذه المرة. وقام غضبان. فقال أحمد الدنف: يا شبان، كل قيّم يأخذ عشرة ويتوجّه بهم إلى حارة ليفتشوا على دليّة. فذهب علي كتف الجمل بعشرة، وكذلك كل قيّم، وتوجّه كل جماعة إلى حارة، وقالوا قبل توجّهم وافتراقهم: يكون اجتماعنا في الحارة الفلانية في الزقاق الفلاني. فشاع في البلدان: أحمد الدنف التزمّ بالقبض على دليّة المحتالة. فقالت زينب: يا أمي، إن كنت شاطرة تلعبني على أحمد الدنف وجماعته. فقالت: يا بنتي، أنا ما أخاف إلا من حسن شومان. فقالت البنت: وحيّة مقصوصي لأخذن لك ثياب الواحد والأربعين. ثم قامت ولبست بدلة وتبرّقت، وأقبلت على واحد عطار له قاعة ببابين، فسلمت عليه وأعطته دينارًا، وقالت له: خذ هذا الدينار حلوان قاعتك، وأعطنيها إلى آخر النهار. فأعطاهما المفاتيح وراحت أخذت فرشًا على حمار الحمار، وفرشت القاعة، وحطت في كل ليوان سفرة طعام ومدام، ووقفت على الباب مكشوفة الوجه، وإذا بعلي كتف الجمل وجماعته مُقبِلون، فقبّلت يده، فراها صبية مليحة فحبّها، فقال لها: أي شيء تطلبين؟ فقالت: هل أنت المقدم أحمد الدنف؟ فقال: لا، بل أنا من جماعته، واسمي علي كتف الجمل. فقالت لهم: أين تذهبون؟ فقال: نحن دائرون نفتش على عجوز نصّابة أخذت أرزاق الناس، ومرادنا أن نقبض عليها. ولكن من أنت؟ وما شأنك؟ فقالت: إن أبي كان خمارًا في الموصل، فمات وخلف لي مالًا كثيرًا، فجئت هذا البلد خوفًا من الحكام، وسألت الناس من يحميني؟ فقالوا لي: ما يحميك

إلا أحمد الدنف. فقال لها جماعته: اليوم تحتمين به. فقالت لهم: اقصدوا جبر خاطري بلقيمة وشربة ماء. فلما أجابوها أدخلتهم، فأكلوا وسكروا وحطت لهم البنج فبنجتهم وقلعتهم حوائجهم، ومثل ما عملت فيهم عملت في الباقي.

فدار أحمد الدنف يفتش على دليلة فلم يجدها، ولم يرَ من أتباعه أحداً إلى أن أقبل على الصبية، فقبّلت يده، فرأها فحبها، فقالت له: أنت المقدم أحمد الدنف؟ فقال لها: نعم، ومن أنت؟ قالت: غريبة من الموصل، وأبي كان خمّاراً، ومات وخلف لي مالا كثيراً، وجئت به إلى هنا خوفاً من الحكام، ففتحت هذه الخمارة فجعل الوالي عليّ قانوناً، ومرادي أن أكون في حمايتك، والذي يأخذه الوالي أنت أولى به. فقال أحمد الدنف: لا تعطيه شيئاً ومرحباً بك. فقالت له: اقصد جبر خاطري، وكلّ طعامي. فدخل وأكل وشرب مداماً فانقلب من السكر، فبنجته وأخذت ثيابه وحملت الجميع على فرس البدوي، وحمّار الحمّار، وأيقظت عليّاً كتف الجمل وراحت. فلما أفاق رأى نفسه عرياناً، ورأى أحمد الدنف والجماعة مُبنّجين، فأيقظهم بضد البنج، فلما أفاقوا رأوا أنفسهم عرايا. فقال أحمد الدنف: ما هذا الحال يا شباب؟ نحن دائرون نفتش عليها لنصطادها، فاصطادتنا هذه العاهرة، يا فرحة حسن شومان فينا، ولكن نصبر حتى تدخل العتمة ونروح، وكان حسن شومان قال للنقيب: أين الجماعة؟ فيبينما هو يسأله عنهم وإذا بهم قد أقبلوا وهم عرايا، فأنشد حسن شومان هذين البيتين:

وَالنَّاسُ مُشْتَبِهُونَ فِي إِيرَادِهِمْ وَتَبَايُنُ الْأَقْوَامِ فِي الْإِصْدَارِ
وَمِنَ الرِّجَالِ مَعَالِمٌ وَمَجَاهِلُ وَمِنَ النُّجُومِ غَوَامِضٌ وَدَرَارِي

فلما رآهم قال لهم: من لعب عليكم وعراكم؟ فقالوا: تعهّدنا بعجوز نفتش عليها، ولا عرانا إلا صبية مليحة. فقال حسن شومان: نعم ما فعلت بكم. فقالوا: هل أنت تعرفها يا حسن؟ فقال: أعرفها وأعرف العجوز. فقالوا له: أي شيء تقول عند الخليفة؟ فقال شومان: يا دنف، انفض طوقك قدامه، فيقول الخليفة: من يتعهّد بها؟ فإن قال لك: لأي شيء ما قبضت عليها؟ فقل: أنا ما أعرفها وألزم بها حسن شومان. فإن ألزمني بها فأنا أقبضها. وباتوا، فلما أصبحوا طلّعوا إلى ديوان الخليفة، فقَبَلُوا الأرض، فقال الخليفة: أين العجوز يا مقدم أحمد؟ فنفض طوقه، فقال له: لأي شيء؟ فقال: أنا ما أعرفها، وألزم بها شومان، فإنه يعرفها هي وبنّتها. وقال: إنها ما عملت هذه الملاعب طمعاً في حوائج الناس، ولكن لبيان شطارتها وشطارة بنّتها لأجل أن ترتّب لها راتب زوجها، ولبنّتها مثل

راتب أبيها، فشفع فيها شومان من القتل وهو يأتي بها. فقال الخليفة: وحياة أجدادي إن أعادتُ حوائج الناس، عليها الأمان وهي في شفاعته. فقال شومان: أعطني الأمان يا أمير المؤمنين. فقال له: هي في شفاعتك. وأعطاه منديل الأمان، فنزل شومان وراح إلى بيت دليلة، فصاح عليها فجوابته بنتها زينب، فقال لها: أين أمك؟ فقالت: فوق. فقال لها: قولي لها تجيء بحوائج الناس وتذهب معي لتقابل الخليفة، وقد جئتُ لها بمنديل الأمان، فإن كانت لا تجيء بالمعروف لا تلوم إلا نفسها. فنزلت دليلة وعلقت المحرمة في رقبتها، وأعطته حوائج الناس على حمار الحمّار، وفرس البدوي، فقال لها شومان: بقي ثياب كبيرتي وثياب جماعته. فقالت: والاسم الأعظم إني ما عرّيتُهم. فقال: صدقت، ولكن هذا منصف بنتك زينب، وهذه جميلة عملتها معك. وسار وهي معه إلى ديوان الخليفة، فتقدّم حسن وعرض حوائج الناس على الخليفة، وقدّم دليلة بين يديه، فلما رآها أمر برميها في بقعة الدم، فقالت: أنا في جيرتك يا شومان. فقام شومان وقبّل أيادي الخليفة وقال له: العفو، أنت أعطيتها الأمان. فقال الخليفة: وهي في كرامتك، تعالي يا عجوز، ما اسمك؟ فقالت: اسمي دليلة. فقال: ما أنت إلا حيالة ومحتالة، فلُقِّبتِ بدليلة المحتالة. ثم قال لها: لأي شيء عملت هذه المناصف وأتعبت قلوبنا؟ فقالت: أنا ما فعلت هذه المناصف بقصد الطمع في متاع الناس، ولكن سمعت بمناصف أحمد الدنف التي لعبها في بغداد، ومناصف حسن شومان، فقلت: أنا الأخرى أعمل مثلهما، وقد رددتُ حوائج الناس إليهم. فقام الحمّار وقال: شرع الله بيني وبينها؛ فإنها ما كفهاها أخذ حماري حتى سلّطت عليّ المزين المغربي، فقلع أضراسي وكواني في أصداعي كيتين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٠٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحمّار لما قام وقال: شرع الله بيني وبينها، ما كفاها أخذ حماري حتى سلطت عليّ المزين، فقلع أضراسي وكواني في أصداعي كيتين. أمر الخليفة للحمّار بمائة دينار، وللصّبّاغ بمائة دينار، وقال: انزل عمّر مصبغتك. فدعوا للخليفة ونزلاً، وأخذ البدوي حوائجه وحصانه، وقال: حرام عليّ دخول بغداد وأكل الزلابية بالعسل. وكلّ مَنْ كان له شيء أخذه، وانفضوا كلهم. وقال الخليفة: تمنّي عليّ يا دليلة. فقالت: إن أبي كان عندك حاكم البطاقة، وأنا ربيت حمام الرسائل، وزوجي كان مقدم بغداد، ومرادي استحقاق زوجي، ومراد بنتي استحقاق أبيها. فرسم لهما الخليفة بما أرادتاه، ثم قالت له: أتمنى عليك أن أكون بوابة الخان. وكان الخليفة قد عمل خاناً بثلاثة أدوار ليسكن فيه التجار، وكان متدرّجاً بالخان أربعون عبدًا وأربعون كلبًا، وكان الخليفة جاء بهم من ملك السلিমانيّة حين عزله، وعمل للكلاب أطواقًا، وكان في الخان عبد طبّاخ يطبخ الطعام للعبيد ويُطعم الكلاب اللحم. فقال الخليفة: يا دليلة، أكتب عليك درك الخان، وإن ضاع منه شيء تكوني مُطالبّة به؟ فقالت: نعم، ولكن أَسْكُنْ بنتي في القصر الذي على باب الخان، فإن القصر له سطوح ولا تصح تربية الحمام إلا في الوسع. فأمر لها بذلك، وحوّلت بنتها جميع حوائجها في القصر الذي على باب الخان، وتسلمت الأربعين طيرًا التي تحمل الرسائل؛ وأما زينب فإنها علقت الأربعين بدلة وبدلة أحمد الدنف عندها في القصر، وكان الخليفة جعل دليلة المحتالة رئيسة على الأربعين عبدًا، وأوصاهم بإطاعتها، وجعلت محل قعودها خلف باب الخان، وصارت كلّ يوم تطلع الديوان لربما يحتاج الخليفة إلى إرسال بطاقة للبلاد، فلم تنزل من الديوان إلا آخر النهار، والأربعون عبدًا واقفون يحرسون الخان، فإذا دخل الليل تُطلق الكلاب لأجل أن تحرس الخان بالليل. هذا ما جرى لدليلة المحتالة في مدينة بغداد.

حكاية علي الزبيق المصري

وأما ما كان من أمر علي الزبيق المصري، فإنه كان شاطرًا بمصر في زمن رجل يُسمَّى صلاح المصري مقدم ديوان مصر، وكان له أربعون تابعًا، وكان أتباع صلاح المصري يعملون مكائد للشاطر علي ويظنون أنه يقع فيها، فيفتشون عليه فيجدونه قد هرب كما يهرب الزبيق، فمن أجل ذلك لقبوه بالزبيق المصري. ثم إن الشاطر علي كان جالسًا يومًا من الأيام في قاعة بين أتباعه، فانقبض قلبه وضاق صدره، فرآه نقيب القاعة قاعدًا عابس الوجه، فقال له: ما لك يا كبير؟ إن ضاق صدرك فشق شقة في مصر، فإنه يزول عنك الهم إذا مشيت في أسواقها. فقام وخرج ليشق في مصر؛ فازداد غمًا وهمًا، فمرَّ على خمارة، فقال لنفسه: أدخل وأسكر. فدخل فرأى في الخمارة سبعة صفوف من الخلق، فقال: يا خُمَّار، أنا ما أقعد إلا وحدي. فأجلسه الخُمَّار في طبقة وحده، وأحضر له المدام، فشرب حتى غاب عن الوجود، ثم طلع من الخمارة وسار في مصر، ولم يزل سائرًا في شوارعها حتى وصل إلى درب الأحمر، وخلت الطريق قدمه من الناس هيبَّةً له، فالتفت فرأى رجلًا سقاء يسقي بالكوز، ويقول في الطريق: يا معوض، ما شراب إلا من زبيب، ولا وصال إلا من حبيب، ولا يجلس في الصدر إلا لبيب. فقال له: تعال اسقني. فنظر إليه السقاء وأعطاه الكوز، فطلَّ في الكوز وخضَّه وكبَّه على الأرض، فقال له السقاء: ما تشرب؟ فقال له: اسقني. فملأه فأخذه وخضَّه وكبَّه في الأرض، وثالث مرة كذلك. فقال له: إن كنت ما تشرب روح. فقال له: اسقني. فملأ الكوز وأعطاه إياه، فأخذه منه وشرب، ثم أعطاه دينارًا، وإذا بالسقاء نظر إليه واستقلَّ به، وقال له: أنعم بك، أنعم بك يا غلام، صغار قوم كبار قوم آخرين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٠٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاطر علي لما أعطى السقاء دينارًا، نظر إليه واستقل به، وقال له: أَنْعِمْ بك، أَنْعِمْ بك، صغار قوم كبار قوم آخرين. فنهض الشاطر علي وقبض على جلابيب السقاء، وسحب عليه خنجرًا مثنًا، كما قيل في هذين البيتين:

اضْرِبْ بِخَنْجَرِكَ الْعَنِيدَ وَلَا تَخَفْ أَحَدًا سِوَى مَنْ سَطَوَةَ الْخَلْقِ
وَتَجَنَّبِ الْخُلُقَ الذَّمِيمَ وَلَا تَكُنْ أَبَدًا بَغِيرِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ

فقال له: يا شيخ، كلّمني بمعقول، فإن قربتك إن غلا ثمنها يبلغ ثلاثة دراهم، والكوزان اللذان دلفتهما على الأرض مقدار رطل من الماء. قال له: نعم. قال له: فأنا أعطيتك دينارًا من الذهب، ولأي شيء تستقل بي؟ فهل رأيت أحدًا أشجع مني أو أكرم مني؟ فقال له: رأيت أشجع منك وأكرم منك، فإنه ما دامت النساء تَلِدُ، ما على الدنيا شجاع ولا كريم. فقال له: مَنْ الذي رأيت أشجع مني وأكرم مني؟ فقال له: اعلم أن لي واقعة من العجب، وذلك أن أبي كان شيخ السقائين بالشربة في مصر، فمات وخلف لي خمسة جمال وبغلًا ودكانًا وبيتًا، ولكن الفقير لا يستغني، وإذا استغنى مات، فقلت في نفسي: أنا أطلع الحجاز. فأخذت قطار جمال، وما زلت أقترض حتى صار عليّ خمسمائة دينار، وضاع مني جميع ذلك في الحج، فقلت في نفسي: إن رجعتُ إلى مصر تحبسني الناس على أموالهم. فتوجهت مع الحج الشامي حتى وصلت إلى حلب، وتوجهت من حلب إلى بغداد، ثم سألت عن شيخ السقائين ببغداد، فدلوني عليه، فدخلت وقرأت له الفاتحة، فسألني عن حالي، فحكيت له جميع ما جرى لي، فأخلى لي دكانًا وأعطاني قربة وعدة وسرحت على باب الله، وطففت في البلد، فأعطيت واحدًا الكوز ليشرب فقال لي: لم أكل شيئًا حتى أشرب

عليه؛ لأنه عزماني بخيل في هذا اليوم، وجاءني بقلتين بين يديه، فقلت له: يا ابن الخسيس، هل أطعمتني شيئاً حتى تسقيني عليه؟ فرح يا سقاء حتى أكل شيئاً، وبعد ذلك اسقني. فجنّت للثاني فقال: الله يرزقك. فصرتُ على هذا الحال إلى وقت الظهر، ولم يعطني أحدُ شيئاً، فقلت: يا ليتني ما جئت إلى بغداد. وإذا أنا بناس يُسرِّعون في الجري فتبعتهم، فرأيت موكباً عظيماً منجراً اثنين اثنين، وكلهم بالطوقي والشدود والبرانس واللبد والبولاد، فقلت لواحد: هذا موكب مَنْ؟ فقال: موكب المقدم أحمد الدنف. فقلت له: أي شيء رُتبتَه؟ فقال: مقدم الديوان ومقدم بغداد، وعليه درك البر، وله على الخليفة في كل شهر ألف دينار، ولكل واحد من أتباعه مائة دينار، حسن شومان له مثله ألف دينار، وهم نازلون من الديوان إلى قاعتهم.

وإذا بأحمد الدنف رآني، فقال: تعالَ اسقني. فملأت الكوز وأعطيته إياه، فحَضَّه وكَبَّه، وثاني مرة كذلك، وثالث مرة شرب رشفة مثلك، وقال لي: يا سقاء، من أين أنت؟ فقلت له: من مصر. فقال: حياً الله مصر وأهلها، وما سبب مجيئك إلى هذه المدينة؟ فحكيت له قصتي، وأفهمته أنني مديون وهربان من الدين والعيلة، فقال: مرحباً بك. ثم أعطاني خمسة دنانير، وقال لأتباعه: اقصدوا وجه الله وأحسنوا إليه. فأعطاني كل واحد ديناراً، وقال لي: يا شيخ، ما دمتَ في بغداد لك علينا ذلك كلما أسقيتنا. فصرت أتردد عليهم وصار يأتيني الخير من الناس، ثم بعد أيام أحصيت الذي اكتسبته منهم؛ فوجدته ألف دينار، فقلت في نفسي: صار رواحك إلى البلاد أשוב. فرحت له القاعة، وقبَلْتُ يديه، فقال: أي شيء تطلب؟ فقلت له: أريد السفر. وأنشدته هذين البيتين:

إِقَامَاتُ الْغَرِيبِ بِكُلِّ أَرْضٍ كَبْنِيَانِ الْقُصُورِ عَلَى الرِّيَّاحِ
هُبُوبُ الرِّيحِ يَهْدُمُ مَا بَنَاهُ لَقَدْ عَزَمَ الْغَرِيبُ عَلَى الرِّوَّاحِ

وقلت له: إن القافلة متوجّهة إلى مصر، ومرادي أن أروح إلى عيالي. فأعطاني بغلة ومائة دينار، وقال: غرضنا أن نرسل معك أمانة يا شيخ، فهل أنت تعرف أهل مصر؟ فقلت له: نعم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧١٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السقاء لما قال: إن أحمد الدنف أعطاني بغلة ومائة دينار، وقال: غرضنا أن نُرسل معك أمانة، فهل أنت تعرف أهل مصر؟ قال السقاء: فقلت له نعم. فقال خذ هذا الكتاب وأوصله إلى علي الزبيق المصري، وقل له: كبيرك يسلم عليك، وهو الآن عند الخليفة. فأخذت منه الكتاب وسافرت حتى دخلت مصر، فرآني أرباب الديون، فأعطيتهم الذي عليّ، ثم عملت سقاء ولم أوصل الكتاب؛ لأنني لم أعرف قاعة علي الزبيق المصري. فقال له: يا شيخ، طبّ نفسك وقرّ عيناً، فأنا علي الزبيق المصري، أول صبيان المقدم أحمد الدنف، فهات الكتاب. فأعطاه إياه، فلما فتحه وقرأه رأى فيه هذين البيتين:

كَتَبْتُ إِلَيْكَ يَا زَيْنَ الْمَلَحِ عَلَى وَرَقٍ يَسِيرُ مَعَ الرِّيحِ
وَلَوْ أَنِّي أَطِيرُ لَطَرْتُ شَوْقًا وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ؟

وبعدُ، فالسلام من المقدم أحمد الدنف إلى أكبر أولاده علي الزبيق المصري، والذي نعلمك به أنني تقصدت صلاح الدين المصري، ولعبت معه مناصف حتى دفنُته بالحياة، وأطاعتني صبيانه ومن جملتهم علي كتف الجمل، وتولّيتُ مقدم مدينة بغداد في ديوان الخليفة، ومكتوب على درك البر؛ فإن كنتَ ترعى العهد الذي بيني وبينك فأنت عندي لعلك تلعب منصفًا في بغداد يقرّبك من خدمة الخليفة، فيكتب لك جامكية وجراية ويعمر لك قاعة، هذا هو المرام والسلام. فلما قرأ الكتاب قبّله وحطّه على رأسه، وأعطى السقاء عشرة دنانير بشارة، ثم توجه إلى القاعة ودخل على صبيانه، وأعلمهم بالخبر، وقال لهم: أوصيكم ببعضكم. ثم قلع ما كان عليه ولبس مشلحًا وطربوشًا، وأخذ علبة فيها مزارق من عود القنا طوله أربعة وعشرون ذراعًا، وهو معشوق في بعضه، فقال له النقيب: أتسافر

والمخزن قد فرغ؟ فقال له: إذا وصلت إلى الشام أرسل إليكم ما يكفيكم. وسار إلى حال سبيله، فلاحق ركبًا مسافرًا، فرأى فيه شاه بندر التجار ومعه أربعون تاجرًا قد حملوا حمولهم وحمول شاه بندر التجار على الأرض، ورأى مقدمه رجلًا شاميًا، وهو يقول للبغالين: واحد منكم يساعدني. فسبوه وشتموه، فقال علي في نفسه: لا يحسن سفري إلا مع هذا المقدم. وكان علي أمردًا مليحًا، فتقدّم إليه وسلّم عليه، فرحّب به وقال له: أي شيء تطلب؟ فقال له: يا عمي، رأيتك وحيّدًا وحمولتك أربعون بغلاً، ولأي شيء ما جئت لك بناس يساعدونك؟ فقال: يا ولدي، قد اكتريت ولدين وكسيتهما، ووضعت لكل واحد في جيبه مائتي دينار، فساعداني إلى الخانكة وهربا. فقال له: وإلى أين تذهبون؟ قال: إلى حلب. فقال له: أنا أساعدك. فحملوا الحمول وساروا، وركب شاه بندر التجار بغلته وسار، ففرح المقدم الشامي بعليّ وعشقه إلى أن أقبل الليل، فنزلوا وأكلوا وشربوا، فجاء وقت النوم، فحطّ علي جنبه على الأرض، وجعل نفسه نائمًا، فنام المقدم قريبًا منه، فقام علي من مكانه وقعد على باب صيوان التاجر، فانقلب المقدم وأراد أن يأخذ عليًا في حضنه فلم يجده، فقال في نفسه: لعله واعدّ واحدًا فأخذه، ولكن أنا أولى، وفي غير هذه الليلة أحجزه. وأما علي فإنه لم يزل على باب صيوان التاجر إلى أن قرب الفجر، فجاء ورقد عند المقدم، فلما استيقظ المقدم وجده فقال في نفسه: إن قلت له أين كنتَ يتركني ويروح، ولم يزل يخادعه إلى أن أقبلوا على مغارة فيها غابة، وفي تلك الغابة سبّع كاسر، وكلما تمر قافلة يعملون القرعة بينهم، فكلُّ مَنْ خرجت عليه القرعة يرمونه إلى السبع، فعملوا القرعة فلم تخرج إلا على شاه بندر التجار، وإذا بالسبع قطع عليهم الطريق ينتظر الذي يأخذه من القافلة، فصار شاه بندر التجار في كرب شديد، وقال للمقدم: الله يخبب كعبك وسفرتك، ولكن وصيتك بعد موتي أن تعطي أولادي حمولي. فقال الشاطر علي: ما سبب هذه الحكاية؟ فأخبروه بالقصة. فقال: ولأي شيء تهربون من قطّ البر؟ فأنا ألّتم لكم بقتله. فراح المقدم إلى التاجر وأخبره فقال: إن قتله أعطيته ألف دينار. وقال بقية التجار: ونحن كذلك نعطيه. فقام علي وخلع المشلح، فبان عليه عدة من بولاد، فأخذ شريط بولاد وفرك لولبه، وانفرد قدام السبع وصرخ عليه، فهجم عليه السبع فضربه علي المصري بالسيف بين عينيه فقسّمه نصفين، والمقدم والتاجر ينظرونه، وقال للمقدم: لا تخفّ يا عمي. فقال له: يا ولدي، أنا بقيت صبيك. فقام التاجر واحتضنه وقبّله بين عينيه وأعطاه الألف دينار، وكل تاجر أعطاه عشرين دينارًا، فحطّ جميع المال عند التاجر، وباتوا وأصبحوا عامدين إلى بغداد، فوصلوا إلى غابة الآساد ووادي الكلاب، وإذا فيه رجل

بدوي عاصٍ قاطعٌ للطريق ومعه قبيلة، فطلع عليهم فولّت الناس من بين أيديهم. فقال التاجر: ضاع مالي. وإذا بعلي أقبل عليهم وهو لابس جلدًا ملآن جلاجل، وأطلع المزراق وركب عُقله في بعضها، واختلس حصانًا من خيل البدوي وركبه، وقال للبدوي: بارزني بالرمح! وهزّ الجلاجل، فجفلت فرس البدوي من الجلاجل، وضرب مزراق البدوي فكسره، وضربه على رقبتة فرمى دماغه. فنظره قومه فانطبقوا على علي، فقال: الله أكبر. ومال عليهم فهزمهم وولّوا هاربين، ثم رفع دماغ البدوي على رمح، وأنعم عليه التجار وسافروا حتى وصلوا إلى بغداد، فطلب الشاطر علي المال من التاجر فأعطاه إياه، فسلمه إلى المقدم وقال له: لما تروح مصر اسأل عن قاعتي، وأعطِ المال لنقيب القاعة.

ثم بات علي وأصبح دخل المدينة، وشقّ فيها وسأل عن قاعة أحمد الدنف، فلم يده أحد عليها، ثم تمشّى حتى وصل إلى ساحة النفّض، فرأى أولادًا يلعبون وفيهم ولدٌ يُسمّى أحمد اللقيط. فقال علي: لا تأخذ أخبارهم إلا من صغارهم. فالتفت علي فرأى حلوانيًا، فاشترى منه حلاوة وصاح على الأولاد، وإذا بأحمد اللقيط طرد الأولاد عنه، ثم تقدّم هو وقال لعلي: أي شيء تطلب؟ قال له: أنا كان معي ولد ومات، فرأيت في المنام يطلب حلاوة فاشتريتها، فأريد أن أعطي لكل ولد قطعة، وأعطى أحمد اللقيط قطعة، فنظرها فرأى فيها دينارًا لاصقًا بها، فقال له: رح أنا ما عندي فاحشة واسأل عني. فقال له: يا ولدي، ما يأخذ الكرى إلا شاطر، ولا يحط الكرى إلا شاطر، أنا درتُ في البلد أفتش على قاعة أحمد الدنف فلم يدلني عليها أحد، وهذا الدينار كراك وتدلني على قاعة أحمد الدنف. فقال له: أنا أروح أجري قدامك، وأنت تجري ورائي إلى أن أقبل على القاعة، فأخذ في رجلي حصوة، فأرميها على الباب فتعرفها. فجرى الولد وجرى علي وراءه، إلى أن أخذ الحصوة برجله ورمها على باب القاعة فعرفها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧١١

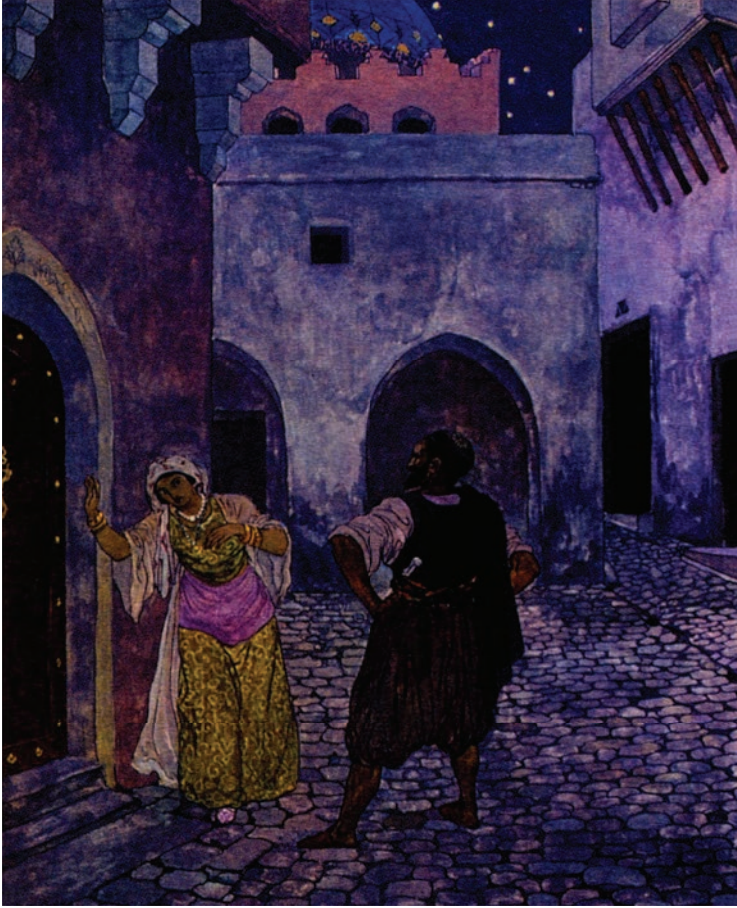
قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أحمد اللقيط لما جرى قدام الشاطر علي وأراه القاعة وعرفها، قبض على الولد، وأراد أن يخلص منه الدينار فلم يقدر، فقال له: رح تستاهل الإكرام؛ لأنك زكي كامل العقل والشجاعة، وإن شاء الله إن عملت مقدماً عند الخليفة أجعلك من صبياني. فراح الولد. وأما علي الزبيق المصري فإنه أقبل على القاعة، وطرق الباب، فقال أحمد الدنف: يا نقيب افتح الباب، هذه طرقة علي الزبيق المصري. ففتح له الباب ودخل على أحد الدنف وسلم عليه وقابله بالعناق، وسلم عليه الأربعون، ثم إن أحمد الدنف ألبسه حلة، وقال له: إني لما ولّاني الخليفة مقدماً عنده، كسا صبياني، فأبقيت لك هذه الحلة. ثم أجلسوه في صدر المجلس بينهم، وأحضروا الطعام فأكلوا، والشراب فشرّبوا وسكروا إلى الصباح، ثم قال أحمد الدنف لعلي المصري: إياك أن تشق في بغداد، بل استمر جالساً في هذه القاعة. فقال له: لأي شيء؟ فهل جئت لأحبس؟ أنا ما جئت إلا لأجل أن أتفرّج. فقال له: يا ولدي، لا تحسب أن بغداد مثل مصر، هذه بغداد محل الخلافة، وفيها شطار كثير، وتنبت فيها الشطارة كما ينبت البقل في الأرض. فأقام علي في القاعة ثلاثة أيام، فقال أحمد الدنف لعلي المصري: أريد أن أقربك عند الخليفة لأجل أن يكتب لك جامكية. فقال له: حتى يثين الألوان. فترك سبيله.

ثم إن علياً كان قاعداً في القاعة يوماً من الأيام، فانقبض قلبه وضاق صدره، فقال لنفسه: قم شق في بغداد ينشرح صدرك. فخرج وسار من زقاق إلى زقاق، فرأى في وسط السوق دكاناً، فدخل وتغدى فيه، وطلع يغسل يديه، وإذا بأربعين عبداً بالشريطات البولد واللبد، وهم سائرون اثنين اثنين، وآخر الكل دليّة المحتالة راكبة فوق بغلة، وعلى رأسها خوذة مطلية بالذهب وبيضة من بولد وزردية، وما يناسب ذلك، وكانت دليّة نازلة من الديوان إلى الخان، فلما رأت علي الزبيق المصري تأملت فيه فرأته يشبه أحمد الدنف في طوله



كان قاعدًا في القاعة، فانقبَضَ قلبُه وضاق صدرُه.

وعرضه، وعليه عباءة وبرنس وشريط من بولاد ونحو ذلك، والشجاعة لائحة عليه تشهد له ولا تشهد عليه، فسارت إلى الخان، واجتمعت بينتها زينب، وأحضرت تخت رمل، فضربت الرمل فطلع لها اسمه علي المصري، وسعده غالب على سعدا وسعد بنتها زينب. فقالت لها: يا أمي أي شيء ظهر لك حين ضربت هذا التخت؟ فقالت: أنا رأيت اليوم شابًا يشبه أحمد الدنف، وخائفة أن يسمع أنك أعريت أحمد الدنف وصبيانته، فيدخل الخان ويلعب



فطلبت منه زينب أن يقصد جبر قلبها، ومشت وتبعها من زقاق إلى زقاق.

معنا منصفًا لأجل أن يخلص ثأر كبيره، وثأر الأربعين، وأظن أنه نازل في قاعة أحمد الدنف. فقالت لها بنتها زينب: أي شيء هذا؟ أظن أنك حسبت حسابه. ثم لبست بدلة من أفخر ما عندها، وخرجت تشق في البلد. فلما رآها الناس صاروا يتعشقون فيها، وهي توعده وتحلف وتسمع وتسطح، وسارت من سوق إلى سوق حتى رأت عليًا المصري مُقبلاً عليها، فزاحمته بكتفها والتفتت، وقالت: الله يحيي أهل النظر. فقال لها: ما أحسن شكلك! لَمَن أنت؟

فقال: للغندور الذي مثلك. فقال لها: هل أنت متزوجة أم عازبة؟ فقالت: متزوجة. فقال لها: عندي أم عندك؟ فقالت: أنا بنت تاجر، وزوجي تاجر، وعمري ما خرجت إلا في هذا اليوم، وما ذاك إلا أنني طبخت طعاماً وأردت أن أكل فما لقيت لي نفساً، ولما رأيته وقعتُ محبته في قلبي، فهل يمكن أن تقصد جبر قلبي، وتأكل عندي لقمة؟ فقال لها: مَنْ دُعِيَ فَلْيُجِبْ.

ومشت وتبعها من زقاق إلى زقاق، ثم قال في نفسه وهو ماشٍ خلفها: كيف تفعل وأنت غريب؟ وقد ورد من زنى في غربته رده الله خائباً، ولكن ادفعها عنك بلطف. ثم قال: خذي هذا الدينار واجعلي الوقت غير هذا. فقالت له: والاسم الأعظم ما يمكن إلا أن تروح معي في هذا الوقت إلى البيت وأصافيك. فتبعها إلى أن وصلت باب دارٍ عليها بوابة عالية والضبة مغلقة، فقالت له: افتح هذه الضبة. فقال لها: وأين مفتاحها؟ فقالت له: ضاع. فقال لها: كلُّ مَنْ فتح ضبة بغير مفتاح يكون مجرمًا، وعلى الحاكم تأديبه، وأنا ما أعرف شيئاً حتى أفتحها بلا مفتاح. فكشفت الإزار عن وجهها، فنظرها نظرة أعقبته ألف حسرة، ثم أسبلت إزارها على الضبة وقرأت عليها أسماء أم موسى ففتحتها بلا مفتاح، ودخلت فتبعها، فرأى سيوفاً وأسلحة من البولاد، ثم إنها خلعت الإزار وقعدت معه، فقال لنفسه: استوف ما قدره الله عليك. ثم مال عليها ليأخذ قبلةً من خدها، فوضعت كفها على خدها، وقالت له: ما صفاء إلا في الليل. وأحضرت سفرة طعام ومدام فأكلوا وشربا، وقامت ملأت الإبريق من البئر وكبت على يديه فغسلهما. فبينما هما كذلك وإذا بها دقت على صدرها وقالت: إن زوجي كان عنده خاتم من ياقوت مرهون على خمسمائة دينار، فلبسته فجاء واسعاً فضيقت به شمة، فلما أدليت الدلو سقط الخاتم في البئر، ولكن التفت إلى جهة الباب حتى أتعري، وأنزل البئر لأجيه به. فقال لها: عيب عليّ أن تنزلي وأنا موجود، فما ينزل إلا أنا. فقلع ثيابه، وربط نفسه في السلبة، وأدلت في البئر، وكان الماء فيه غزيراً، ثم قالت له: إن السلبة قد قصرت مني، ولكن فك نفسك وانزل. ففك نفسه ونزل في الماء وغطس فيه قامات، ولم يحصل قرار البئر، وأما هي فإنها لبست إزارها وأخذت ثيابه، وراحت إلى أمها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧١٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علياً المصري لما نزل في البئر وأخذت ثيابه، راحت إلى أمها وقالت لها: قد عرّيتُ علياً المصري، وأوقعته في بئر الأمير حسن صاحب الدار، وهيهات أن يخلص. وأما الأمير حسن صاحب الدار، فإنه كان في وقتها غائباً في الديوان، فلما أقبل رأى بيته مفتوحاً، فقال للسائس: لأي شيء ما أغلقتَ الضبة؟ فقال: يا سيدي، إنني أغلقتها بيدي. فقال: وحياء رأسي إن بيتي قد دخله حرامي. ثم دخل الأمير حسن وتلفتَ في البيت فلم يجد أحداً، فقال للسائس: املاً الإبريق حتى أتوضأ. فأخذ السائس الدلو وأدلاه، فلما سحبه وجده ثقيلاً، فطلَّ في البئر فرأى شيئاً قاعداً في السطل، فألقاه في البئر ثانياً، ونادى وقال: يا سيدي، قد طلع لي عفريت من البئر. فقال له الأمير حسن: رح هات أربعة فقهاء يقرءون القرآن عليه حتى ينصرف. فلما أحضر الفقهاء قال لهم: احتاطوا بهذا البئر واقراءوا على هذا العفريت. ثم جاء العبد والسائس وأنزلوا الدلو، وإذا بعلي المصري تعلَّق به، وخبأ نفسه في الدلو، وصبر حتى صار قريباً منهم، ووثب من الدلو وقعد بين الفقهاء. فصاروا يلطشون بعضهم، ويقولون: عفريت عفريت. فرآه الأمير حسن غلاماً إنسياً، فقال له: هل أنت حرامي؟ فقال: لا. فقال له: ما سبب نزولك في البئر؟ فقال له: أنا نمت واحتلمت، فنزلت لأغتسل في بحر الدجلة فغطست وجذبني الماء تحت الأرض حتى خرجت من هذه البئر. فقال له: قُل الصدق. فحكى له جميع ما جرى له، فأخرجه من البيت بثوبٍ قديم، فتوجَّه إلى قاعة أحمد الدنف وحكى له ما وقع له، فقال: أَمَا قُلْتُ لك إن بغداد فيها نساء تلعب على الرجال؟ فقال علي كتف الجمل: بحق الاسم الأعظم أن تخبرني كيف تكون رئيس فتیان مصر وتعرّيك صبية؟ فصعب عليه ذلك وندم، فكساه أحمد الدنف بدلة غيرها.

ثم قال حسن شومان: هل أنت تعرف الصبية؟ فقال: لا. فقال له: هذه زينب بنت دليلة المحتالة بوابة خان الخليفة، فهل وقعت في شبكتها يا علي؟ قال: نعم. فقال له: يا علي، إن هذه أخذت ثياب كبيرك وثياب جميع صبيانها. فقال: هذا عار عليكم. فقال له: وأي شيء مرادك؟ فقال: مرادي أن أتزوَّج بها. فقال له: هيهات، سلَّ فؤادك عنها. فقال له: وما حيلتي في زواجها يا شومان؟ فقال: مرحباً بك إن كنت تشرب من كفي، وتمشي تحت رايتي، بلغت مرادك منها. فقال له: نعم. فقال له: يا علي، اقلع ثيابك. فقلع ثيابه وأخذ قدراً وغلى فيه شيئاً مثل الزفت، ودهنه به، فصار مثل العبد الأسود، ودهن شفتيه وخديه وكحلَّه بكحل أحمر، وألبسه ثياب خدام، وأحضر عنده سفرة كباب ومدام وقال له: إن في الخان عبداً طباحاً، وأنت صرت شببيه، ولا يحتاج من السوق إلا اللحم والخضار، فتوجَّه إليه بلطف وكلمه بكلام العبيد وسلَّم عليه وقل له: زمان ما اجتمعت بك في البوظة. فيقول لك: أنا مشغول، في رقبتني أربعون عبداً أطبخ لهم سماًطاً في الغداء، وسماًطاً في العشاء، وأطعم الكلاب، وسفرة لدليلة وسفرة لبنتها زينب. ثم قلَّ له: تعال نأكل كباباً ونشرب بوظة. وادخل وإياه القاعة وأسكره، ثم أسأله عن الذي يطبخه كم لون هو؟ وعن أكل الكلاب، وعن مفتاح المطبخ، وعن مفتاح الكرار، فإنه يخبرك؛ لأن السكران يخبر بجميع ما يكتمه في حال صحوه، وبعد ذلك بنَّجه والبس ثيابه، وخذ السكاكين في وسطك، وخذ مقطف الخضار واذهب إلى السوق واشتر اللحم والخضار، ثم ادخل المطبخ والكرار واطبخ الطبخ، ثم اغرفه وخذ الطعام وادخل به على دليلة في الخان، وحط البنج في الطعام حتى تبنج الكلاب والعبيد ودليلة وبنتها زينب، ثم اطلع القصر واثَّ بجميع الثياب منه. وإن كان مرادك أن تتزوَّج بزينب تجيء معك بالأربعين طيراً التي تحمل الرسائل.

فطلع فرأى العبد الطباخ فسَلَّم عليه، وقال له: زمان ما اجتمعنا بك في البوظة. فقال له: أنا مشغول بالطبخ للعبيد والكلاب. فأخذه وأسكره وسأله عن الطبخ كم لون هو؟ فقال له: كل يوم خمسة ألوان في الغداء، وخمسة ألوان في العشاء، وطلبوا مني أمس لوناً سادساً وهو الزردة، ولوناً سابغاً وهو طبيخ حب الرمان. فقال: وأي شيء حال السفرة التي تعملها؟ فقال: أؤدي سفرة إلى زينب، وبعدها سفرة لدليلة، وأعشي العبيد، وبعدهم أعشي الكلاب وأطعم كل واحد كفايته من اللحم، وأقل ما يكفيه رطل. وأنسته المقادير أن يسأله عن المفاتيح، ثم قلَّعه ثيابه ولبسها هو، وأخذ المقطف وراح السوق، فأخذ اللحم والخضار. وأدرك شهرزد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧١٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علياً الزبيق المصري لما بنَجَّ العبد الطباخ، أخذ السكاكين وحطها في حزامه، وأخذ مقطف الخضار، ثم ذهب إلى السوق واشترى اللحم والخضار، ثم رجع ودخل من باب الخان، فرأى دليلة قاعدة تنتقد الداخل والخارج، ورأى الأربعين عبداً مسلّحين، فقوّى قلبه، فلما رأته دليلة عرفته، فقالت له: ارجع يا رئيس الحرامية، أتعلم عليّ منصفاً في الخان؟ فالتفت علي المصري وهو في صورة العبد إلى دليلة، وقال لها: ما تقولين يا بوابة؟ فقالت له: ماذا صنعت بالعبد الطباخ؟ وأي شيء فعلت فيه؟ فهل قتلته أو بنَجْتَه؟ فقال لها: أي عبد طباخ؟ فهل هناك عبد طباخ غيري؟ فقالت: تكذب، أنت علي الزبيق المصري. فقال لها بلغة العبيد: يا بوابة، هل المصرية بيضة أم سودة؟ أنا ما بقيت أخدم. فقال العبيد: ما لك يا بن عمنا؟ فقالت دليلة: هذا ما هو ابن عمكم، هذا علي الزبيق المصري، وكأنه بنج ابن عمكم أو قتله. فقالوا: هذا ابن عمنا سعد الله الطباخ. فقالت لهم: ما هو ابن عمكم، بل هو علي المصري وصبغ جلده. فقال لها: مَنْ علي؟ أنا سعد الله. فقالت: إن عندي دهان الاختبار. وجاءت بدهان فدهنت به ذراعه وحكّته، فلم يطلع السواد. فقال العبيد: خليه يروح ليعمل لنا الغداء. فقالت لهم: إن كان هو ابن عمكم يعرف أي شيء طلبتم منه ليلة أمس، ويعرف كم لوناً يطبخها في كل يوم. فسألوه عن الألوان وعمّا طلبوه ليلة أمس، فقال: عدس وأرز وشوربة ويخني وماء وردية، ولون سادس وهو زردة، ولون سابع وهو حب الرمان، وفي العشاء مثلها. فقال العبيد: صدق. فقالت لهم: ادخلوا معه، فإن عرف المطبخ والكرار فهو ابن عمكم، وإلا فاقتلوه. وكان الطباخ قد ربّى قطاً، فكلمه يدخل الطباخ يقف القط على باب المطبخ، ثم ينط على أكتافه إذا دخل، فلما دخل ورآه القط نطّ على أكتافه فرماه، فجرى قدامه إلى المطبخ، فلحظ أن القط ما وقف إلا على باب المطبخ، فأخذ المفاتيح فرأى مفتاحاً عليه أثر الريش، فعرف أنه مفتاح المطبخ ففتحه

وحط الخضار، وخرج فجرى القط قدماه وعمد إلى باب الكرار، فلحظ أنه الكرار، فأخذ المفاتيح ورأى مفتاحاً عليه أثر الدهان، فعرف أنه مفتاح الكرار ففتحه، فقال العبيد: يا دليّة، لو كان غريباً ما عرف المطبخ والكرار، ولا عرف مفتاح كل مكان من بين المفاتيح، وإنما هذا ابن عمنا سعد الله. فقالت: إنما عرف الأماكن من القط، وميّز المفاتيح من بعضها بالقريّة، وهذا الأمر لا يدخل عليّ. ثم إنه دخل المطبخ وطبخ الطعام وطلّع سفرة إلى زينب، فرأى جميع الثياب في قصرها، ثم نزل وحطّ سفرة لدليّة وغدّى العبيد وأطعم الكلاب، وفي العشاء كذلك، وكان الباب لا يفتح ولا يقفل إلا بشمس في الغداة والعشي.

ثم إن عليّاً قام ونادى في الخان: يا سكان، قد سهرت العبيد للحرس، وأطلقنا الكلاب، وكل من طلع فلا يلوم إلا نفسه. وكان عليّ آخر عشاء الكلاب وحطّ فيه السم، ثم قدّمه إليها فلما أكلته ماتت، وبنّج جميع العبيد ودليّة وبنّتها زينب، ثم طلع فأخذ جميع الثياب وحمام البطاقة، وفتح الخان، وخرج وسار إلى أن وصل إلى القاعة، فرآه حسن شومان فقال له: أي شيء فعلت؟ فحكى له جميع ما كان، فشكره، ثم إنه قام ونزع ثيابه، وغلى له عشباً وغسله به، فعاد أبيض كما كان، وراح إلى العبد وألبسه ثيابه، وأيقظه من البنج، فقام العبد وذهب إلى الخضري، فأخذ الخضار ورجع إلى الخان.

هذا ما كان من أمر عليّ الزبيق المصري، وأما ما كان من أمر دليّة المحتالة، فإنه طلع من طبقته رجل تاجر من السكان عندما لاح الفجر، فرأى باب الخان مفتوحاً والعبيد مبنّجة والكلاب ميتة، فنزل إلى دليّة فرآها مبنّجة وفي رقبتها ورقة، ورأى عند رأسها أسفنجة فيها ضد البنج، فحطها على مناخير دليّة فأفاقت؛ فلما أفأقت قالت: أين أنا؟ فقال لها التاجر: أنا نزلت فرأيت باب الخان مفتوحاً، ورأيتك مبنّجة، وكذلك العبيد، وأما الكلاب فرأيتها ميتة. فأخذت الورقة فرأت فيها: ما عمل هذا العمل إلا عليّ المصري. فشتمّت العبيد وزينب بنتها ضد البنج وقالت: أمّا قلتُ لكم إن هذا عليّ المصري؟ ثم قالت للعبيد: اكنموا هذا الأمر. وقالت لبنتها: كم قلتُ لك إن عليّاً ما يخلي ثأره؟ وقد عمل هذا العمل في نظير ما فعلت معه، وكان قادراً أن يفعل معك شيئاً غير هذا، ولكنه اقتصر على هذا إبقاءً للمعروف وطلباً للمحبة بيننا. ثم إن دليّة خلعت لباس الفتوة ولبست لباس النساء، وربطت المحرمة في رقبتها وقصدت قاعة أحمد الدنف، وكان عليّ حين دخل بالثياب وحمام الرسائل، قام شومان وأعطى للنقيب حق أربعين حمامة، فاشتراها وطبخها بين الرجال، وإذا بدليّة تدق الباب، فقال أحمد الدنف: هذه دقة دليّة، قم افتح لها يا نقيب. فقام وفتح لها فدخلت دليّة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧١٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن النقيب لما فتح القاعة لدليلة دخلت، فقال لها شومان: ما جاء بك هنا يا عجوز النحس، وقد تحزّبتِ أنتِ وأخوك زريق السماك؟ فقالت: يا مقدم، إن الحق عليّ، وهذه رقبتني بين يديك، ولكن الفتى الذي عمل معي هذا المنصف من هو منكم؟ فقال أحمد الدنف: هو أول صبياني. فقالت له: أنت سيق الله عليه أنه يجيء لي بحمام الرسائل وغيره، وتجعل ذلك إنعاماً عليّ. فقال حسن شومان: الله يقابلك بالجزاء يا علي، لأي شيء طبخت ذلك الحمام؟ فقال علي: ليس عندي خبر أنه حمام الرسائل. ثم قال أحمد: يا نقيب هات نائبها. فأعطاهما فأخذت قطعة من حمامة ومضغتها، فقالت: هذا ما هو لحم طير الرسائل، فإني أعلفه حب المسك، ويبقى لحمه كالمسك. فقال لها شومان: إن كان مرادك أن تأخذي حمام الرسائل، فاقضي حاجة علي المصري. فقالت: أي شيء حاجته؟ فقال لها: أن تزوّجيه بنتك زينب. فقالت: أنا ما أحكم عليها إلا بالمعروف. فقال حسن لعلي المصري: أعطها الحمام. فأعطاه إياه، فأخذته وفرحت به، فقال شومان: لا بد أن تروي علينا جواباً كافياً. فقالت: إن كان مراده أن يتزوّج بها، فهذا المنصف الذي عمله هو شطارة، وما الشطارة إلا أن يخطبها من خالها المقدم زريق، فإنه وكيلها الذي ينادي: يا رطل سمك بجديدين. وقد علق في دكانه كيساً حطّ فيه من الذهب ألفين. فعندما سمعوها تقول ذلك قاموا وقالوا: ما هذا الكلام يا عاهرة، إنما أردت أن تعدمينا أخانا علياً المصري. ثم إنها راحت من عندهم إلى الخان، فقالت لبنتها: قد خطبك مني علي المصري. وفرحت لأنها أحبّته لعفته عنها، وسألته عمّا جرى، فحكّت لها ما وقع وقالت: شرطت عليه أن يخطبك من خالك وأوقعته في الهلاك.

وأما علي المصري فإنه التفت إليهم، وقال: ما شأن زريق؟ وأي شيء يكون هو؟ فقالوا: هو رئيس فتيان أرض العراق، يكاد أن ينقب الجبل ويتناول النجم، ويأخذ

الكحل من العين، وهو في هذا الأمر ليس له نظير، ولكنه تاب عن ذلك، وفتح دكان سماك، فجمع من السمك ألفي دينار ووضعها في كيس وربط في الكيس قيطاناً من حرير، ووضع في القيطان جلاجل وأجراساً من نحاس، وربطه في وتد من داخل باب الدكان متصلاً بالكيس، وكلما يفتح الدكان يعلق الكيس وينادي: أين أنتم يا شطار مصر ويا فتيان العراق ويا مَهْرَةَ بلاد العجم؟ زريق السماك علّق كيساً على وجه الدكان، كلُّ مَنْ يدَّعي الشطارة ويأخذه بحيلة، فإنه يكون له. فتأتى الفتيان أهل الطمع، ويريدون أنهم يأخذونه فلم يقدروا؛ لأنه واضح تحت رجله أرغفة من رصاص وهو يقلي ويوقد النار، فإذا جاء الطماع ليساهيه ويأخذه يضربه برغيف من رصاص فيتلفه أو يقتله، فيا علي، إذا تعرّضت له تكون كمن يلطم في الجنازة، ولا يعرف مَنْ مات، فما لك قدرة على مقارعتة، فإنه يُخشى عليك منه، ولا حاجة لك بزواجك زينب، ومَنْ ترك شيئاً عاش بلاه. فقال: هذا عيب يا رجال؛ فلا بد لي من أخذ الكيس، ولكن هاتوا لي لبس صبية. فأحضروا له لبس صبية، فلبسه وتحنّى وأرخی لثاماً، وذبح خروفاً وأخذ دمه، وطلع المصران ونظفه وعقده من تحت وملأه بالدم، وربطه على فخذة ولبس عليه اللباس والخف، وعمل له نهدين من حواصل الطير وملأهما باللبن، وربط على بطنه بعض قماش، ووضع بينه وبين بطنه قطناً، وتحزّم عليه بفوطة كلها نشاء، فصار كل مَنْ ينظره يقول: ما أحسن هذا الكفل! وإذا بحمّار مُقْبِل فأعطاه ديناراً، وأركبه وسار به إلى جهة دكان زريق السماك، فرأى الكيس معلّقاً، ورأى الذهب ظاهرًا منه، وكان زريق يقلي السمك، فقال: يا حمّار، ما هذه الرائحة؟ فقال له: رائحة سمك زريق. فقال له: أنا امرأة حامل والرائحة تضرني، هات لي منه قطعة سمك. فقال الحمّار لزريق: هل أصبحت تفوح الرائحة على النساء الحوامل؟ أنا معي زوجة الأمير حسن شر الطريق قد شمت الرائحة وهي حامل، فهات لها قطعة سمك؛ لأن الجنين تحرّك في بطنها، فقال زريق: يا ستّير، اللهم اكفنا شر هذا النهار. فأخذ قطعة سمك وأراد أن يقلبها، فانطفت النار، فدخل ليوقد النار، وكان علي المصري قاعداً، فاتكأ على المصران فقطعه؛ فساح الدم من بين رجلَيْه، فقال: آه يا جنبي يا ظهري. فالتفت الحمّار فرأى الدم سائحاً، فقال لها: ما لك يا سيدتي؟ فقال له وهو في صورة المرأة: قد أسقطت الجنين. فطلّ زريق فرأى الدم، فهرب في الدكان وهو خائف، فقال له الحمّار: الله ينكد عليك يا زريق، إن الصبية قد أسقطت الجنين، وإنك ما تقدر على زوجها، فلأي شيء أصبحت تفوح الرائحة؟ وأنا أقول لك: هات لها قطعة سمك ما ترضى. ثم أخذ الحمّار حماره وتوجّه إلى حال سبيله. وحين هرب زريق داخل الدكان

مدَّ علي المصري يده إلى الكيس، فلما حصَّله خشخش الذهب الذي فيه وصلصت الجلاجل والأجراس والحلق، فقال زريق: ظهر خداعك يا علق، أتعلم عليَّ منصفًا وأنت في صورة صبية؟ ولكن خذ ما جاءك. وضربه برغيفٍ من رصاص فراح خائبًا وخطَّ في غيره. فقام عليه الناس وقالوا: هل أنت سوقي وإلا مضارب؟ فإن كنت سوقيًا فنزِّل الكيس واكف الناس شرك. فقال لهم: باسم الله على الرأس.

وأما علي فإنه راح إلى القاعة فقال له شومان: ما فعلت؟ فحكى له جميع ما وقع له، ثم قلع لبس النساء وقال: يا شومان، أحضر لي ثياب سائس. فأحضرها له فأخذها ولبسها، ثم أخذ صحنًا وخمسة دراهم، وراح لزريق السمك، فقال له: أي شيء تطلب يا أسطى؟ فأراه الدراهم في يده، فأراد زريق أن يعطي له من السمك الذي على الطبلية، فقال له: أنا ما أخذ إلا سمكًا سخنًا. فحطَّ السمك في الطاجن وأراد أن يقلبه؛ فانطفأت النار، فدخل ليوقدها فمدَّ علي المصري يده لياخذ الكيس، فحصل طرفه فخشخشت الأجراس والحلق والجلاجل، فقال له زريق: ما دخل عليَّ منصفك ولو جئتني في صورة سائس، وأنا عرفتك من قبض يدك على الفلوس والصحن. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧١٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علياً المصري لما مَدَّ يده لِيَأْخُذَ الكيس خششت الأجراس والحلق، فقال له زريق: ما دخل عليَّ منصفك ولو جئتني في صورة سائس، فأنا عرفتكَ من قبض يدك على الفلوس والصحن. وضربه برغيفٍ من رصاص، فراغ عنه علي المصري، فلم ينزل الرغيف الرصاص إلا في طاجن ملآن باللحم السخن، فانكسر ونزل بمرقته على كتف القاضي وهو سائر، ونزل الجميع في عب القاضي حتى وصل إلى محاشمه، فقال القاضي: يا محاشمي! ما أقبحك يا شَقِي؟ مَنْ عمل معي هذه العَمَلَة؟ فقال له الناس: يا مولانا، هذا ولد صغير رجم بحجر فوقع في الطاجن، ما دفع الله كان أعظم. ثم التفتوا فوجدوا الرغيف الرصاص، والذي رماه إنما هو زريق السماء، فقاموا عليه وقالوا: ما يحل من الله يا زريق، نَزَلَ الكيس أحسن لك. فقال: إن شاء الله أنزله.

وأما علي المصري فإنه راح إلى القاعة، ودخل على الرجال، فقالوا له: أين الكيس؟ فحكى لهم جميع ما جرى له، فقالوا له: أنت أضعتَ ثلثي شطارتته. فقلع ما عليه، ولبس بدلة تاجر، وخرج فرأى حاوياً معه جراب فيه ثعابين وجربندية فيها أمتعته، فقال له: يا حاوي، مرادي أن تفرِّجَ أولادي وتأخذ إحساناً، فأتى به إلى القاعة وأطعمه وبَنَجَه ولبس بدلته، وراح إلى زريق السماء، وأقبل عليه وزمَّ بالزمارة، فقال له: الله يرزقك. وإذا به طلَّعَ الثعابين ورماها قدامه، وكان زريق يخاف من الثعابين؛ فهرب منها داخل الدكان، فأخذ الثعابين ووضعها في الجراب ومدَّ يده إلى الكيس، فحصل طرفه فشن الحلق والجلجل والأجراس، فقال له: ما زلت تعمل عليَّ المناصف حتى عملتَ حاوياً؟ ورماه برغيف من رصاص، وإذا بواحد جندي سائر ووراءه السائس، فوقع الرغيف في رأس السائس فبطحه. فقال الجندي: مَنْ بطحه؟ فقال له الناس: هذا حجر نزل من السقيفة.

فسار الجندي والتفتوا فرأوا الرغيف الرصاص، فقاموا عليه، وقالوا له: نزل الكيس. فقال: إن شاء الله أنزله في هذه الليلة. وما زال علي يلعب مع زريق حتى عمل معه سبعة مناصف ولم يأخذ الكيس، ثم إنه أرجع ثياب الحاوي ومتاعه إليه وأعطاه إحساناً، ورجع إلى دكان زريق، فسمعه يقول: أنا إن بيئت الكيس في الدكان نقب عليه وأخذه، ولكن أخذه معي إلى البيت. ثم قام زريق وعزل الدكان ونزل الكيس وحطه في عبه، فتبعه علي إلى أن قرب من البيت، فرأى زريق جاره عنده فرح، فقال زريق في نفسه: حتى أروح البيت وأعطي زوجتي الكيس وألبس حوائجي، ثم أعود إلى الفرع. ومشى وعلي تابعه، وكان زريق متزوجاً بجارية سوداء من معاتيق الوزير جعفر، ورزق منها بولد وسماه عبد الله، وكان يوعدها أنه يطاهر الولد بالكيس ويزوجه، ويصرفه في فرحه. ثم دخل زريق على زوجته وهو عابس الوجه، فقالت له: ما سبب عبوسك؟ فقال لها: ربنا بلاني بشاطر لعب معي سبعة مناصف على أنه يأخذ الكيس، فما قدر أن يأخذه. فقالت: هاته حتى أدخره لفرح الولد. فأعطاه إياه.

وأما علي المصري فإنه تخبأ في مخدع، وصار يسمع ويرى، فقام زريق وقلع ما عليه ولبس بدلته، وقال لها: احفظي الكيس يا أم عبد الله، وأنا رائح إلى الفرع. فقالت له: نم لك ساعة. فنام، فقام علي ومشى على أطراف أصابعه وأخذ الكيس وتوجه إلى بيت الفرع ووقف يتفرج. وأما زريق فإنه رأى في منامه أن الكيس أخذه طائر، فأفاق مرعوباً وقال لأُم عبد الله: قومي انظري الكيس. فقامت تنظره فما وجدته، فلطمت على وجهها، وقالت: يا سواد حظك يا أم عبد الله، الكيس أخذه الشاطر. فقال: والله ما أخذه إلا الشاطر علي، وما أحد غيره أخذ الكيس، ولا بد أني أجيء به. فقالت: إن لم تجيء به وإلا قفلت عليك الباب وتركتك تبيت في الحارة. فأقبل زريق على الفرع فرأى الشاطر علياً يتفرج، فقال: هذا الذي أخذ الكيس، ولكنه نازل في قاعة أحمد الدنف. فسبقه زريق إلى القاعة وطلع على ظهرها ونزل فرأهم نائمين، وإذا بعلي أقبل ودق الباب، فقال زريق: من بالباب؟ فقال: علي المصري. فقال له: هل جئت بالكيس؟ فظن أنه شومان، فقال له: جئت به فافتح الباب. فقال له: ما يمكن أن أفتح لك حتى أنظره، فإنه وقع بيني وبين كبيرك رهان. فقال له: مدّ يدك. فمدّ يده من جنب عقب الباب، فأعطاه الكيس، فأخذه زريق وطلع من الموضع الذي نزل منه، وراح إلى الفرع. وأما علي فإنه لم يزل واقفاً على الباب، ولم يفتح له أحد، فطرق الباب طرقة مزعجة، فصحا الرجال وقالوا: هذه طرقة علي المصري. ففتح له النقيب وقال له: جئت بالكيس؟ فقال: يكفي مزاحاً يا شومان أما أعطيتك إياه

من جنب عقب الباب، وقلت لي: أنا حالف أني لا أفتح لك الباب حتى تريني الكيس. فقال: والله ما أخذته، وإنما زريق هو الذي أخذه منك. فقال له: لا بد أني أجيء به. ثم خرج علي المصري متوجّهاً إلى الفرح، فسمع الخلبوص يقول: شوبش يا أبا عبد الله، العاقبة عندك لولدك. فقال علي: أنا صاحب السعد. وتوجّه إلى بيت زريق وطلع من فوق ظهر البيت ونزل، فرأى الجارية نائمة، فبنّجها ولبس بدلتها، وأخذ الولد في حجره ودار يفتش، فرأى مقطّفاً فيه كعك العيد من بخل زريق، ثم إن زريقاً أقبل إلى البيت وطرق الباب، فجاوبه الشاطر علي وجعل نفسه الجارية وقال له: من بالباب؟ فقال: أبو عبد الله. فقال: أنا حلفت ما أفتح لك الباب حتى تجيء بالكيس؟ فقال: جئتُ به. فقال: هاتِه قبل فتح الباب. فقال: أدلي المقطف وخذيه فيه. فأدلى المقطف فحطّه فيه، ثم أخذ الشاطر علي وبنّج الولد وأيقظ الجارية، ونزل من الموضع الذي طلع منه وقصد القاعة، فدخل على الرجال وأراهم الكيس والولد معه، فشكروه وأعطاهم الكعك فأكلوه، وقال: يا شومان، هذا الولد ابن زريق فآخفه عندك. فأخذه وأخفاه وأتى بخروفٍ فذبّحه وأعطاه للنقيب فطبخه قمّة وكفنه، وجعله كاليت.

وأما زريق فإنه لم يزل واقفاً على الباب، ثم دقّ الباب دقة مزعجة، فقالت له الجارية: هل جئت بالكيس؟ فقال لها: أمّا أخذته في المقطف الذي أدليتّه؟ فقالت: أنا ما أدليتُ مقطّفاً ولا رأيت كيساً ولا أخذته. فقال: والله إن الشاطر علي سبّني وأخذه. ونظر في البيت فرأى الكعك معدوماً والولد مفقوداً، فقال: وا ولداه! فدقت الجارية على صدرها وقالت: أنا وإياك للوزير، ما قتل ابني إلا الشاطر الذي يفعل معك المناصف، وهذا بسببك. فقال لها: ضمانه عليّ. ثم طلع زريق وربط المحرمة في رقبتة وراح إلى قاعة أحمد الدنف ودقّ الباب، ففتح له النقيب ودخل على الرجال، فقال شومان: ما جاء بك؟ فقال: أنتم سيقا على علي المصري ليعطيني ولدي وأسامحه في الكيس الذهب. فقال شومان: الله يقابلك يا علي بالجزاء، لأي شيء ما أعلمتني أنه ابنه؟ فقال زريق: أي شيء جرى عليه؟ فقال شومان: أطعمناه زبيباً فشرق ومات وهو هذا. فقال: وا ولداه! ما أقول لأمه؟ ثم قام وفكّ الكفن فرآه قمّة، فقال له: أطربتني يا علي. ثم إنهم أعطوه ابنه، فقال أحمد الدنف: أنت كنت معلقاً الكيس لكلّ من كان شاطراً يأخذه، فإن أخذه شاطر يكون حقه، وإنه صار حق علي المصري. فقال: وأنا وهبته له. فقال له علي الزبيق المصري: اقبله من شأن بنت أختك زينب. فقال له: قبلته. فقالوا: نحن خطبناها لعلي المصري. فقال: أنا ما أحكم عليها إلا بالمعروف. ثم إنه أخذ ابنه وأخذ الكيس، فقال شومان: هل قبلتَ منّا الخطبة؟

ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)

فقال: قبلْتُها ممَّن كان يقدر على مهرها. فقال له: وأي شيء مهرها؟ فقال: إنها حالفة أَلَّا يركب صدرها إلا مَنْ يجيء لها ببذلة قمر بنت عذرة اليهودي، وباقي حوائجها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَّتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧١٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زريقًا قال لشومان: إن زينب حافلة ألا يركب صدرها إلا الذي يجيء لها ببدة قمر بنت عذرة اليهودي والتاج والحياسة والتاسومة الذهب. فقال علي المصري: إن لم أجيء ببدلتها في هذه الليلة لا حق لي في الخطبة. فقال له: يا علي، تموت إن عملت معها منصفًا. فقال لهم: ما سبب ذلك؟ فقالوا له: إن عذرة اليهودي ساحر مگار غدار يستخدم الجن، وله قصر خارج المملكة حيطان طوبة من ذهب وطوبة من فضة، وذلك القصر ظاهر للناس ما دام قاعدًا فيه، ومتى خرج فإنه يختفي، ورزق ببنت اسمها قمر، وجاء لها بهذه البدة من كنز، فيضع البدة في صينية من الذهب ويفتح شبابيك القصر وينادي: أين شطّار مصر وفتيان العراق ومهرة العجم؟ كل من أخذ البدة تكون له. فحاوله بالمناصف سائر الفتیان فلم يقدروا أن يأخذوها، وسحرهم قروداً وحميرًا. فقال علي: لا بد من أخذها، وتتجلى بها زينب بنت دليلة المحتالة. ثم توجه علي المصري إلى دكان اليهودي فرآه فظًا غليظًا، وعنده ميزان وصنج وذهب وفضة ومناقد، ورأى عنده بغلة، فقام اليهودي وقفل الدكان، وحطّ الذهب والفضة في كيسين، وحطهما في خرّج وحطّه على البغلة وركب، وسار إلى أن وصل خارج البلد وعلي المصري وراءه وهو لم يشعر. ثم أطلع اليهودي ترابًا من كيس في جيبه وعزم عليه ورشه في الهواء، فرأى الشاطر علي قصرًا ما له نظير، ثم طلعت البغلة باليهودي في السلام، وإذا بالبغلة عون يستخدمه اليهودي، فنزل الخرّج عن البغلة، وراحت البغلة واختفت. وأما اليهودي فإنه قعد في القصر وعلي ينظر فعله، فأحضر اليهودي قسبة من ذهب، وعلق فيها صينية من ذهب بسلاسل من ذهب، وحط البدة في الصينية، فرآها علي من خلف الباب، ونادى اليهودي أين شطّار مصر وفتيان العراق ومهرة العجم؟ من أخذ هذه البدة بشطارته فهي له. وبعد ذلك عزم فوضعت سفرة طعام فأكل، ثم رُفعت السفرة بنفسها،

ألف ليلة وليلة (الجزء الرابع)

وعزم مرة أخرى فوُضعت بين يديه سفرة مدام فشرب، فقال علي: أنت لا تعرف أن تأخذ هذه البدلة إلا وهو يسكر. فجاءه من خلفه وسحب شريط البولاد في يده، فالتفت اليهودي وعزم وقال ليده: قفي بالسيف. فوقفت يده بالسيف في الهواء، فمدَّ يده الشمال فوقفت في الهواء، وكذلك رجله اليمنى، وصار واقفاً على رجل، ثم إن اليهودي صرف عنه الطلسم، فعاد علي المصري كما كان أولاً.



وركب عليه اليهودي واختفى القصر عن الأعين، وسار وهو راكبه.

ثم إن اليهودي ضرب تخت رمل، فطلع له أن اسمه علي الزبيق المصري؛ فالتفت إليه وقال له: تعال، مَنْ أنت؟ وما شأنك؟ فقال: أنا علي المصري، صبي أحمد الدنف، وقد خطبت زينب بنت دليلة المحتالة، وعملوا عليّ مهرها بدلة بنتك، فأنت تعطيلها إليّ إن أردت السلامة وتسلم. فقال له: بعد موتك، فإن ناسًا كثيرًا عملوا عليّ مناصف من شأن أخذ البدلة، فلم يقدروا أن يأخذوها مني، فإن كنت تقبل النصيحة تسلم بنفسك، فإنهم ما طلبوا منك البدلة إلا لأجل هلاكك، ولولا أنني رأيت سعدك غالبًا على سعدي لكنتُ رميت رقبتيك. ففرح علي لكون اليهودي رأى سعده غالبًا على سعده، فقال له: لا بد لي من أخذ البدلة وتسلم. فقال له: هل هذا مرادك ولا بد؟ قال: نعم. فأخذ اليهودي طاسة، وملأها ماء وعزم عليها، وقال: اخرج من الهيئة البشرية إلى هيئة حمار. ورّشه منها فصار حمارًا بحوافر وأذان طوال، وصار ينهق مثل الحمير، ثم ضرب عليه دائرة فصارت عليه سورًا، وصار اليهودي يسكر إلى الصباح، فقال له: أنا أركبك وأريح البغلة.

ثم إن اليهودي وضع البدلة والصينية والقصبة والسلاسل في خشخانة، ثم طلع وعزم عليه، فتبعه وحطّ على ظهره الخُرْج، وركب عليه، واختفى القصر عن الأعين وسار وهو راكبه إلى أن نزل على دكانه، وفرغ الكيس الذهب والكيس الفضة في المنقد قدامه. وأما علي فإنه مربوط في هيئة حمار، ولكنه يسمع ويعقل ولا يقدر أن يتكلم، وإذا برجل ابن تاجر جار عليه الزمن، فلم يجد له صنعة خفيفة إلا السقاية، فأخذ أساور زوجته وأتى إلى اليهودي وقال له: أعطني ثمن هذه الأساور لأشتري لي به حمارًا؟ فقال اليهودي: تحمل عليه أي شيء؟ فقال له: يا معلم، أملأ عليه ماء من البحر وأقتات من ثمنه. فقال له اليهودي: خذ مني حماري هذا. فباع له الأساور وأخذ من ثمنها الحمار، وأعطاه اليهودي الباقي، وسار بعلي المصري وهو مسحور إلى بيته، فقال علي لنفسه: متى ما حطّ عليك الحمار الخشب والقربة، وذهب بك عشرة مشاوير أعدمك العافية وتموت. فتقدّمت امرأة السقا تحطّ له عليه، وإذا به لطشها بدماعه، فانقلبت على ظهرها ونطّ عليها ودق بفمه في دماغها، وأدلى الذي خلفه له الوالد، فصاحت فأدركها الجيران، فضرّبوه ورفعوه عن صدرها، وإذا بزوجها الذي أراد أن يعمل سقاء جاء إلى البيت، فقالت له: إما أن تطلقني وإما أن ترد الحمار إلى صاحبه. فقال لها: أي شيء جرى؟ فقالت له: هذا شيطان في صفة حمار، فإنه نطّ عليّ ولولا الجيران رفعوه من فوق صدري لفعل بي القبيح. فأخذه وراح إلى اليهودي، فقال له اليهودي: لأي شيء رددته؟ فقال له: هذا فعل مع زوجتي فعلاً قبيحًا. فأعطاه دراهمه وراح، وأما اليهودي فإنه التفت إلى علي وقال له: أ تدخل باب المكر يا مشئوم حتى ردّك إليّ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧١٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن اليهودي لما ردَّ له السقاء الحمار أعطاه دراهمه، والتفت إلى علي المصري وقال: أتدخل باب المكر يا مشئوم حتى ردك إليّ؟ ولكن حيثما رضيت أن تكون حمارًا أنا أهلك فرجة للكبار والصغار، وأخذ الحمار وركبه وسار خارج البلد وأخرج الرماد وعزم عليه ورشّه في الهواء، وإذا بالقصر ظهر، فطلع القصر ونزّل الخُرج من على ظهر الحمار، وأخذ كيسَي المال، وأخرج القصبَة، وعلق فيها الصينية بالبدلة، ونادى مثل ما ينادي كل يوم: أين الفتّيان من جميع الأقطار؟ مَنْ يقدر أن يأخذ هذه البدلة؟ وعزم مثل الأول، فوضع له سمّاط فأكل، وعزم فحضر المدام بين يديه، فسكّر وأخرج طاسة فيها ماء، وعزم عليها ورشَّ منها على الحمار، وقال له: انقلب من هذه الصورة إلى صورتك الأولى. فعاد إنسانًا كما كان أولًا، فقال له: يا علي، اقبل النصيحة واكتف شري، ولا حاجة لك بزواج زينب وأخذ بدلة ابنتي، فإنها ما هي سهلة عليك، وترك الطمع أولى لك، وإلا أسحرك دبًّا أو قردًا، أو أسلّط عليك عونًا يرميك خلف جبل قاف. فقال له: يا عذرة، أنا التزمتُ بأخذ البدلة، ولا بدّ من أخذها وتسلم وإلا أقتلك. فقال له: يا علي أنت مثل الجوز، لو لم تنكسر ما تُؤكل. وأخذ طاسة فيها ماء وعزم عليها ورشَّ منها عليه وقال: كن في صورة دبّ. فانقلب دبًّا في الحال، وحط الطوق في رقبته وربط فمه ودقَّ له وتدًا من حديد، وصار يأكل ويرمي له بعض لقم، ويكب عليه فضل الكأس. فلما أصبح الصباح قام اليهودي ورفع الصينية والبدلة، وعزم على الدب فتبعه إلى دكانه، ثم قعد في الدكان وفرغ الذهب والفضة في المنقد، وربط السلسلة التي في رقبة الدب في الدكان، فصار علي يسمع ويعقل ولا يقدر أن ينطق، وإذا برجل تاجر أقبل على اليهودي وقال: يا معلم، أتبيعني هذا الدب؟ فإن لي زوجة وهي بنت عمي، قد وصفوا لها أن تأكل لحم دبّ وتندهن بشحمه. ففرح اليهودي وقال في نفسه: أبيعُه لأجل أن يذبحه

ونرتاح منه. فقال علي في نفسه: والله إن هذا يريد أن يذبحني والخلّاص عند الله. فقال اليهودي: هو من عندي إليك هدية. فأخذه التاجر ومَرَّ به على جزار، فقال له: هات العدة وتعالَ معي. فأخذ السكاكين وتبعه، ثم تقدَّم الجزار وربطه وصار يسُّ السكين، وأراد أن يذبحه، فلما رآه علي المصري قاصده، فرَّ من بين يديه وطار بين السماء والأرض، ولم يزل طائرًا حتى نزل في القصر عند اليهودي.

وكان السبب في ذلك أن اليهودي ذهب إلى القصر بعد أن أعطى التاجر الدب، فسألته بنته، فحكى لها جميع ما وقع، فقالت: أحضر عونًا وسأله عن علي المصري، هل هو هذا أو رجل غيره يعمل منصفًا؟ فعزم وأحضر عونًا وسأله: هل هذا علي المصري أم هو رجل آخر يعمل منصفًا؟ فاخطفه العون وجاء به وقال: هذا هو علي المصري بعينه، فإن الجزار كَتَفَه وسَنَّ السكين، وشرع في ذبحه، فخطفته من بين يديه وجئت به. فأخذ اليهودي طاسة فيها ماء وعزم عليها ورشَّه منها، وقال له: ارجع إلى صورتك البشرية. فعاد كما كان أولاً، فرأته قمر بنت اليهودي شابًا مليحًا، فوقعته محبته في قلبها، ووقعَتْ محبته في قلبه، فقالت له: يا مشئوم، لأي شيء تطلب بدليتي حتى يفعل بك أبي هذه الفعّال؟ فقال: أنا التزمت بأخذها لزينب النصابة لأجل أن أتزوَّج بها. فقالت له: غيرك لعب مع أبي مناصف لأجل أخذ بدليتي، فلم يتمكَّن منها. ثم قالت له: اترك الطمع. فقال: لا بد لي من أخذها ويسلم أبوك وإلا أقتله. فقال لها أبوها: انظري يا بنتي هذا المشئوم كيف يطلب هلاك نفسه؟ ثم قال له: أنا أسحرك كلبًا، وأخذ طاسة مكتوبة وفيها ماء وعزم عليها ورشَّه منها وقال له: كُنْ في صورة كلب. فصار كلبًا، وصار اليهودي يسكر هو وبنته إلى الصبح، ثم قام رفع البدلة والصينية وركب البغلة، وعزم على الكلب فتبعه، وصارت الكلاب تنبح عليه، فمرَّ على دكان سقطي، فقام السقطي منع عنه الكلاب فنام قدامه، والتفت اليهودي فلم يجده، فقام السقطي عزل دكانه، وراح بيته والكلب تابعه، فدخل السقطي داره فنظرت بنت السقطي فرأت الكلب، فغطَّت وجهها وقالت: يا أبي، أتجيء بالرجل الأجنبي فتدخله علينا؟ فقال: يا بنتي، هذا كلب. فقالت له: هذا علي المصري، سَحَرَه اليهودي. فالتفت إليه وقال له: أنت علي المصري؟ فأشار له برأسه نعم. فقال لها أبوها: لأي شيء سَحَرَه اليهودي؟ قالت له: بسبب بدلة بنته قمر، وأنا أقدر أن أخلّصه. فقال: إن كان خيرًا، فهذا وقته. فقالت: إن كان يتزوَّج بي خلّصته. فأشار لها برأسه نعم، فأخذت طاسة مكتوبة، وعزمت عليها، وإذا بصرخة عظيمة والطاسة وقعت من يدها، فالتفتت فرأت جارية أبيها هي التي صرخت وقالت لها: يا سيدتي، أهذا هو

العهد الذي بيني وبينك؟ وما أحد علمك هذا الفن إلا أنا، واتفقتِ معي أنك لا تفعلين شيئاً إلا بمشورتي، والذي يتزوّج بك يتزوّجني، وتكون لي ليلة ولك ليلة؟ قالت: نعم. فلما سمع السقطي هذا الكلام من الجارية، قال لبنته: ومَنْ علّم هذه الجارية؟ قالت له: يا أبتِ، هي التي علّمتني واسألها عن الذي علّمها. فسأل الجارية، فقالت له: اعلم يا سيدي، أنني لما كنتُ عند عذرة اليهودي، كنتُ أتسلّل عليه وهو يتلو العزيمة، ولما يذهب إلى الدكان أفتح الكتب وأقرأ فيها، إلى أن عرفتِ علّم الروحاني؛ فسكر اليهودي يوماً من الأيام وطلبني للفراش، فأبيت وقلت: لا أمكّنك من ذلك حتى تُسلم. فأبى، فقلت له: سوق السلطان. فباعني لك، وأتيت إلى منزلك، فعلمتُ سيدتي، واشترطتُ عليها ألا تفعل منه شيئاً إلا بمشورتي، والذي يتزوّج بها يتزوّجني، ولي ليلة ولها ليلة. وأخذت الجارية طاسة فيها ماء وعزمت عليها ورشتُ منها الكلب وقالت له: ارجع إلى صورتك البشرية. فعاد إنساناً كما كان أولاً، فسلمَ عليه السقطي وسأله عن سبب سحره، فحكى له جميع ما وقع له. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧١٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السقطي لما سلم على علي المصري، وسأله عن سبب سحره، وما وقع له، حكى له جميع ما جرى له. فقال له: أتكفيك بنتي والجارية؟ فقال: لا بد من أخذ زينب. وإذا بداق يدق الباب فقالت الجارية: مَنْ بالباب؟ فقالت: قمر بنت اليهودي، هل علي المصري عندكم؟ فقالت لها بنت السقطي: يا ابنة اليهودي، وإذا كان عندنا أي شيء تفعلين به؟ انزلي يا جارية افتحي لها الباب. ففتحت لها الباب فدخلت، فلما رأت علياً ورآها قال لها: ما جاء بك هنا يا بنت الكلب؟ فقالت: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فأسلمت وقالت له: هل الرجال في دين الإسلام يمهرُونَ النساء أو النساء تمهر الرجال؟ فقال لها: الرجال يمهرُونَ النساء. فقالت: وأنا جئت أمهر نفسي لك بالبدلة والقصبه والسلاسل، ودماع أبي عدوك وعدو الله. ورمت دماغ أبيها قدامه، وقالت: هذه رأس أبي عدوك وعدو الله.

وسبب قتلها أباهما أنه لما سحر علياً كلباً، رأت في المنام قائلاً يقول لها: أسلمي. فأسلمت، فلما انتهت عرضت على أبيها الإسلام فأبى، فلما أبى الإسلام بنجته وقتلته، فأخذ علي الأمتعة وقال للسقطي: في غد نجتمع عند الخليفة لأجل أن أتزوج بنتك والجارية. وطلع وهو فرحان قاصد القاعة ومعه الأمتعة، وإذا برجل حلواني يخطب على يديه ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الناس صار كدُّهم حراماً لا يروح إلا في الغش، سألتك بالله أن تذوق هذه الحلوة. فأخذ منه قطعة وأكلها فإذا فيها البنج، فبنجه وأخذ منه البدلة والقصبه والسلاسل، وحطها داخل صندوق الحلوة وحمل الصندوق وطبق الحلوة وسار، وإذا بقاضٍ يصيح عليه ويقول له: تعال يا حلواني. فوقف وحط القاعدة والطبق فوقها وقال: أي شيء تطلب؟ فقال له: حلوة وملبساً. ثم أخذ منهما في يده شيئاً وقال: إن هذه الحلوة والملبس مغشوشان. وأخرج القاضي حلوة من عبه وقال

للحلواني: انظر هذه الصنعة، ما أحسنها! فكلُّ منها واعمل نظيرها. فأخذها الحلواني فأكل منها، وإذا فيها البنج، فبنجه وأخذ القاعدة والصندوق والبدلة وغيرها، وحط الحلواني في القاعدة وحمل الجميع وتوجَّه إلى القاعة التي فيها الدنف، وكان القاضي حسن شومان، وسبب ذلك أن عليًّا لما التزم بالبدلة وخرج في طلبها، لم يسمعوا عنه خبرًا فقال أحمد الدنف: يا شباب اطلعوا فتشوا على أخيكم علي المصري. فطلعوا يفتشون عليه في المدينة، فطلع حسن شومان في صفة قاضٍ، فقابل الحلواني فعرف أنه أحمد اللقيط، فبنجه وأخذه، وصحبته البدلة، وسار به إلى القاعة.

وأما الأربعون فإنهم داروا يفتشون في شوارع البلد، فخرج علي كتف الجمل من بين أصحابه فرأى زحمة، وقصد الناس المزدحمين، فرأى عليًّا المصري بينهم مُبَنِّجًا فأيقظه من البنج، فلما أفاق رأى الناس مجتمعين عليه، فقال علي كتف الجمل: أفق لنفسك. فقال: أين أنا؟ فقال له علي كتف الجمل وأصحابه: نحن رأيانا مُبَنِّجًا، ولم نعرف مَنْ بَنِّجَكَ. فقال: بَنِّجني واحد حلواني، وأخذ مني الأمتعة، ولكن أين ذهب؟ فقالوا له: ما رأيانا أحدًا، ولكن تعال رُحْ بنا القاعة. فتوجَّهوا إلى القاعة ودخلوا فوجدوا أحمد الدنف، فسلم عليهم وقال: يا علي، هل جئتَ بالبدلة؟ فقال: جئتُ بها وبغيرها وجئتُ برأس اليهودي، وقابلني حلواني فبنَّجني وأخذها مني. وحكى له جميع ما جرى له، وقال له: لو رأيتُ الحلواني لجازيته. وإذا بحسن شومان طالع من مخدع، فقال له: هل جئتَ بالأمتعة يا علي؟ فقال له: جئتُ بها، وجئتُ برأس اليهودي، وقابلني حلواني فبنَّجني وأخذ البدلة وغيرها، ولم أعرف أين ذهب، ولو عرفت مكانه لنكيتُه؛ فهل تعرف أين ذهب ذلك الحلواني؟ فقال: أعرف مكانه. ثم قام وفتح له المخدع، فرأى الحلواني مُبَنِّجًا فيه، فأيقظه من البنج، ففتح عينيه فرأى نفسه قدام علي المصري وأحمد الدنف والأربعين، فانصرع وقال: أين أنا؟ ومَنْ قبضني؟ فقال شومان: أنا الذي قبضتك. فقال له علي المصري: يا ماكزًا، تفعل هذه الفعال؟ وأراد أن يذبحه، فقال له حسن شومان: ارفع يدك، هذا صار صهرك. فقال: صهري؟! من أين؟ فقال له: هذا أحمد اللقيط ابن أخت زينب. فقال علي: لأي شيء هكذا يا لقيط؟ فقال له: أمرتني به جدتي دليلة المحتالة، وما ذاك إلا أن زريقًا السماك اجتمع بجدتي الدليلة المحتالة وقال لها: إن عليًّا المصري شاطر بارع الشطارة، ولا بد أن يقتل اليهودي ويجيء بالبدلة. فأحضرتني وقالت لي: يا أحمد هل تعرف عليًّا المصري؟ فقلت: أعرفه، وكنت أرشدته إلى قاعة أحمد الدنف. فقالت لي: رح انصب له شَرَكك، فإن كان جاء بالأمتعة، فاعمل عليه منصفًا وخذ منه الأمتعة. فطفت في شوارع المدينة حتى رأيت حلوانيًا وأعطيته عشرة دنانير، وأخذت بدلته وحلاوته وعدته، وجرى ما جرى.

ثم إن عليًا المصري قال لأحمد اللقيط: رح إلى جدتك وإلى زريق السماك، وأعلمهما بأنني جئت بالأمّعة ورأس اليهودي، وقل لهما: غداً قابلاه في ديوان الخليفة، وخذا منه مهر زينب. ثم إن أحمد الدنف فرح بذلك، وقال: لا خابت فيك التربية يا علي. فلما أصبح الصباح، أخذ علي المصري البدلة والصينية والقصبة والسلاسل الذهب ورأس عذرة اليهودي على مزراق، وطلع إلى الديوان مع عمه وصبيانته، وقبّلوا الأرض بين يدي الخليفة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧١٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عليًا لما طلع الديوان مع عمه أحمد الدنف وصبيانهِ، قَبَلُوا الأرض بين يدي الخليفة، فالتفت الخليفة فرأى شابًا ما في الرجال أشجع منه، فسأل الرجال عنه، فقال أحمد الدنف: يا أمير المؤمنين، هذا علي الزبيق المصري رئيس فتيان مصر، وهو أول صبياني. فلما رآه الخليفة أحبه لكونه رأى الشجاعة لائحة بين عينيه تشهد له لا عليه؛ فقام علي ورمى دماغ اليهود بين يدي الخليفة، وقال له: عدوك مثل هذا يا أمير المؤمنين. فقال له الخليفة: دماغ مَنْ هذا؟ فقال له: دماغ عذرة اليهودي. فقال الخليفة: وَمَنْ قتله؟ فحكى له علي المصري ما جرى له من الأول إلى الآخر. فقال الخليفة: ما ظننتُ أنك قتلتَه؛ لأنه كان ساحرًا؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، أقَدَرَنِي ربي على قتله. فأرسل الخليفةُ الواليَ إلى القصر، فرأى اليهودي بلا رأس، فأخذه في تابوت وأحضره بين يدي الخليفة، فأمر بحرقه، وإذا بقمر بنت اليهودي أقبلت وقَبَلَت الأرض بين يدي الخليفة، وأعلمته بأنها ابنة عذرة اليهودي، وأنها أسلمت، ثم جدَّت إسلامها ثانيًا بين يدي الخليفة، وقالت له: أنت سيق على الشاطر علي الزبيق المصري أن يتزوَّجني. ووَكَّلَت الخليفةَ في زواجها بعلي، فوهب الخليفة لعلي المصري قصر اليهودي بما فيه، وقال له: تمنَّ عليّ. فقال: تمنيت عليك أن أقف على بساطك وأكل من سباطك. فقال الخليفة: يا علي، هل لك صبيان؟ فقال: لي أربعون صبيًا، ولكنهم في مصر. فقال الخليفة: أرسل إليهم ليجيئوا من مصر. ثم قال له الخليفة: يا علي، هل لك قاعة؟ قال: لا. فقال حسن شومان: قد وهبْتُ له قاعتي بما فيها يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: قاعتك لك يا حسن. وأمر الخازن دار أن يعطي المعمار عشرة آلاف دينار ليبني له قاعة بأربع لواوين وأربعين مخدعًا لصبيانهِ. وقال الخليفة: يا علي، هل بقي لك حاجة نأمر لك بقضائها؟ فقال: يا ملك الزمان، أن تكون سيقًا على الدليلة المحتالة أن تزوَّجني بنتها زينب، وتأخذ بدلة بنت اليهودي وأمتعتها في

مهرها. فقبلت دليلة سياق الخليفة وأخذت الصينية والبدلة والقصبة والسلاسل الذهب، وكتبوا كتابها عليه، وكتبوا أيضًا كتاب بنت السقطي والجارية وقمر بنت اليهودي عليه، ورتَّب له الخليفة جامكية، وجعل له سماطًا في الغداء وسماطًا في العشاء وجراية وعلوفة ومسموحًا، وشرع علي المصري في الفرح حتى كمل مدة ثلاثين يومًا.

ثم إن عليًا المصري أرسل إلى صبيانه بمصر كتابًا يذكر لهم فيه ما حصل له من الإكرام عند الخليفة، وقال لهم في المكتوب: لا بد من حضوركم لأجل أن تحصلوا الفرح؛ لأنني تزوّجتُ بأربع بنات. فبعد مدة يسيرة حضر صبيانه الأربعون، وحصلوا الفرح، فوطنهم في القاعة وأكرمهم غاية الإكرام، ثم عرضهم على الخليفة، فخلع عليهم. وجلت المواشط زينب بالبدلة على علي المصري، ودخل عليها فوجدها درة ما تُقبت، ومُهره لغيره ما رُكبت، وبعدها دخل على الثلاث بنات فوجدهن كاملات الحُسن والجمال، ثم بعد ذلك اتفق أن عليًا المصري سهر عند الخليفة ليلة من الليالي، فقال له الخليفة: مرادي يا علي أن تحكي لي جميع ما جرى لك من الأول إلى الآخر. فحكى له جميع ما جرى من الدليلة المحتالة وزينب النّصابة وزريق السماك؛ فأمر الخليفة بكتابة ذلك، وأن يجعلوه في خزانة الملك؛ فكتبوا جميع ما وقع له وجعلوه من جملة السّر لأمة خير البشر، ثم قعدوا في أرغد عيش وأهناه، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حكاية أردشير وحياة النفوس

ومما يُحكى أيضًا أيها الملك السعيد، أنه كان بمدينة شيراز ملك عظيم يُسمّى السيف الأعظم شاه، وكان قد كبر سنه ولم يُرزق ولدًا، فجمع الحكماء والأطباء وقال لهم: إني قد كبر سني وقد علمت حالي وحال المملكة ونظامها، وإني خائف على الرعية من بعدي، وإلى الآن لم أرزق ولدًا. فقالوا: نحن نصنع لك شيئًا من العقاقير يكون فيه النفع إن شاء الله تعالى. فصنعوا له شيئًا واستعمله، ثم واقعَ زوجته فحملت بإذن الله تعالى الذي يقول للشيء كن فيكون، فلما استكملتْ شهورها وضعتْ ولدًا ذكرًا مثل القمر فسماه أردشير، فكبر وانتشى وتعلّم العلم والأدب إلى أن صار له من العمر خمس عشرة سنة. وكان بالعراق ملك يُسمّى الملك عبد القادر، وكان له بنت كالبدور الطالع، وكانت تُسمّى حياة النفوس، وكانت تبغض الرجال، فلا يكاد أحد أن يذكر الرجال بحضرتها، وقد خطبها من أبيها الملوك الأكاسرة، فيكلمها أبوها فتقول: لا أفعل هذا أبدًا، وإنْ غصبتني عليه قتلتُ نفسي. فسمع ابن الملك أردشير بِذكرها فأعلم والده بذلك، فنظر إلى حاله ورقَّ له

وصار كل يوم يوعده بزواجها، ثم أرسل وزيره إلى أبيها ليخطبها فأبى، فلما رجع الوزير من عند الملك عبد القادر أخبره بما اتفق له معه، وأعلمه بعدم قضاء حاجته، فصعب ذلك على الملك واغتاز غيظاً شديداً وقال: هل مثلي يرسل إلى أحد من الملوك في حاجة فلا يقضيها؟ ثم أمر منادياً أن ينادي في العسكر بتبريز الخيام وكثرة الاهتمام، ولو بالقرض في النفقة، وقال: ما بقيت أرجع حتى أخرب ديار الملك عبد القادر، وأقتل رجاله، وأمحو آثاره، وأنهب أمواله. فلما بلغ ولده أردشير هذا الخبر، قام عن فراشه ودخل على أبيه الملك وقبّل الأرض بين يديه وقال له: أيها الملك الأعظم، لا تكلف نفسك بشيء من هذا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٢٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك لما بلغه هذا الخبر، دخل على أبيه الملك وقَبَلَ الأرض بين يديه وقال له: أيها الملك الأعظم، لا تكلف نفسك بشيء من هذا، وتجرد هذه الأبطال وهذا العسكر وتنفق مالك، فإنك أقوى منه، ومتى جَرَدْتَ عليه هذا العسكر الذي معك أخربت دياره وبلاده، وقتلت رجاله وأبطاله، ونهبت أمواله ويقتل هو أيضًا، فيبلغ ابنته ذلك مما حصل لأبيها وغيره من تحت رأسها، فتقتل نفسها وأنا أموت بسببها، ولا أعيش بعدها أبدًا. فقال له الملك: فما يكون رأيك يا ولدي؟ قال له: أنا أتوجّه في حاجتي بنفسي، وألبس لبس التجار وأتحيل في الوصول إليها، وأنظر كيف يكون قضاء حاجتي منها. فقال له أبوه: هل اخترت هذا الرأي؟ فقال له: نعم يا والدي. فدعا الملك بالوزير وقال له: سافر مع ولدي وثمرة فؤادي، وساعده على مقاصده، واحتفظ عليه ودبره برأيك الرشيد، فإنك معه عوضًا عني. فقال الوزير: سمعًا وطاعة. ثم إن الملك أعطى ولده ثلاثمائة ألف دينار من الذهب، وأعطاه جواهر وفصوصًا ومصاغًا ومتاعًا وذخائر وما أشبه ذلك. ثم إن الولد دخل إلى والدته وقَبَلَ يديها وسألها الدعاء، فدعت له، ثم قامت من ساعتها وفتحت خزانتها وأخرجت له ذخائر وقلائد ومصاغًا وملابس وتُحَفًا، وجميع الشيء الذي كان مدخرًا من عهد الملوك السالفة ممّا لا تعادله أموال. ثم أخذ معه من ممالিকে وغلमानه ودوابه جميع ما يحتاج إليه في الطريق وغيره، وتزيًا بزي التجار هو والوزير ومنّ معهما، وودّع والدته وأهله وقرائبه وساروا يقطعون البراري والقفار آناء الليل والنهار، فلما طالت عليه الطريق أنشد هذه الأبيات:

غَرَامِي مِنَ الْأَشْوَاقِ وَالسَّقَمِ زَائِدٌ وَمَا لِي عَلَى جَوْرِ الزَّمَانِ مُسَاعِدُ
أُرَاعِي الثَّرِيًّا وَالسَّمَاكَ إِذَا بَدَا كَأَنِّي مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ غَابِدُ

أَرَأَيْتَ نَجْمَ الصُّبْحِ حَتَّى إِذَا أَتَى
أُحِبُّكُمْ لَسْتُ أَحِبُّ سِوَاكُمْ
فَإِنْ عَزَّ مَا أَرْجُوهُ زَادَ بَيْنِي وَالضَّنَا
صَبَرْتُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ اللَّهُ شَمْلَنَا
أَهِيْمُ بِأَشْوَاقِي وَوَجْدِي زَائِدُ
سَقِيمُ فَوَائِدِي سَاهِرُ الْجَفْنِ وَاجِدُ
وَقَلَّ اضْطِبَّارِي بَعْدَكُمْ وَالْمُسَاعِدُ
وَتَكْمَدُ مِنْ ذَاكَ الْعِدَى وَالْحَوَاسِدُ

فلما فرغ من شعره غشي عليه ساعة، فرشَّ الوزير عليه ماء الورد، فلما أفاق قال له: يا ابن الملك صبرَ نفسك، فإن الصبر عاقبته الفرج، وها أنت سائر إلى ما تريد. ولم يزل الوزير يلاطفه ويسليه إلى أن سكن روعه وجدوا في السير، فلما طالت على ابن الملك الطريق تذكَّرَ محبوبته، فأنشد هذه الأبيات:

طَالَ الْبَعَادُ وَزَادَ الْهَمُّ وَالْقَلَقُ
وَشَابَ رَأْسِي مِمَّا قَدْ بُلِيَتْ بِهِ
أَقْسَمْتُ يَا مُنِيَّتِي يَا مُنْتَهَى أَمَلِي
سَهْلًا حَمَلْتُ عَذَابًا مِنْكَ يَا قَدْرِي
فَاسْتَخْبِرُوا اللَّيْلَ عَنِّي فَهُوَ يُخْبِرُكُمْ
وَمُهِجَتِي فِي لَهَيْبِ النَّارِ تَحْتَرِقُ
مِنْ الْغَرَامِ وَدَمْعُ الْعَيْنِ يَنْدَفِقُ
بِخَالِقِ الْخَلْقِ مِنْهَا الْغُصْنُ وَالْوَرَقُ
فَلَمْ يُطِقْ حَمَلُهُ فِي النَّاسِ مَنْ عَشَقُوا
إِنْ كَانَ جَفَنِي طَوَلَ اللَّيْلِ يَنْطَبِقُ

فلما فرغ من إنشاد شعره بكى بكاءً شديدًا مما يلاقيه من شدة الغرام، فلاطفه الوزير وسلاه ووعده ببلوغ مُناه، وساروا أيامًا قلائل حتى أشرفوا على المدينة البيضاء بعد طلوع الشمس، فقال الوزير لابن الملك: أبشِّرْ يا ابن الملك بكل خير، وانظر هذه المدينة البيضاء التي أنت طالبتها. ففرح ابن الملك بذلك فرحًا شديدًا، وأنشد هذه الأبيات:

خَلِيلِي إِنِّي مُغْرَمُ الْقَلْبِ هَائِمُ
أَنُوحُ كَمَا التُّكْلَانُ أَسْهَرَهُ الْأَسَى
وَأَنْ هَبَّتِ الْأَرْيَاحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ
وَتَنَهَلُ أَجْفَانِي كَغَيْمٍ مَوَاطِرٍ
وَوَجْدِي مُقِيمٌ وَالْغَرَامُ مُلَازِمُ
إِذَا جَنَّ لَيْلِي لَيْسَ فِي الْعِشْقِ رَاحِمُ
وَجَدْتُ لَهَا بَرْدًا عَلَى الْقَلْبِ قَائِمُ
فَفِي بَحْرِ دَمْعِي ذَا فَوَائِدِي عَائِمُ

فلما وصلا إلى المدينة البيضاء دخلها وسألا عن خان التجار ومحل أرباب الأموال، فدلَّوهما عليه، فنزلا فيه وأخذا لهما ثلاثة حواصل، فلما أخذوا المفاتيح فتحاها وأدخلا فيها بضائعهما وأمتعتهما، وأقاما حتى استراحا، ثم قام الوزير يتحيل في أمر ابن الملك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٢١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير وابن الملك لما نزلا في الخان وأدخلا بضائعهما في الحواصل وأجلسا هناك غلمانهما، ثم أقاما حتى استراحا، قام الوزير يتحيل في أمر ابن الملك فقال له: قد خطر ببالي شيء وأظن أن فيه الصلاح لك إن شاء الله تعالى. فقال له: أيها الوزير الحسن التدبير، افعل ما خطر ببالك سدد الله رأيك. قال له الوزير: أريد أن أستكري لك دكانًا في سوق البزازين وتقعدها فيها؛ لأن كل أحد من الخاص والعام يحتاج إلى السوق، وأنا أظن أنك إذا جلست في الدكان ونظر إليك الناس بالعيون، تميل إليك القلوب فتقوى على نيل المطلوب؛ لأن صورتك جميلة وتميل إليك الخواطر وتبتهج بك النواظر. فقال له: افعل ما تختار وتريد. فعند ذلك نهض الوزير من ساعته ولبس أفخر ثيابه، وكذلك ابن الملك، وأخذ في جيبه كيسًا فيه ألف دينار، ثم خرجا يمشيان في المدينة، فنظرت الناس إليهما وبهتوا في حُسن ابن الملك وقالوا: سبحان مَنْ خلق هذا الشاب من ماء مهين، فتبارك الله أحسن الخالقين. وكثر الكلام فيه وقالوا: ما هذا بشرًا، إن هذا إلا ملك كريم. ومن الناس مَنْ يقول: هل سها رضوان خازن الجنان عن باب الجنة فخرج منها هذا الغلام؟ وصارت الناس تتبعهما إلى سوق القماش حتى دخلا فيه ووقفا، فتقدم إليهما شيخ ذو هيبة ووقار، فسلم عليهما فردًا عليه السلام، ثم قال لهما: يا سادتي، هل لكم من حاجة نتشرف بقضائها؟ قال له الوزير: ومَنْ تكون أنت يا شيخ؟ قال: أنا عريف السوق. فقال له الوزير: اعلم يا شيخ أن هذا الشاب ولدي، وأنا أشتهي أن آخذ له دكانًا في هذا السوق، ليجلس فيها ويتعلم البيع والشراء والأخذ والعطاء، ويتخلق بأخلاق التجار. قال العريف: سمعًا وطاعة. ثم إن العريف أحضر لهما مفتاح دكان في الوقت والساعة، وأمر الدلالين أن يكنسوها، فكنسوها ونظفوها وأرسل الوزير أحضر من أجل الدكان مرتبة عالية محشوة بريش النعام وعليها سجادة صغيرة، ودأبها مزركش

بالذهب الأحمر، وأحضر أيضًا مخدة وأحضر من المتاع والقماش الذي حضر معه ما يملأ الدكان.

فلما كان في اليوم الثاني، حضر الغلام وفتح الدكان وجلس على تلك المرتبة وأوقف قدامه مملوكين لابسين أحسن الملابس، وأوقف في أسفل الدكان عبيدين من أحسن الحبوش، وقد أوصاه الوزير بكتمان سرّه عن الناس ليجد بذلك الإعانة على قضاء حوائجه، ثم تركه ومضى إلى المخازن، وأوصاه أن يعرفه بجميع ما يتفق له في الدكان يومًا بيوم، فصار الغلام جالسًا في دكانه كأنه البدر في تمامه، وكانت الناس تتسامع به وبحسنه، فيأتون إليه لغير حاجة ويحضرون السوق حتى ينظروا إلى حُسْنه وجماله، وقَدّه واعتداله، ويسبحون الله تعالى الذي خلقه وسَوّاه. وصار ذلك السوق لا يقدر أحد أن يشقه من فرط ازدحام الخلق عليه، وصار ابن الملك يتلفت يمينًا وشمالًا وهو متحير في أمره من الناس الذين هم باهتون له، ويترجّى أن يعمل صحبة من أحد المقربين إلى الدولة؛ لعله أن يجلب إليه ذكر ابنة الملك، فلم يجد إلى ذلك سبيلًا، وضاق صدره لذلك والوزير يمينه في كل يوم بحصول مراده، ولم يزل على هذا الحال مدة مديدة. فبينما هو جالس في الدكان يومًا من الأيام، وإذا بامرأة عجوز عليها حشمة وهيبة ووقار، وهي لابسة ثياب الصلاح وخلفها جاريتان كأنهما قمران، فوقفت على الدكان وتأملت الغلام ساعة وقالت: سبحان من خلق هذه الطلعة وأتقن هذه الصنعة. ثم إنها سلمت عليه فردّ عليها السلام وأجلسها إلى جانبه، فقالت له: من أي البلاد أنت يا مليح الوجه؟ قال لها: أنا من نواحي الهند يا أمي، وقد جئت إلى هذه المدينة على سبيل الفرجة. فقالت له: كرمت من قادم. ثم قالت له: أي شيء عندك من البضائع والمتاع والقماش؟ أرني شيئًا مليحًا يصلح للملوك. فلما سمع كلامها قال: أتريد المليح حتى أعرضه عليك؟ فإن عندي كل شيء يصلح لأربابه. قالت له: يا ولدي، أنا أريد شيئًا يكون غالي الثمن مليح الشكل، أغلى شيء يكون عندك. قال لها: لا بد أن تعلميني لمن تطلبين البضاعة؛ حتى أعرض عليك مقام الطالب. قالت: صدقت يا ولدي، أنا أريد شيئًا لسيدتي حياة النفوس بنت الملك عبد القادر صاحب هذه الأرض وملك هذه البلاد.

فلما سمع ابن الملك كلامها، طار عقله فرحًا وخفق قلبه، فمدّ يده إلى خلفه ولم يأمر مماليكه ولا عبيده، وأخرج صرة فيها مائة دينار ودفعها للعجوز وقال لها: هذه الصرة من أجل غسيل ثيابك. ثم مد يده إلى بقجة وأخرج منها حلة تساوي عشرة آلاف دينار وأكثر، وقال: هذا من جملة ما جئت به إلى أرضكم. فلما نظرت إليها العجوز أعجبتها

وقالت: بكم هذه الحلة يا كامل الأوصاف؟ فقال: بغير ثمن. فشكرته وأعادت عليه القول، فقال: والله ما أخذ لها ثمنًا بل هي هبة مني إليك إذا لم تقبله الملكة، ويكون ضيافة مني لك والحمد لله الذي جمع بيني وبينك، حتى إذا احتجت في بعض الأيام حاجة وجدتك معينة لي على قضائها. فتعجبت العجوز من حسن ذلك الكلام وكثرة كرمه وزيادة أدبه، فقالت له: ما الاسم يا سيدي؟ قال لها: أردشير. قالت: والله هذا اسم عجيب يُسمَّى به أولاد الملوك، وأنت في زي بني التجار؟! قال لها: من محبة والدي إياي سَمَّاني بهذا الاسم، وليس الاسم يدل على شيء.

فتعجبت منه العجوز وقالت: يا ولدي، خذ ثمن بضاعتك. فحلف أنه لا يأخذ شيئاً، ثم قالت العجوز: يا حبيبي، اعلم أن الصدق أعظم الأشياء، وما هذا الكرم الذي أنت تصنعه معي إلا من أجل أمر، فأعْلَمني بأمرك وضميرك لعل لك حاجة فأساعدك على قضائها. فعند ذلك حطَّ يده في يدها وعاهدَها على الكتمان، وحدثها بحديثه كله وأخبرها بمحبته لبنت الملك، وبما هو فيه من أجلها، فهزت العجوز رأسها وقالت: هذا هو الصحيح، ولكن يا ولدي قالت العقلاء في المثل السائر: إذا أردت أن تُطاع، فاسأل عما لا يُستطاع، وأنت يا ولدي اسمك تاجر، ولو كان معك مفاتيح الكنوز لا يقال لك إلا تاجر، وإذا أردت أن تُعطى درجة عالية عن درجتك، فاطلب بنت قاضٍ أو بنت أمير، فلا شيء يا ولدي ما تطلب إلا بنت ملك العصر والزمان؟ وهي بنتُ بَكْرٍ عذراء لم تعلم شيئاً من أمور الدنيا، ولا رأت في عمرها غير قَصْرها الذي هي فيه، ومع صغر سنّها فإنها عاقلة لبيبة فطنة حاذقة، ذات عقل راجح وفعل صالح ورأي قادح، وإن أباهما ما رُزِقَ إلا هي، وهي عنده أعز من روحه، وفي كل يوم يأتي إليها ويصيح عليها. وكلُّ مَنْ في قصرها يخاف منها، ولا تظن يا ولدي أن أحداً يقدر أن يكلمها بشيء من هذا الكلام؛ فلا سبيل إلى ذلك. والله يا ولدي إن قلبي وجوارحي تحبك، ومرادي لو كنت مقيماً عندها، ولكن أنا أعرفك بشيء لعل الله أن يجعل فيه شفاء قلبك، وأخاطر معك بروحي ومالي حتى أقضي لك حاجتك. فقال لها: وما هو يا أمي؟ قالت له: اطلب مني بنت وزير أو بنت أمير، فإن طلبت مني ذلك فأنا أجيبك إلى سؤالك؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يصعد من الأرض إلى السماء بوثبة واحدة. فقال لها الغلام بأدب وعقل: يا أمي، أنت امرأة عاقلة تعرفين مواقع الأمور، هل الإنسان إذا وجعته رأسه يربط يده؟ قالت: لا والله يا ولدي. قال: وهكذا إن قلبي ما يطلب أحداً سواها، ولم يقتلني غير هواها، والله إنني من الهالكين إذا لم أجد لي إرشاداً معيناً، فبالله عليك يا أمي أن ترحمني غربتي وانسكاب عَبرتي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٢٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أردشير ابن الملك قال للعجوز: بالله عليك يا أُمي أن ترحمي غربتي وانسكاب عَبرتي. قالت له: والله يا ولدي إن قلبي يتقطع من أجل كلامك هذا، وليس في يدي حيلة أفعلها. قال: أريد من إحسانك أن تحملي مني هذه الورقة وتوصلها إليها وتقبلي لي يديها؟ فحنت عليه وقالت له: اكتب فيها ما تريد وأنا أوصلها إليها. فلما سمع ذلك كاد أن يطير من الفرح، ودعا بدواة وقرطاس وكتب إليها هذه الأبيات:

يَا حَيَاةَ النُّفُوسِ جُودِي بَوَضِّلِ	لِمُحِبِّ أَذَابِهِ الْهَجْرَانُ
كُنْتُ فِي لَذَّةٍ وَفِي طَيْبِ عَيْشٍ	فَأَنَا الْيَوْمَ وَإِلَهُ حَيْرَانُ
وَلَزِمْتُ السُّهَادَ فِي طُولِ لَيْلِي	وَسَمِيرِي بِطُولِهِ أَجْنَانُ
فَارْحَمِي عَاشِقًا كَثِيبًا مُعْنَى	مِنْهُ شَوْقًا تَقَرَّحَتْ أَجْفَانُ
قَلْبِي الْقَلْبُ إِنَّ أَحْسَ بْنَشَوَّةً	فَهُوَ مِنْ قَرْقَفِ الْهُوَى نَشْوَانُ

فلما فرغ من رقم الكتاب، طواه وقبَّله وأعطى العجوز إياه، ثم مدَّ يده إلى الصندوق وأخرج لها صرة أخرى فيها مائة دينار، وأعطاهما إياها وقال لها: فرَّقِي هذه على الجواري. فامتنعت وقالت: والله يا ولدي ما أنا معك بسبب شيء من ذلك. فشكرها وقال: لا بد من ذلك. فأخذتها منه وقبَّلت يديه وانصرفت. فدخلت عليها وقالت: يا سيدتي، جئتُك بشيء ما هو عند أهل مدينتنا، وهو من عند شاب مليح ما على وجه الأرض أحسن منه. قالت: يا دايتي، ومن أين الشاب؟ قالت: هو من نواحي الهند، أعطاني هذه الحلة المنسوجة بالذهب مرصعة بالدر والجوهر تساوي ملك كسرى وقيصر. فلما فتحناها أضاء القصر من

نور تلك الحلة بسبب حُسْن صنعتها وكثرة الفصوص والجواهر التي فيها، فتعجَّب منها كلُّ مَنْ في القصر، وتأمَّلَها بنت الملك فلم تجد لها قيمة ولا ثمنًا إلا خراج مُلْك أبيها عامًّا كاملاً، فقالت للعجوز: يا دايتي، هل هذه الحلة من عنده أم من عند غيره؟ قالت: هي من عنده. قالت: يا دايتي، هل هذا التاجر من مدينتنا أم غريب؟ قالت: هو غريب يا سيدتي، وما نزل مدينتنا إلا عن قريب، وهو والله صاحب حشم وخدم، مليح الوجه، معتدل القَدِّ، كريم الأخلاق، واسع الصدر، ما رأيت أحسن منه إلا أنتِ. قالت بنت الملك: إن هذا الشيء عجيب، كيف تكون هذه الحلة التي لا يفي بثمنها مالٌ مع تاجر من التجار؟ وما قدر ثمنها الذي أخبرك به يا دايتي؟ فقالت العجوز: والله يا سيدتي ما أخبرني بمقدار ثمنها، وإنما قال: لا آخذ لها ثمنًا، وإنما هي هدية مني لابنة الملك، فإنها لا تصلح لأحد غيرها. وردَّ الذهب الذي أرسلته معي وحلف أنه لا يأخذه وقال: هو لك إن لم تقبله الملكة. قالت بنت الملك: والله ما هذا إلا سماح عظيم وكرم جزيل، وأخشى من عاقبة أمره، ربما يؤدي إلى ضرر، فلأني شيء لم تسألني يا دايتي إن كان له حاجة تقضيها له؟ فقالت: يا سيدتي، سألته وقلت له: هل لك حاجة؟ فقال لي حاجة، ولم يُطْلِعني عليها، إلا أنه قد أعطاني هذه الورقة وقال لي: قَدِّمِها للملكة. فأخذتها منها وفتحتها وقرأتها إلى آخرها، فتغيَّرَ حالها، وغاب صوابها، واصفرَّ لونها، وقالت للعجوز: ويلك يا دايتي، ما يقال لهذا الكلب الذي يقول هذا الكلام لبنت الملك؟ وما المناسبة بيني وبين هذا الكلب حتى يكاتبنني؟ والله العظيم رب زمزم والحطيم، لولا أنني أخاف الله تعالى لأبعثن إلى هذا الكلب بتكثيف يديه، وشرم مناخيره، وقطع أنفه وأذنه، وأمثَّل به، وبعد هذا أصلبه على باب السوق الذي فيه دكانه. فلما سمعت العجوز الكلام، اصفرَّ لونها، وارتعدت فرائصها، وانعقد لسانها، ثم قوَّت قلبها وقالت: خيرًا يا سيدتي، وما في الورقة حتى أزعجك؟ هل هو غير قصة رفعها إليك تتضمن شكاية حاله من فقر أو ظلم يرجو بها إحسانك إليه أو كشف ظلامته؟ قالت: لا والله يا دايتي، بل هو شعر وكلام مستهجن، ولكن يا دايتي هذا الكلب ما يخلو من ثلاثة أحوال: إما أن يكون مجنونًا ليس عنده عقل، وإما أن يكون قاصدًا قتل نفسه أو مستعينًا على مراده مني بذي قوة شديدة وسلطان عظيم، وإما أن يكون سمع بأني من بغايا هذه المدينة التي تبیت عند مَنْ يطلبها ليلةً أو ليلتين، حتى يرأسني بالأشعار المستهجنة ليفسد عقلي بذلك الأمر. قالت لها العجوز: والله يا سيدتي، لقد صدقت، ولكن لا تعتني بهذا الكلب الجاهل، فأنتِ قاعدة في قصرك العالي المشيد المنيع الذي لا تعلوه الطيور ولا يمر عليه الهواء وهو حائر، ولكن اكتبني له كتابًا ووبِّخه فيه ولا تتركي له

شيئاً من أنواع التوبيخ، وهُدّيه غاية التهديد، واعرضي عليه الموت وقولي له: من أين تعرفني حتى تكاتبني يا كلب التجار؟ يا مَنْ هو طول دهره مشَتَّت في البراري والقفار على درهم يكتسبه أو دينار، والله إن لم تنتبه من رقدتك وتصح من سكرتك، لأصلبك على باب السوق الذي فيه دكانك. قالت بنت الملك: إني أخاف إن كاتبتَه أن يطمع. قالت العجوز: وما مقداره؟ وما درجته حتى يطمع فينا؟ وإنما نكتب له لأجل أن ينقطع طمعه ويكثر خوفه. ولم تزل تتحيّل على بنت الملك حتى أحضرت دواة وقرطاساً وكتبت إليه هذه الأبيات:

يَا مُدْعِي الْحُبِّ وَالْبُلُوَى مَعَ السَّهَرِ	تَقْضِي اللَّيَالِي فِي وَجْدٍ وَفِي فِكْرِ
أَتَطْلُبُ الْوَصْلَ يَا مَغْرُورَ مَنْ قَمَرٍ	وَهَلْ يَنَالُ الْمُنَى شَخْصٌ مِنَ الْقَمَرِ
إِنِّي نَصَحْتُكَ فِي الْأَقْوَالِ مُسْتَمِعًا	أَقْصِرْ فَإِنَّكَ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْخَطَرِ
فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى هَذَا السُّؤَالِ فَقَدْ	أَتَاكَ مِنَّا عَذَابٌ زَائِدُ الضَّرَرِ
فَكُنْ أَدِيبًا لَبِيبًا عَاقِلًا فَطِنًا	هَا قَدْ نَصَحْتُكَ فِي شِعْرِي وَفِي خَبْرِي
وَحَقٌّ مَنْ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ مِنْ عَدَمٍ	وَزَانَ وَجْهَ السَّمَاءِ بِالْأَنْجُمِ الزُّهْرِ
لَيْنُ رَجَعْتَ إِلَى مَا أَنْتَ قَائِلُهُ	لَأَصْلِبَنَّكَ فِي جِدْعٍ مِنَ الشَّجَرِ

ثم طوت الكتاب وأعطت العجوز إياه، فأخذته وسارت إلى أن وصلت إلى دكان الغلام فأعطته إياه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

